

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
دار الكتب

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القطبي

الجزء الثالث عشر



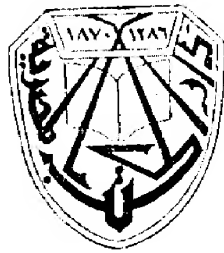
القاهرة
مطبعة دار الكتب
١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
دار الكتب

المنافع الحِكَمِيَّة من القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء السابع عشر



القاهرة
مطبعة دار الكتب
١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

بيان

تم تحقيق هذا الجزء (الرابع عشر) من تفسير القرطبي،
على الأصول الآتية :

- | | | |
|-------|-------------|---|
| (١) | نسخة رقم ٩٥ | تفسير، المرموز إليها بحرف ا |
| (٢) | » ٢٦٨ » | » » » » ب |
| (٣) | » ٢٨٣ » | » » » » ج |
| (٤) | » ١ » | » حلیم » » ح |
| (٥) | » ٢٥٨ » | بالمكتبة الأزهرية، المرموز إليها بحرف ز |
| (٦) | » ٥١٣ » | تفسير، المرموز إليها بحرف ش |
| (٧) | » ٣١٨ » | » » » » ط |
| (٨) | » ٩٣ » | » » » » ك |

وقد وصفت هذه النسخ جميعها في مقدمة الجزء الثالث (الطبعة الثانية)

الاثنين } ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ هـ
١٤ — بنمبر سنة ١٩٦٤ م }
أحمد عبد العليم البردوني حقه

فهرس الجزء الرابع عشر

سورة الروم

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « الهم . غلبت الروم ... » الآيات . بيان ما وقع بين فارس
والروم ومراهنه أبى بكر رضى الله عنه . سبب غلبة الروم فارس ... ١
- تفسير قوله تعالى : « أولم يتفكروا فى أنفسهم ... » الآيات . توبيخ المشركين
لأنهم لم يتفكروا ولم يتعظوا . بيان عاقبتهم وعاقبة المؤمنين ... ٨
- تفسير قوله تعالى : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » . بيان أن الآية
خطاب للمؤمنين بالأمر بالعبادة ، والحض على الصلاة فى أوقاتها ... ١٤
- تفسير قوله تعالى : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ... » الآيات . بيان آيات
الله تعالى فى خلق الإنسان . المعنى المراد من المودة والرحمة التى بين الرجل
والمرأة . الكلام على اختلاف الألسنة والألوان ... ١٦
- تفسير قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا ... » الآيات . الأمر باتباع الدين
الحنيف . اختلاف العلماء فى معنى « الفطرة » ... ٢٤
- تفسير قوله تعالى : « فأت ذا القربى حقه والمسكين ... » الآية . الأمر بإيتاء
ذى القربى حقه من الصدقة ، وأن خير الصدقة ما كان على القريب ... ٣٥
- تفسير قوله تعالى : « وما آتيتم من ربا ... » الآية . الكلام على المكافأة فى الهبة ... ٣٦
- تفسير قوله تعالى : « ظهر الفساد فى البر والبحر ... » الآيات . الاختلاف فى معنى
الفساد فى البر والبحر ... ٤٠
- تفسير قوله تعالى : « فانظر إلى آثار رحمة الله ... » الآيات . الاستدلال بإحياء
الأرض على إحياء الموتى ... ٤٥

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « الله الذى خلقكم من ضعف ... » الآية . الاستدلال على قدرة
الله تعالى بتطور حال الإنسان من الضعف إلى القوة ، ثم من القوة إلى الضعف ... ٤٦
تفسير قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة » ... الآيات ... ٤٧

سورة لقمان

- تفسير قوله تعالى : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ... » المعنى المراد من
« لهو الحديث » . استدلال العلماء بهذه الآية على كراهة الغناء والمنع منه . بيان
ما ورد من الآثار فى ذمه . ما أبيع من الغناء . الاشتغال به سفه ترد به الشهادة .
جواز سماع الرجل غناء جاريتيه ... ٥١
تفسير قوله تعالى : « خلق السموات بغير عمد ... » الآيات ... ٥٨
تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة ... » الآيات . الكلام على نسب
« لقمان » ، وهل كان حكيما أم نبيا . الاختلاف فى صناعته . شئ من حكمه .
نهى لقمان ابنه عن الشرك . الكلام على طاعة الأبوين . الاختلاف فى مدة
الرضاع . صلة الأبوين الكافرين . وصية لقمان لابنه ... ٥٩
تفسير قوله تعالى : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات ... » الآيات .
ذكر ما أنعم الله به على بنى آدم ، وبيان النعم الظاهرة والباطنة . توبيخ
المشركين على مجادلهم فى الله تعالى ... ٧٣
تفسير قوله تعالى : « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن ... » الآيات ... ٧٤
تفسير قوله تعالى : « ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام ... » الآيات . بيان
أن معانى كلام الله تعالى لا تنفذ . بيان المراد بكلمات الله ... ٧٦
تفسير قوله تعالى : « ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ... » الآيات ... ٧٨
تفسير قوله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة ... » الآية . بيان مفاتيح الغيب
الخمس التى لا يعلمها إلا الله تعالى ... ٨٢

سورة السجدة

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ... » الآيات . القول في معنى
- « يدبر الأمر » ومعنى عروجه . الكلام على اليوم الذي مقداره ألف سنة ... ٨٦
- تفسير قوله تعالى : « وقالوا أئذا ضللنا في الأرض ... » الآيات . إنكار الكفار
- للبعث . بيان ما في « ضل » من اللغات . الرد على الكفار في استبعادهم البعث .
- الكلام على توفى الأنفس ... ٩١
- تفسير قوله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ... » القول في هداية الخلق .
- ٩٦ تفسير قوله تعالى : « نتجافى جنوبهم عن المضاجع ... » الآية . المراد بتجافى الجنوب .
- القيام لصلاة النوافل بالليل . بيان ما ورد في فضل ذلك من الأحاديث ... ٩٩
- تفسير قوله تعالى : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ... » نفي المساواة بين المؤمن
- والكافر . احتج العلماء بهذه الآية على أبي حنيفة في قتله المسلم بالذمى ... ١٠٥
- تفسير قوله تعالى : « أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » الآيات . بيان ما أعد
- للؤمنين والكافرين في الآخرة . الكلام على العذاب الأدنى والعذاب الأكبر ... ١٠٦
- تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب ... » الآيات ... ١٠٨

سورة الأحزاب

بيان أنها نزلت في المنافقين وإيذانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطعنهم فيه وفي مناحكته .

- تفسير قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ ... » الآيات .
- الزجر عن اتباع مراسم الجاهلية والأمر بجهادهم ... ١١٣
- تفسير قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قابلين في جوفه ... » الآيات . الكلام
- على سبب نزول هذه الآية . حقيقة القلب . ذكر خبر زيد بن حارثة . الكلام
- على التبنّي ومن أدعى إلى غير أبيه ... ١١٦

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ... » الآية . بيان أن هذه الآية أزاله أحكاما كانت في صدر الإسلام . بيان أن الله تعالى جعل أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم أمهات للمؤمنين تشريفا لهم . اختلف في كونهن كالأمهات في المحرم وإباحة النظر . بيان أن المسلمين كانوا يتوارثون بالهجرة ثم نسخ ذلك بالتوارث بالأرحام ... ١٢١
- تفسير قوله تعالى : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ... » الآية . بيان ما أخذ من المواثيق على الأنبياء عليهم السلام ... ١٢٦
- تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أذكروا نعمة الله عليكم ... » الآيات . الكلام على غزوة الخندق وفي أي سنة كانت . سببها وما كان فيها من آيات النبوة . ما تضمنته من أحكام . ابتلاء المؤمنين بالقتال والجوع والخوف . أمر المنافقين لهم بالفرار والرجوع إلى منازلهم ... ١٢٨
- تفسير قوله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ... » الآية . بيان أن هذا عتاب للمخلفين عن القتال . الاختلاف في هذه الأسوة بالرسول ، هل هي على الإيجاب أو على الاستحباب ... ١٥٥
- تفسير قوله تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ... » الآية . الكلام على من وفي بعهده حتى قتل . معنى « النجيب » ... ١٥٨
- تفسير قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا ... » الآيات . بيان السبب الذي أوجب تخيير الرسول صلوات الله عليه زوجاته . الكلام على أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم ، من دخل بها ، ومن عقد عليها ولم يدخل بها ، ومن خطبها فلم يتم نكاحه معها . سراريه صلى الله عليه وسلم . بيان أن التخيير والطلاق المعلقين على شرط صحيحان . اختلاف العلماء في كيفية تخيير النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه . أقوال العلماء في المخيرة إذا اختارت زوجها وهل يكون ذلك طلاقا ، ومتى يكون لها الخيار ... ١٦٢

- تفسير قوله تعالى : « يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة ... » الآيات . لما كان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في مهبط الوحي لزمهن بسبب مكاتبتن أكثر مما يلزم غيرهن . معنى « الضعفين » ... ١٧٣
- تفسير قوله تعالى : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن أتقنين ... » الآيات . نهى الله أمهات المؤمنين عن مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه . أمرهن بملازمة البيوت ، ونهين عن التبرج . اختلاف الناس في الجاهلية الأولى . الرد على من طعن في أم المؤمنين عائشة في أنها خالفت أمر الرسول صلوات الله عليه حين خرجت في وقعة الجمل . اختلاف العلماء في أهل البيت من هم . أمر أمهات المؤمنين بذكر الكتاب والحكمة والمراد بالذكر ... ١٧٧
- تفسير قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ... » الآية . الكلام على سبب نزول هذه الآية . بيان أن لفظة « ما كان ، وما ينبغي » معناها الحظر والمنع . في الآية دليل على أن الكفاءة لا تعتبر في الأحساب بل في الأديان . لا يجوز لأحد أن يختار غير ما اختاره الله ورسوله ... ١٨٦
- تفسير قوله تعالى : « وإذا تقول للذي أنعم الله عليه ... » الآيات . لو كان النبي صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي لكتّم هذه الآية . اختلاف العلماء في تأويلها . قصة زواج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش . زواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بدون عقد ولا صداق . نسب زيد وبيان فضله . في الآية دليل على ثبوت الولي في النكاح ... ١٨٨
- تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ... » الآية . بيان أن المطلقة قبل الدخول لا عدّة عليها . بيان أن لا طلاق إلا بعد نكاح . أقوال العلماء فيمن طلق امرأته طلاقاً رجعيّاً أو بائناً ... ٢٠٢
- تفسير قوله تعالى : « يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك ... » الآية . بيان ما أحل الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من النساء . من وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله

صفحة

- عليه وسلم . الاختلاف في تحريم الحزوة الكافرة عليه . الاختلاف في النكاح
 بلفظ الهبة . بيان ما خص به صلى الله عليه وسلم منزلة على الأمة... ٢٠٥ ...
 تفسير قوله تعالى : « ترجى من تشاء منهمن ... » الآية . اختلاف العلماء في تأويل
 هذه الآية . الكلام على القسم بين الزوجات والعدل بينهما ... ٢١٤ ...
 تفسير قوله تعالى : « لا يحل لك النساء من بعد ... » الآية . أقوال العلماء في تأويل
 هذه الآية . الدليل على جواز النظر إلى المخطوبة . اختلاف فيما يجوز أن ينظر
 منها . اختلاف العلماء في إحلال الأمة الكافرة للنبي صلى الله عليه وسلم ... ٢١٩ ...
 تفسير قوله تعالى : « يأيا الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن
 لكم ... » الآية . بيان أن الآية تضمنت الأدب في أمر الطعام والجلوس
 وأمر الحجاب . نهى الله المؤمنين عن دخول بيت النبي صلى الله عليه وسلم بغير
 إذن وانتظار نضح الطعام . اختلاف في بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته
 هل هي ملك لأمهات المؤمنين . حرص عمر رضى الله عنه على نزول الحجاب .
 إذن الله في مسألة أمهات المؤمنين من وراء حجاب فيما يعرض من المسائل ؛
 ويدخل في هذا جميع النساء . استدلل بعض العلماء بهذه الآية على جواز شهادة
 الأعمى . من خصائصه صلى الله عليه وسلم تحريم نكاح أزواجه من بعده .
 اختلاف في أزواجه صلى الله عليه وسلم بعد موته هل بقين أزواجا ، أم زال
 النكاح بالموت ، وهل عليهن عدة ... ٢٢٣ ...
 تفسير قوله تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على النبي ... » الآية . بيان تعظيم
 قدر النبي صلى الله عليه وسلم . بيان أن الأمر بالصلاة عليه فرض في العمر مرة .
 اختلاف الآثار في صفة الصلاة عليه ، فضل الصلاة عليه . اختلاف العلماء
 في الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في الصلاة ... ٢٣٢ ...

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الروم

سورة الروم مكية كلها من غير خلاف، وهي ستون آية

قوله تعالى : **الْم . غُلِبَتِ الرُّومُ** ^(١) **فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ**
مِنْ بَعْدٍ غَالِبُهُمْ سَيَغْلِبُونَ ^(٢) **فِي بَضْعِ سِنِينَ** **لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ**
بَعْدٍ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ^(٣) **بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ**
الرَّحِيمُ ^(٤)

قوله تعالى : **(الْم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ)** روى الترمذى عن أبى سعيد
الخدري قال : لما كان يوم بدرٍ ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت :
« **الْم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ** — إلى قوله — **يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . يَنْصُرُ اللَّهُ** » .
قال : ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس . قال : هذا حديث غريب من هذا الوجه .
هكذا قرأ نصر بن على الجهضمي « **غُلِبَتِ الرُّومُ** » . ورواه أيضا من حديث ابن عباس
بأنهم منه . قال ابن عباس في قول الله عز وجل : « **الْم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ** » قال :
غُلِبَتِ وَغُلِبَتِ ، قال : كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل
أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ، فذكره لأبي بكر
فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « **أما إنهم سيغلبون** » فذكره أبو بكر لهم
فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا ، فإن ظهرنا كان لنا كذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا
فجعل أجل خمس سنين ، فلم يظهرُوا ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : « **ألا جعلته**

(١) في نسخة الترمذى : « هذا حديث حسن غريب ... » .

إلى دون» — أراه قال العشر — قال قال أبو سعيد: واليضع ما دون العشرة. قال: ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله «الْمَ غُلِبَتِ الرُّومُ» — إلى قوله — وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . يَنْصُرُ اللَّهُ . قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب . ورواه أيضا عن نيار بن مُكرم الأسلمي قال: لما نزلت «الْمَ غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ» وكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: «وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» وكانت قریش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضى الله عنه يصيح في نواحي مكة: «الْمَ غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ» . قال ناس من قریش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبك أن الروم ستغاب فارس في بضع سنين! أفلا تراهنك على ذلك؟ قال: بلى . وذلك قبل تحريم الرهان، فأرتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الزهان. وقالوا لأبي بكر: كم تجعل اليضع؟ ثلاث سنين أو تسع^(١) سنين؟ فسم بيننا وبينك وسطا تنتهي إليه؛ قال فسما بينهم ست سنين؛ قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين، قال: لأن الله تعالى قال «فِي بِضْعِ سِنِينَ» قال: وأسلم عند ذلك ناس كثير . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب . وروى القشيري وابن عطية وغيرهما: أنه لما نزلت الآيات خرج أبو بكرها إلى المشركين فقال: أسرتم أن غلبت الروم؟ فإن نبينا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون في بضع سنين . فقال له أبي بن خلف وأمية أخوه — وقيل أبو سفيان ابن حرب — : يا أبا فصيل! — يعرضون بكنته «يا أبا بكر» — فلستناحب — أى تراهن

(٢) الفصل: ولد النافذة إذا فصل عن أمه .

(١) في جورك: «أربع» .

في ذلك فراهنهم أبو بكر . قال قتادة : وذلك قبل أن يحرم القمار ، وجعلوا الزهان خمس قلائص^(١) والأجل ثلاث سنين . وقيل : جعلوا الزهان ثلاث قلائص . ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : ” فهلا احتطت ، فإن البضع ما بين الثلاث والتسع والعشر ! ولكن أرجع فزدهم في الزهان واستزدهم في الأجل “ ففعل أبو بكر ، فجعلوا القلائص مائة والأجل تسعة أعوام ؛ فغلبت الروم في أثناء الأجل . وقال الشعبي : فظهروا في تسع سنين . القشيري : المشهور في الروايات أن ظهور الروم كان في السابعة من غلبة فارس للروم ، ولعل رواية الشعبي تصحيف من السبع إلى التسع من بعض النقلة . وفي بعض الروايات : أنه جعل القلائص سبعا إلى تسع سنين . ويقال : إنه آخر فتوح كسرى أبرويز فتح فيه القسطنطينية حتى بنى فيها بيت النار ؛ فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءه ذلك ، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين . وحكى النقاش وغيره : أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما أراد الهجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم تعلق به أبي بن خلف وقال له : أعطني كفيلا بالخطر إن غلبت ؛ فكفل به ابنه عبد الرحمن ، فلما أراد أبي الخروج إلى أحد طلبه عبد الرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلا ، ثم مات أبي بمكة من جرح جرحه النبي صلى الله عليه وسلم ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديدية على رأس تسع سنين من مناجبتهم . وقال الشعبي : لم تمض تلك المدة حتى غلبت الروم فارس ؛ وربطوا خيلهم بالمدائن ، وبنوا رومية ؛ فقمّر أبو بكر^(٢) وأخذ مال الخطر من ورثته ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ” تصدق به “ فتصدق به . وقال المفسرون : إن سبب غلبة الروم فارس امرأة كانت في فارس لا تلد إلا الملوك والأبطال ، فقال لها كسرى : أريد أن أستعمل أحد بنيك على جيش أجهزه إلى الروم ؛ فقالت : هذا هُرْمُزُ أَرَوْغ من ثعلب وأحذر من صقر ، وهذا قَرْخَان أحد من سنان وأنفذ من نبل ، وهذا^(٣) شهر بزان أحلم من كذا ، فأختر ؛ قال فأختار الحليم وولاه ، فسار إلى الروم بأهل فارس فظهر على

(١) في ج : « الزهان » . (٢) القلائص : جمع القلوص ، وهي الفتية من الإبل . (٣) الخطر (بالتحريك) : الزهن ، وما يتخاطر عليه . (٤) قرت الرجل : غلبته . (٥) راجع هذا الخبر في تاريخ الطبري (ج ٤) ص ١٠٠ . (٦) هكذا ورد في كتب التفسير . والذي في تاريخ الطبري : « شهر بزان » .

الروم . قال عكرمة وغيره : إن شهر بزان لما غلب الروم حرب ديارها حتى بلغ الخليج ، فقال أخوه فرخان : لقد رأيتني جالسا على سرير كسرى ؛ فكتب كسرى إلى شهر بزان أرسل إلى برأس فرخان فلم يفعل ؛ فكتب كسرى إلى فارس : إني قد استعملت عليكم فرخان وعزرات شهر بزان ، وكتب إلى فرخان إذا ولي أن يقتل شهر بزان ؛ فأراد فرخان قتل شهر بزان فأخرج له شهر بزان ثلاث صحائف من كسرى يأمره بقتل فرخان ، فقال شهر بزان لفرخان : إن كسرى كتب إلى أن أقتلك ثلاث صحائف وراجعتك أبدا في أمرك ، أفقتلني أنت بكتاب واحد ؟ فرد المثلك إلى أخيه ، وكتب شهر بزان إلى قيصر ملك الروم فتعاونوا على كسرى ، فغلبت الروم فارس ومات كسرى . وجاء الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ففرح من معه من المسلمين ؛ فذلك قوله تعالى : « أَلَمْ . غَلَبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ » يعني أرض الشام . عكرمة : بأذرعات ، وهي ما بين بلاد العرب والشام . وقيل : إن قيصر كان بعث رجلا يدعى يحنس وبعث كسرى شهر بزان فالتقيا بأذرعات وبصرى وهي أدنى بلاد الشام إلى أرض العرب والعجم . مجاهد : بالجزيرة ، وهو موضع بين العراق والشام . مقاتل : بالأردن وفلسطين . و « أدنى » معناه أقرب . قال ابن عطية : فإن كانت الواقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة ، وهي التي ذكرها امرؤ القيس في قوله :

تنويرتها من أذرعات وأهلها * بيثرب أدنى دارها نظرا عال

وإن كانت الواقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى ، وإن كانت بالأردن فهي أدنى إلى أرض الروم . فلما طرأ ذلك وغلبت الروم سر الكفار فبشر الله عباده بأن الروم سيغلبون وتكون الدولة لهم في الحرب .

وقد مضى الكلام في فواتح السور . وقرأ أبو سعيد الخدري وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن قرة « غَلَبَتِ الرُّومُ » بفتح الغين واللام . وتأويل ذلك أن الذي طرأ يوم بدر إنما كانت الروم غلبت فعز ذلك على كفار قريش وسر بذلك المسلمون ، فبشر الله تعالى عباده أنهم سيغلبون أيضا في بضع سنين ؛ ذكر هذا التأويل أبو حاتم . قال أبو جعفر النحاس :

قراءة أكثر الناس « غَلِبَت الروم » بضم الغين وكسر اللام . وروى عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري أنهما قرأا « غَلَبَت الروم » وقرأ « سَيُغْلِبُونَ » . وحكى أبو حاتم أن عصمة روى عن هارون : أن هذه قراءة أهل الشام ، وأحمد بن حنبل يقول : إن عصمة هذا ضعيف ، وأبو حاتم كثير الحكاية عنه ، والحديث يدل على أن القراءة « غَلِبَت » بضم الغين ، وكان في هذا الإخبار دليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الروم غلبتها فارس ، فأخبر الله عز وجل نبيه بهذا صلى الله عليه وسلم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، وأن المؤمنين يفرحون بذلك ، لأن الروم أهل كتاب ، فكان هذا من علم الغيب الذي أخبر الله عز وجل به مما لم يكن [علموه ^(١)] ، وأمر أبا بكر أن يراهمهم على ذلك وأن يبألغ في الرهان ، ثم حُرِّم الرهان بعدُ ونُسِخ بتحریم القمار . قال ابن عطية : والقراءة بضم الغين أصح ، وأجمع الناس على « سَيُغْلِبُونَ » أنه بفتح الياء ، يراد به الروم . وروى عن ابن عمر أنه قرأ أيضا بضم الياء ^(٢) في « سَيُغْلِبُونَ » ، وفي هذه القراءة قلب للمعنى الذي تظاهرت الروايات به . قال أبو جعفر النحاس : ومن قرأ « سَيُغْلِبُونَ » فالمعنى عنده : وفارس من بعد غلبهم ، أى من بعد أن غلبوا ، سَيُغْلِبُونَ . وروى أن إيقاع الروم بالفارس كان يوم بدر ، كما في حديث أبي سعيد الخدري حديث الترمذى ، وروى أن ذلك كان يوم الحديبية ، وأن الخبر وصل يومبيعة الرضوان ، قاله عكرمة وقتادة . قال ابن عطية : وفي كَلَا اليومين كان نصر من الله للمؤمنين . وقد ذكر الناس أن سبب سرور المسلمين بغلبة الروم وهمتهم أن تغلب إنما هو أن الروم أهل كتاب كالمسلمين ، وفارس ^(٣) من أهل الأوثان ، كما تقدم بيانه في الحديث . قال النحاس : وقول آخر وهو أولى — أن فرحهم إنما كان لإنجاز وعد الله تعالى ، إذ كان فيه دليل على النبوة لأنه أخبر تبارك وتعالى بما يكون في بضع سنين فكان فيه . قال ابن عطية : ويشبهه أن يعال ذلك بما يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدو الأصغر لأنه أيسر مئونة ، ومتى غلب الأكبر كثرا لحوف منه ، فتأمل هذا المعنى ، مع ما كان رسول الله

(١) زيادة عن النحاس . (٢) في ك : بفتح الياء . (٣) في ش : « كالمسلمين ، فهم أقرب من أهل الأوثان ... » .

صلى الله عليه وسلم ترجاه من ظهور دينه وشرع الله الذى بعثه به وغلبته على الأمم ، وإرادة كفار مكة أن يرميه الله بملك يستأصله ويرمحهم منه . وقيل : سرورهم إنما كان بنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين ؛ لأن جبريل أخبر بذلك النبي عليه السلام يوم بدر ، حكاه القشيري .

قلت : ويحتمل أن يكون سرورهم بالمجموع من ذلك ، فسروا بظهورهم على عدوهم و بظهور الروم أيضا وبإنجاز وعد الله . وقرأ أبو حيوة الشامي ومحمد بن السميع « من بعد غلبهم » بسكون اللام ، وهما لغتان ؛ مثل الظعن والظعن . وزعم الفراء أن الأصل « من بعد غلبتهم » فحذفت التاء كما حذفت في قوله عز وجل « وَإِقَامَ الصَّلَاةِ » وأصله وإقامة الصلاة . قال النحاس : « وهذا غلط لا يجبل^(١) على كثير من أهل النجوى ؛ لأن « إقام الصلاة » مصدر قد حذفت منه لاعتلال فعله ، بفعلت التاء عوضا من المحذوف ، و « غلب » ليس بمعتل ولا حذفت منه شيء . وقد حكى الأصمعي : طَرَدَ طَرْدًا ، وَجَلَبَ جَلَبًا ، وَحَابَ حَلَبًا ، وَغَلَبَ غَلَبًا ، فَأَيَّ حَذَفَ فِي هَذَا ، وَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ فِي أَكَلَ أَكْلًا وَمَا أَشْبَهَهُ — : حَذَفَ مِنْهُ ؟ .
(فِي بَضْعِ سِنِينَ) حذفت الهاء من « بضع » فرقا بين المذكر والمؤنث ، وقد مضى الكلام فيه في « يوسف » . وفتحت التون من « سِنِينَ » لأنه جمع مسلم . ومن العرب من يقول « في بضع سنين » كما يقول في « غَسَلِينَ » . وجاز أن يُجمع سنة بجمع من يعقل بالواو والتون والياء والتون ؛ لأنه قد حذفت منها شيء بفعل هذا الجمع عوضا من النقص الذي في واحده ؛ لأن أصل « سنة » سنهة أو سنة ، وكسرت السين منه دلالة على أن جمعه خارج عن قياسه ونمطه ؛ هذا قول البصريين . ويلزم الفراء أن يضمها لأنه يقول : الضمة دليل على الواو وقد حذفت من سنة واو في أحد القولين ، ولا يضمها أحد علمناه .

قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أخبر تعالى بأفراده بالقدرة وأن ما في العالم من غلبة وغيرها إنما هي منه وإرادته وقدرته فقال « لله الأمر » أى إفاذا الأحكام .

(١) أى لا يشكل ، وهو من أخال الشيء أشبهه . (٢) راجع ج ٩ ص ١٩٧ .

« مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » أى من قبل هذه الغلبة ومن بعدها . وقيل : من قبل كل شيء ومن بعد كل شيء . و « مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » ظرفان بنيا على الضم ؛ لأنهما تعزفا بحذف ما أضيفا إليهما وصارا متضمنين ما حذف نخالفا تعريف الأسماء وأشبهها الحروف فى التضمين فبذا ، وخصا بالضم لشبههما بالمنادى المفرد فى أنه إذا نكروا أضيف زال بناءؤه ، وكذلك هما فضاء . ويقال : « من قبل ومن بعد » . وحكى الكسائى عن بعض بنى أسد « لَيْلَةُ الْأَمْرِ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » الأول مخفوض منون ، والثانى مضموم بلا تنوين . وحكى الفراء « مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ » مخفوضين بغير تنوين . وأنكره النحاس وردّه . وقال الفراء فى كتابه : فى القرآن أشياء كثيرة ، الغلط فيها بين ، منها أنه زعم أنه يجوز « من قبل ومن بعد » وإنما يجوز « من قبل ومن بعد » على أنهما نكرتان . قال الزجاج : المعنى من متقدم ومن متأخر . (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . يَنْصُرُ اللَّهُ) تقدم ذكره . (يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ) يعنى من أوليائه ؛ لأن نصره مختص بغلبة أوليائه لأعدائه ، فأما غلبة أعدائه لأوليائه فليس بنصره ، وإنما هو ابتلاء وقد يسمى ظفرا . (وَهُوَ الْعَزِيزُ) فى رفقته (الرَّحِيمُ) لأهل طاعته .

قوله تعالى : وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ) لأن كلامه صدق . (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) وهم الكفار وهم أكثر . وقيل : المراد مشركو مكة . وانتصب « وَعَدَ اللَّهُ » على المصدر ؛ أى وعد ذلك وعدا . ثم بين تعالى مقدار ما يعلمون فقال : (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يعنى أمر معاشهم ودنياهم : متى يزرعون ومتى يحصدون ، وكيف يغرسون وكيف يبنون ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة . وقال الضحاك : هو بيان قصورها ، وتشقيق أنهارها وغرس أشجارها ؛ والمعنى واحد . وقيل : هو ما تلقى الشياطين إليهم من أمور الدنيا

عند استراقهم السمع من سماء الدنيا؛ قاله سعيد بن جبير . وقيل : الظاهر والباطن ؛ كما قال في موضع آخر « أَمْ بَظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ^(١) » .

قلت : وقول ابن عباس أشبه بظاهر الحياة الدنيا ، حتى لقد قال الحسن : بلغ والله من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقد الدرهم فيخبرك بوزنه ولا يحسن أن يصلي . وقال أبو العباس المبرد : قسم كسرى أيامه فقال : يصلح يوم الرياح للنوم ، ويوم الغيم للصيد ، ويوم المطر للشرب واللهو ، ويوم الشمس للخواج . قال ابن خالويه : ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا . (وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ) أي عن العلم بها والعمل لها (هُمْ غَافِلُونَ) قال بعضهم :

ومن البلية أن ترى لك صاحباً * في صورة الرجل السميع المبصر

فطن بكل مصيبة في ماله * وإذا يصاب بدينه لم يشعر

قوله تعالى : أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ^{فَقَدْ} مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ^{فَقَدْ} وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾

قوله : (فِي أَنْفُسِهِمْ) ظرف للتفكر وليس بمفعول ، تعدى إليه « يَتَفَكَّرُوا » بحرف جر ؛ لأنهم لم يؤمروا أن يتفكروا في خلق أنفسهم ، إنما أمروا أن يستعملوا التفكير في خلق السموات والأرض وأنفسهم ، حتى يعلموا أن الله لم يخلق السموات وغيرها إلا بالحق . قال الزجاج : في الكلام حذف ، أي فاعلموا ؛ لأن في الكلام دليلا عليه . (إِلَّا بِالْحَقِّ) قال الفراء : معناه إلا للحق ؛ يعني الثواب والعقاب . وقيل : إلا لإقامة الحق . وقيل : « بِالْحَقِّ » بالعدل . وقيل : بالحكمة ؛ والمعنى متقارب . وقيل : « بِالْحَقِّ » أي أنه هو الحق ولحق خلقها ، وهو الدلالة على توحيده وقدرته . (وَأَجَلٍ مُّسَمًّى) أي للسموات والأرض أجل

يتهميان إليه وهو يوم القيامة . وفي هذا تنبيه على الفناء ، وعلى أن لكل مخلوق أجلا ، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء . وقيل : « وَأَجَلٌ مُّسَمًّى » أى خلق ما خلق فى وقت سماه لأن يخلق ذلك الشيء فيه . (وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ) اللام للتوكيد ، والتقدير : لكافرون بقاء ربهم ، على التقديم والتأخير ؛ أى لكافرون بالبعث بعد الموت . وتقول : إن زيدا فى الدار لجالس . ولو قلت : إن زيدا لفى الدار لجالس جاز . فإن قلت : إن زيدا جالس لفى الدار لم يجوز ؛ لأن اللام إنما يؤتى بها توكيدا لاسم إن وخبرها ، وإذا جئت بهما لم يجوز أن تأتى بها . وكذا إن قلت : إن زيدا لجالس لفى الدار لم يجوز .

قوله تعالى : **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِهِمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا**) ببصائرهم وقلوبهم . (**كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ**) أى قلبوها للزراعة ؛ لأن أهل مكة لم يكونوا أهل حث ؛ قال الله تعالى : « **تُثِيرُ الْأَرْضَ** » ^(١) . (**وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا**) أى وعمروها أولئك أكثر مما عمروها هؤلاء فلم تنفعهم عمارتهم ولا طول مدتهم . (**وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ**) أى بالمعجزات . وقيل : بالأحكام فكفروا ولم يؤمنوا . (**فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِهِمْ**) بأن أهلكهم بغير ذنب ولا رسل ولا حجة . (**وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**) بالشرك والعصيان .

قوله تعالى : **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَعَاؤِ السَّوْءِ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ**

اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ آسَاءُوا السُّوءَى ﴾ السُّوءَى فُعِلَ من السوء تأنيث الأسوا وهو الأقيح ، كما أن الحسنى تأنيث الأحسن . وقيل : يعنى بها هاهنا البار ؛ قاله ابن عباس . ومعنى « آسأوا » أشركوا ؛ دل عليه « أن كذبوا بآيات الله » . « السُّوءَى » : اسم جهنم ؛ كما أن الحسنى اسم الجنة . ﴿ أَنَّ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى لأن كذبوا ؛ قاله الكسائى . وقيل : بأن كذبوا . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ » بالرفع اسم كان ، وذكرت لأن تأنيثها غير حقيقى . و« السُّوءَى » خبر كان . والباقون بالنصب على خبر كان . « السُّوءَى » بالرفع اسم كان . ويجوز أن يكون اسمها التكذيب ؛ فيكون التقدير : ثم كان التكذيب عاقبة الذين آسأوا ؛ أو صفة لمحذوف ؛ أى الخلة السُّوءَى . وروى عن الأعمش أنه قرأ « ثم كان عاقبة الذين آسأوا السُّوءَى » برفع السوء . قال النحاس : السوء أشد الشر ؛ والسُّوءَى الفعل منه . ﴿ أَنَّ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ قيل بحمد القرآن ؛ قاله الكلبي . مقاتل : بالعذاب أن ينزل بهم . الضحالك : بمعجزات محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

قوله تعالى : اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾

قرأ أبو عمرو وأبو بكر « يرجعون » بالياء . الباقون بالتاء . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمَى « يُبْلِسُ » بفتح اللام ؛ والمعروف فى اللغة : أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته ، ولم يؤمل أن يكون له حجة . وقريب منه : تحيّر ، كما قال العجاج :

يا صاح هل تعرفُ رَسْمًا مُكْرَسًا * قال نعم أعرفه وأبلسا^(١)

(١) المكرس : الذى قد بعثت فيه الإبل و بؤلت فركب بعضه بعضا .

وقد زعم بعض النحويين أن إبليس مشتق من هذا ، وأنه أبلس لأنه أنقطع حجته .
 النحاس : ولو كان كما قال لوجب أن ينصرف ، وهو في القرآن غير منصرف . الزجاج :
 المبلس الساكت المنقطع في حجته ، البأس من أن يهتدى إليها . (ولم يكن لهم من شركائهم)
 أى ما عبدوه من دون الله (شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين) قالوا ليسوا بألهة فتبرءوا منها
 وتبرأت منهم ؛ حسبما تقدم في غير موضع .

قوله تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئذٍ يَنفَرُقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئذٍ يَنفَرُقُونَ) يعنى المؤمنين من الكافرين ؛
 ثم بين كيف تفرقهم فقال : (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا) قال النحاس : سمعت الزجاج يقول :
 معنى « أما » دع ما كنا فيه وخذ في غيره . وكذا قال سيبويه : إن معناها مهما كما في شيء
 نخذ في غير ما كنا فيه . (فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ) قال الضحاك : الروضة الجنة ، والرياض
 الجنان . وقال أبو عبيد : الروضة ما كان في تسفل ، فإذا كانت مرتفعة فهي ترعة . وقال
 غيره : أحسن ما تكون الروضة إذا كانت في موضع مرتفع غليظ ؛ كما قال الأعشى :
 مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزَنِ مُعْشَبَةٌ * خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسِيلٌ هَاطِلٌ ^(٢)
 يَضَاحِكُ الشَّمْسَ مِنْهَا كَوَكَبٌ شَرِيقٌ * مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَمِلٌ ^(٣)
 يَوْمًا بِأَطْيَبَ مِنْهَا نَشْرَ رَائِحَةٍ * وَلَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا إِذْ دَنَا الْأَصْلُ ^(٤)

إلا أنه لا يقال لها روضة إلا إذا كان فيها نبت ، فإن لم يكن فيها نبت وكانت مرتفعة فهي
 ترعة . وقد قيل في الترعة غير هذا . وقال القشيري : والروضة عند العرب ما ينبت حول

(١) في ش ر ج « مهما يكن » . (٢) رياض الحزن أحسن من رياض الخفوض لارتفاعها .
 (٣) قوله : « يضحك الشمس » أى يدور معها حيثما دارت . وكوكب كل شيء . معظمه ؛ والمراد هنا الزهر . ومؤزر :
 مفعل من الإزار . والشرق : الريان المنلى . ماء . والعيم : الثام السن . والمكتمل : الذى قد بلغ وتم . (٤) النشرة : الرائحة
 الطيبة . والأصل : جمع أصيل ؛ وخص هنا الوقت لأن النبت يكون فيه أحسن ما يكون لباعد الشمس والنفى عنه .

الغدير من البقول ؛ ولم يكن عند العرب شيء أحسن منه . الجوهرى : والجمع رَوْض
ورِياض ، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها . والزوض : نحو من نصف القربة ماء .
وفي الحوض رَوْضة من ماء إذا غطى أسفله . وأنشد أبو عمرو :
* وَرَوْضَةٌ سَقِيَتْ مِنْهَا نَضْوِي^(١) *

(يُجْبَرُونَ) قال الضحاك وابن عباس : يُكْرَمُونَ ، وقيل ينعمون ؛ وقاله مجاهد وقناة .
وقيل يسرون . السدى : يفرحون . والحبرة عند العرب : السرور والفرح ؛ ذكره الماوردى .
وقال الجوهرى : الحبر : الحُبور وهو السرور ؛ ويقال : حبره يحبره (بالضم) حبرا وحبرة ؛
قال تعالى : « فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ » أى ينعمون ويكرمون ويسرون . ورجل يحبور يفعل
من الحبور . النحاس : وحكى الكسائى حبرته أى أكرمه ونعمته . وسمعت على بن سليمان
يقول : هو مشتق من قولهم : على أسنانه حبرة أى أثر ؛ فـ « يجبرون » يتبين عليهم أثر النعم .
والحبر مشتق من هذا . قال الشاعر :

لا تملأ الذلّاء وعرق^(٢) فيها * أما ترى حبار^(٣) من يسقيها

وقيل : أصله من التحبير وهو التحسين ؛ فـ « يُجْبَرُونَ » يحسنون . يقال : فلان حسن الحبر
والسبر إذا كان جميلا حسن الهيئة . ويقال أيضا : فلان حسن الحبر والسبر (بالفتح) ؛ وهذا
كأنه مصدر قولك : حبرته حبرا إذا حسنته . والأول أسم ؛ ومنه الحديث : " يخرج رجل من
النار ذهب حبره وسبره " وقال يحيى بن أبى كثير « فى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ » قال : السماع فى الجنة ؛
وقاله الأوزاعى ، قال : إذا أخذ أهل الجنة فى السماع لم تبق شجرة فى الجنة إلا رددت الغناء^(٤)
بالسبح والتقديس . وقال الأوزاعى : ليس أحد من خلق الله أحسن صوتا من إسرافيل ،
فإذا أخذ فى السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم . زاد غير الأوزاعى :
ولم تبق شجرة فى الجنة إلا رددت ، ولم يبق ستر ولا باب إلا ارتج وأنفتح ، ولم تبق حلقة

(٢) الجبر : الناعم من الرجال .

(١) النضو : الدابة التى أمزأتها الأسفار .

(٤) السماع : الغناء .

(٣) أمرقت الكأس وعزفتها : أفلتت ماءها .

الاطنت بألوان طينها ، ولم تبق أجمة من آجام الذهب إلا وقع أهبوب الصوت في مقاصبها
 فزمرت تلك المقاصب بفنون الزمر ، ولم تبق جارية من جوار الحور العين إلا غنت بأغانيها ،
 والطير بألحانها ، ويوحى الله تبارك وتعالى إلى الملائكة أن جاوبوهم وأسمعوا عبادى الذين
 نزهوا أسماعهم عن مزامير الشيطان فيجاوبون بألحان وأصوات روحانيين فتختلط هذه
 الأصوات فتصير رجة واحدة ، ثم يقول الله جل ذكره : يا داود قم عند ساق عرشى فجدنى ؛
 فيندفع داود بتمجيد ربه بصوت يغمر الأصوات ويحلبها وتتضاعف اللذة ؛ فذلك قوله تعالى :
 « فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ » . ذكره الترمذى الحكيم رحمه الله . وذكر الثعلبى من حديث
 أبى الذرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذكر الناس ؛ فذكر الجنة وما فيها من
 الأزواج والنعيم ؛ وفى أنحريات القوم أعرابى فقال : يا رسول الله ، هل فى الجنة من سماع ؟
 فقال : « نعم يا أعرابى ! إن فى الجنة أنهارا حافتاه الأبقار من كل بيضاء نحسانية يتغنين
 بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلهما قط فذلك أفضل نعيم الجنة » فسأل رجل أبا الذرداء :
 بماذا يتغنين ؟ فقال : بالتسبيح . والنحسانية : المرهفة الأعلى ، النحسانية البطن ، الضخمة
 الأسفل .

قلت : وهذا كله من النعيم والسرور والإكرام ؛ فلا تعارض بين تلك الأقوال . وأين هذا
 من قوله الحق : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » على ما يأتى . وقوله عليه السلام :
 « فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » . وقد روى : « إن فى الجنة
 لأشجارا عليها أجراس من فضة ، فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحا من تحت العرش
 فتقع فى تلك الأشجار فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربا » .
 ذكره الزمخشري .

(١) فى ك : « ويحلبها » بالخاء المهملة . وفى كتاب التذكرة : « ويحلبها » بالخاء المعجمة .

(٢) راجع ص ١٠٣ من هذا الجزء . (٣) فى الأصول : « الأجراس » .

قوله تعالى : **وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ** ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** ﴾ تقدم الكلام فيه . ﴿ **وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ** ﴾ أى بالبعث . ﴿ **فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ** ﴾ أى مقيمون . وقيل : مجموعون . وقيل : معذبون . وقيل : نازلون ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ **إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ** ﴾ أى نزل به ؛ قاله ابن شجرة ، والمعنى متقارب .

قوله تعالى : **فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ** ﴿١٧﴾
وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ **فَسُبْحَانَ اللَّهِ** ﴾ الآية فيه ثلاثة أقوال : الأول - أنه خطاب للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحض على الصلاة في هذه الأوقات . قال ابن عباس : الصلوات الخمس في القرآن ؛ قيل له : أين ؟ فقال : قال الله تعالى ﴿ **فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ** ﴾ صلاة المغرب والعشاء « **وَحِينَ تُمْسُونَ** » صلاة الفجر « **وَعَشِيًّا** » العصر « **وَحِينَ تُظْهِرُونَ** » الظهر ؛ وقاله الضحاك وسعيد بن جبير . وعن ابن عباس أيضا وقتادة : أن الآية تنبيه على أربع صلوات : المغرب والصبح والعصر والظهر ؛ قالوا : والعشاء الآخرة هي في آية أخرى في ﴿ **وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ** ﴾ وفي ذكر أوقات العورة . وقال النحاس : أهل التفسير على أن هذه الآية « **فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ** » في الصلوات . وسمعت علي بن سليمان يقول : حقيقته عندي : فسبحوا الله في الصلوات ، لأن التسبيح يكون في الصلاة ؛ وهو القول الثاني . والقول الثالث - فسبحوا الله حين تمسون وحين تصبحون ؛ ذكره الماوردي . وذكر القول

الأول ، ولفظه فيه : فصلوا لله حين تمسون وحين تصبحون . وفي تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان : أحدهما — لما تضمنها من ذكر التسبيح في الركوع والسجود . الثاني — مأخوذ من السبحة والسبحة الصلاة ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : ” تكون لهم سبحة يوم القيامة “ أى صلاة .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ اعتراض بين الكلام بدءوب الحمد على نعمه وآلائه . وقيل : معنى « وَلَهُ الْحَمْدُ » أى الصلاة له لاختصاصها بقراءة الحمد . والأول أظهر ؛ فإن الحمد لله من نوع تعظيم الله تعالى والحض على عبادته ودوام نعمته ؛ فيكون نوعا آخر خلاف الصلاة ، والله أعلم . وبدأ بصلاة المغرب لأن الليل يتقدم النهار . وفي سورة « سبحان » بدأ بصلاة الظهر إذ هى أول صلاة صلاها جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم . الماوردي : وخص صلاة الليل باسم التسبيح وصلاة النهار باسم الحمد لأن للإنسان في النهار متقلبا في أحوالٍ توجب حمد الله تعالى عليها ، وفي الليل على خلوة توجب تنزيه الله من الأسواء فيها ؛ فلذلك صار الحمد بالنهار أخص فسميت به صلاة النهار ، والتسبيح بالليل أخص فسميت به صلاة الليل .

الثالثة — قرأ عكرمة « حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ » والمعنى : حيناً تمسون فيه وحيناً تصبحون فيه ؛ فحذف « فيه » تخفيفاً ، والقول فيه كالقول في « وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا » . (وعشياً) قال الجوهرى : العشي والعشية من صلاة المغرب إلى العتمة ؛ تقول : أتيت عشيبة أمس وعشي أمس . وتصغير العشي : عشيان ، على غير [قياس] مكبره ؛ كأنهم صغروا عشياً ، والجمع عُشَيَّات . وقيل أيضاً في تصغيره : عُشَيْشَيَّان ، والجمع عُشَيْشَيَّات . وتصغير العشيبة عُشَيْشِيَّة ، والجمع عُشَيْشِيَّات . والعشاء (بالكسر والمد) مثل العشي . والعشاءان المغرب والعتمة . وزعم قوم أن العشاء من زوال الشمس إلى طلوع الفجر ، وأنشدوا :

غدونا غدوة سحرا بليلى * عشاء بعد ما أنتصف النهار

(١) راجع ج ١٠ ص ٢١٠ . (٢) راجع ج ١ ص ٣٧٧ فابعد . (٣) من ك . (٤) في ج : « والعشاء » .

الماوردي: والفرق بين المساء والعشاء: أن المساء بدؤ الظلام بعد المغيب ، والعشاء آخر النهار عند ميل الشمس للغيب ، وهو مأخوذ من عشا العين وهو نقص النور من الناظر كنقص نور الشمس .

قوله تعالى : يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

بين كمال قدرته ، أي كما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها ، كذلك يحييكم بالبعث .
وفي هذا دليل على صحة القياس ؛ وقد مضى في « آل عمران » بيان « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ » .^(١)

قوله تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَلَوَاتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُتُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ) أى من علامات ربوبيته ووَحدانيته أن خلقكم من تراب ، أى خلق أباكم منه والفرع كالأصل ، وقد مضى بيان هذا فى « الأنعام » .
و « أن » فى موضع رفع بالابتداء وكذا « أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا » .

(ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ) ثم أنتم عقلاء ناطقون تنصرفون فيما هو قوام معاشكم ، فلم يكن ليخلقكم عبثاً ، ومن قدر على هذا فهو أهل للعبادة والتسبيح . ومعنى : (خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) أى نساء تسكنون إليها . (مِنْ أَنْفُسِكُمْ) أى من نطف الرجال ومن جنسكم . وقيل : المراد حواء ، خلقها من ضلع آدم ، قاله قتادة . (وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) قال ابن عباس ومجاهد : المودة الجماع ، والرحمة الولد ، وقاله الحسن . وقيل : المودة والرحمة عطفت قلوبهم بعضهم على بعض . وقال السدى : المودة : المحبة ، والرحمة : الشفقة ، ورؤى معناه عن ابن عباس قال : المودة حب الرجل امرأته ، والرحمة رحمته إياها أن يصيبها بسوء . ويقال : إن الرجل أصله من الأرض ، وفيه قوة الأرض ، وفيه الفرج الذى منه بدئ خلقه فيحتاج إلى سكن ، وخالقت المرأة سكناً للرجل ، قال الله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ » الآية . وقال : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا » فأول ارتفاع الرجل بالمرأة سكونه إليها مما فيه من غليان القوة ، وذلك أن الفرج إذا تحمل فيه هيج ماء الصلب إليه ، فإليها يسكن وبها يتخلص من الهياج ، وللرجال خلق البضع منهم ، قال الله تعالى : « وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا » (١) فأعلم الله عز وجل الرجال أن ذلك الموضع خلق منهم للرجال ، فعليها بذله فى كل وقت يدعوها الزوج ، فإن منعه فهو ظالمه وفى حرج عظيم ، ويكفيك من ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها » . وفى لفظ آخر : « إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها المسلائكة حتى تصبح » . (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) تقدم

(١) راجع ج ٦ ص ٣٨٧ . (٢) كذا فى الأصل . (٣) راجع ج ١٣ ص ١٣٢ .

(١) في « البقرة » وكانوا يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق . (وَأَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ)
 اللسان في الفم ؛ وفيه اختلاف اللغات : من العربية والعجمية والتركية والرومية . واختلاف
 الألوان في الصور : من البياض والسواد والحمرة ؛ فلا تكاد ترى أحداً إلا وأنت تفرق بينه
 وبين الآخر . وليس هذه الأشياء من فعل النطفة ولا من فعل الأبوين ؛ فلا بد من فاعل ،
 فعلم أن الفاعل هو الله تعالى ؛ فهذا من أدل دليل على المدبر البارئ . (إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِّعَالَمِينَ)^(٢) أى للبر والفاجر . وقرأ حفص : « لِّلْعَالَمِينَ » بكسر اللام جمع عالم .
 (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) قيل : في هذه الآية تقديم وتأخير ، والمعنى :
 ومن آياته منامكم بالليل وابتغائكم من فضله بالنهار ؛ فحذف حرف الجر لاتصاله بالليل
 وعطفه عليه ، والواو تقوم مقام حرف الجر إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر
 خاصة ؛ بفعل النوم بالليل دليلاً على الموت ، والتصرف بالنهار دليلاً على البعث . (إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) يريد سماع تفهم وتدبر . وقيل : يسمعون الحق فيتبعونه . وقيل :
 يسمعون الوعظ فيخافونه . وقيل : يسمعون القرآن فيصدقونه ؛ والمعنى متقارب . وقيل :
 كان منهم من إذا تلى القرآن وهو حاضر سدّ أذنيه حتى لا يسمع ؛ فبين الله عز وجل هذه
 الدلائل عليه . (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا) قيل : المعنى أن يريكم ، فحذف
 « أن » لدلالة الكلام عليه ؛ قال طرفة :

ألا أيّ هذا اللائمي أحضر الوغى * وأن أشهد اللذات هل أنت مخدّى

وقيل : هو على التقديم والتأخير ؛ أى ويريك البرق من آياته . وقيل : أى ومن آياته
 آية يريكم بها البرق ؛ كما قال الشاعر :

وما الدهر إلا تارتان فنهما * أموت وأنحرى أبتغى العيش أكدح

وقيل : أى من آياته أنه يريكم البرق خوفاً وطمعا من آياته ؛ قاله الزجاج ، فيكون
 عطف جملة على جملة . (خَوْفًا) أى للمسافر . (وَطَمَعًا) للقيم ؛ قاله قتادة . الضحاك :

(١) راجع ج ١ ص ٢٥١ . (٢) بفتح اللام قراءة نافع ، وبها كان يقرأ المؤلف .

(٣) هو ابن مقبل ؛ كما في شواهد سيويه والخرانة .

« خَوْفًا » من الصواعق ، « وَطَمَعًا » في الغيث . يحيى بن سلام : « خَوْفًا » من البرد أن يهلك الزرع ، « وَطَمَعًا » في المطر أن يحيى الزرع . ابن بحر : « خَوْفًا » أن يكون البرق بَرْقًا خُلْبًا لا يُمْطَر ، « وَطَمَعًا » أن يكون ممطرًا ؛ وأنشد قول الشاعر :

لا يَكُنْ بَرْقُكَ بَرْقًا خُلْبًا * إن خير البرق ما الغيث معه

وقال آخر :

فقد أريد المياه بغير زاد * سوى عدى لها برق الغمام
والبرق الخُلْب : الذى لا غيث فيه كأنه خادع ؛ ومنه قيل لمن يعد ولا يُجْزى : إنما أنت كبرق خُلْب . والخُلْب أيضا : السحاب الذى لا مطر فيه . ويقال : بَرْقُ خُلْب ، بالإضافة . ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . تقدم . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ « أَنْ » فى محل رفع كما تقدم ؛ أى قيامها واستمسكها بقدرته بلا عمد . وقيل : بتدبيره وحكمته ؛ أى يمسكها بغير عمد لمنافع الخلق . وقيل : « بِأَمْرِهِ » بإذنه ؛ والمعنى واحد . ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ أى الذى فعل هذه الأشياء قادر على أن يبعثكم من قبوركم ؛ والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث ؛ كما يجيب الداعى المطاع مدعوهُ ؛ كما قال القائل :
دَعَوْتُ كُلِّيًّا بِأَسْمِهِ فَكَأَنَّمَا * دعوت برأس الطود أو هو أسرع^(١)

يريد برأس الطود : الصدى أو الحجر إذا تدهده . وإنما عطف هذا على قيام السموات والأرض بـ « ثُمَّ » اعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله ، وهو أن يقول : يا أهل القبور قوموا ؛ فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر ؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ نَفْخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ »^(٢) . و « إِذَا » الأولى فى قوله تعالى :

(١) رواية البيت كما فى اللسان :

دهوت جليدا دعوة فكأنما * دعوت به ابن الطود أو هو أسرع

قال : وابن الطود : الجلود الذى يتدهدى من الطود . والطود : الجبل العظيم . وتدهده الحجر : تدرج . فى كتاب ما يقول عليه : دعوت خليدا ... بالخاء المعجمة .

(٢) راجع ج ١٥ ص ٢٧٩ .

« إِذَا دَعَاكُمْ » للشرط ، والثانية في قوله تعالى : « إِذَا أَنْتُمْ » لل مفاجأة ، وهى تنوب مناب الفاء في جواب الشرط . وأجمع القراء على فتح التاء هنا في « تَخْرُجُونَ » . واختلفوا في التى فى « الأعراف » فقرأ أهل المدينة : « ومنها تخرجون » بضم التاء ، وقرأ أهل العراق : بالفتح ، وإليه يميل أبو عبيد . والمعنيان متقاربان ، إلا أن أهل المدينة فزقوا بينهما لنسق الكلام ، فنسق الكلام فى التى فى « الأعراف » بالضم أشبه ؛ إذ كان الموت ليس من فعلهم ، وكذا الإخراج . والفتح فى سورة الروم أشبه بنسق الكلام ؛ أى إذا دعاكم خرجتم أى أطعتم ؛ فالفعل [بهم]^(٢) أشبه . وهذا الخروج إنما هو عند نفخة إسرافيل النفخة الآخرة ؛ على ما تقدم ويأتى . وقرئ : « تخرجون » بضم التاء وفتحها ، ذكره الزمخشري ولم يزد على هذا شيئاً ، ولم يذكر ما ذكرناه من الفرق ، والله أعلم . ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا وعبدا . ﴿ كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ روى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كل قنوت فى القرآن فهو طاعة » . قال النحاس : مطيعون طاعة آتقياد . وقيل : « قَانِتُونَ » مقترنون بالعبودية ، إما قالة وإما دلالة ؛ قاله عكرمة وأبو مالك والسدى . وقال ابن عباس : « قَانِتُونَ » مصلون . الربيع بن أنس : « كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ » أى قائم يوم القيامة ؛ كما قال : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »^(٣) أى للحساب . الحسن : كل له قائم بالشهادة أنه عبد له . سعيد بن جبير : « قَانِتُونَ » مخلصون .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ
وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾
قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أما بدء خلقه فبعloقه فى الرحم قبل ولادته ، وأما إعادته فإحيائه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث ؛ فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلا على ما ينهى من إعادته ؛ استدلالا بالشاهد على الغائب ، ثم أكد ذلك بقوله

(١) راجع ج ٧ ص ١٨١ فما بعد .

(٢) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس .

(٣) راجع ج ١٩ ص ٢٥٢ .

(وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وقرأ ابن مسعود وابن عمر: «يَبْدِئُ الْخَلْقَ» من أبدأ يبدئ؛ دليله قوله تعالى: «إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيَعِيدُ»^(١) . ودليل قراءة العامة قوله سبحانه: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ»^(٢) . و«أَهْوَنُ» بمعنى هين؛ أى الإعادة هين عليه؛ قاله الربيع بن خثيم والحسن . فأهون بمعنى هين؛ لأنه ليس شيء أهون على الله من شيء . قال أبو عبيدة: ومن جعل أهون يعبر عن تفضيل شيء على شيء فقلوه مردود بقوله تعالى: «وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» وبقوله: «وَلَا يَتُودُهُ حِفْظُهُمَا» . والعرب تحمل أفعال على فاعل، ومنه قول الفرزدق:

إِن الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا * يَتَنَا دَعَائِمُهُ أَعَزَّ وَأَطْوَلُ
أى دعائمه عزيزة طويلة . وقال آخر^(٣):

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِى وَإِنِى لَأَوْجَلُ * عَلَى أَيْنَا تَعُدُّو الْمُنِيَّةَ أَوَّلُ
أراد: إنى لوجل . وأنشد أبو عبيدة أيضا:

إِنِى لَأَمْنَحُكَ الصَّدُودَ وَإِنِى * قَسَمًا إِلَيْكَ مَعَ الصُّدُودِ لَأُمِيلُ^(٤)
أراد لمائل . وأنشد أحمد بن يحيى:

تَمَنَّى رِجَالُ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أُمْتُ * فَتِلْكَ سَبِيلُ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدٍ
أراد بواحد . وقال آخر:

لَعَمْرُكَ إِنِ الزَّبْرَقَانَ لِبَازِلُ * لِمَعْرُوفِهِ عِنْدَ السَّيْنِ وَأَفْضَلُ

أى وفاضل . ومنه قولهم: الله أكبر؛ إنما معناه الله الكبير . وروى معمر عن قتادة قال: في قراءة عبد الله بن مسعود «وهو عليه هين» . وقال مجاهد وعكرمة والضحاك: إن المعنى أن الإعادة أهون عليه - أى على الله - من البداية؛ أى أيسر، وإن كان جميعه على الله تعالى هينا؛ وقاله ابن عباس . ووجهه أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعباده؛ يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه؛ فينبغى أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٩٤ . (٢) راجع ج ٧ ص ١٨٧ فابعد .

(٣) القائل هو معن بن أوس . (٤) البيت للأحوص بن محمد الأنصارى .

أَهَوْنَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِنْسَاءِ . وقيل : الضمير في «عَلَيْهِ» للمخلوقين ؛ أى وهو أهون عليه ، أى على الخلق ، يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ويقال لهم : كونوا فيكونون ؛ فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفًا ثم علقًا ثم مضغًا ثم أجنة ثم أطفالًا ثم غلمانًا ثم شبانًا ثم رجالًا أو نساء . وقاله ابن عباس وقطرب . وقيل : أهون أسهل ؛ قال :

وهان على أسماء أن شطت النوى * يحن إليها والله ويتوق

أى سهل عليها ، وقال الربيع بن خثيم في قوله تعالى : « وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » قال : ما شئ على الله بعزير . عكرمة : تعجب الكفار من إحياء الله الموتى فنزلت هذه الآية . (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) أى ما أراداه جلّ وعزّ كان . وقال الخليل : المثل الصفة ؛ أى وله الوصف الأعلى (فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) كما قال : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ » أى صفتها . وقد مضى الكلام في ذلك . وعن مجاهد : « الْمَثَلُ الْأَعْلَى » قول لا إله إلا الله ؛ ومعناه : أى الذى له الوصف الأعلى ، أى الأرفع الذى هو الوصف بالوحدانية . وكذا قال قتادة : إن المثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله ؛ ويعضده قوله تعالى : « ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ » على ما نبينه آنفاً إن شاء الله تعالى . وقال الزجاج : « وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى قوله : « وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل ؛ يريد التفسير الأول . وقال ابن عباس : أى ليس كمثلته شئ . (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) تقدم .

قوله تعالى : ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ تَخِيفَتَكُمْ أَنْفُسُكُمْ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

(١) راجع ج ٩ ص ٣٢٤ .

(٢) راجع ج ١ ص ٢٨٧ . وج ٢ ص ١٣١ .

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : **(مِنْ أَنْفُسِكُمْ)** ثم قال : **(مِنْ شُرَكَاءِ)** ؛ ثم قال : **(مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)** فـ « من » الأولى للابتداء ؛ كأنه قال : أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهى أنفسكم . والثانية للتبعيض ، والثالثة زائدة لتأكيد الاستفهام . والآية نزلت فى كفار قريش ، كانوا يقولون فى التلبية : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ؛ قاله سعيد بن جبیر . وقال قتادة : هذا مثل ضربه الله للمشركين ؛ والمعنى : هل يرضى أحدكم أن يكون مملوكه فى ماله ونفسه مثله ، فإذا لم ترضوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم لله شركاء .

الثانية — قال بعض العلماء : هذه الآية أصل فى الشراكة بين المخلوقين لانتقار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه ، وذلك أنه لما قال جل وعز : **« ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ »** الآية ، فيجب أن يقولوا : ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقنا ! فيقال لهم : فكيف يتصور أن تنزهوا نفوسكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدى شركائى فى خلقى ؛ فهذا حكم فاسد وقلة نظر وعمى قلب ! فإذا بطلت الشراكة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة والخلق كلهم عبيد لله تعالى فيبطل أن يكون شيء من العالم شريكاً لله تعالى فى شيء من أفعاله ؛ فلم يبق إلا أنه واحد يستحيل أن يكون له شريك ، إذ الشراكة تقتضى المعاونة ، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضاً بالمال والعمل ؛ والقديم الأزلى منزّه عن ذلك جل وعز .

وهذه المسألة أفضل للطالب من حفظ ديوان كامل فى الفقه ؛ لأن جميع العبادات البدنية لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة فى القلب ، فافهم ذلك .

قوله تعالى : **بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : **(بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)** لما قامت عليهم الحجة ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم فى عبادتها وتقليد الأسلاف فى ذلك . **(فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ)** أى لا هادى لمن أضله الله تعالى . وفى هذا رد على القدرية . **(وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)** .

قوله تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ) فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال الزجاج : « فِطْرَةَ » منصوب بمعنى أتبع فطرة الله . قال : لأن معنى « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ » أتبع الدين الحنيف وأتبع فطرة الله . وقال الطبري : « فِطْرَةَ اللَّهِ » مصدر من معنى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ » لأن معنى ذلك : فطر الله الناس على ذلك فِطْرَةَ . وقيل : معنى ذلك أتبعوا دين الله الذي خلق الناس له ؛ وعلى هذا القول يكون الوقف على « حَنِيفًا » تاما . وعلى القولين الأولين يكون متصلا ، فلا يوقف على « حَنِيفًا » . وسميت الفِطْرَةُ دِينًا لأن الناس يُخْلَقُونَ له ، قال جل وعز : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »^(١) . ويقال : « عَلَيْهَا » بمعنى لها ؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا »^(٢) . والخطاب بـ : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ » للنبي صلى الله عليه وسلم ، أمره بإقامة وجهه للدين المستقيم ؛ كما قال : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ »^(٣) وهو دين الإسلام . وإقامة الوجه هو تقويم المقصد والقوة على الحذ في أعمال الدين ؛ وخص الوجه بالذكرا لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه . ودخل في هذا الخطاب أمته باتفاق من أهل التأويل . و « حَنِيفًا » معناه معتدلا مائلا عن جميع الأديان المحترفة المنسوخة .

الثانية — في الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود إلا يولد على الفِطْرَةِ — في رواية — على هذه الملة — أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء » ثم يقول أبو هريرة : « واقروا إن شئتم » « فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ » ، في رواية : « حتى

(١) راجع ج ١٧ ص ٥٥ . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢١٧ . (٣) راجع ص ٤٢ من هذا الجزء .

(٤) أي سابعة من العيوب مجتمعة الأعضاء كلها .

تكونوا أتم تجدعونها“ قالوا : يا رسول الله ؛ أفرأيت من يموت صغيرا ؟ قال : ” الله أعلم بما كانوا عاملين “ . لفظ مسلم .

الثالثة - واختلاف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعددة ؛ منها الإسلام ؛ قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرهما ؛ قالوا : وهو المعروف عند عامة السلف من أهل التأويل ؛ واحتجوا بالآية وحديث أبي هريرة ، وعَضَدُوا ذلك بحديث عياض بن حمار الجبَّاشي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس يوما : ” ألا أحدثكم بما حدثني الله في كتابه ، أن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين ، وأعطاهم المال حلالا لا حرام فيه فجعلوا مما أعطاهم الله حلالا وحراما ... “ الحديث . وبقوله صلى الله عليه وسلم : ” خمس من الفطرة ... “ فذكر منها قص الشارب ، وهو من سنن الإسلام ؛ وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث : أن الطفل خلق سليما من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه ، وأنهم إذا ماتوا قبل أن يُدْرِكُوا في الجنة ؛ أولاد مسلمين كانوا أو أولاد كفار . وقال آخرون : الفطرة هي البداءة التي ابتدأهم الله عليها ؛ أي على ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء ، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ . قالوا : والفطرة في كلام العرب البداءة . والفاطر : المبتدئ ؛ واحتجوا بما روى عن ابن عباس أنه قال : لم أكن أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتى أعمرأبيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ؛ أي ابتدأتها . قال المروزي : كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول ثم تركه . قال أبو عمر في كتاب التمهيد له : ما رسمه مالك في موطنه وذكر في باب القدر فيه من الآثار - يدل على أن مذهبه في ذلك نحو هذا ، والله أعلم . ومما احتجوا به ما روى عن كعب القرظي في قول الله تعالى : « فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ » قال : من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيره إلى الضلالة وإن عمل بأعمال الهدى ، ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى وإن عمل بأعمال الضلالة ، ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة ، ثم رده الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه ، قال : وكان من الكافرين .

قلت : قد مضى قول كعب هذا في « الأعراف » وجاء معناه مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : دُعِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة غلام من الأنصار فقلت : يا رسول الله ، طُوبَى لهذا عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه ! قال : ” أو غير ذلك يا عائشة ! إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاّب آبائهم ، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاّب آبائهم ” خرج ابن ماجه في السنن . وخرج أبو عيسى الترمذی عن عبد الله بن عمرو قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان فقال : ” أتدرون ما هذان الكتابان ؟ ” فقلنا : لا يا رسول الله ، إلا أن تخبرنا ؛ فقال للذي في يده اليمنى : ” هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً — ثم قال للذي في شماله — هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ... ” وذكر الحديث ، وقال فيه : حديث حسن . وقالت فرقة : ليس المراد بقوله تعالى : « فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْنَا » ولا قوله عليه السلام : ” كل مولود يولد على الفطرة ” العموم ، وإنما المراد بالناس المؤمنون ؛ إذ لو فطر الجميع على الإسلام لما كفر أحد ، وقد ثبت أنه خلق أقواماً للنار ؛ كما قال تعالى : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ^(١) » وأخرج الذرية من صلب آدم سوداء وبيضاء . وقال في الغلام الذي قتله الخضر : طبع يوم طبع كافراً . وروى أبو سعيد الخدري قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر بنهار ؛ وفيه : وكان فيما حفظنا أن قال : ” ألا إن بني آدم خلُقوا طبقات شتى فمنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً، ومنهم من يولد كافراً ويموت كافراً، ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً، ومنهم من يولد كافراً ويموت مؤمناً، ومنهم حسن القضاء حسن الطلب ” ذكره حماد بن زيد بن سلمة ^(٢) في مسند الطيالسي قال : حدثنا علي بن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد . قالوا : والعموم بمعنى الخصوص كثير في لسان العرب ؛ ألا ترى إلى قوله

(١) راجع ج ٧ ص ٣٢٤ . (٢) أي والشمس عالبة . (٣) لفظ « مسلبة » ساقط من ج ، ش .

عز وجل : «تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ»^(١) ولم تدمر السموات والأرض . وقوله : «فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ»^(٢) ولم تفتح عليهم أبواب الرحمة . وقال إسحاق بن راهويه الحنظلي : تم الكلام عند قوله : «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا» ثم قال : «فِطْرَةَ اللَّهِ» أى فطر الله الخلق فطرة إما بجنة أو نار ، وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : «كل مولود يولد على الفطرة» ولهذا قال : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ قال شيخنا أبو العباس : من قال هى سابقة السعادة والشقاوة فهذا إنما يليق بالفطرة المذكورة في القرآن ؛ لأن الله تعالى قال : «لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» وأما في الحديث فلا ؛ لأنه قد أخبر في بقية الحديث بأنها تبدل وتغير . وقالت طائفة من أهل الفقه والنظر : الفطرة هى الحلقة التى خلق عليها المولود في المعرفة بربه ؛ فكأنه قال : كل مولود يولد على خِلقه يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة ؛ يريد خِلقه مخالفة لخِلقه البهائم التى لا تصل بخلفتها إلى معرفته . واحتجوا على أن الفطرة الحلقة ، والفاطر الخالق ؛ لقول الله عز وجل : «الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»^(٣) يعنى خالقهن ، وبقوله : «وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ^(٤) الَّذِي فَطَرَنِي» يعنى خلقنى ، وبقوله : «الَّذِي فَطَرَهُنَّ»^(٥) يعنى خلقهن . قالوا : فالفطرة الحلقة ، والفاطر الخالق ؛ وأنكروا أن يكون المولود يُفطر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار . قالوا : وإنما المولود على السلامة فى الأغلب خِلقه وطبعاً وبينة ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة ؛ ثم يعتقدون الكفر والإيمان بعد البلوغ إذا ميزوا . واحتجوا بقوله في الحديث : «كَمَا تُنْتِجُ الْبَيْهَمَةُ بَيْهَمَةً جَمْعَاءَ — يعنى سالمة — هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ» يعنى مقطوعة الأذن . فمثّل قلوب بني آدم بالبهائم لأنها تولد كاملة الخلق ليس فيها نقصان ، ثم تقطع آذانها بعد أنوفها ؛ فيقال : هذه بحائر وهذه سوائب^(٦) . يقول : فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم ليس لهم كفر ولا إيمان ، ولا معرفة ولا إنكار كالبهائم السائمة ، فلما بلغوا آستهوتهم الشياطين فكفروا أكثرهم ، وعصم الله أقلهم . قالوا : ولو كان الأطفال قد فطروا على شيء من الكفر والإيمان فى أولية أمورهم ما آنتقلوا عنه أبداً ، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون . قالوا :

(١) راجع ج ١٦ ص ٢٠٥ .

(٢) راجع ج ١٤ ص ٣١٨ فما بعد .

(٣) راجع ج ١١ ص ٢٩٦ .

(٤) راجع ج ٦ ص ٤٢٥ .

(٥) راجع ج ١٥ ص ١٧ .

(٦) راجع ج ٦ ص ٣٣٥ .

ويستحيل في المعقول أن يكون الطفل في حين ولادته يعقل كفرًا أو إيمانًا، لأن الله أخرجهم في حال لا يفقهون معها شيئًا، قال الله تعالى : « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ^(١) » فن لا يعلم شيئًا استحالة منه كفر أو إيمان، أو معرفة أو إنكار . قال أبو عمر بن عبد البر : هذا أصح ما قيل في معنى الفطرة التي يولد الناس عليها . ومن الحجّة أيضًا في هذا قوله تعالى : « إِنَّمَا يُجِزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ^(٢) » و « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ^(٣) » ومن لم يبلغ وقت العمل لم يرتن بشيء . وقال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ^(٤) » ولما أجمعوا على دفع القود والقصاص والحدود والآثام عنهم في دار الدنيا كانت الآخرة أولى بذلك . والله أعلم . ويستحيل أن تكون الفطرة المذكورة الإسلام، كما قال ابن شهاب ؛ لأن الإسلام والإيمان : قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، وهذا معدوم من الطفل، لا يحفل ذلك ذو عقل . وأما قول الأوزاعي : سألت الزهري عن رجل عليه رقبة أيجزى عنه الصبي أن يعتقه وهو رضيع ؟ قال نعم ؛ لأنه ولد على الفطرة يعنى الإسلام ؛ فإنما أجزى عتقه عند من أجاز به ؛ لأن حكمه حكم أبيه . وخالفهم آخرون فقالوا : لا يجزى في الرقاب الواجبة إلا من صام وصلى ، وليس في قوله تعالى : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ^(٥) » ولا في « أن ينحتم الله للعبد بما قضاه له وقدره عليه » — دليل على أن الطفل يولد حين يولد مؤمنًا أو كافرًا ؛ لما شهدت له العقول أنه في ذلك الوقت ليس ممن يعقل إيمانًا ولا كفرًا، والحديث الذي جاء فيه : « أن الناس خلقوا على طبقات ^(٦) » ليس من الأحاديث التي لا مطعن فيها ؛ لأنه انفرد به علي بن زيد بن جدعان، وقد كان شعبة يتكلم فيه . على أنه يحتمل قوله : « يولد مؤمنًا » أى يولد ليكون مؤمنًا، ويولد ليكون كافرًا على سابق علم الله فيه ، وليس في قوله في الحديث « خلقت هؤلاء للجنة وخلق هؤلاء للنار » أكثر من مراعاة ما ينحتم به لهم ؛ لا أنهم في حين طفولتهم ممن يستحق جنة أو نارًا ، أو يعقل كفرًا أو إيمانًا .

(١) راجع ج ١٠ ص ١٥١ . (٢) راجع ج ١٧ ص ٦٢ فـ١ بعد .

(٣) راجع ج ١٩ ص ٨٢ فـ١ بعد . (٤) راجع ج ١٠ ص ٢٣١ فـ١ بعد .

(٥) راجع ج ٧ ص ١٨٧ فـ١ بعد . (٦) لفظة « شعبة » ساقطة من جـ

قلت : وإلى ما اختاره أبو عمر واحتج له ، ذهب غير واحد من المحققين منهم ابن عطية في تفسيره في معنى الفطرة ، وشيخنا أبو العباس . قال ابن عطية : والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخلق والهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدة ومهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن به ، فكأنه تعالى قال : أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف ، وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فطر البشر ، لكن تعرضهم العوارض ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه " فذكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة . وقال شيخنا في عبارته : إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق ، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للرئيات والمسموعات ، فدامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودين الإسلام وهو الدين الحق . وقد دل على صحة هذا المعنى قوله : " كما تُنتج البهيمة بهيمةً جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء " يعني أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلق سليماً من الآفات ، فلو ترك على أصل تلك الخلق لبق كما لا يرثا من العيوب ، لكن يتصرف فيه فيجدع أذنه ويؤسم وجهه فطرأ عليه الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل ، وكذلك الإنسان ، وهو تشبيه واقع ووجهه واضح .

قلت : وهذا القول مع القول الأول موافق له في المعنى ، وأن ذلك بعد الإدراك حين عقلوا أمر الدنيا ، وتأكدت حجة الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة : من خلق السموات والأرض ، والشمس والقمر ، والبر والبحر ، واختلاف الليل والنهار ، فلما عملت أهواؤهم فيهم أتهم الشياطين فدعتهن إلى اليهودية والنصرانية فذهبت بأهوائهم يمينا وشمالا ، وأنهم إن ماتوا صغاراً فهم في الجنة ، أعنى جميع الأطفال ، لأن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه في صورة الذر أقروا له بالربوبية وهو قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا » . ثم أعادهم في صلب آدم بعد أن أقروا له بالربوبية ، وأنه الله لا إله غيره ، ثم يكتب العبد في بطن أمه شقياً أو سعيداً على

(١) لفظة « فيه » ساقطة من ج

(٢) قراءة نافع ، وبها كان يقرأ المؤلف .

(٣) راجع ج ٧ ص ٣١٤ فما بعد .

الكتاب الأول ؛ فن كان في الكتاب الأول شقياً عُمر حتى يجرى عليه القلم فينقض الميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم بالشرك ، ومن كان في الكتاب الأول سعيداً عُمر حتى يجرى عليه القلم فيصير سعيداً ، ومن مات صغيراً من أولاد المسلمين قبل أن يجرى عليه القلم فهم مع آبائهم في الجنة ، ومن كان من أولاد المشركين مات قبل أن يجرى عليه القلم فليس يكونون مع آبائهم ؛ لأنهم ماتوا على الميثاق الأول الذي أخذ عليهم في صلب آدم ولم ينقض الميثاق .

ذهب إلى هذا جماعة من أهل التأويل ، وهو يجمع بين الأحاديث ، ويكون معنى قوله عليه السلام لما سئل عن أولاد المشركين فقال : ” الله أعلم بما كانوا عاملين ” يعني لو بلغوا . ودل على هذا التأويل أيضاً حديث البخاري عن سَمُرَةَ بن جُنْدَب عن النبي صلى الله عليه وسلم - الحديث الطويل حديث الرؤيا ، وفيه قوله عليه السلام : ” وأما الرجل الطويل الذي في الروضة لإبراهيم عليه السلام ، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة ” . قال فقيل : يا رسول الله ، وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” وأولاد المشركين ” . وهذا نص يرفع الخلاف ، وهو أصح شيء روي في هذا الباب ، وغيره من الأحاديث فيها طلل وليست من أحاديث الأئمة الفقهاء ؛ قاله أبو عمر بن عبد البر . وقد روي من حديث أنس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال : ” لم تكن لهم حسنات فيجزؤا بها فيكونوا من ملوك الجنة ، ولم تكن لهم سيئات فيعاقبوا عليها فيكونوا من أهل النار ، فهم خدم لأهل الجنة ” ذكره يحيى بن سلام في التفسير له . وقد زدنا هذه المسألة بياناً في كتاب التذكرة ، وذكرنا في كتاب المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس ما ذكره أبو عمر من ذلك ، والحمد لله . وذكر إسحاق بن راهويه قال : حدثنا يحيى بن آدم قال : أخبرنا جرير بن حازم عن أبي رجاء العطاردي قال : سمعت ابن عباس يقول : لا يزال أمر هذه الأمة موالياً أو متقارباً — أو كلمة تشبه هاتين — حتى يتكلموا أو ينظروا في الأطفال والقدر . قال يحيى بن آدم : فذكرته لابن المبارك فقال : أيسكت الإنسان على الجهل ؟ قلت : فتأمر بالكلام ؟ قال فسكت . وقال أبو بكر الوراق : « فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » هي الفقر والفاقة ؛ وهذا حسن ؛ فإنه منذ ولد إلى حين يموت فقير محتاج ، نعم ! وفي الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ أى هذه الفطرة لا تبدل لها من جهة الخالق . ولا يحى الأمر على خلاف هذا بوجه ؛ أى لا يشقى من خلقه سعيدا ، ولا يسعد من خلقه شقياً . وقال مجاهد : المعنى لا تبدل لدين الله ؛ وقاله قتادة وابن جبير والضحاك وابن زيد والنخعي ، قالوا : هذا معناه فى المعتقدات . وقال عكرمة : وروى عن ابن عباس وعمير ابن الخطاب أن المعنى : لا تغيير لخلق الله من البهائم أن تخصى فحولها ؛ فيكون معناه النهى عن خصاء الفحول من الحيوان . وقد مضى هذا فى « النساء »^(١) . ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى ذلك القضاء المستقيم ؛ قاله ابن عباس . وقال مقاتل : ذلك الحساب البين . وقيل : « ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ » أى دين الإسلام هو الدين القيم المستقيم . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالفا معبودا ، وإلهاً قديماً سبق قضاؤه ونفذ حكمه .

قوله تعالى : مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ اختلف فى معناه ؛ فقيل : راجعين إليه بالتوبة والإخلاص . وقال يحيى بن سلام والفراء : مقبلين إليه . وقال عبدالرحمن بن زيد : مطيعين له . وقيل : تائبين إليه من الذنوب ؛ ومنه قول [أبى] قيس بن الأسلت :

فإن تابوا فإن بنى سليم * وقومهم هوأزن قد أنابوا

والمعنى واحد ؛ فإن « ناب وتاب واثاب وآب » معناه الرجوع . قال المازردى : وفى أصل الإنابة قولان : أحدهما — أن أصله القطع ؛ ومنه أخذ اسم الباب لأنه قاطع ؛ فكان الإنابة هى الانقطاع إلى الله عز وجل بالطاعة . الثانى — أصله الرجوع ؛ مأخوذ من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد أخرى ؛ ومنه التوبة لأنها الرجوع إلى عادة . الجوهرى :

(٢) لفظة « من الذنوب » ساقطة من ج

(١) راجع ج ٥ ص ٣٨٩ فما بعد .

(٢) لفظة « مأخوذ » ساقطة من ج

وأَنَابَ إِلَى اللَّهِ أَقْبَلَ وَتَابَ . وَالتَّوْبَةُ وَاحِدَةُ التَّوْبِ ، تَقُولُ : جَاءَتْ تَوْبَتُكَ وَنِيَابَتُكَ ، وَهُمْ يَتَنَابَوْنَ التَّوْبَةَ فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي الْمَاءِ وَغَيْرِهِ . وَانْتَصَبَ عَلَى الْحَالِ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ : لِأَنَّ مَعْنَى : « أَقِمَّ وَجْهَكَ » فَأَقِمُوا وَجُوهَكُمْ مَنِيبِينَ . وَقَالَ الْفَرَّاءُ : الْمَعْنَى فَأَقِمَّ وَجْهَكَ وَمَنْ مَعَكَ مَنِيبِينَ . وَقِيلَ : انْتَصَبَ عَلَى الْقَطْعِ ؛ أَيْ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ أَنْتَ وَأَمَتُكَ الْمَنِيبِينَ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ لَهُ ، أَمَرَ لَا مَتَهُ ؛ فَحَسَنَ أَنْ يَقُولَ مَنِيبِينَ إِلَيْهِ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ » ^(١) . « (وَأَتَّقُوهُ) » أَيْ خَافُوهُ وَامْتَثِلُوا مَا أَمَرَكُمْ بِهِ . « (وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) » [يَنْبَغُ أَنْ الْعِبَادَةُ لَا تَنْفَعُ إِلَّا مَعَ الْإِخْلَاصِ ؛ فَلِذَلِكَ قَالَ : « وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ »] ^(٢) وَقَدْ مَضَى هَذَا مَبِينًا « فِي النِّسَاءِ وَالْكَهْفِ » وَغَيْرِهِمَا . « (مِنَ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ) » تَأْوِيلُهُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَعَائِشَةُ وَأَبُو أَمَامَةَ : أَنَّهُ لِأَهْلِ الْقِبْلَةِ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ . وَقَدْ مَضَى « فِي الْأَنْعَامِ » بَيَانُهُ . وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ : الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ؛ وَقَالَ قَتَادَةُ وَمَعْمَرٌ . وَقَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَاءُ : « فَارَقُوا دِينَهُمْ » ، وَقَدْ قَرَأَ بِذَلِكَ عَلَى ابْنِ أَبِي طَالِبٍ ؛ أَيْ فَارَقُوا دِينَهُمُ الَّذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ . « (وَكَانُوا شِيعًا) » أَيْ فِرْقًا ؛ قَالَهُ الْكَلْبِيُّ . وَقِيلَ أَدْيَانًا ؛ قَالَهُ مَقَاتِلٌ . « (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) » أَيْ مَسْرُورُونَ مُعْجَبُونَ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَّبِعُوا الْحَقَّ وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّبِعُونَهُ . وَقِيلَ : كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزَلَ الْفَرَائِضُ . وَقَوْلُ ثَالِثٍ : أَنْ الْعَاصِيَ لِلَّهِ عِزٌّ وَجَلٌ قَدْ يَكُونُ فَرَحًا بِمَعْصِيَتِهِ ، فَكَذَلِكَ الشَّيْطَانُ وَقُطَاعُ الطَّرِيقِ وَغَيْرُهُمْ ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَزَعَمَ الْفَرَّاءُ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّمَامُ « وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » وَيَكُونُ الْمَعْنَى : مِنَ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ « وَكَانُوا شِيعًا » عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ ، وَأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ . [النَّحَاسُ : وَإِذَا كَانَ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ] ^(٣) فَهُوَ عِنْدَ الْبَصَرِيِّينَ عَلَى الْبَدَلِ بِإِعَادَةِ الْحَرْفِ ؛ كَمَا قَالَ جَلُّ وَعِزُّ : « قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ » وَلَوْ كَانَ بِلا حَرْفٍ لَجَازَ .

(٢) مَا بَيْنَ الْمَرْبَعَيْنِ سَاقِطٌ مِنْ جِ

(١) رَاجِعْ ج ١٨ ص ١٤٧ .

(٤) رَاجِعْ ج ٧ ص ١٤٩ وَص ٢٤٠ .

(٣) رَاجِعْ ج ٥ ص ١٨٠ وَج ١١ ص ٦٩ .

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ
ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ أى فُحْطَ وَشَدَّةٌ ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ﴾ أن يرفع ذلك عنهم ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن عباس : مقبلين عليه بكل قلوبهم لا يشركون . ومعنى هذا الكلام التعجب ، عجب نبيه من المشركين في ترك الإنابة إلى الله تعالى مع نتائج الحجج عليهم ؛ أى إذا مس هؤلاء الكفار ضر من مرض وشدة دعوا ربهم ؛ أى استغاثوا به في كشف ما نزل بهم ، مقبلين عليه وحده دون الأصنام ، لعلمهم بأنه لا فرج عندها . ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ أى عافية ونعمة . ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أى يشركون به في العبادة .

قوله تعالى : لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾
قوله تعالى : ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ قيل : هى لام كي . وقيل : هى لام أمر فيه معنى التهديد ؛ كما قال جل وعز : «فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ» . ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد . وفى مصحف عبد الله «وَلَيَتَمَتَّعُوا» ؛ أى مكثهم من ذلك لى يتمتعوا ، فهو إخبار عن غائب ؛ مثل : «لِيَكْفُرُوا» . وهو على خط المصحف خطاب بعد الإخبار عن غائب ؛ أى تمتعوا أيها الفاعلون لهذا .

قوله تعالى : أَمْ أَرْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْ أَرْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ استفهام فيه معنى التوقيف . قال الضحاك : «سُلْطَانًا» أى كتابا ؛ وقاله قتادة والربيع بن أنس . وأضاف الكلام إلى الكتاب توسعاً . وزعم الفراء أن العرب تؤثت السلطان ؛ تقول : قضت به عليك السلطان . فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح ، وبه جاء القرآن ، والتأنيث عندهم جائز لأنه بمعنى الحجّة ؛ أى حجة

تنطق بشرككم ؛ قاله ابن عباس والضحاك أيضا . وقال علي بن سليمان عن أبي العباس محمد ابن يزيد قال : سُلطان جمع سُلِط ، مثل رَغِيف ورَغْفان ، فتذكيره على معنى الجمع وتأنيته على معنى الجماعة . وقد مضى في « آل عمران » الكلام في السلطان أيضا مستوفى . والسلطان : ما يدفع به الإنسان عن نفسه أمرا يستوجب به عقوبة ؛ كما قال تعالى : « أَوْ لَذُنْجَنُهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّيَ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ » .^(٢)

قوله تعالى : وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا) يعنى الحُصْب والسَّعة والعافية ؛ قاله يحيى بن سلام . النقاش : النعمة والمطر . وقيل : الأمن والدَّعة ؛ والمعنى متقارب . (فَرِحُوا بِهَا) أى بالرحمة . (وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ) أى بلاء وعقوبة ؛ قاله مجاهد . السُّدَى : حُط المطر . (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) أى بما عملوا من المعاصى . (إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ) أى ييأسون من الرحمة والفرج ؛ قاله الجمهور . وقال الحسن : إن القنوط ترك فرائض الله سبحانه وتعالى فى السر . قَنَطَ يَقْنُطُ ، وهى قراءة العامة . وَقَنَطَ يَقْنُطُ ، وهى قراءة أبى عمرو والكسائى ويعقوب . وقرأ الأعمش : « قَنَطَ يَقْنُطُ » بالكسر فيهما ؛ مثل حَسِبَ يَحْسِبُ . والآية صفة للكافر ، يقنط عند الشدة ، ويبطر عند النعمة ؛ كما قيل :

كحار السوء إن أعلفته * رَحَّ الناس وإن جاع نهق

وكثير ممن لم يرسخ الإيمان فى قلبه بهذه المثابة ؛ وقد مضى فى غير موضع . فأما المؤمن فيشكر ربه عند النعمة ، ويرجوه عند الشدة .

قوله تعالى : أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٢﴾

(٢) راجع ج ١٣ ص ١٧٦ فابعد .

(١) راجع ج ٤ ص ٢٣٣ .

(٤) راجع ج ١٠ ص ٣٥ .

(٣) فى ك ، ث : « الفرج » بالخاء .

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى يوسع الخير فى الدنيا لمن يشاء أو يضيق ؛ فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

قوله تعالى : فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾
قوله تعالى : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما تقدم أنه سبحانه يبسط الرزق [لمن يشاء] ^(١) ويقدر أمر من وسع عليه الرزق أن يوصل إلى الفقير كفايته ليمتحن شكر الغنى . والخطاب للنبي عليه السلام والمراد هو وأمته ؛ لأنه قال : « ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ » . وأمر بإيتاء ذى القربى لقرب رحمته ؛ وخير الصدقة ما كان على القريب ، وفيها صلة الرحم . وقد فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب ، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدة : « أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك » .

الثانية — واختلف فى هذه الآية ؛ فقيل : إنها منسوخة بآية الموارث . وقيل : لا نسخ ، بل للقريب حق لازم فى البر على كل حال ؛ وهو الصحيح . قال مجاهد وقتادة : صلة الرحم فرض من الله عز وجل ، حتى قال مجاهد : لا تقبل صدقة من أحد ورحمته محتاجة . وقيل : المراد بالقربى أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم . والأول أصح ؛ فإن حقهم مبين فى كتاب الله عز وجل فى قوله : « فَأَن لِّلَّ نَحْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى » . وقيل : إن الأمر بالإيتاء لذى القربى على جهة الندب . قال الحسن : « حقه » المواساة فى اليسر ، وقول ميسور فى العسر . ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ قال ابن عباس : أى أطعم السائل الطواف ؛ وابن السبيل : الضيف ؛ بفعل الضيافة فرضا ، وقد مضى جميع هذا مبسووطا مبيناً فى مواضعه والحمد لله .

(١) ما بين المربعين ما قُط من ك . (٢) راجع ج ٨ ص ١ .

(٣) راجع ج ٢ ص ١٥ و ٢٤١ . وج ٨ ص ١١ وج ٩ ص ٦٤ .

الثالثة — (ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ) أى إعطاء الحق أفضل من الإمساك إذا أريد بذلك وجه الله والتقرب إليه . (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) أى الفائزون بمطلوبهم من الثواب فى الآخرة . وقد تقدم فى « البقرة »^(١) القول فيه .

قوله تعالى : وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٨﴾ قوله تعالى : (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ) فيه أربع مسائل :

الأولى — لما ذكر ما يراد به وجهه ويثب عليه ذكر غير ذلك من الصفة وما يراد به أيضا وجهه . وقرأ الجمهور : « آتَيْتُمْ » بالمد بمعنى أعطيت . وقرأ ابن كثير ومجاهد وحيد بن زيد ؛ بمعنى ما فعلتم من رَبِّا لِيَرْبُوا ؛ كما تقول : آتيت صوابا وآتيت خطأ . وأجمعوا على المد فى قوله : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ » . والربا الزيادة وقد مضى فى « البقرة » معناه ، وهو هناك محرم وها هنا حلال . وثبت بهذا أنه قسمان : منه حلال ومنه حرام . قال عكرمة فى قوله تعالى : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ » قال : الربا ربوان ، ربا حلال وربا حرام ؛ فأما الربا الحلال فهو الذى يهدى ، يلتبس ما هو أفضل منه . وعن الضحاك فى هذه الآية : هو الربا الحلال الذى يهدى ليثاب ما هو أفضل منه ، لاله ولا عليه ، ليس له فيه أجر وليس عليه فيه إثم . وكذلك قال ابن عباس : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا » يريد هدية الرجل الشئ يرجو أن يثاب أفضل منه ؛ فذلك الذى لا يربو عند الله ولا يؤجر صاحبه ولكن لا إثم عليه ، وفى هذا المعنى نزلت الآية . قال ابن عباس وابن جرير وطاوس ومجاهد : هذه آية نزلت فى هبة الثواب . قال ابن عطية : وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسلام وغيره ؛ فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى . وقاله القاضى أبو بكر بن العربى . وفى كتاب الناسى

(١) راجع ج ١ ص ١٨١ . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٤٨ فابعد . (٣) فى ج : « وليس فيه أجر » .

عن عبد الرحمن بن علقمة قال: قدم وفد ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم هدية [فقال: "أهدية أم صدقة" ^(١)] فإن كانت هدية فلأنما يُبْتَنَى بها وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقضاء الحاجة، وإن كانت صدقة فلأنما يُبْتَنَى بها وجه الله عز وجل" قالوا: لا بل هدية؛ فقبلها منهم وقعد معهم يسألهم ويسألونه. وقال ابن عباس أيضا وإبراهيم النخعي: نزلت في قوم يعطون قراباتهم وإخوانهم على معنى نفعهم وتمويلهم والتفضل عليهم، ويزيدوا في أهوالهم على وجه النفع لهم. وقال الشعبي: معنى الآية أن ما خدم الإنسان به أحدا وخف له لينتفع به في دنياه فإن ذلك النفع الذي يجزى به الخدمة لا يربو عند الله. وقيل: كان هذا حراما على النبي صلى الله عليه وسلم على الخصوص؛ قال الله تعالى: «وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ» ^(٢) فنهى أن يعطى شيئا فيأخذ أكثر منه عوضا. وقيل: إنه الربا المحترم؛ فعنى: «لَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ» على هذا القول لا يحكم به لآخذه بل هو للأخوذ منه. قال السدي: نزلت هذه الآية في ربا ثقيف؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش.

الثانية — قال القاضي أبو بكر بن العربي: صريح الآية فيمن يهب يطلب الزيادة ^(٣) من أموال الناس في المكافأة، قال المهلب: اختلف العلماء فيمن وهب هبة يطلب ثوابها وقال: إنما أردت الثواب؛ فقال مالك: ينظر فيه؛ فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله ذلك؛ مثل هبة الفقير للغني، وهبة الخادم لصاحبه، وهبة الرجل لأميره ومن فوقه؛ وهو أحد قولي الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يكون له ثواب إذا لم يشترط؛ وهو قول الشافعي الآخر. قال: والهبة للثواب باطلة لاتنفعه؛ لأنها بيع بمن مجهول. واحتج الكوفي بأن موضوع الهبة التبرع، فلو أوجبنا فيها العوض لبطل معنى التبرع وصارت في معنى المعاوضات، والعرب قد فرقت بين لفظ البيع ولفظ الهبة، فجعلت لفظ البيع على ما يستحق فيه العوض، والهبة بخلاف ذلك. ودليلنا ما رواه مالك في موطئه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: أئمتنا رجل وهب هبة يرى أنها للثواب فهو على هبته حتى يرضى

(١) ما بين المربعين ساقط من ش . (٢) راجع ج ١٩ ص ٦٦ . (٣) لفظة يطلب ساقطة من جرش .

منها . ونحوه عن عليّ رضي الله عنه قال : المواهب ثلاثة : موهبة يراد بها وجه الله ، وموهبة يراد بها وجوه الناس ، وموهبة يراد بها الثواب ؛ فوهبة الثواب يرجع فيها صاحبها إذا لم يُثب منها . وترجم البخاريّ رحمه الله (باب المكافأة في الهبة) وساق حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها ، وأثاب على لُقحة ^(١) ولم ينكر على صاحبها حين طلب الثواب ، وإنما أنكر سخطه للثواب وكان زائدا على القيمة . نخرجه الترمذي .

الثالثة — ما ذكره عليّ رضي الله عنه وفصله من الهبة صحيح ؛ وذلك أن الواهب لا يخلو في هبته من ثلاثة أحوال : أحدها — أن يريد بها وجه الله تعالى ويتنقى عليها الثواب منه . والثاني — أن يريد بها وجوه الناس رياء ليحمدوه عليها ويثنوا عليه من أجلها . والثالث — أن يريد بها الثواب من الموهوب له ؛ وقد مضى الكلام فيه . وقال صلى الله عليه وسلم : ” الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ” . فأما إذا أراد بهبته وجه الله تعالى وأبتغى عليه الثواب من عنده فله ذلك عند الله بفضله ورحمته ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ ﴾ .

وكذلك من يصل قرابته ليكون غنياً حتى لا يكون كلاً فالنية في ذلك متبوعة ؛ فإن كان ليظهر بذلك دنيا فليس لوجه الله ، وإن كان لما له عليه من حق القرابة وبينهما من وشيجة الرحم فإنه لوجه الله .

وأما من أراد بهبته وجوه الناس رياء ليحمدوه عليها ويثنوا عليه من أجلها فلا منفعة له في هبته ؛ لا ثواب في الدنيا ولا أجر في الآخرة ؛ قال الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ » ^(٢) الآية .

وأما من أراد بهبته الثواب من الموهوب له فله ما أراد بهبته ، وله أن يرجع فيها ما لم يثب بقيمتها ، على مذهب ابن القاسم ، أو ما لم يرض منها بأزيد من قيمتها ، على ظاهر قول عمر

(١) اللقحة (يكسر اللام وفتحها) : الناقة الخلوب . (٢) راجع ج ٣ ص ٣١١ .

وعلى، وهو قول مطَّرف في الواضحة: أن الهبة ما كانت قائمة العين، وإن زادت أو نقصت فللواهب الرجوع فيها وإن أنابه الموهوب فيها أكثر منها. وقد قيل: إنها إذا كانت قائمة العين لم تتغير فإنه يأخذ ما شاء، وقيل: تلزمه القيمة كمنكاح التفويض، وأما إذا كان بعد فوت الهبة فليس له إلا القيمة اتفاقاً؛ قاله ابن العربي.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿لِيَرْبُو﴾ قرأ جمهور القراء السبعة: «يربو» بالياء وإسناد الغمل إلى الربا. وقرأ نافع وحده: بضم التاء [والواو] ساكنة على المخاطبة؛ بمعنى تكونوا ذوى زيادات، وهذه قراءة ابن عباس والحسن وقتادة والشعبي. قال أبو حاتم: هي قراءة تنسأ. وقرأ أبو مالك: «لربوها» بضمير مؤنث. ﴿فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى لا يزكو ولا يثيب عليه؛ لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه وكان خالصاً له؛ وقد تقدّم في «النساء». ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ﴾ قال ابن عباس: أى من صدقة. ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾ أى ذلك الذى يقبله ويضاعفه له عشرة أضعافه أو أكثر؛ كما قال: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً». وقال: «وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ اتِّغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَثَلٍ جَنَّةٍ رِبْوَةٍ». وقال: «فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ» ولم يقل فأنتم المضغفون لأنه رجع من المخاطبة إلى الغيبة؛ مثل قوله: «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ فِيهِمْ»^(١). وفى معنى المضغفين قولان: أحدهما — أنه تضاعف لهم الحسنات كما ذكرنا. والآخر — أنهم قد أضعف لهم الخير والنعيم؛ أى هم أصحاب أضعاف، كما يقال: فلان مقوٍ إذا كانت إبله قوية، أوله أصحاب أقوياء. ومُسْحِنٌ إذا كانت إبله سمناً. ومُعْطِشٌ إذا كانت إبله عطاشاً. ومضعِفٌ إذا كانت إبله ضعيفة؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أعوذ بك من الخبيث الخبيث الشيطان الرجيم». فالخبيث: الذى أصابه خبيث، يقال: فلان ردىء أى هو ردىء؛ فى نفسه. ومردئٌ: أصحابه أردئاء.

(٢) راجع ج ٣ ص ٢٣٧ و ص ٣١٤ .

(١) راجع ج ٥ ص ٤١٠ .

(٣) راجع ج ٨ ص ٣٢٤ .

قوله تعالى : **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِمَّنْ شَيْءٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : **(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)** ابتداء وخبر . وعاد الكلام إلى الاحتجاج على المشركين وأنه الخالق الرازق المميت المحيي . ثم قال على جهة الاستفهام : **(هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِمَّنْ شَيْءٌ)** لا يفعل . ثم نزه نفسه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والأولاد بقوله الحق : **(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)** وأضاف الشركاء إليهم لأنهم كانوا يسمونهم بالآلهة والشركاء ، ويعملون لهم من أموالهم .

قوله تعالى : **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴿٤١﴾

قوله تعالى : **(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)** اختلف العلماء في معنى الفساد والبر والبحر؛ فقال قتادة والسدي : الفساد الشرك ، وهو أعظم الفساد . وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد : فساد البر قتل ابن آدم أخاه ؛ قابيل قتل هابيل . وفي البحر بالملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا . وقيل : الفساد الفحط وقلة النبات وذهاب البركة . ونحوه قال ابن عباس قال : هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا . قال النحاس : وهو أحسن ما قيل في الآية . وعنه أيضا : أن الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم . وقال عطية : فإذا قل المطر قل الغوص عنده ، وأخفق الصيادون ، وعميت دواب البحر . وقال ابن عباس : إذا مطرت السماء تفتحت الأصداف في البحر ، فما وقع فيها من السماء فهو لؤلؤ . وقيل : الفساد كساد الأسعار وقلة المعاش . وقيل : الفساد المعاصي وقطع السبيل والظلم ؛ أي صار هذا العمل مانعا من الزرع والعمارات والتجارات ؛ والمعنى كله متقارب . والبر والبحر هما المعروفان المشهوران في اللغة وعند الناس ؛ لا ما قاله بعض العباد : أن البر اللسان ، والبحر القلب ؛ لظهور

ما على اللسان وخفاء ما في القلب . وقيل : البر : الفياض ، والبحر : القرى ؛ قاله عكرمة .
والعرب تسمى الأمصار البحار . وقال قتادة : البر أهل العمود ، والبحر أهل القرى
والريف . وقال ابن عباس : إن البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر ، والبحر ما كان
على شط نهر ؛ وقاله مجاهد ، قال : أما والله ما هو بحركم هذا ، ولكن كل قرية على ماء جار
فهى بحر . وقال معناه النحاس ، قال : فى معناه قولان : أحدهما — ظهر الجذب فى البر ؛
أى فى البوادي وقراها ، وفى البحر أى فى مدن البحر ؛ مثل : « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ ^(١) » . أى ظهر
قلة الغيث وغلاء السمر . (بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ) أى عقاب بعض
(الَّذِي عَمِلُوا) ثم حذف . والقول الآخر — أنه ظهرت المعاصى من قطع السبيل والظلم ،
فهذا هو الفساد على الحقيقة ، والأول مجاز إلا أنه على الجواب الثانى ، فيكون فى الكلام
حذف واختصار دل عليه ما بعده ، ويكون المعنى : ظهرت المعاصى فى البر والبحر فغضب الله
عنهما الغيث وأغلى سعرهم ليذيقهم عقاب بعض الذى عملوا . (نَعْلَمُهُمْ يَرْجِعُونَ) لعلمهم
يتوبون . وقال : « بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا » لأن معظم الجزاء فى الآخرة . والقراءة « لِيُذِيقَهُمْ »
بالياء . وقرأ ابن عباس بالنون ، وهى قراءة السامى وابن محيصن وقُتَيْبٌ ويعقوب على
التعظيم ؛ أى نذيقهم عقوبة بعض ما عملوا .

قوله تعالى : قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ) أى قل لهم يا محمد سيرا فى الأرض ليعتبروا
بمن قبلهم ، وينظروا كيف كان عاقبة من كذب الرسل (كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ) أى
كافرين فأهلكوا .

قوله تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ
لَا مَرَدَ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَاسِمِ ﴾ قال الزجاج : أى أقم قصدك ، واجعل جهتك اتباع الدين القيم ؛ يعنى الإسلام . وقيل : المعنى أوضح الحق وبالغ فى الإعذار ، واشتغل بما أنت فيه ولا تحزن عليهم . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى لا يردّه الله عنهم ، فإذا لم يردّه لم يتبها لأحد دفعه . ويجوز عند غير سيديويه « لَا مَرَدَّ لَهُ » وذلك عند سيديويه بعيد ، إلا أن يكون فى الكلام عطف . والمراد يوم القيامة . ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ ﴾ قال ابن عباس : معناه يتفرقون . وقال الشاعر :

وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَذِيمَةَ حِقْبَةٍ * من الدهر حتى قيل لن يتصدعا^(١)

أى لن يتفرقا ؛ نظيره قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ » « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » . والأصل يتصدعون ؛ ويقال : تصدع القوم إذا تفرقوا ؛ ومنه اشتق الصداع ، لأنه يفرق شُعب الرأس .

قوله تعالى : مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَهُوَ عَمَلٌ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أى جزاء كفره . ﴿ وَهُوَ عَمَلٌ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ أى يوطئون لأنفسهم فى الآخرة فراشا ومسكنا وقرارا بالعمل الصالح ؛ ومنه : مهد الصبي . والمهاد الفراش ، وقد مهدت الفراش مهذا : بسطته ووطأته . وتمهيد الأمور : تسويتها وإصلاحها . وتمهيد العذر : بسطه وقبوله . والتمهيد : التمكن . وروى ابن أبي نجیح عن مجاهد « فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ » قال : فى القبر .

قوله تعالى : لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ^ج إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾

(١) البيت لتمام بن نويرة اليربوعي من قصيدة يرثى بها أخاه مالكاً مطلعها :

لعمري وما دهرى بتأبين هالك * ولا جزع مما أصاب فأوجعا

وقوله : « كندمانى جذيمة » يعنى جذيمة الأبرش وكان ملكا . وندبناه : يقال لها مالك وعقبيل . و يضرب بهما المثل لظول ما نادماه ، فقد نادماه أربعين سنة ما أعادا عليه حديثا .

قوله تعالى : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى يمهّدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله .
وقيل يصدّعون ليجزيهم الله ، أى ليميز الكافر من المسلم . ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ .
قوله تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ
مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ أى ومن أعلام كمال قدرته
إرسال الرياح مبشرات أى بالمطر لأنها تتقدّمه . وقد مضى فى «الحجر» بيانه . ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ
رَحْمَتِهِ﴾ يعنى الغيث والخصب . ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾ أى فى البحر عند هبوبها . وإنما زاد
«بأمره» لأن الرياح قد تهب ولا تكون موافقة ، فلا بد من إرساء السفن والاحتياط بحبسها ،
وربما عصفت فأغرقتها بأمره . ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعنى الرزق بالتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾
هذه النعم بالتوحيد والطاعة . وقد مضى هذا كله مبينا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِفَآءُ وَهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَأَتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِفَآءُ وَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى المعجزات
والحجج النيرات ﴿فَأَتَقَمْنَا﴾ أى فكفروا فانتقمنا من كفر . ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾
«حقا» نصب على خبر كان ، «ونصر» اسمها . وكان أبو بكر يقف على «حقا» أى وكان عقابنا
حقا ، ثم قال : «عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» ابتداء وخبر ، أى أخبر بأنه لا يخلف الميعاد ، ولا خلف
فى خبرنا . وروى من حديث أبى الدرداء قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «ما من
مسلم يذنب عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله تعالى أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة —
ثم تلا — وكان حقا علينا نصر المؤمنين» . ذكره النحاس والنعلبي والزنجشيري وغيرهم .

(١) راجع ج ١٠ ص ١٥ . (٢) راجع ج ١ ص ٣٨٨ و ٣٩٧ و ج ٢ ص ١٩٤ فابعد .

(٣) فى ج ، ش : «أى أخبرنا به ولا ...» .

قوله تعالى : اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَنْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ
كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا
أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا
مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ قرأ ابن محيصة وابن كثير وحمة والكسائي :
« الریح » بالتوحيد . والباقون بالجمع . قال أبو عمرو : وكل ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع ،
وما كان بمعنى العذاب فهو موحد . وقد مضى في « البقرة » معنى هذه الآية وفي غيرها .
« كِسْفًا » جمع كِسْفَةٍ وهى القطعة . وفى قراءة الحسن وأبى جعفر وعبد الرحمن الأعرج وابن
عاصم « كِسْفًا » بإسكان السين ، وهى أيضا جمع كِسْفَةٍ كما يقال : سُدْرَةٌ وَسُدْرٌ ، وعلى هذه القراءة
يكون المضممر الذى بعده عائدا عليه ؛ أى فترى الودق أى المطر يخرج من خلال الكسف ؛
لأن كل جمع بينه وبين واحد الهاء [لا غير] فالتذكير فيه حسن . ومن قرأ : « كِسْفًا »
فالمضممر عنده عائدا على السحاب . وفى قراءة الضحاك وأبى العالية وابن عباس : « فَتَرَى الْوَدْقَ
يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ » ويجوز أن يكون خَلَّ جمع خِلَالٍ . ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ﴾ أى بالمطر .
﴿ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يفرحون بتزول المطر عليهم . ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ
قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أى يائسين مكتئبين قد ظهر الحزن عليهم لاحتباس
المطر عنهم . و « مِنْ قَبْلِهِ » تكرر عند الأخفش معناه التأكيد ؛ وأكثر النحويين على هذا
القول ؛ قاله النحاس . وقال قُطْرُبُ : إن « قبل » الأولى للإنزال والثانية للمطر ؛ أى وإن
كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر . وقيل : المعنى من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل
الزرع ، ودل على الزرع المطر إذ بسببه يكون . ودل عليه أيضا « فَأَرَاهُ مُصَفَّرًا » على ما يأتى .
وقيل : المعنى من قبل السحاب من قبل رؤيته ؛ واختار هذا القول النحاس ، أى من
قبل رؤية السحاب ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أى ليائسين . وقد تقدم ذكر السحاب .

(١) راجع ج ٢ ص ١٩٧ فابعد . (٢) ما بين المربعين زيادة من شرك . (٣) راجع ج ٢ ص ٢٠٠ فابعدا .

قوله تعالى : فَأَنْظُرْ إِلَىٰ أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُنْجِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿فَأَنْظُرْ إِلَىٰ أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ يعنى المطر ؛ أى انظروا نظرا استبصار واستدلال ؛ أى استدلووا بذلك على أن من قدر عليه قادر على إحياء الموتى . وقرأ ابن عامر وحفص وحزمة والكسائى : « آثَارِ » بالجمع . الباقيون بالتوحيد ؛ لأنه مضاف إلى مفرد . والأثر فاعل « يُحْيِي » ويجوز أن يكون الفاعل اسم الله عز وجل . ومن قرأ : « آثَارِ » بالجمع فلأن رحمة الله يجوز أن يراد بها الكثرة ؛ كما قال تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » . وقرأ الجحدري وأبو حيوة وغيرهما : « كَيْفَ تُحْيِي الْأَرْضَ » بقاء ؛ ذهب بالتأنيث إلى لفظ الرحمة ؛ لأن أثر الرحمة يقوم مقامها فكأنه هو الرحمة ؛ أى كيف تحيي الرحمة الأرض أو الآثار . « ويحيي » أى يحيي الله عز وجل أو المطر أو الأثر فيمن قرأ بالياء . و﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ فى موضع نصب على الحال على الجملة على المعنى لأن اللفظ لفظ الاستفهام والحال خبر ؛ والتقدير : فانظر إلى أثر رحمة الله محيية للأرض بعد موتها . ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُنْجِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ استدلال بالشاهد على الغائب .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ

يَكْفُرُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ يعنى الريح ، والريح يجوز تذكيره . قال محمد بن يزيد : لا يمتنع تذكير كل مؤنث غير حقيقى ، نحو أعجبنى الدار وشبهه . وقيل : فرأوا السحاب . وقال ابن عباس : الزرع ، وهو الأثر ؛ والمعنى : فرأوا الأثر مصفراً ؛ واصفرار الزرع بعد اخضراره يدل على يسسه ، وكذا السحاب يدل على أنه لا يمتطر ، والريح على أنها لا تلقح ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ أى لَيَظْأُنَّ ؛ وحسن وقوع الماضى فى موضع المستقبل لما فى الكلام من معنى المجازاة ، والمجازاة لا تكون إلا بالمستقبل ؛ قاله الخليل وغيره .

قوله تعالى : فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَى الدَّعَاءِ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِغَايَتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ أى وَضَحْتَ الحُجُجَ بآجِدٍ ؛ لكنهم لم يفهموا تقليد الأسلاف فى الكفر ماتت عقولهم وعميت بصائرهم ، فلا يتنبأ لك إسماعهم وهدايتهم . وهذا رد على القدرية . ﴿ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أى لَا تُسْمِعُ مَوَاعِظَ اللَّهِ إِلَّا الْمُؤْمِنِينَ الذين يصغون إلى أدلة التوحيد وخلق لهم الهداية . وقد مضى هذا فى « النمل » ووقع قوله « هَادٍ الْعُمَى » هنا بغير ياء .

قوله تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ﴾ ذكر استدلالاً آخر على قدرته فى نفس الإنسان ليعتبر . ومعنى : « مِنْ ضَعِفٍ » من نطفة ضعيفة . وقيل : « مِنْ ضَعِفٍ » أى فى حال ضعف ؛ وهو ما كانوا عليه فى الابتداء من الطفولة والصغر . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً ﴾ يعنى الشبيبة . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا ﴾ يعنى الهرم . وقرأ عاصم وحمة : بفتح الضاد فهن ، الباقون بالضم ، لغتان ، والضم لغة النبى صلى الله عليه وسلم . وقرأ المحدثى : « مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ » بالفتح فيهما ؛ « ضَعْفًا » بالضم خاصة . أراد أن يجمع بين اللغتين . قال الفراء : الضم لغة قريش ، والفتح لغة تميم . الجوهرى : الضَّعْفُ والضُّعْفُ : خلاف القوة . وقيل : الضعف بالفتح فى رأى ، وبالضم فى الجسد ؛ ومنه الحديث فى الرجل

الذى كان يخدع في البيوع : " أنه يبتاع وفي عُقْدَتِهِ ضَعْفٌ " . (١) وَشَيْبَةُ (مصدر كالشيب ، والمصدر يصلح للجملة ، وكذلك القول في الضعف والقوة . (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) يعنى من قوة وضعف ، (وَهُوَ الْعَلِيمُ) بتدبيره . (الْقَدِيرُ) على إرادته . وأجاز النحويون الكوفيون « من ضَعَف » بفتح العين ، وكذا كل ما كان فيه حرف من حروف الحلق ثانيا أو ثالثا .

قوله تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ) أى يحلف المشركون . (مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) ليس في هذا رد لعذاب القبر ؛ إذ كان قد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير طريق أنه تعوذ منه ، وأمر أن يتعوذ منه ؛ فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال : سمع النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة وهي تقول : اللَّهُمَّ أمتعني بزوجي رسول الله ، وبأبي أبي سفيان ، وبأخي معاوية ؛ فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : " لقد سألت الله لآجال مضروبة وأرزاق مقسومة ولكن سألته أن يعيدك من عذاب جهنم وعذاب القبر " في أحاديث مشهورة نخرجها مسلم والبخاري وغيرهما . وقد ذكرنا منها جملة في كتاب (التذكرة) . وفي معنى : « مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ » قولان : أحدهما — أنه لا بد من نعمة قبل يوم القيامة ؛ فعلى هذا قالوا : ما لبثنا غَيْرَ سَاعَةٍ . [والقول الآخر — أنهم يعنون في الدنيا لزوالها وانقطاعها ، كما قال تعالى : « كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ أَقْسَمُوا عَلَى غَيْبٍ وَعَلَى غَيْرِ مَا يَدْرُونَ . قال الله عز وجل : [كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ] (٢) أى كانوا يكذبون في الدنيا ؛ يقال : أَفَكَ الرَّجُلُ إِذَا صُرِفَ عَنِ الصِّدْقِ وَالْحَيْرِ . وأرض ما فوكة : ممنوعة من المطر . وقد زعم جماعة من أهل النظر أن القيامة لا يجوز أن يكون فيها كذب لما هم فيه ، والقرآن يدل على غير ذلك ، قال الله عز وجل : « كَذَلِكَ كَانُوا

(١) أى في رأيه ونظيره في مصالح نفسه . (٢) ما بين المربعين ساقط من ش (٣) راجع ج ١٩ ص ٢٠٧ فساهد

يُؤْفَكُونَ » أى كما صُرفوا عن الحق فى قَسَمِهِمْ أَنَّهُمْ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُصْرَفُونَ
عن الحق فى الدنيا ؛ وقال جل وعز : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْجِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْجِفُونَ لَكُمْ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ^(١) » وقال : « ثُمَّ لَمْ تُكُنْ فَتَقَتُّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا
وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا ^(٢) » .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ
اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ^ط فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ)
اختلف فى الذين أُوتوا العلم ؛ فقليل الملائكة . وقيل الأنبياء . وقيل علماء الأمم . وقيل مؤمنو
هذه الأمة . وقيل جميع المؤمنين ؛ أى يقول المؤمنون للكفار ردًا عليهم لقد لبثتم فى قبوركم إلى
يوم البعث . والفاء فى قوله : « فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ » جواب لشرط محذوف دلّ عليه الكلام ؛
مجازه : إن كنتم منكربن البعث فهذا يوم البعث . وحكى يعقوب عن بعض الفراء وهى قراءة
الحسن : « إلى يوم البعث » بالتحريك ؛ وهذا مما فيه حرف من حروف الخلق . وقيل : معنى
« فِي كِتَابِ اللَّهِ » فى حكم الله . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ أى وقال الذين أُوتوا العلم
فى كتاب الله والإيمان لقد لبثتم إلى يوم البعث ؛ قاله مقاتل وقتادة والسدى . القشيري :
وعلى هذا « أُوتُوا الْعِلْمَ » بمعنى كتاب الله . وقيل : الذين حكم لهم فى الكتاب بالعلم
(فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ) أى اليوم الذى كنتم تنكرونه .

قوله تعالى : فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ

يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

(١) راجع ج ١٧ ص ٣٠٥ فى بعد .

(٢) راجع ج ٦ ص ٤٠٢ .

قوله تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أى لا ينفعهم العلم بالقيامة ولا الاعتذار يومئذ . وقيل : لما رد عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يعذروا . ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أى ولا حالهم حال من يستعتب ويرجع ؛ يقال : استعتبته فأعتبني ، أى استرضيته فأرضاني ، وذلك إذا كنت جانبا عليه . وحقيقة أعتبته : أزلت عتبه . وسيأتى في « فصات » بيانه . وقرأ عاصم وحزمة والكسائي : «فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ» بالياء ، والباقون بالياء .^(١)

قوله تعالى : وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أى من كل مثل يدلهم على ما يحتاجون إليه ، وينبههم على التوحيد وصدق الرسل . ﴿وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أى معجزة ؛ كفلق البحر والعصا وغيرهما ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا أَنْتُمْ﴾ يامعشر المؤمنين . ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أى يتبعون الباطل والسحر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أى كما طبع الله على قلوبهم حتى لا يفهموا الآيات عن الله فكذلك ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أدلة التوحيد ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أى اصبر على أذاهم فإن الله ينصرك ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ﴾ أى لا يستفزتك عن دينك ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ قيل : هو النضر بن الحارث . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ؛ يقال : استخف فلان فلانا أى استجهله حتى حمّله على اتباعه في الغي . وهو في موضع جزم بالنهاي ، أؤكد بالنون الثقيلة فبنى على الفتح كما يبنى الشيثان إذا ضم أحدهما إلى الآخر . «الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ» في موضع رفع ، ومن العرب من يقول : اللذون في موضع الرفع . وقد مضى في « الفاتحة »^(٢) .

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٥١ فما بعد . (٢) راجع ج ١ ص ١٤٨ .

تفسير سورة لقمان

وهي مكية ، غير آيتين قال قتادة : أولها « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ »^(١)
إلى آخر الآيتين . وقال ابن عباس : ثلاث آيات ، أولهن « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ » .
وهي أربع وثلاثون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : **الْم** ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى
وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾
قوله تعالى : (**الْم** . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) مضى الكلام في فواتح السور .
و « تِلْكَ » في موضع رفع على إضمار مبتدأ ، أى هذه تلك . ويقال : « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ
الْحَكِيمِ » بدلا من تلك . والكتاب : القرآن . والحكيم : المحكم ، أى لا خلل فيه ولا تناقض .
وقيل ذو الحكمة وقيل الحاكم (**هُدًى وَرَحْمَةً**) بالنصب على الحال ؛ مثل : « هَذِهِ
نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ »^(٢) وهذه قراءة المدنيين وأبى عمرو وعاصم والكسائي . وقرأ حمزة :
« **هُدًى وَرَحْمَةً** » بالرفع ، وهو من وجهين : أحدهما — على إضمار مبتدأ ؛ لأنه أول آية .
والآخر — أن يكون خبر « تِلْكَ » . والمحسن : الذى يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإنه يراه .
وقيل : هم المحسنون فى الدين وهو الإسلام ؛ قال الله تعالى : « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ
وَجْهَهُ لِلَّهِ »^(٣) الآية . (**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**) فى موضع الصفة ، ويجوز الرفع على القطع
بمعنى : هم الذين ، والنصب بإضمار أعنى . وقد مضى الكلام فى هذه الآية والى بعدها
فى « البقرة »^(٤) وغيرها .

(١) راجع ص ٧٦ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٣٨ . (٣) راجع ج ٥ ص ٣٩٩ .

(٤) راجع ج ١ ص ١٦٢ فابعد . وج ٦ ص ٢٢١ .

قوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٠﴾
فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ « مَنْ » في موضع رفع بالابتداء . و « لَهْوَ الْحَدِيثِ » : الغناء ؛ في قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . النحاس : وهو ممنوع بالكتاب والسنة ؛ والتقدير : من يشتري ذا لهو أو ذات لهو ؛ مثل : « وَأَسْأَلُ الْقُرْيَةَ ^(١) » . أو يكون التقدير : لما كان إنما اشتراها يشتريها ويبالغ في ثمنها كأنه اشتراها للهو ^(٢) .

قلت : هذه إحدى الآيات الثلاث التي استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه . والآية الثانية قوله تعالى : « وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ^(٣) » . قال ابن عباس : هو الغناء بالحميرية ؛ اسمى لنا ؛ أى غنى لنا .

والآية الثالثة قوله تعالى : « وَأَسْتَفْزِزُ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ^(٤) » قال مجاهد : الغناء والمزامير . وقد مضى في « سبحان » الكلام فيه . وروى الترمذي عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تتبعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام ، في مثل هذا أنزلت هذه الآية : ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله » إلى آخر الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، إنما يروى من حديث القاسم عن أبي أمامة ، والقاسم ثقة وعلى بن يزيد يضعف في الحديث ؛ قاله محمد بن إسماعيل . قال ابن عطية : وبهذا فسر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد ، وذكره أبو الفرج الجوزي عن الحسن وسعيد بن جبير وقتادة والنخعي .

(١) راجع ج ٩ ص ٢٤٥ فابعد . (٢) كذا في جميع نسخ الأصل . وفي كتاب النحاس : « أو يكون التقدير : لما كان إنما يشتريها ويبالغ في ثمنها كأنه اشترى اللهو » . وفي العبارتين غموض ، ولعل العبارة هكذا : أو يكون التقدير أنه لما كان إنما يشتريها ويبالغ في ثمنها لأجل لهوها كان كأنه اشترى اللهو .
(٣) راجع ج ١٧ ص ١٢١ فابعد . (٤) راجع ج ١٠ ص ٢٩٠ .

قلت : هذا أعلى ما قيل في هذه الآية ، وحلف على ذلك ابن مسعود بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات إنه الغناء . روى سعيد بن جبيرة عن أبي الصهباء البكري قال : سئل عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ » فقال : الغناء والله الذي لا إله إلا هو ؛ يرددها ثلاث مرات . وعن ابن عمر أنه الغناء ؛ وكذلك قال عكرمة وميمون بن مهران ومكحول . وروى شعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال قال عبد الله بن مسعود : الغناء ينبت النفاق في القلب ؛ وقاله مجاهد ، وزاد : إن لهو الحديث في الآية الاستماع إلى الغناء وإلى مثله من الباطل . وقال الحسن : لهو الحديث المعازف والغناء . وقال القاسم بن محمد : الغناء باطل والباطل في النار . وقال ابن القاسم سألت مالكا عنه فقال : قال الله تعالى : « فَمَآذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ » ^(١) أخفق هو ؟ ! وترجم البخاري ^(٢) (بَابُ كُلِّ لَهْوٍ بَاطِلٌ إِذَا شَغَلَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ، وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ تَعَالَى أَقَامَ مَرْكًا) ، وقوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا) فقوله : « إذا شغل عن طاعة الله » مأخوذ من قوله تعالى : « لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » . وعن الحسن أيضا : هو الكفر والشرك . وتأوله قوم على الأحاديث التي يتلها بها أهل الباطل واللعب . وقيل : نزلت في النضر بن الحارث ؛ لأنه اشترى كتب الأعاجم : رستم ، واسفنديار ؛ فكان يجلس بمكة ، فإذا قالت قريش إن محمدا قال كذا ضحك منه ، وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس ويقول : حديثي هذا أحسن من حديث محمد ؛ حكاه الفراء والنكبي وغيرهما . وقيل : كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول : أطعميه وأسقيه وغنّيه ؛ ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه . وهذا القول والأول ظاهر في الشراء . وقالت طائفة : الشراء في هذه الآية مستعار ، وإنما نزلت الآية في أحاديث قريش وتلهمهم بأمر الإسلام وخوضهم في الباطل . قال ابن عطية : فكان ترك ما يجب فعله وامتنال هذه المنكرات

(١) راجع ج ٨ ص ٢٣٥ فابعد . (٢) في آخر كتاب الاستئذان .

شراء لها؛ على حد قوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى »^(١) ؛ اشتروا الكفر بالإيمان ؛ أى استبدلوه منه واختاروه عليه . وقال مطرف : شراء لهو الحديث استجابته . قتادة : ولعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن سماعه شراؤه .

قلت : القول الأول أولى ما قيل به في هذا الباب ؛ للحديث المرفوع فيه ، وقول الصحابة والتابعين فيه . وقد زاد الثعلبي والواحدى في حديث أبى أمامة : « وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب^(٢) [والآخر على هذا المنكر] فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يكون هو الذى يسكت » . وروى الترمذى وغيره من حديث أنس وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صوتان ملعونان فاجران أنهى عنهما : صوت مزمار ورتة شيطان عند نعمة وصرح ورتة عند مصيبة أطم خدود وشق جيوب » . وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بُعثت بكسر المزامير » نخرجه أبو طالب الغيلاني . ونخرج ابن بشران عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بُعثت بهدم المزامير والطبل » . وروى الترمذى من حديث علي رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء — فذكر منها : إذا اتخذت القينات والمعازف » . وفي حديث أبى هريرة : « وظهرت القيان والمعازف » . وروى ابن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جلس إلى قينة يسمع منها ضب في أذنه الآنك يوم القيامة^(٣) » . وروى أسد بن موسى عن عبد العزيز بن أبى سلمة عن محمد بن المنكدر قال : بلغنا أن الله تعالى يقول يوم القيامة : « أين عبادى الذين كانوا يترهون أنفسهم وأسماعهم عن الله^(٤) ومزَامِير الشيطان أحلّوهم رياض المسك وأخبروهم أنى قد أحلت عليهم رضوانى » . وروى ابن وهب عن مالك عن محمد بن المنكدر مثله ، وزاد بعد قوله « المسك » : ثم يقول للملائكة أسمعوهم حمدي وشكري وثنائى ، وأخبروهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وقد روى مرفوعا هذا المعنى من حديث أبى موسى الأشعرى أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(٢) ما بين المربعين ساقط من الأصل المطبوع .

(١) راجع ج ١ ص ٢١٠ .

(٤) في ج ٤ ش : « رياض الجنة » .

(٣) الآنك : الرصاص .

”من آستمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع الروحانيين“ . فقيل : ومن الروحانيون يا رسول الله؟ قال : ”قراء أهل الجنة“ خرجه الترمذي الحكيم أبو عبدالله في نوادر الأصول ، وقد ذكرنا في كتاب التذكرة مع نظائره : ”فن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة ، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة“ . إلى غير ذلك . وكل ذلك صحيح المعنى على ما بيناه هناك . ومن رواية مكحول عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”من مات وعنده جارية مغنية فلا تصلوا عليه“ . ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء . وهي المسألة : —

الثانية — وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به ، الذي يحرك النفوس ويبعثها على الهوى والغزل ، والمجون الذي يحرك الساكن ويبعث الكامن ؛ فهذا النوع إذا كان في شعر يُشَبَّب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن وذكر الخمر والمحرمات لا يُختلف في تحريمه ؛ لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق . فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه في أوقات الفرح ؛ كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان في حفر الخندق وحادو أنجشة وسلمة بن الأكوخ^(١) . فأما ما ابتدئته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمعاذف والأوتار فحرام . ابن العربي : فأما طبل الحرب فلا حرج فيه ؛ لأنه يقيم النفوس ويرهب العدو . وفي البراءة تردد . والدف مباح . [الجوهري^(٢) : وربما سُموا قصبة الراعي التي يزرعها هيرة وبراءة^(٣)] . قال القشيري : ضرب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم يوم دخل المدينة ، فهم أبو بكر بالزجر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”دعهن يا أبا بكر حتى أعلم اليهود أن ديننا فسيح“ فكان يضربن ويقلن : نحن بنات النجار ، حبذا محمد من جار . وقد قيل : إن الطبل في النكاح كالدف ، وكذلك الآلات المشهورة للنكاح يجوز استعمالها فيه بما يحسن من الكلام ولم يكن فيه رفث .

(١) هو عبد أسود كان يسوق أو يقود بنساء النبي صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع ، وكان حسن الحذاء ، وكانت الإبل تزيد في الحركة بحذاءه . (٢) الشبابة (بالتشديد) : قصبة الزمر ، وهي مولدة . (٣) البراءة : مزمار الراعي . (٤) ما بين المربعين ماقط من ج ، ش .

الثالثة — الاشتغال بالغناء على الدوام سفه تُردّ به الشهادة، فإن لم يدم لم تردّ . وذكر إسحاق بن عيسى الطباع قال : سألت مالك بن أنس عما يُرخص فيه أهل المدينة من الغناء فقال : إنما يفعله عندنا الفساق . وذكر أبو الطيب طاهر بن عبيد الله الطبري قال : أما مالك بن أنس فإنه نهى عن الغناء وعن استماعه، وقال : إذا اشترى جارية ووجدتها مغنية كان له ردّها بالعيب ؛ وهو مذهب سائر أهل المدينة ؛ إلا إبراهيم بن سعد فإنه حكى عنه زكريا الساجي أنه كان لا يرى به بأسا . وقال ابن خُوَيْرِمْ مَنَّاد : فأما مالك فيقال عنه : إنه كان عالما بالصناعة وكان مذهب^(١)ه تحريمها . وروى عنه أنه قال : تعلمت هذه الصناعة وأنا غلام شاب، فقالت لي أمي : أي بني ! إن هذه الصناعة يصلح لها من كان صبيح الوجه ولست كذلك ، فاطلب العلوم الدينية ؛ فصحبت ربيعة فجعل الله في ذلك خيرا . قال أبو الطيب الطبري : وأما مذهب أبي حنيفة فإنه يكره الغناء مع إباحته شرب النبيذ ، ويجعل سماع الغناء من الذنوب . وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة : إبراهيم والشعمي وحامد والثوري وغيرهم ، لا اختلاف بينهم في ذلك . وكذلك لا يعرف بين أهل البصرة خلاف في كراهية ذلك والمنع منه ؛ إلا ما روى عن عبيد الله بن الحسن العنبري أنه كان لا يرى به بأسا . قال : وأما مذهب الشافعي فقال : الغناء مكروه يشبه الباطل ، ومن استكثر منه فهو سفه تردّ شهادته . وذكر أبو الفرج الجوزي عن إمامه أحمد بن حنبل ثلاث روايات قال : وقد ذكر أصحابنا عن أبي بكر الخلال وصاحبه عبد العزيز إباحة الغناء ، وإنما أشاروا إلى ما كان في زمانهما من القصائد الزهديات ؛ قال : وعلى هذا يحمل ما لم يكرهه أحمد ؛ ويدل عليه أنه سئل عن رجل مات وخلف ولدا وجارية مغنية فاحتاج الصبي إلى بيعها فقال : تباع على أنها ساذجة لا على أنها مغنية . فقل له : إنها تساوي ثلاثين ألفا ؛ ولعلها إن بيعت ساذجة تساوي عشرين ألفا ؟ فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة . قال أبو الفرج : وإنما قال أحمد هذا لأن هذه الجارية المغنية لا تغني بقصائد الزهد ، بل بالأشعار المطربة المثيرة إلى العشق .

(١) لفظة : « كان » ساقطة من جم .

وهذا دليل على أن الغناء محظور؛ إذ لو لم يكن محظوراً ما جاز تفويت المال على اليتيم . وصار هذا كقول أبي طلحة للنبي صلى الله عليه وسلم : عندى نحر لأيتام ؟ فقال : ” أرقها “ . فلو جاز استصلاحها لما أمر بتضييع مال اليتامى . قال الطبرى : فقد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه . وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبيد الله العنبري ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” عليكم بالسواد الأعظم “ . ومن فارق الجماعة مات ميتة جاهلية “ . قال أبو الفرج : وقال القفال من أصحابنا : لا تقبل شهادة المغنى والرقاص .

قلت : وإذ قد ثبت أن هذا الأمر لا يجوز فأخذ الأجرة عليه لا تجوز . وقد ادعى أبو عمر بن عبد البر الإجماع على تحريم الأجرة على ذلك . وقد مضى فى الأنعام عند قوله : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ^(١) » وَحَسْبُكَ .

الرابعة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : وأما سماع القيئات فيجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته ؛ إذ ليس شئ منها عليه حراماً لا من ظاهرها ولا من باطنها ، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها . أما أنه لا يجوز انكشاف النساء للرجال ولا هتك الأستار ولا سماع الرقت ، فإذا نرج ذلك إلى ما لا يحل ولا يجوز منع من أوله وأجئت من أصله . وقال أبو الطيب الطبرى : أما سماع الغناء من المرأة التى ليست بمحرمة فإن أصحاب الشافعى قالوا لا يجوز ، سواء كانت حرة أو مملوكة . قال : وقال الشافعى : وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته ؛ ثم غلط القول فيه فقال : فهى ديانة . وإنما جعل صاحبها سفيهاً لأنه دعا الناس إلى الباطل ، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيهاً .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قراءة العامة بضم الياء ؛ أى ليضل غيره عن طريق الهدى ، وإذا أضل غيره فقد ضل . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحيد وأبو عمرو ورؤيس وابن أبي إسحاق (بفتح الياء) على اللزوم ؛ أى ليضل هو نفسه .

(وَيَتَّخِذَهَا هُزُؤًا) قراءة المدنيين وأبي عمرو وعاصم بالرفع عطفًا على «مَنْ يَشْتَرِي» ويجوز أن يكون مستأنفاً. وقرأ الأعمش وحمة والكسائي : «وَيَتَّخِذَهَا» بالنصب عطفًا على «لِيُضِلَّ» . ومن الوجهين جميعاً لا يحسن الوقف على قوله : «يَغَيِّرُ عِلْمٌ» والوقف على قوله : «هُزُؤًا» ، والهاء في «يَتَّخِذَهَا» كناية عن الآيات . ويجوز أن يكون كناية عن السبيل ؛ لأن السبيل يؤث ويذكر . (أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) أى شديد يهينهم . قال الشاعر :

ولقد جزعت إلى النصارى بعد ما * لقي الصليب من العذاب مهينا^(١)

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ وَقرأ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا) يعنى القرآن . (وَلَّى) أى أعرض . (مُسْتَكْبِرًا) نصب على الحال . (كَأَنَّ لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ وَقرأ) ثَقَلًا وَصَمًا . وقد تقدم . (فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) تقدم أيضا .^(٢)

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ) لما ذكر عذاب الكفار ذكر نعيم المؤمنين . (خَالِدِينَ فِيهَا) أى دائمين . (وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا) أى وعدهم الله هذا وعداً حقاً لا خُلف فيه . (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) تقدم أيضا .^(٣)

(١) هذا البيت لحرير من قصيدة يهجو بها الأخطل ، مظهرها :

أمسيت إذ رحل الشباب حزينا * أبت الليال قبل ذاك فتيانا

(٢) راجع ج ٦ ص ٤٠٤ . (٣) راجع ج ١ ص ١٩٨ و ٢٣٨ فابعد .

(٤) راجع ج ١ ص ٢٨٧ و ج ٢ ص ١٣١ فابعد .

قوله تعالى : خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوْنَهَا ^١ وَالَّتِي فِي الْأَرْضِ رَوَايَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوْنَهَا) تكون « تَرْوْنَهَا » في موضع خفض على النعت لـ « عَمَدٍ » فيمكن أن يكون ثمَّ عَمَدٍ ولكن لا تُرى . ويجوز أن تكون في موضع نصب على الحال من « السَّمَوَاتِ » ولا عَمَدٍ ثمَّ الثَّبَت . النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول : الأولى أن يكون مستأنفا ، ولا عَمَدٍ ثمَّ ؛ قاله مكي . ويكون « بِغَيْرِ عَمَدٍ » التمام . وقد مضى في « الرد » الكلام في هذه الآية . (وَالَّتِي فِي الْأَرْضِ رَوَايَ) أي جبالا ثوابت . (أَنْ تَمِيدَ) في موضع نصب ؛ أي كراهية أن تميد . والكوفيون يقدرونه بمعنى لئلا تميد . (وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) عن ابن عباس : من كل لون حسن . وتأوله الشعبي على الناس ؛ لأنهم مخلوقون من الأرض ؛ قال : من كان منهم يصير إلى الجنة فهو الكريم ، ومن كان منهم يصير إلى النار فهو اللئيم . وقد تأول غيره أن النطفة مخلوقة من تراب ، وظاهر القرآن يدل على ذلك .

قوله تعالى : (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ) [مبتدأ وخبر . واخلق بمعنى المخلوق ؛ أي هذا الذي ذكرته مما تعابنون « خَلْقُ اللَّهِ »] أي مخلوق الله ، أي خلقها من غير شريك . (فَأَرُونِي) معاشر المشركين (مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) يعني الأصنام . (بَلِ الظَّالِمُونَ) أي المشركون (فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أي خسران ظاهر . و « ما » استفهام في موضع رفع بالابتداء وخبره « ذا » وذا بمعنى الذي . و « خلق » واقع على هاء محذوفة ؛ تقديره فأروني أي شيء خلق الذين من دونه ؛ والجملة في موضع نصب بـ « فأروني » وتضمير الهاء مع « خلق »

تعود على الذين ؛ أى فارونى الأشياء التى خلقها الذين من دونه . وعلى هذا القول تقول :
 ماذا تعلمت ، أنحو أم شعر . ويجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ «أرونى و « ذا »
 زائد ؛ وعلى هذا القول يقول : ماذا تعلمت ، أنحو أم شعرا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ إِنَّ اشْكُرَّ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ
 فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ مفعولان . ولم ينصرف « لُقْمَان » لأن
 فى آخره ألفا ونونا زائدين ؛ فاشبهه فُعْلان الذى أنشأ فعلى فلم ينصرف فى المعرفة لأن ذلك
 ثقل ثان ، وأنصرف فى النكرة لأن أحد الثقلين قد زال ؛ قاله النحاس . وهو لقمان بن باعوراء
 ابن ناحور بن تَارَح ، وهو آزر أبو إبراهيم ؛ كذا نسبه محمد بن إسحاق . وقيل : هو لقمان
 ابن عنقاء بن سرون وكان نوبيا من أهل أيلة ؛ ذكره السهيلي . قال وهب : كان أبى أخت
 أيوب . وقال مقاتل : ذكر أنه كان ابن خالة أيوب . الرَّحْمَشَرى : وهو لقمان بن باعوراء
 ابن أخت أيوب أو ابن خالته ، وقيل كان من أولاد آزر ، عاش ألف سنة وأدركه داود عليه
 الصلاة والسلام وأخذ عنه العلم ، وكان يُفتى قبل مبعث داود ، فلما بعث قطع الفتوى فقبل له ،
 فقال : ألا أكتفى إذ كُفيت . وقال الواقدي : كان قاضيا فى بنى إسرائيل . وقال سعيد
 ابن المسيب : كان لقمان أسود من سودان مصر ذا مشافر ، أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه
 النبوة ؛ وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان ولياً ولم يكن نبياً . وقال بنبوته عكرمة والشعبي ؛
 وعلى هذا تكون الحكمة النبوة . والصواب أنه كان رجلاً حكيماً بحكمة الله تعالى — وهى
 الصواب فى المعتقدات والفقه فى الدين والعقل — قاضياً فى بنى إسرائيل ، أسود مشقق الرجلين^(١)
 ذا مشافر ، أى عظيم الشفتين ؛ قاله ابن عباس وغيره . وروى من حديث ابن عمر قال :
 سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثيراً التفكر

(١) فى تفسير ابن عطية : « ... والعمل » .

حسن اليقين ، أحب الله تعالى فأحبه ، فنّ عليه بالحكمة ، وخيره في أن يجعله خليفة يحكم بالحق ؛ فقال : ربّ ، إن خيرتني قبلتُ العافية وتركت البلاء ، وإن عزمتَ عليّ فسمعاً وطاعة فلأنك ستعصمني ؛ ذكره ابن عطية . وزاد الثعلبيّ : فقالت له الملائكة بصوت لا يراهم : لمَ يا لقمان ؟ قال : لأن الحاكم بأشدّ المنازل وأكدرها ، يغشاه المظلوم من كل مكان ، إن يُعَنّ فبالحرى أن ينجو^(١) ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة . ومن يكن في الدنيا ذليلاً [فذلك^(٢) خير من أن يكون فيها شريفاً . ومن يَخْتَرِ الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا يصيب الآخرة . فعمّجت الملائكة من حسن منطقته ؛ فنام نومة فأعطى الحكمة فانتبه يتكلّم بها . ثم نودي داود بعده فقبلها — يعني الخلافة — ولم يشترط ما اشترطه لقمان ، فهو في الخطيئة غير مرة ، كل ذلك يعفو الله عنه . وكان لقمان يوازره بحكمته ؛ فقال له داود : طوبى لك يا لقمان ! أعطيت الحكمة وصُرف عنك البلاء ، وأُعطى داود الخلافة وأبْتُلَى بالبلاء والفتنة . وقال قتادة : خير الله تعالى لقمان بين النبوة والحكمة ؛ فاختار الحكمة على النبوة ؛ فأناؤه جبريل عليه السلام وهو نائم فدرّ عليه الحكمة فأصبح وهو ينطق بها ؛ فقليل له : كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك ؟ فقال : إنه لو أرسل إلى بالنبوة عزيمة لرجوت فيها العون منه ، ولكنه خيرني نخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحبّ إليّ .

واختلف في صنمته ؛ فقليل : كان خياطاً ؛ قاله سعيد بن المسيّب ، وقال لرجل أسود : لا تخزن من أنك أسود ، فإنه كان من خير الناس ثلاثةً من السودان : بلال ومُهْجَع مولى عمرو ولقمان . وقيل : كان محتطب كل يوم لمولاه حُرْمة حطب . وقال لرجل ينظر إليه : إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض . وقيل : كان راعياً ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال له : ألسنت عبيد بني فلان ؟ قال بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قدر الله ، وأدأى الأمانة ، وصدق الحديث ،

(١) يقال : فلان حرى بكذا ، وحرى بكذا ، وحرى بكذا ، وبالحرى أن يكون كذا ؛ أى جدير وخليق .

(٢) زيادة يقتضها السياق . (٣) عزائم الله : فرائضه التي أوجبها على عباده .

وترك ما لا يعنيني ، قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر . وقال خالد الرباعي : كان نجاراً ؛ فقال له سيده : اذبح لي شاة وانتني بأطيبها مضغتين ؛ فأناه باللسان والقلب ؛ فقال له : ما كان فيها شيء أطيب من هذين ؟ فسكت ، ثم أمره بذبح شاة أخرى ثم قال له : ألق أخبثها مضغتين ؛ فألقى اللسان والقلب ؛ فقال له : أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين فأتيتني باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلقى أخبثها فألقيت اللسان والقلب ؟ ! فقال له : إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا .

قلت : هذا معناه مرفوع في غير ما حديث ؛ من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :
 ” ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب “ . وجاء في اللسان آثار كثيرة صحيحة وشهيرة ؛ منها قوله عليه السلام :
 ” من وفاه الله شراثنين وبلج الجنة : ما بين لحيته ^(١) ورجليه ... “ الحديث . وحكم لقمان كثيرة مأثورة هذا منها . وقيل له : أي الناس شر ؟ قال : الذي لا يبالي أن رآه الناس مسيئاً .

قلت : وهذا أيضا مرفوع معنى ، قال صلى الله عليه وسلم : ” كل أمتي معافي إلا المجاهرون وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه “ . رواه أبو هريرة نخرجه البخاري . وقال وهب بن منبه : قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب . وروى أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدروع ، وقد لين الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله ، فأدركته الحكمة فسكت ؛ فلما أتمها ليسها وقال : نعم كبوس الحرب أنت . فقال : الصمت حكمة ، وقليل فاعله . فقال له داود : بحق ما سُميت حكيماً .

قوله تعالى : ﴿ اِنَّ اَشْكُرَّ لِلّٰهِ ﴾ فيه تقديران : أحدهما أن تكون « أن » بمعنى أى مفسرة ؛ أى قلنا له اشكر . والقول الآخر أنها في موضع نصب والفعل داخل في صلتها ؛ كما حكى سيبويه : كتبت إليه أن قم ؛ إلا أن هذا الوجه عنده بعيد . وقال الزجاج : المعنى ولقد آتينا لقمان

(١) اللسان : حائطا الفم ، وهما العظام اللذان فيما الأسنان من داخل الفم من كل دى لى .

الحكمة لأن يشكر الله تعالى . وقيل : أى بأن أشكر الله تعالى فشكره فكان حكيماً بشكره لنا .
والشكر لله : طاعته فيما أمر به . وقد مضى القول فى حقيقته لغة ومعنى فى «البقرة»^(١) وغيرها .
(وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) أى من يطع الله تعالى فإنما يعمل لنفسه ؛ لأن نفع الثواب
عائد إليه . (وَمَنْ كَفَرَ) أى كفر النعم فلم يوحد الله (فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ) عن عبادة خلقه
(حَمِيدٌ) عند الخلق ؛ أى محمود . وقال يحيى بن سلام : « غنى » عن خلقه « حميدٌ » فى فعله

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنِىَ لَا تُشْرِكْ
بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ) قال السهمي : اسم ابنه ثاران ؛ فى قول
الطبرى والفتي . وقال الكلبي : مشكم . وقيل أنعم ؛ حكاه النقاش . وذكر القشيري أن
ابنه وامراته كانا كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما .

قلت : ودل على هذا قوله : « لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » . وفى صحيح مسلم
وغيره عن عبد الله قال : لما نزلت « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » شق ذلك على
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : أين لا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه : يا بني لا تشرك بالله إن الشرك
نظلم عظيم » . واختلف فى قوله : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » فقيل : إنه من كلام لقمان . وقيل :
هو خبر من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان متصلاً به فى تأكيد المعنى ؛ ويؤيد هذا الحديث
المأثور أنه لما نزلت : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » أشفق أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقالوا : أين لم يظلم ؛ فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » فسكن إشفاقهم ،
وإنما يسكن إشفاقهم بأن يكون خبراً من الله تعالى ؛ وقد يسكن الإشفاق بأن يذكر الله ذلك
عن عبد قد وصفه بالحكمة والسداد . و « إذ » فى موضع نصب بمعنى اذكر . وقال الزجاج

(١) راجع ج ١ ص ٣٩٧ . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٩ فما بعد . .

في كتابه في القرآن: إن «إذ» في موضع نصب بـ «آتينا» والمعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال: النحاس: وأحسبه غلطا؛ لأن في الكلام واوا تمنع من ذلك. وقال: (يأبى) بكسر الياء؛ لأنها دالة على الياء المحذوفة، ومن فتحها فلخفة الفتحة عنده؛ وقد مضى في «هود» القول في هذا. وقوله: «يأبى» ليس هو على حقيقة التصغير وإن كان على لفظه، وإنما هو على وجه الترفيق؛ كما يقال للرجل: يا أُنْحَى، وللصبي هو كُوَيْس.

قوله تعالى: وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَآتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تَمِّمْ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)

فيه ثمانى مسائل:

الأولى - قوله تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ) هاتان الآيتان اعتراض بين أثناء وصية لقمان. وقيل: إن هذا مما أوصى به لقمان أبنه؛ أخبر الله به عنه؛ أى قال لقمان لابنه: لا تشرك بالله ولا تطع في الشرك والديك، فإن الله وصى بهما في طاعتهما مما لا يكون شركا ومعصية لله تعالى. وقيل: أى وإذ قال لقمان لابنه؛ فقلنا للقمان فيما آتينا من الحكمة ووصينا الإنسان بالديه؛ أى قلنا له أشكر الله، وقلنا له ووصينا الإنسان. وقيل: وإذ قال لقمان لابنه لا تشرك، ونحن وصينا الإنسان بالديه حسنا، وأمرنا الناس بهذا، وأمر لقمان به أبنه؛ ذكر هذه الأقوال القشيري. والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص؛ كما تقدم في «العنكبوت» وعليه جماعة المفسرين.

(١) في نسخ الأصل: «يو-ف» وهو تحريف. راجع ج ٩ ص ٣٩. (٢) راجع ج ١٣ ص ٣٢٨.

وجملة هذا الباب أن طاعة الأبوين لا تراعى في ركوب كبيرة ولا في ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتها في المباحات، ويستحسن في ترك الطاعات الندب؛ ومنه أمر الجهاد الكفائية، والإجابة للآثم في الصلاة مع إمكان الإعادة؛ على أن هذا أقوى من الندب؛ لكن يعلل بخوف هلكة عليها، ونحوه مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى من الندب^(١). وخالف الحسن في هذا التفصيل فقال: إن منعه أمه من شهود العشاء شفقة فلا يطعها.

الثانية — لما خصّ تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرضاع حصل لها بذلك ثلاث مراتب، وللاب واحدة؛ وأشبه ذلك قوله صلى الله عليه وسلم حين قال له رجل من أبرّ؟ قال: «أمك» قال ثم من؟ قال: «أمك» قال ثم من؟ قال: «أمك» قال ثم من؟ قال: «أبوك» فجعل له التربع من المسيرة كما في هذه الآية؛ وقد مضى هذا كله في «سبحان»^(٢).

الثالثة — قوله تعالى: ((وَهَنَّا عَلَىٰ وَهْنٍ)) أى حملته في بطنها وهى تزداد كل يوم ضعفا على ضعف. وقيل: المرأة ضعيفة الحلقة ثم يضعفها الحمل. وقرأ عيسى الثقفى: «وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ» بفتح الهاء فيهما؛ ورويت عن أبي عمرو، وهما بمعنى واحد. قال قعنّب ابن أم صاحب:

هل للعواذل من ناهٍ فيزجرهما • إن العواذل فيها الإين والوهن
يقال: وهن يهن، ووهن يوهن ووهن، يهن، مثل وريم يرم. وانتصب «وهنا» على المصدر؛ ذكره القشيري. النحاس: على المفعول الثانى بإسقاط حرف الجر؛ أى حملته بضعف على ضعف. وقرأ الجمهور: «وفصّاله» وقرأ الحسن ويعقوب: «وفصّله» وهما لغتان، أى وفصّاله في انقضاء عامين؛ والمقصود من الفصل الفطام، فعبر بغايته ونهايته. ويقال: انفصل عن كذا أى تميز؛ وبه سُميَ الفَصِيل.

(١) لفظة «أقوى ساقطة من الأصل المطبوع» . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٣٩ .

الرابعة — الناس يُجْمَعُونَ عَلَى الْعَامِينَ فِي مَدَّةِ الرِّضَاعِ فِي بَابِ الْأَحْكَامِ وَالنَّفَقَاتِ ،
 وَأَمَّا فِي تَحْرِيمِ اللَّبَنِ فَخَدَّدَتْ فَرْقَةً بِالْعَامِ لَا زِيَادَةَ وَلَا نَقْصَ . وَقَالَتْ فَرْقَةٌ : الْعَامَانِ وَمَا آتَصَلَ
 بِهِمَا مِنَ الشَّهْرِ وَنَحْوِهِ إِذَا كَانَ مُتَّصِلَ الرِّضَاعِ . وَقَالَتْ فَرْقَةٌ : إِنْ قُطِعَ الصَّبِيُّ قَبْلَ الْعَامِينَ
 وَتَرَكَ اللَّبْنَ فَإِنْ مَا شَرِبَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْحَوْلَيْنِ لَا يَحْتَرَمُ ، وَقَدْ مَضَى هَذَا فِي «الْبَقَّةِ» مُسْتَوْفٍ ،
 الْخَامِسَةُ — قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ اِنَّ اَشْكُرْ لِي ﴾ « أَنْ » فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ فِي قَوْلِ الزَّجَاجِ ،
 وَأَنْ الْمَعْنَى : وَوَصَيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ أَنْ أَشْكُرْ لِي . النَّحَاسُ : وَاجُودٌ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ « أَنْ »
 مَفْسُورَةٌ ، وَالْمَعْنَى : فَلَنَا لَهُ أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ . قِيلَ : الشُّكْرُ لِلَّهِ عَلَى نِعْمَةِ الْإِيمَانِ ، وَلِلْوَالِدَيْنِ
 عَلَى نِعْمَةِ التَّرْبِيَةِ . وَقَالَ سَفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : مَنْ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فَقَدْ شَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى ،
 وَمَنْ دَعَا لِوَالِدَيْهِ فِي أَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ فَقَدْ شَكَرَهُمَا .

السادسة — قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَبْلِغُوا النَّاسَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَالَّتِي قَبْلَهَا تَزَلُّنَا فِي شَأْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ لَمَّا أَسْلَمَ ،
 وَأَنَّ أُمَّهُ وَهِيَ حَمْنَةُ بِنْتُ أَبِي سَفْيَانَ بْنِ أُمَيَّةَ حَلَفَتْ أَلَّا تَأْكُلَ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا .

السابعة — قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ نَعَتْ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ ،
 أَيْ مَصَاحِبًا مَعْرُوفًا ، يُقَالُ صَاحِبَتُهُ مَصَاحِبَةٌ وَمَصَاحِبًا . وَ« مَعْرُوفًا » أَيْ مَا يَحْسَنُ .

وَالْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى صَلَوةِ الْأَبْوِينَ الْكَافِرِينَ بِمَا أَمَكْنَ مِنَ الْمَالِ إِنْ كَانَا فَقِيرِينَ ، وَالْإِنْفَاقُ
 الْقَوْلُ وَالِدَعَاءُ إِلَى الْإِسْلَامِ بِرَفَقٍ . وَقَدْ قَالَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
 وَقَدْ قَدِمْتَ عَلَيْهَا خَالَتُهَا وَقِيلَ لَهَا مِنْ الرِّضَاعَةِ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنْ أَتَى قَدِمْتَ عَلَيَّ وَهِيَ
 رَاغِبَةٌ أَفْأَصْلُهَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ » . وَرَاغِبَةٌ قِيلَ مَعْنَاهُ : عَنِ الْإِسْلَامِ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : وَالظَّاهِرُ
 عِنْدِي أَنَّهَا رَاغِبَةٌ فِي الصَّلَاةِ ، وَمَا كَانَتْ لِتَقْدَمَ عَلَى أَسْمَاءَ لَوْلَا حَاجَتُهَا . وَوَالِدَةُ أَسْمَاءَ هِيَ قُتَيْبَةُ
 بِنْتُ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ عَبْدِ أَسَدٍ . وَأُمُّ عَائِشَةَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ هِيَ أُمُّ رُومَانَ قَدِيمَةِ الْإِسْلَامِ .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ وصية لجميع العالم ؛ كأن المأمور الإنسان . و « أَنَابَ » معناه مال ورجع إلى الشيء ؛ وهذه سبيل الأنبياء والصالحين . وحكى النقاش أن المأمور سعد ، والذي أناب أبو بكر ؛ وقال : إن أبا بكر لما أسلم أنه سعد وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزبير فقالوا : آمنت ! قال نعم ؛ فنزلت فيه : « أَمْ مَنْ هُوَ قَالَتْ أَنَا اللَّيْلُ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ^(١) » فلما سمعها الستة آمنوا ؛ فانزل الله تعالى فيهم : « وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ^(١) » - إلى قوله - أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ . وقيل : الذي أناب النبي صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس : ولما أسلم سعد أسلم معه أخواه عامر وعويمر ؛ فلم يبق منهم مشرك إلا عتبة . ثم تواعد عز وجل يبعث من في القبور والرجوع إليه للجزاء والتوقيف على صغير الأعمال وكبيرها .

قوله تعالى : يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

المعنى : وقال لقمان لابنه يا بُنَيَّ . وهذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام أبنه بقدر قدرة الله تعالى . وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهمه ، لأن الخردلة يقال : إن الحس لا يدرك لها ثِقَلًا ، إذ لا ترجح ميزانها . أى لو كان للإنسان رزق مثقال حبة خردل في هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقها إلى من هى رزقه ؛ أى لا تهتم للرزق حتى تستغل به عن أداء الفرائض ، وعن اتباع سبيل من أناب إلى .

قلت : ومن هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن مسعود : " لا تكثِرْ همك ما يُقدَّرُ يكون وما تُرْزَقُ يأتيك " . وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ؛ سبحانه لا شريك له . وروى أن ابن لقمان سأل أباه

عن الحبة تقع في سفل البحر أعلمها الله ؟ فراجعهم لقمان بهذه الآية . وقيل : المعنى أنه أراد الأعمال ، المعاصي والطاعات ؛ أى إن تك الحسنة أو الخطيئة مثقال حبة يأت بها الله ؛ أى لا تفوت الإنسان المقدر وقوعها منه . وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف مضاف [ذلك] إلى تبيين قدرة الله تعالى . وفي القول الأول ليس فيه ترجية ولا تخويف .

قوله تعالى : ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ عبارة تصلح للجواهر ، أى قدر حبة ، وتصلح للأعمال ؛ أى ما يزنه على جهة المماثلة قدر حبة . ومما يؤيد قول من قال هى من الجواهر : قراءة عبد الكريم الجوزى ^(٢) « فَتَكُنْ » بكسر الكاف وشدّ النون ، من الكُنّ الذى هو الشيء المغطى . وقرأ جمهور القراء : « إِنْ تَكُ » بالتاء من فوق « مِثْقَالَ » بالنصب على خبر كان ، وأسماها مضممر تقديره : مسألتك ، على ما روى ، أو المعصية والطاعة على القول الثانى ؛ ويدل على صحته قول ابن لقمان لأبيه : يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يرانى أحد كيف يعلمها الله ؟ فقال لقمان له : « يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ نَخْدٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ » الآية . فما زال أبنه يضطرب حتى مات ؛ قاله مقاتل . والضمير فى « إِنَّهَا » ضمير القصة ؛ كقولك : إنها هند قائمة ؛ أى القصة إنها إن تك مثقال حبة . والبصريون يحيزون : إنها زيد ضربته ؛ بمعنى إن القصة . والكوفيون لا يحيزون هذا إلا فى المؤنث كما ذكرنا . وقرأ نافع : « مِثْقَالُ » بالرفع ، وعلى هذا « تَكُ » يرجع إلى معنى نخدلة ؛ أى إن تك حبة من نخردل . وقيل : أسند إلى المنقال فعلا فيه علامة التانيث من حيث انضاف إلى مؤنث هو منه ؛ لأن مثقال الحبة من النخردل إما سيئة أو حسنة ؛ كما قال : « قَلْبُهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ^(٣) » فأنت وإن كان المثل مذكرا ؛ لأنه أراد الحسنات . وهذا كقول الشاعر :

مَشِينٌ كَمَا اهْتَرَّتْ رِمَاحٌ تَسْفَهَتْ * أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيحِ النَّوَاسِمِ ^(٤)

و « تَكُ » هاهنا بمعنى تقع فلا تقتضى خبرا .

(١) زيادة عن ابن عطية . (٢) فى ج : « الجوزى » . (٣) فى ج : « الجوزى » . راجع ج ٧ ص ١٥٠ . (٤) البيت لذي الرمة . و « تسفهت » : استخفت ، والسفه خفة العقل وضعفه . و « النواسم » : الضعيفة الهبوب . وصف نساء فيقول : إذا مشين اهترزن فى مشين وتثنين فكأنهن رماح نصبت فرت عليها الرياح فاهترت وتثنت .

قوله تعالى : ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ قيل : معنى الكلام المبالغة والانتهاى فى التفهيم ؛ أى أن قدرته تعالى تنال ما يكون فى تضاعيف صخرة وما يكون فى السماء والأرض . وقال ابن عباس : الصخرة تحت الأرضين السبع وعليها الأرض . وقيل : هى الصخرة على ظهر الحوت . وقال السدى : هى صخرة ليست فى السموات والأرض ، بل هى وراء سبع أرضين عليها ملك قائم ؛ لأنه قال : ﴿ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ ﴾ وفيهما غنية عن قوله : « فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ » ؛ وهذا الذى قاله ممكن ، ويمكن أن يقال : قوله : « فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ » تأكيد ؛ كقوله : « افْعَلْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ » ، وقوله : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا » .

قوله تعالى : يٰٓيُٰبُنَىَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يٰٓيُٰبُنَىَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ وصى ابنه بعظم الطاعات وهى الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهذا إنما يريد به بعد أن يمثل ذلك هو فى نفسه ويزدجر عن المنكر ، وهنا هى الطاعات والفضائل أجمع . ولقد أحسن من قال :

وأبدأ بنفسك فأنها عن غيبها * فإذا آتته عنه فأنت حكيم
فى أبيات تقدم فى « البقرة » ذكرها .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ يقتضى حصاً على تغيير المنكر وإن نالك ضرر ؛ فهو إشعار بأن المغير يؤذى أحياناً ؛ وهذا القدر على جهة الندب والقوة فى ذات الله ؛ وأما على اللزوم فلا ، وقد مضى الكلام فى هذا مستوفى فى « آل عمران والمائدة » . وقيل : أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها ، وألا يخرج من الجزع إلى معصية الله عز وجل ؛ وهذا قول حسن لأنه يعنى .

(٢) راجع ج ١٠ ص ٢٠٤ .

(١) راجع ج ٢٠ ص ١١٧ .

(٤) راجع ج ٤ ص ٤٧ ، راجع ج ٦ ص ٢٤٣ .

(٣) راجع ج ١ ص ٣٦٧ .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ قال ابن عباس : من حقيقة الإيمان الصبر على المكروه . وقيل : إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور ؛ أى مما عزمه الله وأمر به ؛ قاله ابن جريج . ويحتمل إن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة . وقول ابن جريج أصوب .
قوله تعالى : وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قرأ نافع وأبو عمرو وحمة والكسائي وابن مُحَيِّص : « تصاعر » بالألف بعد الصاد . وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر والحسن ومجاهد : « تُصَعَّر » وقرأ الجحدري : « تُصَعِر » بسكون الصاد ؛ والمعنى متقارب . والصَّعَر : الميل ؛ ومنه قول الأعرابي : وقد أقام الدهر صعري ، بعد أن أقمت صعره . ومنه قول عمرو بن حنبل التغلبي :
وكنا إذا الجبار صعَّر خدَّه * أقناله من مَيْلِهِ فَتَقَوَّمُ^(١)
وأنشده الطبري : « فتقوما » . قال ابن عطية : وهو خطأ ؛ لأن قافية الشعر مخفوضة .
وفى بيت آخر :

* أقناله من خدَّه المتصعر *

قال الهروي : « ولا تصاعر » أى لا تعرض عنهم تكبرا عليهم ؛ يقال : أصاب البعير صعراً وصيّد إذ أصابه داء يَلْوِي منه عنقه . ثم يقال للتكبر : فيه صعَر وصيّد ؛ فعنى : « لَا تُصَعِّر » أى لا تلزم خدك الصَّعَر . وفى الحديث : « يأتى على الناس زمان ليس فيهم إلا أضعُر أو أبتَر »

(١) يريد : فتقوم أنت . (٢) قبل هذا البيت كما فى معجم الشعراء للرزبانى :

نعاطى الملوك الحق ما قصدوا بنا * وليس علينا فتلهم بحرم

قال المرزبانى : وهذا البيت - بيت الشاهد - يروى من قصيدة المنهس التى أولها :

بعيرنى أى رجال ولنى ترى * أخا كرم إلا بأن ينكرما

والأصغر : المعرض بوجهه كبراً ، وأراد رذالة الناس الذين لا دين لهم . وفي الحديث :
« كل صغار ملعون » أى كل ذى أهبة وكبر .

الثانية — معنى الآية : ولا تُمِلْ خَدَّكَ للناس كبراً عليهم وإعجاباً واحتقاراً لهم .
وهذا تأويل ابن عباس وجماعة . وقيل : هو أن تلوى شِدْقَكَ إذا ذكر الرجل عندك كأنك
تحتقره ، فالمعنى : أقبل عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً ، وإذا حدثك أصغرهم فاصنع إليه
حتى يكمل حديثه . وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل .

قلت : ومن هذا المعنى^(١) ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : « لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً ،
ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » . فالتدابير الإعراض وترك الكلام والسلام ونحوه .
ولأنما قيل للإعراض تدابر لأن من أبغضته أعرضت عنه ووليته دبرك ؛ وكذلك يصنع
هو بك . ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك وواجهته لتسره ويسرك ؛ فمعنى التدابر موجود
فمن صَعَرَ خَدَّهُ ، وبه فسر مجاهد الآية . وقال ابن خُوَيزِمَةَ مَدَّاد : قوله : « وَلَا تُصَاعِرْ خَدَّكَ
لِلنَّاسِ » كأنه نهى أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة ؛ ونحو ذلك روى عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال : « ليس للإنسان أن يذل نفسه » .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أى متبختراً متكبراً ، مصدر
في موضع الحال ، وقد مضى في « سبحانه »^(٢) . وهو النشاط والمشي فرحاً في غير شغل وفي غير
حاجة . وأهل هذا الخُلُقُ ملازمون للفخر والحُيَلَاءِ ؛ فالمرح مختال في مشيته . روى يحيى
ابن جابر الطائى عن ابن عائذ الأزدي عن غُضَيْفِ بْنِ الْحَارِثِ قال : أتيت بيت المقدس
أنا وعبد الله بن عبيد بن عمير^(٣) قال : بخأسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاصي فسمعتة يقول : إن
القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فيقول : يا بن آدم ما غرَّكَ بى ! ألم تعلم أنى بيت الوحدة ! ألم
تعلم أنى بيت الظلمة ! ألم تعلم أنى بيت الحق ! يا بن آدم ما غرَّكَ بى ! لقد كنت تمشى حولى

(١) في ج « ومن هذا الباب » . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٦٠ . (٣) ورد هذا الامم
مضطرباً في نسخ الأصل . والتصويب عن تهذيب التهذيب .

فَذَا . قال ابن عائذ قلت لُغْضِيف : ما الفَذَادُ يا أبا أسماء ؟ قال : كِبْعُضٌ مِشْيَتِكَ يا بنِ أَخِي أحياناً . قال أبو عبيد : والمعنى ذا مال كثير وذا خِيَلَاء . وقال صلى الله عليه وسلم : ” من جرَّ ثوبه خِيَلَاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة “ . والفَخُور : هو الذى يعدد ما أُعْطِيَ ولا يشكر الله تعالى ؛ قاله مجاهد . وفى اللفظة الفخر بالنسب وغير ذلك .

قوله تعالى : **وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَآغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴿١٩﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ)** لما نهاه عن الخُلُقِ الذميم رسم له الخُلُقُ الكريم الذى ينبغى أن يستعمله فقال : **« وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ »** أى توسط فيه . والقصد : ما بين الإسراع والبطء ؛ أى لا تَدِبْ دِيبَ الْمُتَمَلَّوِينَ ولا تَتَبْ وَتِبَ الشُّطَارِ ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن “ . فأما ما روى عنه عليه السلام أنه كان إذا مشى أسرع ، وقول عائشة فى عمر رضى الله عنهما : كان إذا مشى أسرع — فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دِيبِ المتماوت ؛ والله أعلم . وقد مدح الله سبحانه من هذه صفته حسبما تقدم بيانه فى **« الفرقان »** ^(١) .

الثانية — قوله تعالى : **(وَآغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ)** أى انقص منه ؛ أى لا تتكلف رفع الصوت وخذ منه ما تحتاج إليه ؛ فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلف يؤذى . والمراد بذلك كله التواضع ؛ وقد قال عمر لمؤذن تكلف رفع الأذان بأكثر من طاقته : لقد خشيت أن ينشق مُرِيْطَاؤُكَ ! والمؤذن هو أبو محذورة سُمرَة بن مَعِير ^(٢) . والمُرِيْطَاءُ : ما بين السرة إلى العانة .

الثالثة — قوله تعالى : **(إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)** أى أقبحها وأوحشها ؛ ومنه أتاناً بوجه منكر . والحمار مثل فى الظم البليغ والشتيمة ، وكذلك نُهاقه ؛ ومن استفحاشهم

(١) راجع ج ١٣ ص ٦٨ . (٢) فى الأصول : « معير » بالميم بدل الباء وهو تحريف .

لذكره مجردا أنهم يكونون عنه ويرغبون عن التصريح فيقولون : الطويل الأذنين ؛ كما يكنى عن الأشياء المستقذرة . وقد عُدَّ في مساوئ الآداب أن يجرى ذكر الحمار في مجلس قوم من أولى المروءة . ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا وإن بلغت منه الرجل^(١) . وكان عليه الصلاة والسلام يركبه تواضعا وتذلا لله تبارك وتعالى .

الرابعة — في الآية دليل على تعريف قبج رفع الصوت في المخاطبة والمُلاحاة بقبج^(٢) أصوات الحمير ؛ لأنها عالية . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأَتْ شيطاناً “ . وقد روى : أنه ما صاح حمار ولا نبج كلب إلا أن يرى شيطاناً . وقال سفيان الثوري : صياح كل شيء تسبيح إلا نهيق الحمير . وقال عطاء : نهيق الحمير دعاء على الظلمة .

الخامسة — وهذه الآية أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاونا^(٣) بهم ، أو بترك الصياح جملة ؛ وكانت العرب تفخر بجهازة الصوت بالجهير وغير ذلك ، فمن كان منهم أشد صوتا كان أعز ، ومن كان أخفض كان أذل ، حتى قال شاعرهم :
جَهِيرُ الْكَلَامِ جَهِيرُ الْعُطَاسِ * جَهِيرُ الرِّوَاءِ جَهِيرُ النَّعَمِ^(٤)
وَيَعْدُو عَلَى الْإَيْنِ عَدْوَى الظُّلَمِ * وَيَعْلُو الرِّجَالُ بِخَلْقِ عَمَمِ^(٥)
فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله : « إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْجَمِيرِ »
أى لو أن شيئا يهاب لصوته لكان الحمار ؛ فجعلهم في المثل سواء .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ لَصَوْتُ الْجَمِيرِ ﴾ اللام للتأكيد ، ووحده الصوت وإن كان مضافا إلى الجماعة لأنه مصدر والمصدر يدل على الكثرة ، وهو مصدر صات يصوت صَوْتًا فهو صائت . ويقال : صَوْتُ تصويتا فهو مصوَّت . ورجل صات أى شديد الصوت بمعنى صائت ؛ كقولهم : رجل مأل ونأل ؛ أى كثير المال والنوال .

(١) الرجل (بضم فسكون) : المشى راجلا . (٢) الملاحاة : الملاومة والمباغضة .

(٣) لفظة «أنه» ساقطة من ج . (٤) في ك : «وفي هذه الآية إذن من الله تعالى بترك الصوت والصياح» .

(٥) في ج : «تهازيا» . (٦) الرواء (بالضم والمد) : المنظر الحسن . والنعم : الإبل .

(٧) الأَيْن : الإعياء . والخلق العمم : التام .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلَى نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ذكر نعمه على بنى آدم ، وأنه سخر لهم « مَّا فِي السَّمَوَاتِ » من شمس وقر ونجوم وملائكة تحوطهم وتجر إليهم منافعهم . « وَمَا فِي الْأَرْضِ » عام في الجبال والأشجار والثمار وما لا يحصى . ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ﴾ أى أكملها وأتمها . وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمار : « وَأَصْبَغَ » بالصاد على بدلها من السين ؛ لأن حروف الاستعلاء تجتذب السين من سفلها إلى علوها فتزدها صاداً . والنعم : جمع نعمة كسندرة وسدر (بفتح الدال) وهى قراءة نافع وأبى عمرو وحفص . الباقون : « نِعْمَةٌ » على الأفراد ؛ والأفراد يدل على الكثرة ؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » ^(١) . وهى قراءة ابن عباس من وجوه صحاح . وقيل : إن معناها الإسلام ؛ قال النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية : « الظاهرة الإسلام وما حسن من خلقك ، والباطنة ما ستر عليك من سنى عملك » . النحاس : وشرح هذا أن سعيد بن جبير قال فى قول الله عز وجل : « وَلَئِنْ يُرِيدِ إِيظَاهَرُكُمْ وَلِيَّتُمْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ » ^(٢) قال : يدخلكم الجنة . وتنام نعمة الله عز وجل على العبد أن يدخله الجنة ، فكذا لما كان الإسلام يثول أمره إلى الجنة سُمى نعمة . وقيل : الظاهرة الصحة وكال الخلق ، والباطنة المعرفة والعقل . وقال المحاسبى : الظاهرة نعم الدنيا ، والباطنة نعم العقبى . وقيل : الظاهرة ما يرى بالابصار من المال والجاه والجمال فى الناس وتوفيق الطاعات ، والباطنة ما يجده المرء فى نفسه من العلم بالله

(١) راجع ج ٩ ص ٣٦٦ فـ بعد .

(٢) راجع ج ٦ ص ٨٠ فـ بعد .

في سلمت أنه بمعنى دفعت ؛ يقال سلمت في الحنطة ، وقد يقال أسلمت . الزمخشري :
قرأ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : « وَمَنْ يُسَلِّمْ » بالتشديد ؛ يقال : أسلم أمرك وسلم
أمرك إلى الله تعالى ؛ فإن قلت : ماله عُدَى بلى ، وقد عُدَى باللام في قوله عز وجل :
« بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ^(١) » ؟ قلت : معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله ؛
أى خالصاً له . ومعناه مع إلى راجع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع
إليه . والمراد التوكل عليه والتفويض إليه . (وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) أى مصيرها .

قوله تعالى : وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ
بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ
إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : (وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا) أى نجازيهم .
(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) . (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا) أى نبقىهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها .
(ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ) أى نلجئهم ونسوقهم . (إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ) وهو عذاب جهنم . ولفظ
« مَنْ » يصلح للواحد والجمع ، فلهذا قال : « كُفْرُهُ » ثم قال : « مَرْجِعُهُمْ » وما بعده
على المعنى .

قوله تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ) أى هم
يعترفون بأن الله خالقهم فلم يعبدون غيره . (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) أى على ما هدانا له من دينه ،
وليس الحمد لغيره . (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أى لا ينظرون ولا يتدبرون . (لِلَّهِ

مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى ملكا وخلقاً . (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ) أى الغنى عن خلقه وعن عبادتهم ، وإنما أمرهم لينفعهم . (الْحَمِيدُ) أى المحمود على صنعه .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾

لما احتج على المشركين بما احتج بين أن معانى كلامه سبحانه لا تنفذ، وأنها لا نهاية لها . وقال القفال : لما ذكر أنه سخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض وأنه أسبغ النعم نبيه على أن الأشجار لو كانت أقلاماً ، والبحار مداداً فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفذ تلك العجائب . قال القشيري : فرد معنى تلك الكلمات إلى المقدورات ، وحمل الآية على الكلام القديم أولى ؛ والمخلوق لا بد له من نهاية ، فإذا نفيت النهاية عن مقدوراته فهو نفي النهاية عما يقدر فى المستقبل على إيجاده ، فأما ما حصره الوجود وعده فلا بد من تناهيه ، والقديم لا نهاية له على التحقيق . وقد مضى الكلام فى معنى « كَلِمَاتُ اللَّهِ » فى آخر « الكهف »^(١) . وقال أبو على : المراد بالكلمات والله أعلم ما فى المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود . وهذا نحو مما قاله القفال ، وإنما الغرض الإعلام بكثرة معانى كلمات الله وهى فى نفسها غير متناهية ، وإنما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة ؛ لا أنها تنفذ بأكثر من هذه الأقلام والبحور . ومعنى نزول الآية : يدل على أن المراد بالكلمات الكلام القديم . قال ابن عباس : إن سبب هذه الآية أن اليهود قالت : يا محمد ، كيف عُنيْنَا بهذا القول « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »^(٢) ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه ، وعندك أنها تبيان كل شيء ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التوراة قليل من كثير » ونزلت هذه الآية ، والآية مدنية . قال أبو جعفر النحاس : فقد تبين أن الكلمات ها هنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء ؛ لأنه عز وجل علم قبل أن

يخلق الخلق ما هو خالق في السموات والأرض من كل شيء ، وعلم ما فيه من مثاقيل الذر ؛
وعلم الأجناس كلها وما فيها من شعرة وعضو ، وما في الشجرة من ورقة ، وما فيها من
ضروب الخلق ، وما يتصرف فيه من ضروب الطعم واللون ؛ فلو سمي كل دابة وحدها ،
وسمي أجزائها على ما علم من قليلها وكثيرها وما تحولت عليه من الأحوال ، وما زاد فيها في كل
زمان ، وبين كل شجرة وحدها وما تفرعت إليه ، وقدر ما يبس من ذلك في كل زمان ،
ثم كتب البيان على كل واحد منها ما أحاط الله جل ثناؤه به منها ، ثم كان البحر مدادا لذلك
البيان الذي بين الله تبارك وتعالى عن تلك الأشياء يمدّه من بعده سبعة أبحر لكان البيان عن
تلك الأشياء أكثر .

قلت : هذا معنى قول القفال ، وهو قول حسن إن شاء الله تعالى . وقال قوم : إن
قريشا قالت سيتم هذا الكلام لمحمد وينحسر ؛ فنزلت . وقال السدي : قالت قريش ما أكثر
كلام محمد ! فنزلت .

قوله تعالى : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ ﴾ قراءة الجمهور بالرفع على الابتداء ، وخبره في الجملة التي
بعدها ، والجملة في موضع الحال ؛ كأنه قال : والبحر هذه حاله ؛ كذا قدرها سيبويه .
وقال بعض النحويين : هو عطف على « أن » لأنها في موضع رفع بالابتداء . وقرأ أبو عمرو
وآبن أبي إسحاق : « وَالْبَحْرَ » بالنصب على العطف على « ما » وهي اسم « أن » . وقيل : أي
ولو أن البحر يمدّه أي يزيد فيه . وقرأ ابن هُرْمُز والحسن : « يمدّه » ؛ من أمد . قالت
فرقة : هما بمعنى واحد . وقالت فرقة : مد الشيء بعضه بعضا ؛ كما تقول : مد النيل الخليج ؛
أي زاد فيه . وأمد الشيء ما ليس منه . وقد مضى هذا في « البقرة » وآل عمران^(١) . وقرأ
جعفر بن محمد : « والبحر مداده » . ﴿ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ تقدم^(٢) . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(٣)
تقدم أيضا . وقال أبو عبيدة : البحر ها هنا الماء العذب الذي ينبت الأقلام ، وأما الماء
الملح فلا ينبت الأقلام .

(٢) راجع ج ١١ ص ٦٨ .

(١) راجع ج ١ ص ٢٠٩ وج ٤ ص ١٩٤ فابعد .

(٣) راجع ج ٢ ص ١٣١ .

قوله تعالى : مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) قال الضحاك : المعنى ما ابتداء خلقكم جميعا إلا تخلق نفس واحدة ، وما بعثكم يوم القيامة إلا كبعث نفس واحدة . قال النحاس : وهكذا قدره النحويون بمعنى إلا تخلق نفس واحدة ؛ مثل : « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ ^(١) » . وقال مجاهد : لأنه يقول للقليل والكثير كن فيكون . ونزلت الآية في أبي بن خلف وأبي الأسدين ^(٢) ومنبه ونبيه ابني الحجاج بن السباق ، قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى قد خلقنا أطوارا ، نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما ، ثم تقول إنا نبعث خلقا جديدا جميعا في ساعة واحدة ! فأنزل الله تعالى : « مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » ، لأن الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد ، وخلقهم للعالم تخلقهم لنفس واحدة . (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ) لما يقولون (بَصِيرٌ) بما يفعلون .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) تقدم في « الحج وآل عمران » . (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) أى ذللهما بالطلوع والأفول تقديرا للأجال وإتماما للأنواع . (كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) قال الحسن : إلى يوم القيامة . قتادة :

(١) راجع ج ٩ ص ٢٤٥ فما بعد . (٢) كنا في نسخ الأصل . وفي روح المعاني : « وأبي الأسود » .

(٣) في الأصل : « الحج والأنعام » وهو تحريف . راجع ج ١٢ ص ٩٠ وج ٤ ص ٥٦ .

إلى وقته في طلوعه وأفوله لا يَدُّوهُ ولا يَقْصُرُ عَنْهُ . (وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) أى من قدر على هذه الأشياء فلا بد من أن يكون عالماً بها ، والعالم بها عالم بأعمالكم . وقراءة العامة « تَعْمَلُونَ » بالناء على الخطاب . وقرأ السلمي ونصر بن عاصم والدوري عن أبي عمرو بالياء على الخبر . (ذَلِكَ) أى فعل الله تعالى ذلك لتعلموا وتقرؤوا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ) أى الشيطان ؛ قاله مجاهد . وقيل : ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان . (وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) العلى في مكانته ، الكبير في سلطانه .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ) أى السفن (تَجْرِي) في موضع الخبر . (فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ) أى بلطفه بكم وبرحمته لكم في خلاصكم منه . وقرأ ابن هُرْمُز : « بنعمات الله » جمع نعمة وهو جمع السلامة ، وكان الأصل تحريك العين فأسكنت . (لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ) « مِنْ » للتبويض ، أى ليرى بكم جرى السفن ؛ قاله يحيى بن سلام . وقال ابن شجرة : « مِنْ آيَاتِهِ » ما تشهدون من قدرة الله تعالى فيه . النقاش : ما يرزقهم الله منه . وقال الحسن : مفتاح البحار السفن ، ومفتاح الأرض الطرق ، ومفتاح السماء الدعاء . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) أى صبار لقضائه شكور على نعمائه . وقال أهل المعاني : أراد لكل مؤمن بهذه الصفة ؛ لأن الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان . والآية : العلامة ، والعلامة لانتبين في صدر كل مؤمن إنما تستبين لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء . قال الشَّعْبِيُّ : الصبر نصف الإيمان ، والشكر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله ؛ ألم تر إلى قوله تعالى : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » وقوله : « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ^(١) » وقال عليه السلام : « الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر » .

قوله تعالى : وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ) قال مقاتل : كالجبال . وقال الكلبي : كالسحاب ؛ وقاله قتادة — جمع ظلة ؛ شبه الموج بها لكبرها وارتفاعها . قال النابغة في وصف بحر :

يماشين أخضر ذو ظلال * على حافاته فلق الدنان

ولما شبه الموج وهو واحد بالظل وهو جمع ؛ لأن الموج يأتي شيئاً بعد شيء ويركب بعضه بعضاً كالظلال . وقيل : هو بمعنى الجمع ، وإنما لم يجمع لأنه مصدر ، وأصله من الحركة والازدحام ؛ ومنه : ماج البحر ، والناس يموجون . قال كعب :

فلحنا إلى موج من البحر وسطه * أحابيش منهم حاسر ومقنع

وقرأ محمد بن الحنفية : « مَوْجٌ كَالظَّلَالِ » جمع ظل . (دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) موحدين له لا يدعون خلاصهم سواه ؛ وقد تقدم . (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ) ^(١) يعني من البحر . (إِلَى الْبَرِّ) فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ قال ابن عباس : موفٍ بما عاهد عليه الله في البحر . النقاش : يعني عدل في العهد ، وفي في البر بما عاهد عليه الله في البحر . وقال الحسن : «مُقْتَصِدٌ» مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة . وقال مجاهد : «مُقْتَصِدٌ» في القول مضمحل للكفر . وقيل : في الكلام حذف ؛ والمعنى : فمنهم مقتصد ومنهم كافر . ودل على المحذوف قوله تعالى : (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ) الختار : الغدار . والختار : أسوأ الغدر . قال عمرو بن معديكرب : فإنك لو رأيت أبا عمير * ملأت يديك من غدر وخر

وقال الأعشى :

بالأبقي الفرد من تيماء منزله * حصن حصين وجار غير ختار

قال الجوهري : الخثر الغدر ؛ يقال : خثره فهو خثار . الماوردي : وهو قول الجمهور .
وقال عطية : إنه الجاحد . ويقال : خثر يَخْثِرُ وَيَخْثَرُ (بالضم والكسر) خَثْرًا ؛ ذكره القشيري ،
ومجد الآيات إنكار أعيانها . والمجد بالآيات إنكار دلائلها .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي
وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ) يعني الكافر والمؤمن ؛ أي خافوه ووحّدوه .
(وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا) تقدّم معنى
« يَجْزِي » في البقرة وغيرها . فإن قيل : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من مات له ثلاثة
من الولد لم يبلغوا الحنث لم تمسه النار إلا تيمّله القسم » . وقال : « من ابتلى بشيء من هذه البنات
فأحسن إليهن كنّ له حجابا من النار » . قيل له : المعنى بهذه الآية أنه لا يحمل والد الذنب
ولده ، ولا مولود ذنب والده ، ولا يؤاخذ أحدهما عن الآخر . والمعنى بالأخبار أن ثواب
الصبر على الموت والإحسان إلى البنات يحجب العبد عن النار ، ويكون الولد سابقا له
إلى الجنة . (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) أي البعث (فَلَا تَغُرَّنَّكُم) أي تخدعنكم (الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)
بزينتها وما تدعوا إليه فتكلموا عليها وتركوا إليها وتركوا العمل للآخرة (وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ)
قراءة العامة هنا وفي سورة الملائكة (٣) والحديد بفتح الغين ، وهو الشيطان في قول مجاهد وغيره ،
وهو الذي يغتر الخلق ويمتنعهم الدنيا ويلتهمهم عن الآخرة ؛ وفي سورة النساء : « يَدْعُهُمْ وَيَمْنِيهِمْ » .
وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة وابن السّميق بضم الغين ؛ أي لا تغتروا . كأنه مصدر غرّ
يغرّ غرورا . قال سعيد بن جبّير : هو أن يعمل بالمعصية ويتمنى المغفرة .

(١) راجع ج ١ ص ٣٧٧ . (٢) أي لم يبلغوا مبلغ الرجال ويجري عليهم القلم فكاتب عليهم الحنث ؛

وهو الإثم . (٣) راجع ص ٣٢٢ من هذا الجزء . (٤) راجع ج ١٧ ص ٢٤٧ .

(٥) راجع ج ٥ ص ٣٩٥ .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

زعم القراء أن هذا معنى النفي ؛ أى ما يعلمه أحد إلا الله تعالى . قال أبو جعفر النحاس : وإنما صار فيه معنى النفي والإيجاب بتوقيف الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال فى قول الله عز وجل « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » : ” إنها هذه “ :

قلت : قد ذكرنا فى سورة « الأنعام »^(١) حديث ابن عمر فى هذا ، أخرجه البخارى . وفى حديث جبريل عليه السلام قال : ” أخبرنى عن الساعة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، هن خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا “ قال : ” صدقت “ . لفظ أبى داود الطيالسى . وقال عبد الله بن مسعود : كل شىء أوتى نبيكم صلى الله عليه وسلم غير خمس : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » ، الآية إلى آخرها . وقال ابن عباس : هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى ، ولا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل ؛ فمن ادعى أنه يعلم شيئا من هذه فقد كفر بالقرآن ؛ لأنه خالفه . ثم إن الأنبياء يعلمون كثيرا من الغيب بتعريف الله تعالى إياهم . والمراد بإبطال كون الكهنة والمنجمين ومن يستسقى بالأنواء^(٢) وقد يعرف بطول التجارب أشياء من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك ؛ حسبما تقدم ذكره فى الأنعام^(١) . وقد تختلف التجربة وتنكسر العادة ويبقى العلم لله تعالى وحده . وروى أن يهوديا كان يحسب حساب النجوم ، فقال لابن عباس : إن شئت نبأناك نجم أبناك ، وأنه يموت بعد عشرة أيام ،

(١) راجع ج ٧ ص ١ و ص ٢ فابعد . (٢) الأنواء : جمع نوء ، وهو سقوط نجم فى المنازل فى المغرب مع الفجر وطلوع آخر من المشرق يقابله فى ساعته . وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها .

وأنت لا تموت حتى تعمى ، وأنا لا يحول على الحول حتى أموت . قال : فإن موتك يا يهودى ؟ فقال : لا أدري . فقال ابن عباس : صدق الله . « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » فرجع ابن عباس فوجد ابنه محمومًا ، ومات بعد عشرة أيام . ومات اليهودى قبل الحول ، ومات ابن عباس أعمى . قال على بن الحسين راوى هذا الحديث : هذا أعجب الأحاديث . وقال مقاتل : إن هذه الآية نزلت في رجل من أهل البادية اسمه الوارث ابن عمرو بن حارثة ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن امرأتى حبلى فأخبرنى ماذا تلد ، وبلادنا جدبة فأخبرنى متى ينزل الغيث ، وقد علمت متى ولدت فأخبرنى متى أموت ، وقد علمت ما عملت اليوم فأخبرنى ماذا أعمل غدا ، وأخبرنى متى تقوم الساعة ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ؛ ذكره القشيري والماوردي . وروى أبو المليح عن أبي عزة الهذلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يقدمها - ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم - « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ - إلى قوله - بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » ذكره الماوردي ، وخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بمعناه . وقد ذكرناه في كتاب (النذكرة) مستوفى . وقراءة العامة : « وَيُنَزَّلُ » مشددا . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي مخففا . وقرأ أبي بن كعب : « بِأَيِّ أَرْضٍ » الباقون « بِأَيِّ أَرْضٍ » . قال الفراء : اكتفى بتأنيث الأرض من تأنيث أى . وقيل : أراد بالأرض المكان فذكر . قال الشاعر :

فلا مِرْنة ودَقْتُ ودَقَّها * ولا أرض أبقل إبقالها^(١)

وقال الأخفش : يجوز مررت بجارية أى - جارية ، وأية جارية . وشبهه سيبويه تأنيث «أى» بتأنيث كُلِّ في قولهم : كُلُّهُمْ . « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ » « خَيْرٌ » نعت لـ « عليم » أو خبر بعد خبر . والله تعالى أعلم .

(١) القائل هو عامر بن جوين الطائي . وصف أرضا مخربة لكثرة ما نزل بها من الغيث . والمنزلة : السحابة .

والودق : المطر .

تفسير سورة السجدة

وهي مكية ، غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة ؛ وهي قوله تعالى : « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا » تمام ثلاث آيات ؛ قاله الكلبي ومقاتل . وقال غيرهما : إلا خمس آيات ، من قوله تعالى : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ ^(١) — إِلَى قَوْلِهِ — الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ » . وهي ثلاثون آية . وقيل تسع وعشرون . وفي الصحيح عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة « اَللّٰمَّ . تَنْزِيلُ » السجدة ، و « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ » الحديث . وخرج الدارمي أبو محمد في مسنده عن جابر بن عبد الله قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ : « اَللّٰمَّ . تَنْزِيلُ » السجدة . و « تَبَارَكَ الَّذِي يَبْسُطُ أَلْمُلُكُ » . قال الدارمي : وأخبرنا أبو المغيرة قال حدثنا عبدة عن خالد بن معدان قال : اقرءوا المنجية ، وهي « اَللّٰمَّ . تَنْزِيلُ » . فإنه بلغني أن رجلا كان يقرأها ، ما يقرأ شيئا غيرها ، وكان كثير الخطايا ؛ فشمرت جناحها عليه وقالت : رب اغفر له فإنه كان يكثر من قراءتي ؛ فشفعها الرب فيه وقال : « اكتبوا له بكل خطيئة حسنة وأرفعوا له درجة » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : اَللّٰمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ اَلَمْ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ الإجماع على رفع « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ » ولو كان منصوبا على المصدر لحاز ؛ كما قرأ الكوفيون : « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ^(١) » . و « تَنْزِيلُ » رفع بالابتداء والخبر ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ . أو خبر على إضمار مبتدأ ؛ أي هذا تنزيل ، أو المتلو تنزيل ، أو هذه الحروف تنزيل . ودأت : « اَلَمْ »

على ذكر الحروف . ويجوز أن يكون « لَا رَيْبَ فِيهِ » في موضع الحال من « الْكِتَابِ » .
 و (مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) الخبر . قال مكي : وهو أحسنها . ومعنى : « لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ » لا شك فيه أنه من عند الله ؛ فليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأولين .
 قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِنُنْذِرَ

قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) هذه « أَمْ » المنقطعة التي تقدر بـ « بَلْ » وألف الاستفهام ؛
 أى بل يقولون . وهى تدل على خروج من حديث إلى حديث ؛ فإنه عز وجل أثبت أنه تنزيل
 من رب العالمين ، وأن ذلك مما لا ريب فيه ، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله : « أَمْ يَقُولُونَ
 افْتَرَاهُ » أى افتعله واختلقه . (بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) كذبهم فى دعوى الافتراء . (لِنُنْذِرَ
 قَوْمًا) قال قتادة : يعنى قريشا ، كانوا أمة أمية لم يأتهم نذير من قبل محمد صلى الله عليه وسلم .
 و « لِنُنْذِرَ » متعلق بما قبلها فلا يوقف على « مِنْ رَبِّكَ » . ويجوز أن يتعلق بمحذوف ؛ التقدير :
 أنزله لتنذر قوما ، فيجوز الوقف على « مِنْ رَبِّكَ » . و « مَا » فى قوله : (مَّا أَتَاهُمْ) نفى .
 (مِنْ نَذِيرٍ) صلة . و « نَذِيرٍ » فى محل الرفع ، وهو المَعْلَمُ الْمُخَوَّفُ . وقيل : المراد بالقوم
 أهل الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ؛ قاله ابن عباس ومقاتل . وقيل : كانت الحجة
 ثابتة لله جل وعز عليهم بإنذار من تقدم من الرسل وإن لم يروا رسولا ؛ وقد تقدم
 هذا المعنى ^(١) .

قوله تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
 فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ
 أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عرفهم كمال قدرته ليسمعوا القرآن ويتأملوه . ومعنى: « خَلَقَ » أبداع وأوجد بعد العدم وبعد أن لم تكن شيئاً . ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة . قال الحسن : من أيام الدنيا . وقال ابن عباس : إن اليوم من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض مقدارُه ألف سنة من سِنِي الدنيا . وقال الضحاك : في ستة آلاف سنة ؛ أى في مدة ستة أيام من أيام الآخرة . ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدّم في الأعراف والبقرة وغيرهما ، وذكرنا ما للعلماء في ذلك مستوفى في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) . وليست « ثُمَّ » للترتيب وإنما هي بمعنى الواو . ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أى ما للكافرين من وليٍّ يمنع من هذابهم ولا شفيع . ويجوز الرفع على الموضع . ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ في قدرته ومخلوقاته .

قوله تعالى : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : يُنْزِلُ الْقَضَاءَ وَالْقَدْرَ . وقيل : ينزل الوحي مع جبريل . وروى عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن سابط قال : يدبر أمر الدنيا أربعة : جبريل ، وميكائيل ، ومَلَكُ الموت ، وإسرافيل ؛ صلوات الله عليهم أجمعين . فأما جبريل فوكل بالرياح والجنود . وأما ميكائيل فوكل بالطير والماء . وأما مَلَكُ الموت فوكل بقبض الأرواح . وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم . وقد قيل : إن العرش موضع التدبير ؛ كما أن مادون العرش موضع التفصيل ؛ قال الله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ » . ﴿٢﴾ وما دون السموات موضع التصريف ؛ قال الله تعالى : « وَلَقَدْ صَرَّفْنَا بِهِمْ يُدَبِّرُونَ الْأُمُورَ » . ﴿٣﴾

(٢) راجع ج ٩ ص ٢٧٩ فما بعده .

(١) راجع ج ٧ ص ٢١٩ وج ١ ص ٢٥٤ .

(٣) راجع ج ١٣ ص ٥٧ .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَرْجُؤُا إِلَيْهِ ﴾ قال يحيى بن سلام : هو جبريل يصعد إلى السماء بعد نزوله بالوحي . النقاش : هو الملك الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض . وقيل : إنها أخبار أهل الأرض تصعد إليه مع حملتها من الملائكة ؛ قاله ابن شجرة . ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ . وقيل : « ثُمَّ يَرْجُؤُا إِلَيْهِ » أى يرجع ذلك الأمر والتدبير إليه بعد انقضاء الدنيا « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ » وهو يوم القيامة . وعلى الأقوال المتقدمة فالكتابة في « يَرْجُؤُا » كتابة عن الملك ، ولم يحمله ذكر لأنه مفهوم من المعنى ، وقد جاء صريحا في « سَأَلَ سَائِلٌ » قوله : « تَرْجُؤُا الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ » . والضمير في ﴿ إِلَيْهِ ﴾ يعود على السماء على لغة من يذكرها ، أو على مكان الملك الذي يرجع إليه ، أو على اسم الله تعالى ؛ والمراد إلى الموضع الذي أقره فيه ، وإذا رجعت إلى الله فقد رجعت إلى السماء ، أى إلى سدرة المنتهى ؛ فإنه إليها يرتفع ما يصعد به من الأرض ومنها ينزل ما يهبط به إليها ؛ ثبت معنى ذلك في صحيح مسلم . والهاء في « مِقْدَارُهُ » راجعة إلى التدبير ؛ والمعنى : كان مقدار ذلك التدبير ألف سنة من سني الدنيا ؛ أى يقضى أمر كل شيء لألف سنة في يوم واحد ، ثم يلقيه إلى ملائكته ، فإذا مضت قضى لألف سنة أخرى ، ثم كذلك أبدا ؛ قاله مجاهد . وقيل : الهاء للعروج . وقيل : المعنى أنه يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، ثم يرجع إليه ذلك الأمر فيحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة . وقيل : المعنى يدبر أمر الشمس في طلوعها وغروبها ورجوعها إلى موضعها من الطلوع ، في يوم كان مقداره في المسافة ألف سنة . وقال ابن عباس : المعنى كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة ؛ لأن النزول نحسبائه والصعود نحسبائه . وروى ذلك عن جماعة من المفسرين ، وهو اختيار الطبري ؛ ذكره المهدوي . وهو معنى القول الأول . أى أن جبريل لسرعة سيره يقطع مسيرة ألف سنة في يوم من أيامكم ؛ ذكره الزمخشري . وذكر الماوردي عن ابن عباس والضحاك أن الملك يصعد في يوم مسيرة ألف سنة . وعن قتادة أن الملك ينزل ويصعد في يوم مقداره ألف سنة ؛ فيكون مقدار

نزوله خمسمائة سنة ، ومقدار صعوده خمسمائة على قول قتادة والسدي . وعلى قول ابن عباس والضحاك : النزول ألف سنة ، والصعود ألف سنة . ﴿ يَمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أى مما تحسبون من أيام الدنيا . وهذا اليوم عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة من سنى العالم ، وليس بيوم يستوعب نهارا بين ليلتين ؛ لأن ذلك ليس عند الله . والعرب قد تعبر عن مدة العصر باليوم ؛ كما قال الشاعر :

يومان يومٌ مقامات وأندية * ويومٌ سير إلى الأعداء تأويب^(١)

وليس يريد يومين مخصوصين ، وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين ، فعبر عن كل واحد من الشطرين بيوم . وقرأ ابن أبي عتبة : « يَعْجُجُ » على البناء للفعول . وقرئ : « يَعُدُّونَ » بالياء . فأما قوله تعالى : « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » فشكل مع هذه الآية . وقد سأل عبد الله بن فيروز الديلمي عبد الله بن عباس عن هذه الآية وعن قوله : « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » فقال : أيام سماها سبحانه ، وما أدري ما هى ؟ فأكره أن أقول فيها مالا أعلم . ثم سئل عنها سعيد بن المسيب فقال : لا أدري . فأخبرته بقول ابن عباس فقال ابن المسيب للسائل : هذا ابن عباس أتق أن يقول فيها وهو أعلم مني . ثم تكلم العلماء في ذلك فقبيل : إن آية « سَأَلْ سَائِلٌ » هو إشارة إلى يوم القيامة ، بخلاف هذه الآية . والمعنى : أن الله تعالى جعله في صعودته على الكفار خمسين ألف سنة ؛ قاله ابن عباس . والعرب تصف أيام المكروه بالطول وأيام السرور بالقصر . قال :

ويوم كظل الرمح قصر طوله * دم الزق عنا وأصطفأ المظاهر

وقيل : إن يوم القيامة فيه أيام ؛ فنه ما مقداره ألف سنة ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة . وقيل : أوقات القيامة مختلفة ، فيعذب الكافر بجنس من العذاب ألف سنة ، ثم ينتقل إلى جنس آخر مدته خمسون ألف سنة . وقيل : مواقف القيامة خمسون موقفا ، كل موقف ألف سنة . فمعنى : « يَعْجُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ » أى مقدار

(١) البيت لسلامة بن جندل . والتأويب في كلام العرب : سير النهار كله إلى الليل . يقال : أوب القوم تأويبا أى ساروا بالنهار .

وقت ، أو موقف من يوم القيامة . وقال النحاس : اليوم في اللغة بمعنى الوقت ، فالمعنى : تخرج الملائكة والروح إليه في وقت كان مقداره ألف سنة ، وفي وقت آخر كان مقداره خمسين ألف سنة . وعن وهب بن منبه « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » قال : ما بين أسفل الأرض إلى العرش . وذكر الثعلبي عن مجاهد وقتادة والضحاك في قوله تعالى : « تَخْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » ^(١) أراد من الأرض إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى التي فيها جبريل . يقول تعالى : يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا . وقوله : (إِلَيْهِ) يعني إلى المكان الذي أمرهم الله تعالى أن يرجعوا إليه . وهذا كقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ » ^(٢) أراد أرض الشام . وقال تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ » ^(٣) أى إلى المدينة . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَنَا نِي مَلِكٌ مِنْ رَبِّي عِزٌّ وَجَلٌّ بِرِسَالَةٍ ثُمَّ رَفَعَ رِجْلَهُ فَوَضَعَهَا فَوْقَ السَّمَاءِ وَالْأُخْرَى عَلَى الْأَرْضِ لَمْ يَرْفَعْهَا بَعْدَ » .

قوله تعالى : ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾

قوله تعالى : (ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) أى علم ما غاب عن الخلق وما حضرهم . و « ذَلِكَ » بمعنى أنا . حسبما تقدم بيانه في أول البقرة . وفي الكلام معنى التهديد والوعيد ؛ أى اخلصوا أفعالكم وأقوالكم فإنى أجازى عليها .

قوله تعالى : الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

(٢) راجع ج ١٥ ص ٩٨ .
(٤) راجع ج ١ ص ١٥٧ فما بعد .

(١) راجع ص ٨٧ و ٨٨ من هذا الجزء .
(٣) راجع ج ١٥ ص ٣٤٧ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : « خَلَقَهُ » بإسكان اللام . وفتحها الباقون . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم طلبا لسهولة . وهو فعل ماضٍ في موضع خفض نعت لـ « شيء » . والمعنى على ما روى عن ابن عباس : أحكم كل شيء خلقه ، أى جاء به على ما أراد ، لم يتغير عن إرادته . وقول آخر — أن كل شيء خلقه حسن ؛ لأنه لا يقدر أحد أن يأتي بمثله ؛ وهو دالٌّ على خالقه . ومن أسكن اللام فهو مصدر عند سيبويه ؛ لأن قوله : « أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ » يدلُّ على : خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقًا ؛ فهو مثل : « صُنِعَ اللَّهُ ^(١) » و « كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ^(٢) » . وعند غيره منصوب على البديل من « كل » أى الذى أحسن خلق كل شيء . وهو مفعول ثانٍ عند بعض النحويين ، على أن يكون معنى : « أَحْسَنَ » أفهم وأعلم ؛ فيتعدي إلى مفعولين ، أى أفهم كل شيء خلقه . وقيل : هو منصوب على التفسير ؛ والمعنى : أحسن كل شيء خلقا . وقيل : هو منصوب بإسقاط حرف الجر ، والمعنى : أحسن كل شيء فى خلقه . وروى معناه عن ابن عباس و ﴿ أَحْسَنَ ﴾ أى أتقن وأحكم ؛ فهو أحسن من جهة ما هو لمقاصده التى أريد لها . ومن هذا المعنى قال ابن عباس وكرمة : ليست آسَت القرد بحسنة ، ولكنها متقنة محكمة . وروى ابن أبى نجيع عن مجاهد « أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ » قال : أتقنه . وهو مثل قوله تبارك وتعالى : « الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ^(٣) » أى لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة ، ولا خلق البهيمة [على] خلق الإنسان . ويجوز : « خلقه » بالرفع ؛ على تقدير ذلك خلقه . وقيل : هو عموم فى اللفظ خصوص فى المعنى ؛ والمعنى : حسن خلق كل شيء حسن . وقيل : هو عموم فى اللفظ والمعنى ، أى جعل كل شيء خلقه حسنا ، حتى جعل الكلب فى خلقه حسنا ؛ قاله ابن عباس . وقال قتادة : فى آسَت القرد حسنة .

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ يعنى آدم . ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ تقدم فى « المؤمنون » وغيرها . وقال الزجاج : « مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » ضعيف .

(٢) راجع ج ٥ ص ١٢٠ .

(٤) راجع ج ١٢ ص ١٠٩ .

(١) راجع ج ١٣ ص ٢٣٩ فابعد .

(٣) راجع ج ١١ ص ٢٠٣ فابعد .

وقال غيره : « مَهِينٌ » لا خطر له عند الناس . (ثُمَّ سَوَّاهُ) رجع إلى آدم ، أى سَوَّى خلقه .
 (وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ) ثم رجع إلى ذَرَّتِهِ فقال : (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) .
 وقيل : ثم جعل ذلك الماء المَهِين خلقا معتدلا ، وركب فيه الروح وأضافه إلى نفسه تشريفا .
 وأيضا فإنه من فعله وخلقه كما أضاف العبد إليه بقوله : « عَبْدِي » . وعبر عنه بالنفخ لأن
 الروح في جنس الريح . وقد مضى هذا مَبِينًا في « النساء »^(١) وغيرها . (قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)
 أى ثم أتم لا تشكرون بل تكفرون .

قوله تعالى : وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ
 بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ) هذا قول منكى البعث ؛ أى هلكتنا
 وبطلنا وصرنا ترابا . وأصله من قول العرب : ضَلَّ الماء في اللبن إذا ذهب . والعرب تقول
 للشئ غاب عليه غيره حتى خفى فيه أثره : قد ضَلَّ . قال الأخطل :

كُنْتُ الْقَدَى فِي مَوْجٍ أَكْدَرُ مُزْبِدٍ * قَذَفَ الْآتَى بِهِ فَضَلَ ضَلَالَا

وقال قُطْرُب : معنى ضَلَلْنَا غَبْنَا في الأرض . وأنشد قول النابغة الذبياني :

فَأَبَ مُضَلُّوهُ بِعَيْنِ جَلِيَّةٍ * وَغُودِرَ بِالْجَوْلَانِ حَزْمٌ وَنَائِلٌ

وقرأ ابن مُحَيِّصٍ ويحيى بن يعمر : « ضَلَلْنَا » بكسر اللام ، وهى لغة . قال الجوهري :
 وقد ضَلَلْتُ أَضِلُّ قال الله تعالى : « قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي »^(٢) . فهذه لغة نجد
 وهى الفصيحة . وأهل العالية يقولون : « ضَلَلْتُ » — بكسر اللام — أَضِلُّ . وهو ضَالٌّ
 تَالٌ ، وهى الضلالة والتلالاة . وأضله أى أضاعه وأهلكه . يقال : أَضِلَّ المبت إذا
 دفن . قال :

* فَأَبَ مُضَلُّوهُ ... * البيت .

(٢) راجع ص ٣١٣ من هذا الجزء .

(١) راجع ج ٦ ص ٢٢ .

ابن السكيت . أضللت بعيرى إذا ذهب منك . وضللت المسجد والدار : إذا لم تعرف موضعهما . وكذلك كل شئ مقيم لا يتهدى له . وفى الحديث " لعلّ أضل الله " يريد أضل عنه ، أى أخفى عليه ، من قوله تعالى : « أَثَدَّا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ » أى خفيّا . وأضله الله فضّل ، تقول : إنك تهدى الضالّ ولا تهدى المتضال . وقرأ الأعمش والحسن : « ضَلَلْنَا » بالصاد ؛ أى أنثنا . وهى قراءة على بن أبى طالب رضى الله عنه . النحاس : ولا يعرف فى اللغة ضللنا ولكن يقال : ضلّ اللحم وأصل ، وخمّ وأخم إذا اتن . الجوهري : ضلّ اللحم يصلّ - بالكسر - صلولا ، أى اتن ، مطبوخا كان أو نيئا . قال الخطيئة :

ذاك فتى يبذل ذا قدره * لا يفسد اللحم لديه الصلؤل

وأصل مثله . (إِنَّا لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) أى نخلق بعد ذلك خلقا جديدا ؟ ويقرأ : « أَثَنَّا » . النحاس : وفى هذا سؤال صعب من العربية ، يقال : ما العامل فى « إذا » ؟ و « إن » لا يعمل ما بعدها فيما قبلها . والسؤال فى الاستفهام أشد ، لأن ما بعد الاستفهام أجدر ، ألا يعمل فيما قبله من « إن » كيف وقد اجتمعا . فالجواب على قراءة من قرأ : « إنا » أن العامل « ضَلَلْنَا » ، وعلى قراءة من قرأ : « أَثَنَّا » أن العامل مضمّر ، والتقدير أنبعث إذا متنا . وفيه أيضا سؤال آخر ، يقال : أين جواب « إذا » على القراءة الأولى لأن فيها معنى الشرط ؟ فالقول فى ذلك أن بعدها فعلا ماضيا ، فلذلك جاز هذا . (بَلْ هُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ كَافِرُونَ) أى ليس لهم بحسود قدرة الله تعالى عن الإعادة ، لأنهم يعترفون بقدرته ولكنهم اعتقدوا أن لا حساب عليهم ، وأنهم لا يلقون الله تعالى .

قوله تعالى : قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ

رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

فيه مسألتان :

(١) قوله : « إنا » قراءة نافع ، وعليها جرى المؤلف .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ ﴾ لما ذكر استبعادهم للبعث ذكر توفيقهم وأنه يعيدهم . ﴿ يَتَوَفَّاكُم ﴾ من توفى العدد والشئ إذا استوفاه وقبضه جميعا . يقال : توفاه الله أى استوفى روحه ثم قبضه . وتوفيت مالى من فلان أى استوفيته . ﴿ مَلَكَ الْمَوْتِ ﴾ واسمه عزرائيل ومعناه عبد الله ؛ كما تقدم فى « البقرة » . وتصرفه كله بأمر الله تعالى وبخلقه واختراعه . وروى فى الحديث أن « البهائم كلها يتوفى الله أرواحها دون مَلَك الموت » كأنه يعدم حياتها ؛ ذكره ابن عطية .

قلت : وقد روى خلافه ، وأن مَلَك الموت يتوفى أرواح جميع الخلائق حتى البرغوث والبعوضة . روى جعفر بن محمد عن أبيه قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مَلَك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « ارفق بصاحبي فإنه مؤمن » فقال مَلَك الموت عليه السلام : « يا محمد ، طيب نفسا وقَرَّ عَيْنًا فإنى بكل مؤمن رفيق . وأعلم أن ما من أهل بيت مدر ولا شعر فى بر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم . والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها » . قال جعفر ابن على : بلغنى أنه يتصفحهم عند مواقيت الصلوات ؛ ذكره المساوردى . وذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن على بن ثابت البغدادى قال : حدثنى أبو محمد الحسن بن محمد الحلال قال : حدثنا أبو محمد عبد الله بن عثمان الصقار قال حدثنا أبو بكر حامد المصرى قال حدثنا يحيى بن أيوب العلاف قال حدثنا سليمان بن مَهِير الكلابى قال : حضرت مالك بن أنس رضى الله عنه فأتاه رجل فسأله : أبا عبد الله ، البراغيث أمَلَك الموت يقبض أرواحها ؟ قال : فأتى مالك طويلا ثم قال : أها أنفس ؟ قال نعم . قال : مَلَك الموت يقبض أرواحها ؛ « الله يتوفى الأنفس حين موتها » . قال ابن عطية بعد ذكره الحديث : وكذلك الأمر فى بنى آدم ، إلا أنه نوع شرف بتصرف مَلَك وملائكة معه فى قبض أرواحهم . نخلق الله تعالى مَلَك

الموت وخلق على يديه قبض الأرواح ، واستلاها من الأجسام وإخراجها منها . وخلق الله تعالى جندا يكونون معه يعملون عمله بأمره ؛ فقال تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ » ^(١) ، وقال تعالى : « تَوَفَّيْتُهُمْ رَسُولَنَا » وقد مضى هذا المعنى في « الأنعام » . والبارئ خالق الكل ، الفاعل حقيقة لكل فعل ؛ قال الله تعالى : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا » . « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ » ^(٢) . « يُحْيِي وَيُمِيتُ » . فملك الموت يقبض والأعوان يعالجون والله تعالى يزهيق الروح . وهذا هو الجمع بين الآي والأحاديث ؛ لكنه لما كان ملك الموت متولى ذلك بالوساطة والمباشرة أضيف التوفى إليه كما أضيف الخلق للملك ؛ كما تقدم في « الحج » ^(٣) . وروى عن مجاهد أن الدنيا بين يدي ملك الموت كالطست بين يدي الإنسان يأخذ من حيث شاء . وقد روى هذا المعنى مرفوعا ، وقد ذكرناه في (كتاب التذكرة) . وروى أن ملك الموت لما وكله الله تعالى بقبض الأرواح قال : رب جعلتني أذكر بسوء ويشتمني بنو آدم . فقال الله تعالى له : « إني أجعل للموت عللا وأسبابا من الأمراض والأسقام ينسبون الموت إليها فلا يذكرك أحد إلا بخير » . وقد ذكرناه في التذكرة مستوفى — وقد ذكرنا أنه يدعو الأرواح فتجيئه ويقبضها ، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة أو العذاب — بما فيه شفاء لمن أراد الوقوف على ذلك .

الثانية — استدلل بهذه الآية بعض العلماء على جواز الوكالة من قوله : « وَكَلَّ يَكُمُ » أي بقبض الأرواح . قال ابن العربي : « وهذا أخذ من لفظه لامن معناه ، ولو اطرده ذلك لقلنا في قوله تعالى : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » ^(٤) : إنها نيابة عن الله تبارك وتعالى ووكالة في تبليغ رسالته ، ولقلنا أيضا في قوله تبارك وتعالى : « وَآتُوا الزَّكَاةَ » ^(٥) إنه وكالة ؛ فإن الله تعالى ضمن الرزق لكل دابة وخص الأغنياء بالأغذية وأوعز إليهم بأن رزق الفقراء عندهم ، وأمر بتسليمه إليهم مقدارا معلوما في وقت معلوم ، دبره بعلمه ، وأنفذه

(١) راجع ج ٨ ص ٢٨ . (٢) راجع ج ٧ ص ٦ و ص ٩٩ . (٣) راجع ج ١٨ ص ٢٠٦ .

(٤) راجع ج ١٢ ص ٧ و ص ٩٩ . (٥) راجع ج ٧ ص ٣٠١ فابعد .

من حكمه ، وقدره بحكمته . والأحكام لا تتعلق بالألفاظ إلا أن ترد على موضوعاتها الأصلية في مقاصدها المطلوبة ، فإن ظهرت في غير مقصدها لم تعلق عليها . ألا ترى أن البيع والشراء معلوم اللفظ والمعنى ، وقد قال تعالى : « إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ » ^(١) ولا يقال : هذه الآية دليل على جواز مبايعة السيد لعبده ؛ لأن المقصدين مختلفان . أما إنه إذا لم يكن بد من المعاني فيقال : إن هذه الآية دليل على أن للقاضي أن يستنبط من يأخذ الحق ممن هو عليه قسراً دون أن يكون له في ذلك فعل ، أو يرتبط به رضا إذا وجد ذلك .

قوله تعالى : وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ) ابتداء وخبر . قال الزجاج : والمخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم مخاطبة لأئمة . والمعنى : ولو ترى يا محمد منكى البعث يوم القيامة لرأيت العجب . ومذهب أبي العباس غير هذا ، وأن يكون المعنى : يا محمد ، قل للمجرم ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم لندمت على ما كان منك . « نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ » أى من الندم والحزى والحزن والذل والغم . « عِنْدَ رَبِّهِمْ » أى عند محاسبة ربهم وجزاء أعمالهم . « رَبَّنَا » أى يقولون ربنا . « أَبْصَرْنَا » أى أبصرنا ما كنا نكذب . « وَسَمِعْنَا » ما كنا ننكر . وقيل : « أَبْصَرْنَا » صدق وعيدك . « وَسَمِعْنَا » تصديق رسلك . أَبْصَرُوا حين لا ينفعهم البصر ، وسمعوا حين لا ينفعهم السمع . « فَارْجِعْنَا » أى إلى الدنيا . « نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » أى مصدقون بالبعث ؛ قاله النقاش . وقيل : مصدقون بالذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أنه حق ؛ قاله يحيى بن سلام . قال سفيان الثوري : فأكذبهم الله تعالى فقال : (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) ^(٢) . وقيل : معنى « إِنَّا مُوقِنُونَ » أى قد زالت عنا الشكوك الآن ؛ وكانوا يسمعون ويبصرون في الدنيا ، ولكن لم يكونوا

(١) راجع ج ٨ ص ٢٦٦ فما بعد .

(٢) راجع ج ٦ ص ٤٠٩ فما بعد .

يتدبرون ، وكانوا كمن لا يبصرون ولا يسمعون ، فلما تنبهوا في الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا . وقيل : أى ربنا لك الحجة ، فقد أبصرنا رسلك وعجائب خلقك في الدنيا ، وسمعنا كلامهم فلا حجة لنا . فهذا اعتراف منهم ، ثم طلبوا أن يردوا إلى الدنيا ليؤمنوا .

قوله تعالى : وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٢﴾

قال محمد بن كعب القرظي : لما قالوا : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » رد عليهم بقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ يقول : لو شئت لهديت الناس جميعا فلم يختلف منهم أحد ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ الآية ؛ ذكره ابن المبارك في « رقائقه » في حديث طويل . وقد ذكرناه في « التذكرة » . النحاس : « وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » في معناه قولان : أحدهما — أنه في الدنيا . والآخر — أن سياق الكلام يدل على أنه في الآخرة ؛ أى لو شئنا لرددناهم إلى الدنيا والجنة كما سألوا . « وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » أى حق القول مني لأعذب من عصاني بنار جهنم . وعلم الله تبارك وتعالى [أنه] لو ردهم لعادوا ؛ كما قال تعالى : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » .

وهذه الهداية معناها خلق المعرفة في القلب . وتأويل المعتزلة : ولو شئنا لأكرهناهم على الهداية بإظهار الآيات الهائلة ، لكن لا يحسن منه فعله ؛ لأنه ينقض الغرض المجري بالتكليف إليه وهو الثواب الذي لا يستحق إلا بما يفعله المكلف باختياره . وقالت الإمامية في تأويلها : إنه يجوز أن يريد هداها إلى طريق الجنة في الآخرة ولم يعاقب أحدا ، لكن حق القول منه أنه يملأ جهنم ، فلا يجب على الله تعالى عندنا هداية الكل إليهما ؛ قالوا : بل الواجب هداية المعصومين ، فأما من له ذنب فخائر هدايته إلى النار جزاء على أفعاله . وفي جواز ذلك منع ؛ لقطعهم على أن المراد هداها إلى الإيمان . وقد تكلم

العلماء عليهم في هذين التأويلين بما فيه كفاية في أصول الدين . وأقرب ما لهم في الجواب أن يقال : فقد بطل عندنا وعندكم أن يهديهم الله سبحانه على طريق الإلحاء والإجبار والإكراه ، فصار يؤدي ذلك إلى مذهب الجبرية ، وهو مذهب رذل عندنا وعندكم ؛ فلم يبق إلا أن المهتدين من المؤمنين إنما هداهم الله تعالى إلى الإيمان والطاعة على طريق الاختيار حتى يصح التكليف فمن شاء آمن وأطاع اختيارا لا جبرا ؛ قال الله تعالى : « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ »^(١) ، وقال : « فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا »^(٢) . ثم عقب هاتين الآيتين بقوله تعالى : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . [فوقع إيمان المؤمنين بمشيئتهم ، ونفى أن يشاءوا إلا أن يشاء الله] ؛ ولهذا فترطت الحجة لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق بمشيئة الله تعالى ، فقالوا : الخلق مجبورون في طاعتهم كلها ، التفاتا إلى قوله : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . وفترطت القدريية لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق بمشيئة العباد ، فقالوا : الخلق خالقون لأفعالهم ، التفاتا منهم إلى قوله تعالى : « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ » . ومذهبنا هو الاقتصاد في الاعتقاد ؛ وهو مذهب بين مذهبي الحجة والقدريية ؛ وخير الأمور أوساطها . وذلك أن أهل الحق قالوا : نحن نفرق بين ما اضطررنا إليه وبين ما اخترناه ، وهو أننا ندرك تفرقة بين حركة الارتعاش الواقعة في يد الإنسان بغير محاولته وإرادته ولا مقرونة بقدرته ، وبين حركة الاختيار إذا حرك يده حركة مماثلة لحركة الارتعاش ؛ ومن لا يفرق بين الحركتين : حركة الارتعاش وحركة الاختيار ، وهما موجودتان في ذاته ومحسوستان في يده بمشاهدته وإدراك حاسته — فهو معتوه في عقله ومختل في حسه ، وخارج من حزب العقلاء . وهذا هو الحق المبين ، وهو طريق بين طريق الإفراط والتفريط . و :

* كَلَّا طَرَفِي قَصْدُ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ^(٤) *

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٣٩ فما بعده ص ١٥٠ . (٢) ما بين المربعين ساقط من ج ، ك .

(٣) كذا في نسخ الأصل : « ولعلها مقرونة » . (٤) هذا عجز بيت وصدده :

* ولا تغل في شيء من الأمر واقصد *

وهذا الاعتبار اختار أهل النظر من العلماء أن سمّوا هذه المنزلة بين المنزلتين كَسْبًا ، وأخذوا هذه التسمية من كتاب الله العزيز، وهو قوله سبحانه : «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ»^(١) .

قوله تعالى : فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) فيه قولان : أحدهما — أنه من النسيان الذي لا ذكر معه ؛ أى لم يعملوا لهذا اليوم فكانوا بمنزلة الناسين . والآخر — أن « نَسِيتُمْ » بما تركتم ، وكذا « إِنَّا نَسِينَاكُمْ » . واحتج محمد بن يزيد بقوله تعالى : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى »^(٢) قال : والدليل على أنه بمعنى ترك أن الله عز وجل أخبر عن إبليس أنه قال : « مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ »^(٣) فلو كان آدم ناسيا لكان قد ذكره . وأنشد :

كأنه خارجاً من جنب صفحته * سَقُودُ شَرِبِ نَسُوهُ عِنْدَ مُقْتَادِ^(٤)

أى تركوه . ولو كان من النسيان لكان قد عملوا به مرة . قال الضحاك : « نَسِيتُمْ » أى تركتم أمرى . يحيى بن سلام : أى تركتم الإيمان بالبعث فى هذا اليوم . (نَسِينَاكُمْ) تركناكم من الخير ؛ قاله السدى . مجاهد : تركناكم فى العذاب . وفى استئناف قوله : « إِنَّا نَسِينَاكُمْ » وبناء الفعل على « إِن » واسمها تشديد فى الانتقام منهم . والمعنى : فذوقوا هذا ؛ أى ما أنتم فيه من نكس الرعوس والحزى والغم بسبب نسيان الله . أو ذوقوا العذاب المخلد ، وهو الدائم الذى لا انقطاع له فى جهنم . (بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) يعنى فى الدنيا من المعاصى . وقد يعبر بالذوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوما ، لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم . قال عمر بن أبى ربيعة :

فَذُقْ هجرها إن كنت تزعم أنها * فسادُ ألا يا ربِّ ما كذب الزعم

(١) راجع ج ٣ ص ٤٢٤ فابعد . (٢) راجع ج ١١ ص ٢٥١ . (٣) راجع ج ٧ ص ١٧٧ فابعد .

(٤) السفود : حديدة يشوى عليها اللحم . الشرب (بالفتح) : جماعة القوم يشربون . والمقتاد : موضع النار الذى يشوى فيه . والبيت من معلقة النابغة الذبياني .

الجوهري : وذقت ما عند فلان ؛ أى خبرته . وذقت القوس إذا جذبت وترها لتنظر ما شدتها . وأذاقه الله وبال أمره . قال طُفيل :

فذوقوا كما ذُقنا غداة مُحَجَّرٍ * من الغيظ في أبادنا والتَّحَوُّبِ
وتذوقته أى ذقته شيئاً بعد شيء . وأمر مستذاق أى مجزَّب معلوم . قال الشاعر :
وعهدُ الغانيات كعهد قَيْنٍ * ونَتْ عنه الجمائل مُستذاقِ
والذواق : الملول .

قوله تعالى : إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِعَآيِلَتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا
وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾

هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى أنهم لأنفهم الكفر لا يؤمنون بك ؛ إنما يؤمن بك
وبالقرآن المتدبرون له والمتعظون به ، وهم الذين إذا قرئ عليهم القرآن ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا ﴾
قال ابن عباس : ركعاً . قال المهدوي : وهذا على مذهب من يرى الركوع عند قراءة السجدة ؛
واستدل بقوله تبارك وتعالى : « وَحَرَّأَكُمَا وَأَنَابٌ ^(١) » . وقيل : المراد به السجود ، وعليه
أكثر العلماء ؛ أى خَرُّوا سُجَّدًا لله تعالى على وجوههم تعظيماً لآياته وخَوْفًا من سَطَوْتِهِ وَعَذَابِهِ .
﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أى خلطوا التسبيح بالحمد ؛ أى نزهوه وحمده ؛ فقالوا فى سجودهم :
سبحان الله وبحمده ، سبحان ربِّي الأعلى وبحمده ؛ أى تنزيهاً لله تعالى عن قول المشركين .
وقال سفيان : « وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ » أى صلُّوا حمداً لربهم . ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن
عبادته ؛ قاله يحيى بن سلام . النقاش : « لَا يَسْتَكْبِرُونَ » كما استكبر أهل مكة عن السجود .
قوله تعالى : تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا

وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ أى ترتفع وتنبؤ عن مواضع الاضطجاع .
وهو فى موضع نصب على الحال ؛ أى متجافية جنوبهم . والمضاجع جمع مضجع ؛ وهى

مواضع النوم . ويحتمل عن وقت الاضطجاع ، ولكنه مجاز ، والحقيقة أولى . ومنه قول عبد الله بن رَوَاحَة :

وفينا رسول الله يتلو كتابه * إذا انشق معروف من الصبح ساطع

يبيت يحافى جنبه عن فراشه * إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

قال الزجاج والرَّمَانِي : التجافى التنحى الى جهة فوق . وكذلك هو فى الصبح عن المخطئ فى سَبِّ ونحوه . والجَنُوب جمع جنب . وفيما تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجله قولان : أحدهما — لذكر الله تعالى ، إما فى صلاة وإما فى غير صلاة ؛ قاله ابن عباس والضحاك . الثانى — للصلاة . وفى الصلاة التى تتجافى جنوبهم لأجلها أربعة أقوال : أحدها — التنقل بالليل ؛ قاله الجمهور من المفسرين وعليه أكثر الناس ، وهو الذى فيه المدح ، وهو قول مجاهد والأوزاعى ومالك بن أنس والحسن بن أبى الحسن وأبى العالية وغيرهم . ويدل عليه قوله تعالى : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » لأنهم جُوزُوا على ما أخفوا بما خفى . والله أعلم . وسيأتى بيانه .

وفى قيام الليل أحاديث كثيرة ؛ منها حديث معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : « أَلَا أدُلُّكَ على أبواب الخير : الصوم جُنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل من جَوْف الليل — قال ثم تلا — « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ — حتى بلغ — يَعْمَلُونَ » « أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده والقاضى إسماعيل ابن إسحاق وأبو عيسى الترمذى ، وقال فيه : حديث حسن صحيح . الثانى — صلاة العشاء التى يقال لها العتمة ؛ قاله الحسن وعطاء . وفى الترمذى عن أنس بن مالك أن هذه الآية « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » نزلت فى انتظار الصلاة التى تُدْعَى العَتَمَةُ قال : هذا حديث حسن غريب . الثالث — التنقل ما بين المغرب والعشاء ؛ قاله قتادة وعكرمة . وروى أبو داود عن أنس بن مالك أن هذه الآية « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ » قال : كانوا يتنقلون ما بين المغرب والعشاء . الرابع — قال الضحاك : تجافى الجُنُب هو أن يصلّى الرجل العشاء والصبح فى جماعة . وقاله أبو الدرداء وعبادة .

قلت : وهذا قول حسن ، وهو يجمع الأقوال بالمعنى . وذلك أن مستظر العشاء إلى أن يصليها في صلاة وذكر لله جل وعز ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” لا يزال الرجل في صلاة ما انتظر الصلاة “ . وقال أنس : المراد بالآية انتظار صلاة العشاء الآخرة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل . قال ابن عطية : وكانت الجاهلية ينامون من أول الغروب ومن أى وقت شاء الإنسان ، بغاء انتظار وقت العشاء غرباً شاقاً . ومصلى الصبح في جماعة لا سيما في أول الوقت ؛ كما كان عليه السلام يصليها . والعادة أن من حافظ على هذه الصلاة في أول الوقت يقوم سحرًا يتوضأ ويصلى ويذكر الله عز وجل إلى أن يطلع الفجر ؛ فقد حصل التجافى أول الليل وآخره . يزيد هذا ما رواه مسلم من حديث عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله “ . ولفظ الترمذى وأبى داود في هذا الحديث : ” من شهد العشاء في جماعة كان له قيام نصف ليلة ، ومن صلى العشاء والفجر في جماعة كان له كقيام ليلة “ . وقد مضى في سورة « النور »^(١) عن كعب فيمن صلى بعد العشاء الآخرة أربع ركعات كن له بمنزلة ليلة القدر .

وجاءت آثار حسان في فضل الصلاة بين المغرب والعشاء وقيام الليل . ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا يحيى بن أيوب قال حدثني محمد بن الججاج أو ابن أبي الججاج أنه سمع عبد الكريم يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” من ركع عشر ركعات بين المغرب والعشاء بُني له قصر في الجنة “ فقال له عمر بن الخطاب : إذا تكثر قصورنا وبيوتنا يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” الله أكبر وأفضل — أو قال — أطيب “ . وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال : صلاة الأوابين الخلوة التي بين المغرب والعشاء حتى تثوب الناس إلى الصلاة . وكان عبد الله بن مسعود يصلى في تلك الساعة ويقول : صلاة الغفلة بين المغرب والعشاء ؛ ذكره ابن المبارك . ورواه الثعلبي مرفوعاً عن ابن عمر قال قال

النبي صلى الله عليه وسلم : ” من جَفَّتْ جنباه عن المضاجع ما بين المغرب والعشاء بُنِيَ لَهُ قصران في الجنة مسيرة عام ، وفيهما من الشجر ما لو نزلها أهل المشرق والمغرب لأوسعتهم فاكهة “ . وهي صلاة الأوابين وغفلة الغافلين . وإن من الدعاء المستجاب الذي لا يرد الدعاء بين المغرب والعشاء .

فصل في فضل التجاني — ذكر ابن المبارك عن ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة نادى مناد : ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ؛ لِيُقِيمَ الحامدون لله على كل حال ، فيقومون فيُسْرَحُونَ إلى الجنة . ثم ينادى ثانية : ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ؛ لِيُقِيمَ الذين كانت جنوبهم تتجافى عن المضاجع « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ » . قال : فيقومون فيسرحون إلى الجنة . قال : ثم ينادى ثالثة : ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ؛ لِيُقِيمَ الذين كانوا « لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ » ، فيقومون فيسرحون إلى الجنة . ذكره الثعلبي مرفوعاً عن أسماء بنت يزيد قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء منادٍ فنادى بصوت تسمعه الخلائق كلهم : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ، لِيُقِيمَ الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ، ثم ينادى الثانية ستعلمون اليوم من أولى بالكرم لِيُقِيمَ الذين لا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فيقومون ، ثم ينادى الثالثة ستعلمون اليوم من أولى بالكرم لِيُقِيمَ الحامدون لله على كل حال في السراء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعاً إلى الجنة ، ثم يحاسب سائر الناس “ . وذكر ابن المبارك قال أخبرنا معمر عن رجل عن أبي العلاء بن الشَّخِير عن أبي ذر قال : ثلاثة يَضَحَكُ الله إليهم ويستبشر الله بهم : رجل قام من الليل وترك فراشه ودَفِئَتْهُ ، ثم توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قام إلى الصلاة ؛ فيقول الله لملائكته : ” ما حمل عبيدي على ما صنع “ فيقولون : ربنا أنت أعلم به منا ؛ فيقول : ” أنا أعلم به ولكن أخبروني “ فيقولون : رَجَبِيته شيئاً فرجاه وخوفته نخافه . فيقول : ” أشهدكم أني قد أمنت به مما خاف وأوجبت له ما رجاه “ قال : ورجل كان

في سرية فلقى العدو فانهزم أصحابه وثبت هو حتى يقتل أو يفتح الله عليهم ؛ فيقول الله للملائكة : مثل هذه القصة . ورجل سرى في ليلة حتى إذا كان في آخر الليل نزل هو وأصحابه ، فنام أصحابه وقام هو يصلي ؛ فيقول الله للملائكة ... « وذكر القصة .

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ في موضع نصب على الحال ؛ أى داعين . ويحتمل أن تكون صفة مستأنفة ؛ أى نتجافى جنوبهم وهم أيضا في كل حال يدعون ربهم ليلاهم ونهارهم . و ﴿ خَوْفًا ﴾ مفعول من أجله . ويجوز أن يكون مصدرا . ﴿ وَطَمَعًا ﴾ مثله ؛ أى خوفا من العذاب وطمعا في الثواب . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ تكون « ما » بمعنى الذى وتكون مصدرا ، وفي كلا الوجهين يجب أن تكون منفصلة من « من » و « يُنْفِقُونَ » قيل : معناه الزكاة المفروضة . وقيل : النوافل ؛ وهذا القول أمدح .

قوله تعالى : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

قرأ حمزة : ﴿ مَا أُخْفِيَ لَهُم ﴾ بإسكان الياء . وفتحها الباقون . وفي قراءة عبد الله « مَا تُخْفِي » بالنون مضمومة . وروى المفضل عن الأعمش « مَا يُخْفِي لَهُم » بالياء المضمومة وفتح الفاء . وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة : « مَن قُرَّتْ أَعْيُنُ » . فمن أسكن الياء من قوله : « مَا أُخْفِيَ » فهو مستقبل وألفه ألف المتكلم . و « ما » في موضع نصب بـ « ما أخفى » وهى استفهام ، والجملة في موضع نصب لوقوعها موقع المفعولين ، والضمير العائد على « ما » محذوف . ومن فتح الياء فهو فعل ماض مبنى للفعول . و « ما » في موضع رفع بالابتداء ، والخبر « أخفى » وما بعده ، والضمير في « أخفى » عائد على « ما » . قال الزجاج : ويقرأ « مَا أُخْفِيَ لَهُم » بمعنى ما أخفى الله لهم ؛ وهى قراءة محمد بن كعب ، و « ما » في موضع نصب . المهدوي : ومن قرأ : « قُرَّتْ أَعْيُنُ » فهو جمع قُرَّة ، وحسن الجمع فيه لإضافته إلى جمع ، والإفراد لأنه

مصدر ، وهو اسم للجنس . وقال أبو بكر الأنباري : وهذا غير مخالف للمصحف ؛ لأن تاء « قُتِرَ » تكتب تاء على لغة من يجرى الوصل على الوقف ؛ كما كتبوا (رحمت الله) بالتاء . ولا يُستنكر سقوط الألف من « قُرَات » في الخط وهو موجود في اللفظ ؛ كما لم يستنكر سقوط الألف من السموات^(١) وهي ثابتة في اللسان والنطق . والمعنى المراد : أنه أخبر تعالى بما لهم من النعيم الذي لم تعلمه نفس ولا بشر ولا ملك . وفي معنى هذه الآية : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " قال الله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر — ثم قرأ هذه الآية — « نَتَجَاتِي جَنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ — إلى قوله — بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » " أخرجه الصحيح من حديث مهمل بن سعد الساعدي . وقال ابن مسعود : في التوراة مكتوب : على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقال ابن عباس : الأمر في هذا أجل وأعظم من أن يُعرف تفسيره .

قلت : وهذه الكرامة إنما هي لأعلى أهل الجنة منزلاً ؛ كما جاء مبيناً في صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبه يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " سأل موسى عليه السلام ربه فقال يارب ما أدنى أهل الجنة منزلة قال هو رجل يأتي بعدما يدخل أهل الجنة الجنة فيقال له ادخل الجنة فيقول أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم فيقال له أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا فيقول رضيت رب فيقول لك ذلك ومثله ومثله معه ومثله ومثله ومثله ومثله فقال في الخامسة رضيت رب فيقال هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتئت نفسك ولذت عينك فيقول رضيت رب قال رب فأعلاهم منزلة قال أولئك الذين أردت غرست^(٢) كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر — قال — ومصدأه من كتاب الله قوله تعالى : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ

(١) في بعض النسخ : « المسلمات » .

(٢) قال النووي : « أما أردت فبضم التاء ، ومعناه اخترت واصطفيت . وأما غرست كرامتهم بيدي الخ فعناه اصطفتهم وتوليتهم فلا يتطرق إلى كرامتهم تغيير » .

مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». وقد روى عن المغيرة موقوفا قوله . وخرج مسلم أيضا عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذُخْرًا بَلَّهَ^(١) مَا أَطْلَعَكُمْ عَلَيْهِ — ثم قرأ — « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ »“. وقال ابن سيرين : المراد به النظر إلى الله تعالى . وقال الحسن : أخفى القوم أعمالا فأخفى الله تعالى لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

قوله تعالى : أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ أى ليس المؤمن كالفاسق ؛ فهذا آتينا هؤلاء المؤمنين الثواب العظيم . قال ابن عباس وعطاء بن يسار : نزلت الآية في علي بن أبي طالب والوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط ؛ وذلك أنهما تلاحيا فقال له الوليد : أنا أَبَسُّطُ منك لسانا وأحد سنانا وأرد للكتيبة — وروى وأملأ في الكتيبة — جسدا . فقال له علي : اسكت ! فإنك فاسق ؛ فنزلت الآية . وذكر الزجاج والنحاس أنها نزلت في علي وعُقبة بن أبي مُعَيْط . قال ابن عطية : وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكية ؛ لأن عُقبة لم يكن بالمدينة ، وإنما قُتل في طريق مكة مُنْصَرَفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر . ويعترض القول الآخر بإطلاق أسم الفسق على الوليد . وذلك يحتمل أن يكون في صدر إسلام الوليد لشيء كان في نفسه ، أو لما روى من نقله عن بنى المُصْطَلِق ما لم يكن ، حتى نزلت فيه : « إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبِيٍّ فَتَّبِعُونَا »^(٢) على ما يأتي في الحجرات بيانه . ويحتمل أن تطلق الشريعة ذلك عليه ؛ لأنه كان على طرف مما ينبغي ، وهو الذى شرب الخمر في زمن

(١) بله : من أسماء الأفعال ، وهى مبنية على الفتح مثل كيف ، ومعناها : دع عنكم ما أطلعكم عليه ؛ فالذى

لم يطلعكم أعظم ؛ وكأنه أضرب عنه استقلاله في جنب ما لم يطلع عليه . (شرح النووى) .

(٢) (٣) راجع ج ١٦ ص ٣١١ .

(٢) الملاحاة : المقالة والمخاصمة .

عثمان رضى الله عنه ، وصلى الصبح بالناس ثم التفت وقال : أتريدون أن أزيدكم ، ونحو هذا مما يطول ذكره .

الثانية — لما قسم الله تعالى المؤمنين والفاسقين الذين فسقهم بالكفر — لأن التكذيب في آخر الآية يقتضى ذلك — اقتضى ذلك نفي المساواة بين المؤمن والكافر ؛ ولهذا منع القصاص بينهما ؛ إذ من شرط وجوب القصاص المساواة بين القاتل والمقتول . وبذلك احتج علماءنا على أبي حنيفة في قتله المسلم بالذمى . وقال : أراد نفي المساواة هاهنا في الآخرة في الثواب وفي الدنيا في العدالة . ونحن حملناه على عمومه ، وهو أصح ، إذ لا دليل يخصه ؛ قاله ابن العربي .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوُونَ ﴾ قال الزجاج وغيره : « مَنْ » يصاح للواحد والجمع . النحاس : لفظ « مَنْ » يؤدى عن الجماعة ؛ فلهذا قال : « لَا يَسْتَوُونَ » ؛ هذا قول كثير من النحويين . وقال بعضهم : « لَا يَسْتَوُونَ » لاثنيين ؛ لأن الاثنين جمع ، لأنه واحد جمع مع آخر . وقاله الزجاج أيضا . والحديث يدل على هذا القول ؛ لأنه عن ابن عباس . وغيره قال : نزلت « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا » في علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، « كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا » في الوليد بن عُقبة بن أبي معيط . وقال الشاعر :

ليس الموت بينهما سواء * إذا ماتوا وصاروا في القبور

قوله تعالى : أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ ﴾ أخبر عن مقر الفريقين غدا ؛ فلهذا المؤمنين جنات المأوى ، أى يآوون إلى الجنات ؛ فأضاف الجنات إلى المأوى لأن ذلك

الموضع يتضمن جنات . (نُزُلًا) أى ضيافة . والنُّزْل : ما يُهَيَّأ للنازل والضيف . وقد مضى فى آخر « آل عمران » وهو نصب على الحال من الجنات ؛ أى لهم الجنات معدّة ، ويجوز أن يكون مفعولا له . (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا) أى خرجوا عن الإيمان إلى الكفر (فَأَوَاهُمُ النَّارُ) أى مقامهم فيها . (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا) أى إذا دفعهم لُحْبُ النَّارِ إلى أعلاها رَدُّوا إلى موضعهم فيها ، لأنهم يطمعون فى الخروج منها . وقد مضى هذا فى « الحج » . (وَقِيلَ لَهُمْ) أى يقول لهم خزنة جهنم . أو يقول الله لهم : (ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) والذوق يُسْتَعْمَلُ محسوساً ومعنئياً . وقد مضى فى هذه السورة بيانه .

قوله تعالى : وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى) قال الحسن وأبو العالية والضحاك وأبى بن كعب وإبراهيم النخعي : العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها مما يُبْتَلَى به العبيد حتى يتوبوا ؛ وقاله ابن عباس . وعنه أيضا أنه الحدود . وقال ابن مسعود والحسين بن عليّ وعبد الله بن الحارث : هو القتل بالسيف يوم بدر . وقال مقاتل : الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الخيف ؛ وقاله مجاهد . وعنه أيضا : العذاب الأدنى عذاب القبر ؛ وقاله البراء ابن عازب . قالوا : والأكبر عذاب يوم القيامة . قال القشيري : وقيل عذاب القبر . وفيه نظره لقوله : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » . قال : ومن حمل العذاب على القتل قال : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى يرجع من بقى منهم . ولا خلاف أن العذاب الأكبر عذاب جهنم ؛ إلا ما روى عن جعفر بن محمد أنه نخرج المهدي بالسيف . والأدنى غلاء السعر . وقد قيل : إن معنى قوله : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » على قول مجاهد والبراء : أى لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه ؛

(٢) راجع ج ١٢ ص ٢٧ .

(١) راجع ج ٤ ص ٣٢١ .

(٣) راجع ص ٩٨ و ٩٩ من هذا الجزء .

كقوله : « فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا » ^(١) . وَسُمِّيتْ لإرادة الرجوع رجوعاً كما سُمِّيتْ لإرادة القيام قياماً في قوله تعالى : « إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ » ^(٢) . ويدل عليه قراءة من قرأ : « يُرْجَعُونَ » على البناء للفعول ؛ ذكره الزمخشري .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ^ج
إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ) أى لا أحد أظلم لنفسه . (مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ) أى بحججه وعلاماته . (ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) بترك القبول . (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ) لتكذيبهم وإعراضهم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ^ط وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ) أى فلا تكن يا محمد في شك من لقاء موسى ؛ قاله ابن عباس . وقد لقيه ليلة الإسراء . قتادة : المعنى فلا تكن في شك من أنك لقيته ليلة الإسراء . والمعنى واحد . وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة ، وستلقاه فيها . وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب بالقبول ؛ قاله مجاهد والزجاج . وعن الحسن أنه قال في معناه : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » فأودى وكذب ، فلا تكن في شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب والأذى ؛ فالهاء عائدة على محذوف ، والمعنى من لقاء ما لاقى . النحاس : وهذا قول غريب ، إلا أنه من رواية عمرو

ابن عبيد . وقيل في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى : قل يتوفاكم ملك الموت الذى وُكِّلَ بكم فلا تكن في مِرْية من لفائه ؛ فجاء معترضا بين « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » وبين « وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ » . والضمير في « وَجَعَلْنَاهُ » فيه وجهان : أحدهما - جعلنا موسى ؛ قاله قتادة . الثانى - جعلنا الكتاب ؛ قاله الحسن . (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً) أى قادة وقُدوة يُقتدى بهم في دينهم . والكوفيون يقرءون « أَئِمَّةً » النحاس : وهو لحن عند جميع النحويين ؛ لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة ، وهو من دقيق النحو .

وشرحه : أن الأصل « أَئِمَّةٌ » ثم أُلْقِيَتْ حركة الميم على الهمزة وأدغمت الميم ، وخففت الهمزة الثانية لئلا يجتمع همزتان ، والجمع بين همزتين في حرفين بعيد ؛ فأما في حرف واحد فلا يجوز إلا تخفيف الثانية نحو قولك : آدم وآخر . ويقال : هذا أوم من هذا وأيم ؛ بالواو والياء . وقد مضى هذا في « براءة » والله تعالى أعلم . (يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) أى يدعون الخلق إلى طاعتنا . (بِأَمْرِنَا) أى أمرناهم بذلك . وقيل : « بِأَمْرِنَا » أى لأمرنا ؛ أى يهدون الناس لديننا . ثم قيل : المراد الأنبياء عليهم السلام ؛ قاله قتادة . وقيل : المراد الفقهاء والعلماء . (لَمَّا صَبَرُوا) قراءة العامة « لَمَّا » بفتح اللام وتشديد الميم وفتحها ؛ أى حين صبروا . وقرا يحيى وحمزة والكسائي وخلف ورويس عن يعقوب : « لَمَّا صَبَرُوا » أى لصبرهم جعلناهم أئمة . واختاره أبو عبيد اعتبارا بقراءة ابن مسعود « بَمَّا صَبَرُوا » بالباء . وهذا الصبر صبر على الدين وعلى البلاء . وقيل : صبروا عن الدنيا . (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أى يقضى ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيجازى كُلًّا بما يستحق . وقيل : يقضى بين الأنبياء وبين قومهم ؛ حكاه النقاش .

قوله تعالى : أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وقتادة وأبو زيد عن يعقوب « يَهْدِ لَهُمْ » بالنون ؛ فهذه قراءة بينة . النحاس : وبالياء فيها إشكال ؛ لأنه يقال : الفعل لا يخلو من فاعل ، فأين الفاعل لـ « يهد » ؟ فتكلم النحويون في هذا ؛ فقال الفراء : « كَمْ » في موضع رفع بـ « يهد » . وهذا نقض لأصول النحويين في قولهم : إن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ولا في « كَمْ » بوجه ؛ أعنى ما قبلها . ومذهب أبي العباس أن « يهد » يدل على الهدى ؛ والمعنى أولم يهد لهم الهدى . وقيل : المعنى أولم يهد الله لهم ؛ فيكون معنى الياء والنون واحدا ؛ أى أولم نبين لهم إهلاكا القرون الكافرة من قبلهم . وقال الزجاج : « كَمْ » في موضع نصب بـ « أهلكنا » . ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ ﴾ يحتمل الضمير في « يَمْشُونَ » أن يعود على المشايين في مساكن المهلكين ؛ أى وهؤلاء يمشون ولا يعتبرون . ويحتمل أن يعود على المهلكين فيكون حالا ؛ والمعنى : أهلكناهم ماشين في مساكنهم . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ آيات الله وعظاته فيتعظون .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢٧)

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ أى أولم يعلموا كمال قدرتنا بسوقنا الماء إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها لنحييها . الرَّخْشِيرَى : الجُرُزِ الأرض التي جُرِزَ نباتها ، أى قُطِعَ ؛ إما لعدم الماء وإما لأنه رُعِيَ وأزيل . ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جُرُز ؛ ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾ قال ابن عباس : هي أرض باليمن . وقال مجاهد : هي أبين . وقال عكرمة : هي الأرض الظمأى . وقال الضحاك : هي الأرض الميتة العطشى . وقال الفراء : هي الأرض التي لا نبات فيها . وقال الأصمعي : هي الأرض التي لا تنبت شيئا . وقال محمد بن يزيد : يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام ؛ إلا أنه يجوز على قول من قال : العباس والضحاك . والإسناد

عن ابن عباس صحيح لا مطعن فيه . وهذا إنما هو نعت والنعت للعرفة يكون بالألف واللام ، وهو مشتق من قولهم : رجل جروز إذا كان لا يبقى شيئاً إلا أكله . قال الرازي :

خَبَ جَرُوزٌ وَإِذَا جَاعَ بَكَى * وَيَأْكُلُ التَّمْرَ وَلَا يُلْقِي النَّوَى

وكذلك ناقة جروز : إذا كانت تأكل كل شيء تجده . وسيف جراز : أى قاطع ماض .
وَجَرَزَتِ الجراد الزرع : إذا استأصلته بالأكل . وحكى الفراء وغيره أنه يقال : أرض جُرْز
وَجُرْزٌ وَجَرَزٌ وَجَرَزٌ . وكذلك بخل ورغب ورهب ؛ فى الأربعة أربع لغات . وقد روى
أن هذه الأرض لا أنهار فيها ، وهى بعيدة من البحر ، وإنما يأتياها فى كل عام وِدَانٌ^(١) فيزرعون
ثلاث مرات فى كل عام . وعن مجاهد أيضا : أنها أرض النيل . (فَتُخْرِجُ بِهِ) أى بالماء .
(زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ) من الكلا والحشيش . (وَأَنْفُسُهُمْ) من الحب والخضر
والفواكه . (أَفَلَا يَنْصُرُونَ) هذا فيعلمون أنا نقدر على إعادتهم . و « فَتُخْرِجُ » يكون
معطوفا على « تَسْوُقُ » أو منقطعا مما قبله . « تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ » فى موضع نصب
على النعت .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾

قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) « متى » فى موضع
رفع ، ويجوز أن يكون فى موضع نصب على الظرف . قال قتادة : الفتح القضاء . وقال
الفراء والقتبي : يعنى فتح مكة . وأولى من هذا ما قاله مجاهد ، قال : يعنى يوم القيامة .
ويروى أن المؤمنين قالوا : سيحكم الله عز وجل بيننا يوم القيامة فيثيب المحسن ويعاقب
المسيء . فقال الكفار على التهزئ : متى يوم الفتح ، أى هذا الحكم . ويقال للحاكم :
فاتح وفتاح ؛ لأن الأشياء تنفتح على يديه وتنفصل . وفى القرآن : « رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ

(١) فى الأصول : « واديان » . والودان : الببل .

قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ^(١) » وقد مضى هذا في « البقرة » وغيرها . (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ) على الظرف .
 وأجاز الفراء الرفع . (لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ) أى يؤخرون ويمهلون
 للتوبة ؛ إن كان يوم الفتح يوم بدر أو فتح مكة . ففى بدر قُتلوا ، ويوم الفتح هربوا فلهقتهم
 خالد بن الوليد فقتلهم .

قوله تعالى : فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) قيل : معناه فأعرض عن سفههم ولا تجهم
 إلا بما أمرت به . (وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ) أى انتظر يوم الفتح ، يوم يحكم الله لك عليهم .
 ابن عباس : « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى عن مشركي قريش مكة ، وأن هذا منسوخ بالسيف
 في « براءة » في قوله : « فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » ^(٤) . « وَأَنْتَظِرُ » أى موعدى
 لك . قيل : يعنى يوم بدر . (إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ) أى ينتظرون بكم حوادث الزمان . وقيل :
 الآية غير منسوخة ؛ إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال كالهذنة وغيرها . وقيل : أعرض
 عنهم بعد ما بلغت الحجة ، وانتظر إنهم منتظرون . إن قيل : كيف ينتظرون القيامة وهم
 لا يؤمنون ؟ ففى هذا جوابان : أحدهما — أن يكون المعنى إنهم منتظرون الموت وهو من
 أسباب القيامة ؛ فيكون هذا مجازا . والآخر — أن فيهم من يشك وفيهم من يؤمن بالقيامة ؛
 فيكون هذا جوابا لهذين الصنفين . والله أعلم . وقرأ ابن السَّمِيقِ : « إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ » بفتح
 الظاء . ورويت عن مجاهد وابن عُصَيْنٍ . قال الفراء : لا يصح هذا إلا بإضمار ، مجازه : إنهم
 منتظرون بهم . قال أبو حاتم : الصحيح الكسر ؛ أى أنتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك .
 وقد قيل : إن قراءة ابن السَّمِيقِ (بفتح الظاء) معناها : وأنتظر هلاكهم فإنهم أحقاء
 بأن يُنتظر هلاكهم ؛ يعنى أنهم هالكون لا محالة ، وانتظر ذلك فإن الملائكة فى السماء ينتظرونه ؛
 ذكره الزخشرى . وهو معنى قول الفراء . والله أعلم .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٥٠ فابعد . (٢) راجع ج ٢ ص ٣ فابعد .

(٣) فى ش : « هزموا » . (٤) راجع ج ٧ ص ٧٢ .

سورة الأحزاب

مدنية في قول جميعهم . نزلت في المنافقين وإبذائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطعنهم فيه وفي مناحته وغيرها . وهي ثلاث وسبعون آية . وكانت هذه السورة تعدل سورة البقرة . وكانت فيها آية الرجم : (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألْبَتَّةَ نكالا من الله والله عزيز حكيم) ؛ ذكره أبو بكر الأنباري عن أبي بن كعب . وهذا يحمله أهل العلم على أن الله تعالى رفع من الأحزاب إليه ما يزيد على ما في أيدينا ، وأن آية الرجم رفع لفظها . وقد حدثنا أحمد بن الهيثم بن خالد قال حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام قال حدثنا ابن أبي مريم عن ابن لميعة عن أبي الأسود عن عروة عن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مائتي آية ، فلما كتبت المصحف لم يقدر منها إلا على ما هي الآن . قال أبو بكر : فعني هذا من قول أم المؤمنين عائشة : أن الله تعالى رفع إليه من سورة الأحزاب ما يزيد على ما عندنا .

قلت : هذا وجه من وجوه النسخ ، وقد تقدم في «البقرة» القول فيه مستوفى والحمد لله . وروى زر قال قال لي أبي بن كعب : كم تعدون سورة الأحزاب ؟ قلت : ثلاثا وسبعين آية ؛ قال : فوالذي يخلف به أبي بن كعب أن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ، واقد قرأنا منها آية الرجم : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألْبَتَّةَ نكالا من الله والله عزيز حكيم . أراد أبي أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن . وأما ما يحكى من أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة فاكلتها الداجن فمن تأليف الملاحدة والروافض .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : يَدَايُهَا إِلَى نَبِيِّ أَتَى اللَّهَ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَالِمًا حَكِيمًا ﴿١﴾

(١) راجع ج ٢ ص ٦١ فـ ١ بعد .

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) حُثِّمَتْ «أى» لأنه نداء مفرد، والتنبيه لازم لها .
 و«النبي» نعت لأى عند النحويين ؛ إلا الأخفش فإنه يقول : إنه صيغة لأى . مكى :
 ولا يعرف في كلام العرب اسم مفرد صيغة لشيء . النحاس : وهو خطأ عند أكثر النحويين ؛
 لأن الصيغة لا تكون إلا جملة ، والاحتياط له فيما قال أنه لما كان نعتا لازما سُمِّيَ صيغة ؛
 وهكذا الكوفيون يسمون نعت النكرة صيغة لها . ولا يجوز نصبه على الموضع عند أكثر
 النحويين . وأجازه المازني ، جعله كقولك : يا زيد الظريف ، بنصب «الظريف» على
 موضع زيد . مكى : وهذا نعت يستغنى عنه ، ونعت «أى» لا يستغنى عنه فلا يحسن نصبه
 على الموضع . وأيضا فإن نعت «أى» هو المنادى في المعنى فلا يحسن نصبه . وروى أن
 رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وكان يحب إسلام اليهود : قُرِيطَة والنَّضِير
 وبنو قَيْنُقَاع ؛ وقد تابعه ناس منهم على النفاق ، فكان يُلِين لهم جانبَه ؛ ويكرم صغيرهم وكبيرهم ،
 وإذا أتى منهم قبيل تجاوز عنه ، وكان يسمع منهم ؛ فنزلت . وقيل ؛ إنها نزلت فيما ذكر الواحدى
 والقشيري والثعلبي والمأوردي وغيرهم في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور
 عمرو بن سفيان ، نزلوا المدينة على عبد الله بن أبيّ ابن سلول رأس المنافقين بعد أحد ، وقد
 اعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه ، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح
 وطُعمنة بن أبيريق ، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب : ارفض ذكر آلهتنا
 اللات والعزى ومناة ، وقل إن لها شفاعا ومنعة لمن عبدها ، وتدعك وربك . فشق على النبي
 صلى الله عليه وسلم ما قالوا . فقال عمر : يا رسول الله ائذن لي في قتلهم . فقال النبي صلى الله
 عليه وسلم : «إني قد أعطيتهم الأمان» فقال عمر : اخرجوا في لعنة الله وغضبه . فأمر النبي
 صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا من المدينة ؛ فنزلت الآية . (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) أى خَفِ اللَّهَ .
 (وَلَا تَطِيعِ الْكَافِرِينَ) من أهل مكة ؛ يعنى أبا سفيان وأبا الأعور وعكرمة . (وَالْمُنَافِقِينَ)
 من أهل المدينة ؛ يعنى عبد الله بن أبيّ وطُعمنة وعبد الله بن سعد بن أبي سرح فيما نُهيت عنه ،

(١) في جرك : «بابه» . (٢) في الأصول : «عمر» . (٣) في أسباب النزول : «ومنفعة» .

ولا تمل إليهم . ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بكفرهم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يفعل بهم . الزمخشري : وروى أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم في الموقعة التي كانت بينه وبينهم ، وقام معهم عبد الله بن أبي - ومعتب بن قشير والحداد بن قيس ، فقالوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفض ذكر آلهتنا . وذكر الخبر بمعنى ما تقدم . وأن الآية نزلت في نقض العهد ونبذ الموقعة . «وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ» من أهل مكة . «وَالْمُنَافِقِينَ» من أهل المدينة فيما طلبوا إليك . وروى أن أهل مكة دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه شطر أموالهم ، ويؤوجه شبيبة بن ربيعة بنته ، وخوفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع ، فنزلت . النحاس : ودل بقوله «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا» على أنه كان يميل إليهم استدعاء لهم إلى الإسلام ، أي لو علم الله عز وجل أن ميلك إليهم فيه منفعة لما نهاك عنه ، لأنه حكيم . ثم قيل : الخطاب له ولأئمة .

قوله تعالى : وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢٠﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني القرآن . وفيه زجر عن اتباع مراسم الجاهلية ، وأمر بجهادهم ومناذتهم ، وفيه دليل على ترك اتباع الآراء مع وجود النص . والخطاب له ولأئمة . ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قراءة العامة بقاء على الخطاب ، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم . وقرأ السلمي وأبو عمرو وابن أبي إسحاق : «يعملون» بالياء على الخبر ، وكذلك في قوله : «بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا» . ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي اعتمد عليه في كل أحوالك ، فهو الذي يمنعك ولا يضررك من خذلك . ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظا . وقال شيخ من أهل الشام : قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد من ثقيف فطلبوا منه أن يتعهم باللات سنة - وهي الطاغية التي كانت ثقيف تعبدوها - وقالوا : لتعلم قريش . نزلنا عندك ، فهم

النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فنزلت « وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا » أى كافياً لك ما تخافه منهم . و « بِاللَّهِ » فى موضع رفع لأنه الفاعل . و « وَكِيلًا » نصب على البيان أو الحال .

قوله تعالى : مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٥٠﴾
فيه خمس مسائل :

الأولى — قال مجاهد : نزلت فى رجل من قريش كان يدعى ذا القلبين من دهائه ، وكان يقول : إن لى فى جوفى قلبين ، أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد . قال : وكان من فُهر . الواحدى والفُشَيرى وغيرهما : نزلت فى جميل بن معمر الفهري ، وكان رجلاً حافظاً لما يسمع . فقالت قريش : ما يحفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان . وكان يقول : لى قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد . فلما هُزم المشركون يوم بدر ومعهم جميل بن معمر ، رآه أبو سفيان فى العير وهو معلق إحدى نعليه فى يده والأخرى فى رجله ؛ فقال أبو سفيان : ما حال الناس ؟ قال انهزموا . قال : فما بال إحدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما فى رجلتى ؛ فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعليه فى يده . وقال السهيلي : كان جميل بن معمر الجمحي ، وهو ابن معمر ابن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح ، واسم جمع : تيم ؛ وكان يدعى ذا القلبين فنزلت فيه الآية ، وفيه يقول الشاعر :

وكيف ثوائى بالمدينة بعد ما * قضى وطراً منها جميل بن معمر

قلت : كذا قالوا جميل بن معمر . وقال الزمخشري : جميل بن أسد الفهري . وقال ابن عباس : سبها أن بعض المنافقين قال : إن محمداً له قلبان ؛ لأنه ربما كان فى شيء فترع

في غيره نزعة ثم عاد إلى شأنه الأول ؛ فقالوا ذلك عنه فأكذبهم الله عز وجل . وقيل : نزلت في عبد الله بن خطّال . وقال الزهري وابن حبان : نزل ذلك تمثيلا في زيد بن حارثة لما تنبأه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فالمعنى : كما لا يكون لرجل قبايا كذلك لا يكون ولد واحد لرجلين . قال النحاس : وهذا قول ضعيف لا يصح في اللغة ، وهو من منقطعات الزهري ، رواه معمر عنه . وقيل : هو مثل ضرب للمظاهر ؛ أي كما لا يكون للرجل قبايا كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه حتى تكون له أمان . وقيل : كان الواحد من المنافقين يقول : لي قلب يأمرني بكذا ، وقلب يأمرني بكذا ؛ فالمنافق ذو قلبين ؛ فالمقصود رد النفاق . وقيل : لا يجتمع الكفر والإيمان بالله تعالى في قلب ، كما لا يجتمع قلبان في جوف ؛ فالمعنى : لا يجتمع اعتقادان متغايران في قلب . ويظهر من الآية بجماها نفي أشياء كانت العرب تعتقدها في ذلك الوقت ، وإعلام بحقيقة الأمر ، والله أعلم .

الثانية — القلب بضعة صغيرة على هيئة الصنوبر ، خلقها الله تعالى في آدمى وجعلها محلا للعلم ، فيحصى به العبد من العلوم ما لا يسع في أسفار ، يكتبه الله تعالى فيه بالخط الإلهي ، ويضبطه فيه بالحفظ الزباني ، حتى يحصيه ولا ينسى منه شيئا . وهو بين لمتين : لمة من الملك ، ولمة من الشيطان ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم . خرجه الترمذي ، وقد مضى في « البقرة » . وهو محل الخطرات والوساوس ومكان الكفر والإيمان ، وموضع الإصرار والإنابة ، ومجرى الانزعاج والطمأنينة . والمعنى في الآية : أنه لا يجتمع في القلب الكفر والإيمان ، والهدى والضلال ، والإنابة والإصرار ؛ وهذا نفي لكل ما توهمه أحد في ذلك من حقيقة أو مجاز ، والله أعلم .

الثالثة — أعلم الله عز وجل في هذه الآية أنه لا أحد بقلبين ، ويكون في هذا طعن على المنافقين الذين تقدم ذكرهم ؛ أي إنما هو قلب واحد ، فلا فيه إيمان وإنما فيه كفر ؛ لأن

(١) البضعة (بالفتح وقد تكسر) القطعة من اللحم . (٢) اللمة (بالفتح) الحمة والخطرة تقع في القلب .

(٣) راجع ج ١ ص ١٨٧ فساد . (٤) في بعض النسخ : « والطمأنينة والاعتدال » .

درجة النفاق كأنها متوسطة ، فنفاها الله تعالى وبين أنه قلب واحد . وعلى هذا النحو يستشهد الإنسان بهذه الآية ، متى نسى شيئاً أو وهم . يقول على جهة الاعتذار : ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ يعنى قول الرجل لأمراته : أنتِ على كظهر أمتي . وذلك مذكور في سورة « المجادلة » على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَذْغِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ أجمع أهل التفسير على أن هذا نزل في زيد بن حارثة . وروى الأئمة أن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد ابن محمد حتى نزلت : « أَذْغُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ » وكان زيد فيما روى عن أنس ابن مالك وغيره مسيئاً من الشام ، سبته خيل من تهامة ، فأبتاعه حكيم بن حزام بن خويلد ، فوهبه لعمته خديجة فوهبته خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبناه ، فأقام عنده مدة ، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان في فدائه ، فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قبل البعث : « خَيْرَاهُ فَإِنْ آخِثَارَكَا فَهُوَ لَكُمَا دُونَ فِدَاءٍ » . فأختار الرق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حريته وقومه ، فقال محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : « يامعشر قريش اشهدوا أنه أبني يرثني وأرثه » وكان يطوف على حلق قريش يشهدهم على ذلك ، فرضى ذلك عمه وأبوه وانصرفا . وكان أبوه لما سبي يدور الشام ويقول :

بكيتُ على زيدٍ ولم أدر ما فعل * أحيى فيرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله لا أدرى وإني لسائل * أغالك بعدى السهل أم غالك الجبل
فيا ليت شعري ! هل لك الدهر أوبة * فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجل^(٢)
تذكرني به الشمس عند طلوعها * وتعرض ذكراه إذا غربها أقبل
وإن هبت الأرياح هيخن ذكره * فيأطول ما حزني عليه وما وجل
مأعمل نص العيس في الأرض جاهاً * ولا أسام التطواف أو تسام الإبل
حياتي أو تأتي على منيتي * فكل أمرئ فإن وإن غره الأمل

(١) راجع ج ١٧ ص ٢٧٩ فإبعد . (٢) بجل : كنتم زنة ومعنى . وأبجله الشيء : كفاه .

فأخبر أنه بمكة ، بجاء إليه فهلك عنده . وروى أنه جاء إليه نفيته النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا وأنصرف . وسأني من ذكره وفضله وشرفه شفاءً عند قوله : « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا^(١) كُهَا » إن شاء الله تعالى . وقتل زيد بمؤتة من أرض الشام سنة ثمان من الهجرة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أمره في تلك الغزاة ، وقال : « إن قُتل زيد بجعفر فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة » . فقتل الثلاثة في تلك الغزاة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعي زيد وجعفر بكى وقال : « أخوأي وهؤنساي ومحدثاي » .

قوله تعالى : أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٦﴾
فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ) نزلت في زيد بن حارثة ، على ما تقدم بيانه . وفي قول ابن عمر : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد ، دليل على أن التَّبَنَّى كان معمولاً به في الجاهلية والإسلام ، يُتوارث به ويتناصر ، إلى أن نسخ الله ذلك بقوله : « أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ » أي أعدل . فرفع الله حكم التَّبَنَّى ومنع من إطلاق لفظه ، وأرشد بقوله إلى أن الأولى والأعدل أن يُنسب الرجل إلى أبيه نسباً ، فيقال : كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه من الرجل جلده وظرفه ضمه إلى نفسه ، وجعل له نصيب الذكر من أولاده من ميراثه ، وكان يُنسب إليه فيقال فلان بن فلان . وقال النحاس : هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التَّبَنَّى ، وهو من نسخ السنة بالقرآن ، فأمر أن يدعوا من دعوا إلى أبيه المعروف ، فإن لم يكن له أب معروف نسبوه إلى ولائه ، فإن لم يكن له ولأء معروف قال له يا أُنحى ، يعنى في الدين ، قال الله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ^(٢) » .

(١) راجع ص ١٨٨ من هذا الجزء .

(٢) راجع ج ١٦ ص ٣٢٢

الثانية — لو نسبته إنسان إلى أبيه من التبني فإن كان على جهة الخطأ ، وهو أن يسبق لسانه إلى ذلك من غير قصد فلا إثم ولا . وإخذة ؛ لقوله تعالى : « وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ » . وكذلك أو دعوت رجلا إلى غير أبيه وأنت ترى أنه : إياه فليس عليك بأس ؛ قاله قتادة . ولا يجرى هذا المجرى ما غلب عليه اسم التبني كالحال في المقداد بن عمرو فإنه كان غلب عليه نسب التبني ، فلا يكاد يعرف إلا بالمقداد بن الأسود ؛ فإن الأسود بن عبد يغوث كان قد تنبأه في الجاهلية وعرف به . فلما نزلت الآية قال المقداد : أنا ابن عمرو ؛ ومع ذلك فبقى الإطلاق عليه . ولم يسمع فيمن مضى من عصي مطاق ذلك عليه وإن كان متعمدا . وكذلك سالم مولى أبي حذيفة ، كان يدعى لأبي حذيفة . وغير هؤلاء ممن تبنى وأنسب لغير أبيه وشهر بذلك وغلب عليه . وذلك بخلاف الحال في زيد بن حارثة ؛ فإنه لا يجوز أن يقال فيه زيد بن محمد ، فإن قاله أحد متعمدا عصي لقوله تعالى : « وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ » أى فعليكم الجناح . والله أعلم . ولذلك قال بعده : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى « غفورا » للعمد ، و « رحيما » برفع إثم الخطأ .

الثالثة — وقد قيل : إن قول الله تبارك وتعالى : « وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ » مجمل ؛ أى وليس عليكم جناح في شيء أخطأتم ، وكانت فتيا عطاء وكثير من العلماء . على هذا إذا حلف رجل ألا يفارق غريمه حتى يستوفي منه حقه ، فأخذ منه ما يرى أنه جيد من دنائير فوجدها زيوفا أنه لاشيء عليه . وكذلك عنده إذا حلف ألا يسلم على فلان فسلم عليه وهو لا يعرفه أنه لا يحنث ؛ لأنه لم يتعمد ذلك . و « ما » في موضع خفض رداً على « ما » التى مع « أَخْطَأْتُمْ » . ويجوز أن تكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ ؛ والتقدير : ولكن الذى تؤاخذون به ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ . قال قتادة وغيره : من نسب رجلا إلى غير أبيه ، وهو يرى أنه أبوه ، خطأً فذلك من الذى رفع الله فيه الجناح . وقيل : هو أن يقول له في المخاطبة : يا بني ؛ على غير تبني .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ « بِأَفْوَاهِكُمْ » تأكيد لبطلان القول ؛ أى أنه قول لا حقيقة له في الوجود ، إنما هو قول لسانى فقط . وهذا كما تقول : أنا أمشى

(١) فى ش : « خطأ من الخطأ الذى ... » .

(٢) هذه المسألة هكذا وردت فى جميع نسخ الأصل . ويلاحظ أنها مقحمة هنا وموضعها الآية السابقة .

إليك على قَدَمٍ، فإنما تريد بذلك المبرة . وهذا كثير . وقد تقدم هذا المعنى في غير موضع .
 ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ «الحق» نعت لمصدر محذوف؛ أى يقول القول الحق . و﴿يَهْدَى﴾
 معناه يبين؛ فهو يتعدى بغير حرف جر .

الخامسة — الأدياء جمع الدعي، وهو الذى يدعى أبنا لغير أبيه أو يدعى غير أبيه؛
 والمصدر الدعوة بالكسر؛ فأمر تعالى بدعاء الأدياء إلى آبائهم للصلب، لمن جهل ذلك فيه
 ولم تشتهر أنسابهم كان مولى وأخا فى الدين . وذكر الطبري أن أبا بكره قرأ هذه الآية وقال :
 أنا ممن لا يعرف أبوه، فأنا أخوكم فى الدين ومولاكم . قال الراوى عنه : ولو علم — والله —
 أن أباه حمار لآنتى إليه . ورجال الحديث يقولون فى أبى بكره : نُفَّعَ بن الحارث .

السادسة — روى الصحيح عن سعد بن أبى وقاص وأبى بكره كلاهما قال : سَمِعْتُهُ
 أَذْنَاى وَوَعَاه قَلْبى مَجْدًا^(٢) صلى الله عليه وسلم يقول : ”من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه
 فالجنة عليه حرام“ . وفى حديث أبى ذر أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : ”ليس من
 رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر“ .

قوله تعالى : **الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أَمْتُهُمْ**
وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ
فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦١﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ هذه الآية أزال الله تعالى
 بها أحكاماً كانت فى صدر الإسلام؛ منها : أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يصلّى على ميت

(١) راجع ج ٤ ص ٢٦٧ وج ٨ ص ١١٨ فما بعد .

(٢) قوله : « مجدا » نصب على البدل من الضمير المنصوب فى قوله : « سمعته أذناى » .

عليه دين ، فلما فتح الله عليه الفتوح قال : ”أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفى وعليه دين فعلى قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته“ أخرجه الصحيحان . وفيهما أيضا ”فأيكم ترك ديناً أو ضياعاً فأنا مولاه“ . قال ابن العربي : فانقلبت الآن الحال بالذنوب ، فإن تركوا مالا ضويق العصبية فيه ، وإن تركوا ضياعاً أسلموا إليه ؛ فهذا تفسير الولاية المذكورة في هذه الآية بتفسير النبي صلى الله عليه وسلم وتنبيهه ؛ (ولا عطر بعد عروس) . قال ابن عطية : وقال بعض العلماء العارفين هو أولى بهم من أنفسهم ؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك ، وهو يدعوهم إلى النجاة . قال ابن عطية : ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام : ”أنا آخذ بحجزكم عن النار وأتم تقتحمون فيها تقحم القراش“ .

قلت : هذا قول حسن في معنى الآية وتفسيرها ، والحديث الذي ذكر أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إنما مثلى ومثلى أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه وأنا آخذٌ بحجزكم وأتم تقتحمون فيه“ . وعن جابر مثله ؛ وقال : ”وأتم تفلتُون من يدي“ . قال العلماء : الحِجْزَةُ للسراويل ، والمعقِدُ للإزار ؛ فإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه أخذ بذلك الموضع منه . وهذا مثل لاجتماع نبينا عليه الصلاة والسلام في نجاتنا ، وحرصه على تخلصنا من الهلكات التي بين أيدينا ؛ فهو أولى بنا من أنفسنا ؛ ولجهلنا بقدر ذلك وغلبة شهواتنا علينا وظفر عدونا للعين بناصرنا أحقر من الفراش وأذل من الفراش ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! وقيل : أولى بهم أى أنه إذا أمر بشيء ودعت النفس إلى غيره كان أمر النبي صلى الله عليه وسلم أولى . وقيل : أولى بهم أى هو أولى بأن يحكم على المؤمنين فينفذ حكمه في أنفسهم ؛ أى فيما يحكون به لأنفسهم مما يخالف حكمه .

الثانية — قال بعض أهل العلم : يجب على الإمام أن يقضى من بيت المال دين الفقراء اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قد صرح بوجوب ذلك عليه حيث قال : ”فعلى قضاؤه“ . والضياع (بفتح الضاد) مصدر ضاع ، ثم جعل أسما لكل ما هو بصدد أن يضيع

(١) مرجع الضمير في هذه الرواية المستوردة المفهوم من الكلام .

من عيال وبنين لا كافل لهم، ومال لا قيم له . وسميت الأرض ضيعة لأنها معرضة للضياع، وتجمع ضياعا بكسر الضاد .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ شرف الله تعالى أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين ؛ أى فى وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال، وحجبهن رضى الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات . وقيل : لما كانت شفقتن عليهم كشفقة الأمهات أنزلن منزلة الأمهات ، ثم هذه الأمومة لا توجب ميراثا كأُمومة التَّبَنَّى . وجاز تزويج بناتهن ، ولا يجعلن أخوات للناس . وسيأتى عدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فى آية التَّخْيِيرِ ^(١) إن شاء الله تعالى .

واختلف الناس هل هن أمهات الرجال والنساء أم أمهات الرجال خاصة ؛ على قولين : فروى الشعبي عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها أن امرأة قالت لها : يا أمة ؛ فقالت لها : لست لك بأم ، إنما أنا أم رجالكم . قال ابن العربي : وهو الصحيح .

قلت : لا فائدة فى اختصاص الحصر فى الإباحة للرجال دون النساء ، والذي يظهر لى أنهن أمهات الرجال والنساء ؛ تعظيماً لحقهن على الرجال والنساء . يدل عليه صدر الآية : « النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ » ، وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة . ويدل على ذلك حديث أبى هريرة وجابر ؛ فيكون قوله : « وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » عائدا إلى الجميع . ثم إن فى مصحف أبى بن كعب « وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ » . وقدراً ابن عباس : « من أنفسهم وهو أب [لهم] ^(٢) وَأَزْوَاجُهُ [أُمَّهَاتُهُمْ] ^(٢) » . وهذا كله يوهن ما رواه مسروق إن صح من جهة الترجيح ، وإن لم يصح فيسقط الاستدلال به فى التخصيص ، وبقينا على الأصل الذى هو العموم الذى يسبق إلى الفهوم ^(٣) . والله أعلم .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ قيل : إنه أراد بالمؤمنين الأنصار ، وبالمهاجرين قريشا . وفيه قولان :

(١) راجع ص ١٦٤ من هذا الجزء . (٢) ما بين المربعين زيادة يقتضيا السياق ، ليست فى نسخ الأصل .

(٣) كذا فى ج . وفى ك : « الفهم » . وفى ش : « المفهوم » .

أحدهما — أنه ناسخ للتوارث بالهجرة . حكى سعيد عن قتادة قال : كان نزل في سورة الأنفال « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا » ^(١) فتوارث المسلمون بالهجرة ، فكان لا يرث الأعرابي المسلم من قريبه المسلم المهاجر شيئاً حتى يهاجر ، ثم نسخ ذلك في هذه السورة بقوله : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ » . الثاني — أن ذلك ناسخ للتوارث بالحلف والمؤاخاة في الدين ؛ روى هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فآخيناهم فأورثونا وأورثناهم ، فأتى أبو بكر خاتمة بن زيد ، وأخيت أنا كعب بن مالك ، فبغت فوجدت السلاح قد أثقله ؛ فوالله لقد مات عن الدنيا ما ورثه غيري ، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فرجعنا إلى موارثنا . وثبت عن عروة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بين الزبير وبين كعب بن مالك ، فأرثت كعب ^(٢) يوم أحد بجاء الزبير يقوده بزمام راحلته ؛ فلو مات يومئذ كعب عن الضح والريح لورثه الزبير ، فأنزل الله تعالى : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » . فبين الله تعالى أن القرابة ^(٣) أولى من الحلف ، فتركت الوراثة بالحلف وورثوا بالقرابة . وقد مضى في « الأنفال » الكلام في توريث ذوى الأرحام . وقوله : « فِي كِتَابِ اللَّهِ » يحتمل أن يريد القرآن ، ويحتمل أن يريد اللوح المحفوظ الذي قضى فيه أحوال خلقه . و« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » متعلق بـ « أَوْلَى » لا بقوله : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ » بالإجماع ؛ لأن ذلك كان يوجب تخصيصاً ببعض المؤمنين ، ولا خلاف في عمومها ، وهذا حل إشكالها ؛ قاله ابن العربي . النحاس : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ » يجوز أن يتعلق « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » بـ « أَوْلَى » فيكون التقدير : وأولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين . ويجوز أن يكون المعنى أولى من المؤمنين . وقال المهدوي : وقيل إن معناه : وأولو الأرحام بعضهم أولى

(١) راجع ج ٨ ص ٥٥ فابعد . (٢) الارتاث : أن يحمل الجريح من المعركة وهو ضعيف

قد أنخته الجراح . (٣) الضح (بالكسر) : ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض . أراد لو مات عما طلعت

عليه الشمس وجرت عليه الريح ؛ وكفى بهما عن كثرة المسال . (٤) راجع ج ٨ ص ٥٩ .

ببعض في كتاب الله إلا ما يجوز لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعين أمهات المؤمنين . والله تعالى أعلم .

الخامسة — واختلاف في كونهن كالأمهات في المحرم وإباحة النظر ؛ على وجهين : أحدهما — هن محرم ، لا يحرم النظر إليهن . الثاني — أن النظر إليهن محرم ، لأن تحريم نكاحهن إنما كان حفظاً لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهن ، وكان من حفظ حقه تحريم النظر إليهن ؛ ولأن عائشة رضي الله عنها كانت إذا أرادت دخول رجل عليها أمرت^(١) أختها أسماء أن ترضعه ليصير أبناً لأختها من الرضاعة ، فيصير محرماً يستبيح النظر . وأما اللاتي طلقهن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته فقد اختلف في ثبوت هذه الحرمة لهن على ثلاثة أوجه : أحدها — ثبتت لهن هذه الحرمة تغليبا لحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . الثاني — لا يثبت لهن ذلك ، بل هن كسائر النساء ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أثبت عصمتهم ، وقال : " أزواجي في الدنيا هن أزواجي في الآخرة " . الثالث — من دخل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم منهن ثبتت حرمتها وحرم نكاحها وإن طلقها ؛ حفظا لحرمة وحراسة لخلوته ، ومن لم يدخل بها لم تثبت لها هذه الحرمة ؛ وقد هم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه برجم امرأة فارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوجت فقالت : لم هذا ! وما ضرب علي رسول الله صلى الله عليه وسلم حجاباً ولا سُميت أُم المؤمنين ؛ فكف عنها عمر رضي الله عنه . السادسة — قال قوم : لا يجوز أن يُسمى النبي صلى الله عليه وسلم أباً لقوله تعالى : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ » . ولكن يقال : مثل الأب للمؤمنين ؛ كما قال : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم ... » الحديث . نرجه أبو داود . والصحيح أنه يجوز أن يقال : إنه أب للمؤمنين ، أى في الحرمة ، وقوله تعالى : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ » أى في النسب . وسيأتي . وقرأ ابن عباس : « مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ وَأَزْوَاجُهُ » . وسمع عمر هذه القراءة فأنكرها وقال : حُكِّمُوا يا غلام ؟ فقال : إنما في مصحف أبي ، فذهب إليه

(١) راجع ج ٥ ص ١٠٩ و ج ٤ ص ١٥٤ شرح الموطأ .

فسأله فقال له أُنْبِئْ : إنه كان يلهمني القرآن ويلهيك الصُّفْقُ^(١) بالأسواق؟ وأغاظ لعمر . وقد قيل في قول لوط عليه السلام « هَؤُلَاءِ بَنَاتِي »^(٢) : إنما أراد المؤمنات ؛ أي تزوجوهن . وقد تقدم .

السابعة = قال قوم : لا يقال بناته أخوات المؤمنين ، ولا أخواتهن أخوال المؤمنين وخالاتهم . قال الشافعي رضي الله عنه : تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر الصديق وهي أخت مائشة ، ولم يقل هي خالة المؤمنين . وأطلق قوم هذا وقالوا : معاوية خال المؤمنين ؛ يعني في الحرمة لا في النسب .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا ﴾ يريد الإحسان في الحياة ، والوصية عند الموت ؛ أي إن ذلك جائز ؛ قاله قتادة والحسن وعطاء . وقال محمد ابن الحنفية ، نزلت في إجازة الوصية لليهودي والنصراني ؛ أي يفعل هذا مع الولي والقريب وإن كان كافرا ؛ فالمشرك ولي في النسب لا في الدين فيوصى له بوصية . واختلف العلماء هل يحمل الكافر وصياً ؛ بخوِّض بعض ومنع بعض . ورد النظر إلى السلطان في ذلك بعض ؛ منهم مالك رحمه الله تعالى . وذهب مجاهد وابن زيد والزماني إلى أن المعنى : إلى أوليائكم من المؤمنين . ولفظ الآية يعضد هذا المذهب ، وتعميم الولي أيضاً حسن . وولاية النسب لا تدفع الكافر ، وإنما تدفع أن يلقى إليه بالموتة كولي الإسلام .

التاسعة - قوله تعالى : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ « الْكِتَابِ » يحتمل الوجهين المذكورين المتقدمين في « كِتَابِ اللَّهِ » . و « مَسْطُورًا » من قولك سطرت الكتاب إذا أثنته أسطارا . وقال قتادة : أي مكتوباً عند الله عز وجل ألا يرث كافر مسلماً . قال قتادة ؛ وفي بعض القراءة « كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبًا » . وقال القرطبي : كان ذلك في التوراة .

قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَاطِظًا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : « (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ) » أى عهدهم على الوفاء بما حملوا ، وأن يبشر بعضهم ببعض ، ويصدق بعضهم بعضا ؛ أى كان مسطورا حين كتب الله ما هو كائن ، وحين أخذ الله تعالى المواثيق من الأنبياء . (وَمِنْكَ) يا محمد (وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) وإنما خص هؤلاء الخمسة وإن دخلوا في زمرة النبيين تفضيلا لهم . وقيل : لأنهم أصحاب الشرائع والكتب ، وأولو العزم من الرسل وأئمة الأمم . ويحتمل أن يكون هذا تعظيما في قطع الولاية بين المسلمين والكافرين ؛ أى هذا مما لم تختلف فيه الشرائع ، أى شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . أى كان في ابتداء الإسلام توارث بالهجرة ، والهجرة سبب متأكد في الديانة ، ثم توارثوا بالقرابة مع الإيمان وهو سبب وكيد ؛ فاما التوارث بين مؤمن وكافر فلم يكن في دين أحد من الأنبياء الذين أخذ عليهم المواثيق ؛ فلا تُداهنوا في الدين ولا تمالأوا الكفار . ونظيره : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا - إِلَى قَوْلِهِ - وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »^(١) . ومن ترك التفرق في الدين ترك موالاته الكفار . وقيل : أى النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم كان ذلك في الكتاب مسطورا وما أخوذا به المواثيق من الأنبياء . (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) أى عهدا وثيقا عظيما على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالة ، وأن يصدق بعضهم بعضا . والميثاق هو اليمين بالله تعالى ؛ فالميثاق الثاني تأكيد للميثاق الأول باليمين . وقيل : الأول هو الإقرار بالله تعالى ، والثاني في أمر النبوة . ونظير هذا قوله تعالى : « (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي) »^(٢) الآية . أى أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعلم أن محمدا صلى الله عليه وسلم أن لا نبي بعده . وقدم محمدا في الذكر لما روى قتادة عن الحسن عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى « (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ) » قال : « كنت أولهم في الخلق وآخرهم في البعث » . وقال مجاهد : هذا في ظهر آدم عليه الصلاة والسلام .

(١) راجع ج ١٦ ص ٩ فلا بد .

(٢) راجع ج ٤ ص ١٢٤ فلا بد .

قوله تعالى : لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ فيه أربعة أوجه :
أحدها — يسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم ؛ حكاه النقاش ، وفي هذا تنبيه ؛
أى إذا كان الأنبياء يسألون فكيف من سواهم .

الثانى — يسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم ؛ حكاه على بن عيسى .
الثالث — يسأل الأنبياء عليهم السلام عن الوفاء بالميثاق الذى أخذه عليهم ؛ حكاه
ابن شجرة .

الرابع — يسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة ، وفي التنزيل : « فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ » . وقد تقدم^(١) . وقيل : فائدة سؤالهم توبيخ الكفار ؛ كما قال تعالى : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ » . ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وهو عذاب جهنم .

قوله تعالى : يَذَّكَّرُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾

يعنى غزوة الخندق والأحزاب وبني قريظة^(٢) ، وكانت حالا شديدة معقبة بنعمة ورخاء
وغبطة ، وتضمنت أحكاما كثيرة وآيات باهرات عزيزة ، ونحن نذكر من ذلك بعون الله
تعالى ما يكفى فى عشر مسائل :

الأولى — اختلف فى أى سنة كانت ؛ فقال ابن إسحاق : كانت فى شوال من السنة
الخامسة . وقال ابن وهب وابن القمام عن مالك رحمه الله : كانت وقعة الخندق سنة أربع ،

(١) راجع ج ٧ ص ١٦٤ (٢) راجع ج ٦ ص ٣٧٤ .

(٣) سميت غزوة الخندق لأجل الخندق الذى حفر حول المدينة بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم . وأما تسميتها
بالأحزاب : فلا اجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين ، وهم قريش وغلطان واليهود .

وهي وبنو قريظة في يوم واحد، وبين بنى قريظة والنضير أربع سنين . قال ابن وهب وسمعت
 مالكاً يقول : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتال من المدينة ، وذلك قوله تعالى :
 « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ » .
 قال : ذلك يوم الخندق ، جاءت قريش من ها هنا واليهود من ها هنا والنجدية من ها هنا .
 يريد مالك : إن الذين جاءوا من فوقهم بنو قريظة ، ومن أسفل منهم قريش وغطفان . وكان
 سببها : أن نفرا من اليهود منهم كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وسلام بن أبي الحقيق وسلام
 ابن مشكم وحبي بن أخطب النضيريون وهوذبة بن قيس وأبو عمار من بنى وائل ، وهم كلهم
 يهود ، هم الذين حاربوا الأحزاب وألبوا وجمعوا ، خرجوا في نفر من بنى النضير ونفر من بنى
 وائل فأتوا مكة فدعوا إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وواعدوهم من أنفسهم بعون
 من آتندب إلى ذلك ، فأجابهم أهل مكة إلى ذلك ، ثم خرج اليهود المذكورون إلى غطفان
 فدعوههم إلى مثل ذلك فأجابوهم ، فخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب ، وخرجت
 غطفان وقائدهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري على فزارة ، والحارث بن عوف
 المذري على بنى مرة ، ومسعود بن ربيعة على أشجع . فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم
 باجتماعهم ون خروجهم شاور أصحابه ، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق فرضى رأيه . وقال
 المهاجرون يومئذ : سلمان منا . وقال الأنصار : سلمان منا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « سلمان منا أهل البيت » . وكان الخندق أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله صلى الله
 عليه وسلم وهو يومئذ حر . فقال : يا رسول الله ، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا ، فعمل
 المسلمون في الخندق مجتهدين ، ونكص المنافقون وجعلوا يتسللون^(١) وإذا فترت فيهم آيات
 من القرآن ذكرها ابن إسحاق وغيره . وكان من فرغ من المسلمين من حصته عاد إلى غيره ،
 حتى كمل الخندق . وكانت فيه آيات بينات وعلامات للنبوات .

قلت : ففى هذا الذى ذكرناه من هذا الخبر من الفقه وهى : —

(١) أى مستخفين ومستترين بعضهم ببعض .

الثانية - مشاورة السلطان أصحابه وخاصته في أمر القتال ؛ وقد مضى ذلك في « آل عمران » ^(١) ، والنمل » . وفيه التحصن من العدو بما أمكن من الأسباب واستعمالها ؛ وقد مضى ذلك في غير موضع . وفيه أن حفر الخندق يكون مقسوما على الناس ؛ فمن فرغ منهم عاون من لم يفرغ ، فالمسلمون يدُّ على مَنْ سواهم ؛ وفي البخارى ومسلم عن البراء بن عازب قال : لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جِلْدَةً بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعتَه يرتجز بكلمات ابن رواحة وبقول :

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا أَهْتَدَيْنَا * وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلِّينَا
فَانْزِلْ سَكِينَةً عَلَيْنَا * وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قَيْنَا

وأما ما كان فيه من الآيات وهى : -

الثالثة - فروى النسائي عن أبي سبيكة رجلٍ من المحررين عن رجلٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ المعول ووضع رداءه ناحية الخندق وقال : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا » ^(٣) الآية ؛ فنذر ^(٤) ثلث الحجر وسلمان الفارسي قائم ينظر ، فبرق مع ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم برقة ، ثم ضرب الثانية وقال : « وَتَمَّتْ » الآية ؛ فنذر الثلث الآخر ؛ فبرقت برقة فراها سلمان ، ثم ضرب الثالثة وقال : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا » الآية ؛ فنذر الثلث الباقي ، ونحرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ رداءه وجلس . قال سلمان : يا رسول الله ، رأيتك حين ضربت ! ما تضرب ضربة إلا كانت معها برقة ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت ذلك يا سلمان » ؟ فقال : أئى والذي بعثك بالحق يا رسول الله ! قال : « فإني حين ضربت الضربة الأولى رفعت لى مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة حتى رأيتها بعينى » - قال له من حضره من أصحابه : يا رسول الله ،

(١) راجع ج ٤ ص ٢٤٩ فما بعد . وج ١٣ ص ١٩٤ . (٢) أى الملق من النار .

(٤) نذر : سقط .

(٣) راجع ج ٧ ص ٧١ .

(١) ادع الله أن يفتحها علينا ويغنمنا ذراريهم ويخرب بأيدينا بلادهم ؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم — ثم ضربت الضربة الثانية فرفعت لى مدائن قيصر وما حولها حتى رأيتها بعيني — قالوا : يا رسول الله ، ادع الله تعالى أن يفتحها علينا ويغنمنا ذراريهم ويخرب بأيدينا بلادهم ؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم — ثم ضربت الضربة الثالثة فرفعت لى مدائن الحبشة وما حولها من القرى حتى رأيتها بعيني — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : دعوا الحبشة ما ودعوكم وأتركوا الترك ما تركوكم . وخرجه أيضا عن البراء قال : لما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحفر الخندق عرض لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول ، فأشتكينا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقى ثوبه وأخذ المعول وقال : ” باسم الله “ فضرب ضربة فكسر ثلث الصخرة ثم قال : ” الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر إلى قصورها الحمراء الآن من مكاني هذا “ قال : ثم ضرب أخرى وقال : ” باسم الله “ فكسر ثلثا آخر ثم قال : ” الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض “ . ثم ضرب الثالثة وقال : ” باسم الله “ فقطع الحجر وقال : ” الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر باب صنعاء “ . صححه أبو محمد عبد الحق .

الرابعة — فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق أقبلت قريش في نحو عشرة آلاف بمن معهم من كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غطفان بمن معها من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى نزلوا بظهر سلع^(٢) في ثلاثة آلاف وضربوا عسكرهم والخندق بينهم وبين المشركين ، وأستعمل على المدينة ابن أم مكتوم — في قول ابن شهاب — وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي ، وكان صاحب عقد بني قريظة ورؤسهم ، وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاقده وعاهده ؛ فلما سمع كعب بن أسد حيي بن أخطب

(١) في النسائي : « ديارهم » . (٢) سلع : جبل بالمدينة .

أغلق دونه باب حصنه وأبى أن يفتح له ؛ فقال له : افتح لي يا أخى ؛ فقال له : لا أفتح لك ، فإنك رجل مشنوم ، تدعوني إلى خلاف عهد وأنا قد عاقدته وعاهدته ، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً ، فلست بناقض ما بيني وبينه . فقال حُيَّ : افتح لي حتى أكلمك وأنصرف عنك ؛ فقال : لا أفعل ؛ فقال : إنما تخاف أن آكل معك جشيشتك ؛ فغضب كعب وفتح له ؛ فقال : يا كعب ! إنما جئتكم بعزّ الدهر ، جئتكم بقريش وساداتها ، وغطفان وقاداتها ؛ قد تعاقدوا على أن يستأصلوا محمداً ومن معه ؛ فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر ويجهم^(١) لا غيث فيه ! ويحك يا حُيَّ ؟ دَعْنِي فلستُ بفاعل ما تدعوني إليه ؛ فلم يزل حُيَّ يكعب يعيده ويغزّه حتى رجع إليه وعاقده على خذلان محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأن يسير معهم ، وقال له حُيَّ بن أخطب : إن انصرفت قريش وغطفان دخلت عندك بمن معي من اليهود . فلما انتهى خبر كعب وحُيَّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعث سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ، وسيد الأوس سعد بن معاذ ، وبعث معهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” انطلقوا إلى بني قريظة فإن كان ما قيل لنا حقاً فآلحناؤنا لحناً ولا تقفوا في أعضاد الناس . وإن كان كذباً فأجهروا به للناس “ فانطلقوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما قيل لهم عنهم ، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : لا عهد له عندنا ؛ فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه ؛ وكانت فيه حدة فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمهم ، فالذي بيننا وبينهم أكثر من ذلك ، ثم أقبل سعد وسعد حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة المسلمين فقالا : عَصَل والقارة — يعرضان بغدر عَصَل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه — فقال النبي صلى الله عليه وسلم . ” أبشروا يا معشر المسلمين “ وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف ، وأتى المسلمين عدوهم من فوقهم ؛ يعني من فوق الوادي من قبل المشرق ، ومن أسفل منهم من بطن الوادي من قبل المغرب ، حتى ظنوا بالله الظنون ؛ وأظهر المنافقون كثيراً مما كانوا يسيرون ، فمنهم من قال : إن بيوتنا عورة ، فلننصرف إليها ،

(١) الجهم : السحاب لا ماء فيه .

فلما نخاف عليها ، ومن قال ذلك : أوس بن قَيْظى . ومنهم من قال : يَعِدنا مجد أن يفتح كنوز كسرى وقبصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه يذهب إلى الغائط ! ومن قال ذلك : مُعْتَب بن قُشَيْر أحد بنى عمرو بن عوف . فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام المشركون بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر لم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه اشتد على المسلمين البلاء بعث إلى عِيْنَةَ بنِ حِصْن القَزَارَى ، وإلى الحارث بن عوف المَرِّى ، وهما قائدَا غَطَفَان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة لينصرفا بمن معهما من غَطَفَان ويخذلا قريشا ويرجعا بقومهما عنهم . وكانت هذه المقالة مراوضة ولم تكن عقدا ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهما أنهما قد أنابا ورضيا أتى سعد بن معاذ وسعد بن عباد فذكر ذلك لهما وأستشارهما فقالا : يا رسول الله ، هذا أمر تحبه فنصنعه لك ، أو شيء أمرك الله به فندفع له ونطيع ، أو أمر تهمنه لنا ؟ قال : ” بل أمر أصنعه لكم ، والله ما أصنعه إلا أنى قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ” فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وما طمعوا قط أن ينالوا من ثمره إلا شِراء أو قرى ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ! فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وقال : ” أنتم وذاك ” . وقال لعِيْنَةُ والحارث : ” انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف ” . وتناول سعد الصحيفة وليس فيها شهادة فحاجها .

الخامسة — فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون على حالهم ، والمشركون يحاصرونهم ولا قتال بينهم ؛ إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود العاصرى من بنى عامر بن أُمَيَّة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وهبيرة بن أبي وهب ، وضرار بن الخطاب الفهرى ، وكانوا فرسان قريش وشجعانهم ، أقبلوا حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا : إن هذه لمكيدة ، ما كانت العرب تكيدها . ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق ، فضربوا خيلهم فاقتحمت بهم ، وجاوزوا الخندق وصاروا بين الخندق وبين سَلْع ، ونحرج على بن أبي طالب

في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي آفتحموا منها ، وأقبلت الفرسان نحوهم ، وكان عمرو بن عبد ود قد أثبتته الجراح يوم بدر فلم يشهد أحدًا ، وأراد يوم الخندق أن يرى مكانه ، فلما وقف هو وخيله ، نادى : من يبارز ؟ فبرز له علي بن أبي طالب وقال له : يا عمرو ، إنك عاهدت الله فيما بلغنا أنك لا تدعى إلى إحدى خلتين إلا أخذت أحدهما ؟ قال نعم . قال : فإني أدعوك إلى الله والإسلام . قال : لا حاجة لي بذلك . قال : فادعوك إلى البراز . قال : يا بن أخي ، والله ما أحب أن أقتلك لما كان بيني وبين أبيك . فقال له علي : أنا والله أحب أن أقتلك . فحصى عمرو بن عبد ود ونزل عن فرسه ، فعقره وصار نحو علي ، فتنازلا وتجاولا ونار النقع بينهما حتى حال دونهما ، فما أنجلى النقع حتى رُئِيَ عليّ علي صدر عمرو يقطع رأسه ، فلما رأى أصحابه أنه قد قتله عليّ آفتحموا بخيلهم الثغرة منهزمين هاربين . وقال عليّ رضي الله عنه في ذلك :

(١) نصر المجارة من سفاهة رأيه * ونصرت دين محمد بضراب
(٢) نازلته فتركته متجدلاً * كالجدع بين دكادك وروابي
(٣) وعففت عن أثوابه ولو آتني * كنت المقطر بزني أثوابي
(٤) لا تحسبن الله خاذل دينه * ونبيّه يامعشر الأحزاب

قال ابن هشام : أكثر أهل العلم بالسيرة يشك فيها لعلّي . قال ابن هشام : وألقى عكرمة ابن أبي جهل رحمه يومئذ وهو منهزم عن عمرو ، فقال حسان بن ثابت في ذلك :

فتر وألقى لنا رُمحه * لعلك عكرم لم تفعل
ووليت تعدو كعدو الظل * يم ما إن تجور عن المعدل
ولم تلق ظهرك مستأنسا * كأن قفاك قفا فرعل

(١) في سيرة ابن هشام : « بصوابي » . (٢) في سيرة ابن هشام : « فصددت حين تركته ... » .
(٣) المنجدل : اللاصق بالأرض . والدكادك : جمع دكادك ، وهو الرمل اللين . والروابي : جمع رابية ، وهو ما ارتفع من الأرض . (٤) المقطر : الذي ألقى على أحد قطريه ، أي جنبه . وبزني : سلبني وجردني .
(٥) في سيرة ابن هشام : « بالشعر » .

قال ابن هشام : فرعل صغير الضباع . وكانت عائشة رضي الله عنها في حصن بني حارثة ، وأم سعد بن معاذ معها ، وعلى سعد درع مقلصة ^(١) قد خرجت منها ذراعه ، وفي يده حربته وهو يقول :

لَبْتُ قَلِيلًا يَلْحَقُ الْهَيَّجَا جَمَلٌ * لَا بَأْسَ بِالْمَوْتِ إِذَا كَانَ الْأَجَلُ

ورمى يومئذ سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكل ^(٢) . واختلف فيمن رماه ؛ فقيل : رماه حبان بن قيس ابن العرقعة ، أحد بني عامر بن لؤي ^(٣) ، فلما أصابه قال له : خذها وأنا ابن العرقعة . فقال له سعد : عرق الله وجهك في النار . وقيل : إن الذي رماه خفاجة ابن عاصم بن حبان ^(٤) . وقيل : بل الذي رماه أبو أسامة الجشيمي ، حليف بني مخزوم . ولحسن مع صفية بنت عبد المطلب خبر طريف يومئذ ؛ ذكره ابن إسحاق وغيره .

قالت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها : كنا يوم الأحزاب في حصن حسان ابن ثابت ، وحسان معنا في النساء والصبيان ، والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في نحر العدو لا يستطيعون الانصراف إلينا ، فإذا يهودى يدور ، فقلت لحسان : أنزل إليه فاقتله ؛ فقال : ما أنا بصاحب هذا يابنة عبد المطلب ! فأخذت عمودا ونزلت من الحصن فقتلته ، فقلت : يا حسان ، انزل فاسلبه ، فلم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل . فقال : مالي بسلبه حاجة يابنة عبد المطلب ! قال : فنزلت فسلبته . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد أنكر هذا عن حسان جماعة من أهل السير وقالوا : لو كان في حسان من الجبن ما وصفتم لهجاء بذلك الذين كان يهاجمهم في الجاهلية والإسلام ، ولم يجى بذلك ابنه عبد الرحمن ؛ فإنه كان كثيرا ما يهاجى الناس من شعراء العرب ؛ مثل النجاشي وغيره .

السادسة — وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي فقال : يا رسول الله ، إني قد أسلمت ولم أعلم قومي بالإسلامي ، فمُرني بما شئت ؛ فقال له رسول

(١) مقلصة : مجتمعة منضمة . (٢) الأكل : عرق في وسط الذراع . (٣) العرقعة (بفتح العين وكسر الزاء) : أم حبان ، واسمها قلابة بنت سعيد بن سعد تكنى أم فاطمة ، وسببت العرقعة لطيب ريحها ، وهي جذة خديجة . (٤) في الأصول : « جبارة » والنصوب من سيرة ابن هشام وشرح المواهب .

الله صلى الله عليه وسلم : ” إنما أنت رجل واحد من غطفان فلو خرجت فخذلت عنا إن استطعت كان أحب إلينا من بقائك معنا فأخرج ^(١) فإن الحرب خدعة ^(٢) “ . فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة — وكان يناديهم في الجاهلية — فقال : يا بني قريظة ، قد عرفتم وُدِّي إياكم ، وخاصة ما بيني وبينكم ؛ قالوا : قل فليست عندنا بهم ^(٣) ، فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونسأؤكم ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب مجد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وختلوا بينكم وبين الرجل ، ولا طاقة لكم به ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا . ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لهم : قد عرفتم وُدِّي لكم معشر قريش ، وفراق مجدا ، وقد بلغني أمر أرى من الحق أن أبلغكموه نصحا لكم ، فاكتموا علي ؛ قالوا نفعل ؛ قال : تعلمون أن معشر يهود ، قد ندموا على ما كان من خذلانهم مجدا ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان ^(٣) رجالا من أشرفهم فنعطيكهم فتضرب [أعناقهم ، ثم نكون معك على ما بقي منهم حتى نستأصلهم . ثم أتى غطفان فقال مثل ذلك . فلما كان ليلة السبت وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسوله والمؤمنين ، أرسل أبو سفيان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان يقول لهم : إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخيف والحافر ، فاغدوا صبيحة غد للقتال حتى نناجز مجدا ، فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت ، وقد علمتم ما نال منا من تعدى في السبت ، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا ؛ فلما رجع الرسول بذلك قالوا : صدقنا والله نعيم بن مسعود ؛ فردوا

(١) في ك : « أن تقاتل معنا » . وفي ج : « مقامك » . قوله : « خدعة » في النهاية لابن الأثير : « يروى بفتح الخاء وضها مع سكون الدال ، وبضمها مع فتح الدال . فالأول معناه : أن الحرب ينقض أمرها بخدعة واحدة من الخداع ؛ أي أن المقاتل إذا خدع مرة واحدة لم تكن لها إقالة . وهى أفصح الروايات وأصحها . ومعنى الثاني : هو الاسم من الخداع . ومعنى الثالث : أن الحرب تخدع الرجال وتمنيهم ولا تنفي لهم ، كما يقال : فلان رجل لعبة وضحكة ؛ أى كثير اللعب والضحك .

(٢) النهزة : الفرصة تجدها من صاحبك .

(٣) ما بين المربعين كذا ورد في ك . والذي في ج ، ش : « ... وغطفان رهنا رجالا ونسبهم » .

إليهم الرسل وقالوا : والله لا نعطيكم رهنا أبداً فخرجوا معنا إن شئتم وإلا فلا عهد بيننا وبينكم . فقال بنو قريظة : صدق والله نعيم بن مسعود . وخذل الله بينهم ، واختلفت كلمتهم ، وبعث الله عليهم ريحاً عاصفاً في ليلٍ شديدة البرد ، فجعلت الريح تقلب آيتهم وتكفأ قدورهم .

السابعة — فلما اتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم اختلاف أمرهم ، بعث حذيفة ابن اليمان ليأتيه بخبرهم ، فاتاهم واستتر في غمارهم^(١) ، وسمع أبا سفيان يقول : يا معشر قريش ، ليتعترف كل امرئ جليسه . قال حذيفة : فأخذت بيد جليسي وقلت : ومن أنت ؟ فقال : أنا فلان . ثم قال أبو سفيان : ويلكم يا معشر قريش ! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، ولقد هلك الكراع والخف^(٢) وأخلفتنا بنو قريظة ، ولقينا من هذه الريح ماترون ، ما يستمسك لنا بناء ، ولا تثبت لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، فارتحلوا فإني مرتحل ؛ ووثب على جملة فاحل عقال يده إلا وهو قائم . قال حذيفة : ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لي إذ بعثني ، قال لي : ” مرّ إلى القوم فأعلم ما هم عليه ولا تحدث شيئاً ” — لقتلته بسهم ؛ ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رحيلهم ، فوجدته قائماً يصلي في مِرْطٍ لبعض نسائه مراجل — قال ابن هشام : المراحل ضرب من وشى اليمن — فأخبرته فحمد الله .

قلت : وخبر حذيفة هذا مذكور في صحيح مسلم ، وفيه آيات عظيمة ، رواه جرير عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : كنا عند حذيفة فقال رجل لو أدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلت معه وأبليت . فقال حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ! لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقتر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة ” ؟ فسكنا فلم يجبه منا أحد ، ثم قال : ” ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة ” ؟ فسكنا فلم يجبه أحد . فقال : ” قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم ” فلم أجد بداً إذ دعاني بأسمى أن أقوم . قال : ” اذهب فأتني بخبر القوم ولا تدعهم على ”^(٣) قال : فلما ولّيت من عنده جعلت كأنما

(١) مثل الغين . (٢) الكراع : اسم يجمع الخيل . والخف : اسم يجمع الإبل .

(٣) الذعر : الفرع ، يريد لا تغفلهم بنفسك وأمش في خفية لئلا ينفروا منك ويقبلوا على .

أمشي في حَمَامٍ حَتَّى أَتَيْتَهُمْ ، فرأيت أبا سفيان يَصَلِّي ظهره بالنار ، فوضعت سهمي في كَيْدِ القَوْسِ فأردت أن أُرْمِيَهُ ، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” وَلَا تَذَعْرُهُمْ عَلَى “ ولو رميته لأصَبْتَهُ : فرجعت وأنا أمشي في مثل الحَمَامِ ، فلما أتيتُهُ فأخبرته بنَجْبِ القَوْمِ وفرغْتُ قُرْبَتِ ، فألبسني رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضـلِ عِباءة كانت عليه يَصَلِّي فيها ، فلم أزل نائماً حَتَّى أَصْبَحْتُ ، فلما أَصْبَحْتُ قال : ” قُمْ يَا نَوْمَان “ . ولما أَصْبَحَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذهب الأحزاب ، رجع إلى المدينة ووضع المسلمون سلاحهم ، فأناهُ جبريل صلى الله عليه وسلم في صورة دِحْيَةَ بن خليفة الكَلْبِيِّ ، على بغلة عليها قطيفة ديباج فقال له : يا محمد ، إن كنتم قد وضعتُم سلاحكم فما وضعت الملائكة سلاحها . إن الله يأمرك أن تخرج إلى بني قُريظة ، وإني متقدم إليهم فَنَزُلُ بهم حصونهم . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي : —

الثامنة — منادياً فنادى : لا يَصَلِّينَ أحد العصر إلا في بني قُريظة ؛ فَنَحْوُفُ ناس فوت الوقت فصلوا دون بني قُريظة . وقال آخرون : لا نصلي العصر إلا حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن فاتنا الوقت . قال : فما عَنَّفَ واحداً من الفريقين . وفي هذا من الفقه تصويب المجتهدين . وقد مضى بيانه في « الأنبياء »^(٢) . وكان سعد بن معاذ إذ أصابه السهم دعا ربه فقال : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ فَأَبْقَيْتَ لَهَا ؛ فَإِنَّهُ لَا قَوْمَ أَحَبُّ أَنْ أَجَاهِدَهُمْ مِنْ قَوْمٍ كَذَبُوا رَسُولَكَ وَأَخْرَجُوهُ . اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتُ وَضَعْتُ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْعَلْهَا لِي شَهَادَةً ، وَلَا تُكْمِتْنِي حَتَّى تَقْرَعَ عَيْنِي فِي بَنِي قُريظة . وروى ابن وهب عن مالك قال : بلغني أن سعد بن معاذ مرَّ بعائشة رضي الله عنها ونساءٍ معها في الأُطَمِ^(٣) (فارغ) ، وعليه درع مقلَّصة مشتمر الكُتَيْنِ^(٤) ، وبه أثر صفرة وهو يرتجز :

لَبَّثْتُ قَلِيلًا يُدْرِكُ الْهَيْجَا جَمَلٌ * لَا بَأْسَ بِالْمَوْتِ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ

(١) يقول : كأنما أمشي في حرٍّ لم يصبني برد ولا من تلك الريح الشديدة ثمى . بركة توجبه النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) راجع ج ١١ ص ٣١١ . (٣) الأُطَم : حصن مبني بحجارة . (٤) في الأصول :

« في الأُطَم الذي فارغ » . وفارغ حصن بالمدينة ، يقال إنه حصن حسان بن ثابت . (٥) مقلَّصة : مجتمعة منضمة .

فقلت عائشة رضى الله عنها : لست أخاف أن يصاب سعد اليوم إلا في أطرافه ؛ فأصيب في أتحله . وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قالت عائشة رضى الله عنها : ما رأيت رجلا أجمل من سعد بن معاذ حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأصيب في أتحله ثم قال : اللهم إن كان حرب قريظة لم يبق منه شيء فاقبضني إليك ، وإن كان قد بقيت منه بقية فأبقني حتى أجاهد مع رسولك أعداءه ؛ فلما حكم في بني قريظة توفى ؛ وفرح الناس وقالوا : نرجو أن يكون قد استجبت دعوته .

التاسعة - ولما خرج المسلمون إلى بني قريظة أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية على بن أبي طالب ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، ونهض على وطائفة معه حتى أتوا بني قريظة ونازلوهم ، فسمعوا سب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانصرفوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا رسول الله ، لا تبلغ إليهم ، وعرض له . فقال له : " أظنك سمعت منهم شتمى . لو رأوني لكفوا عن ذلك " ونهض إليهم فلما رأوه أمسكوا . فقال لهم : " نقضتم العهد يا إخوة القروء أخزاكم الله وأنزل بكم نعمته " فقالوا : ما كنت جاهلا يا محمد فلا تجهل علينا ؛ ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة . وعرض عليهم سيدهم كعب ثلاث خصال ليختاروا أيها شاءوا : إما أن يسلموا ويتبعوا محمدا على ما جاء به فيسلموا . قال : وتحرزوا أموالكم ونساءكم وأبناءكم ، فوالله إنكم لتعلمون أنه الذي تجدونه مكتوبا في كتابكم . وإما أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم ثم يتقدموا ؛ فيقاتلون حتى يموتوا من آخرهم . وإما أن يبيتوا المسلمين ليلة السبت في حين طمأنينتهم فيقتلوهم قتلا . فقالوا له : أما الإسلام فلا نسلم ولا نخالف حكم التوراة ، وأما قتل أبنائنا ونسائنا فجزاؤهم المساكين منا أن نقتلهم ، ونحن لا نتعدى في السبت . ثم بعثوا إلى أبي لبابة ، وكانوا حلفاء بني عمرو بن عوف وسائر الأوس ، فاتاهم فجمعوا إليه أبناءهم ونساءهم ورجالهم وقالوا له : يا أبا لبابة ، أترى أن نزل على حكم محمد ؟ فقال نعم ، - وأشار بيده إلى حلقه - إنه الذبح إن فعلتم . ثم ندم أبو لبابة في الحين ، وعلم أنه خان الله ورسوله ، وأنه أمر لا يستره الله عليه عن نبيه صلى الله عليه وسلم .

فانطلق إلى المدينة ولم يرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فربط نفسه في سارية وأقسم ألا يبرح من مكانه حتى يتوب الله عليه فكانت امرأته تحلّه لوقت كل صلاة . قال ابن عيينة وغيره : فيه نزلت : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ وَتَحُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ^(١) » الآية . وأقسم ألا يدخل أرض بني قريظة أبدا مكاناً أصاب فيه الذنب . فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم من فعل أبي لبابة قال : « أما إنه لو أتاني لاستغفرت له وأما إذ فعل ما فعل فلا أطلقه حتى يطلقه الله تعالى » فأنزل الله تعالى في أمر أبي لبابة : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ^(٢) » الآية . فلما نزل فيه القرآن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإطلاقه ، فلما أصبح بنو قريظة نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتواثب الأوس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله ، وقد علمت أنهم حلفاؤنا ، وقد أسعفت عبد الله بن أبيّ ابن سلول في بني النضير ^(٣) حلفاء الخزرج ، فلا يكن حظنا أو كس وأنقص عندك من حظّ غيرنا ، فهم موالينا . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم — قالوا بلى . قال — : — فذلك إلى سعد بن معاذ » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ضرب له خيمة في المسجد ، ليعوده من قريب في مرضه من جرحه الذي أصابه في الخندق . فحكم فيهم بأن تقتل المقاتلة ، وتُسبى الذرية والنساء ، وتقسم أموالهم . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع أرفعة ^(٤) » . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا إلى موضع بسوق المدينة اليوم — زمن ابن إسحاق — فنخندق بها خنادق ، ثم أمر عليه السلام فضربت أعناقهم في تلك الخنادق ، وقتل يؤمّاذ حيّ بن أخطب وكعب بن أسد ، وكانا رأس القوم ، وكانوا من الستمائة إلى السبعمائة . وكان على حيّ حلة فقاحية ^(٥) قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأئمة ، أئمة أئمة لئلا يُسأَلها . فلما نظر إلى رسول الله

(١) راجع ج ٧ ص ٣٩٤ . (٢) راجع ج ٨ ص ٢٤٢ .

(٣) الأسعاف : قضاء الحاجة . (٤) أرفعة جمع رقيق ، والرفيع السماء ؛ سميت بذلك لأنها رفعت بالنجوم .

(٥) أي بلون الورد حين أن يتفتح .

صلى الله عليه وسلم حين أتى به ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبل قال : أَمَا وَاللَّهِ مَا لُمْتُ نَفْسِي فِي عِدَاوَتِكَ .

* ولكنّه من يخذل الله يخذل *

ثم قال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، لَا بَأْسَ بِأَمْرِ اللَّهِ كِتَابٌ وَقَدَّرَ وَمَلَحَمَةٌ كُتِبَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، ثُمَّ جُلِسَ فَضْرِبَتْ عَنْقُهُ . وَتَقْتُلُ مِنْ نِسَائِهِمْ امْرَأَةً ، وَهِيَ بُنَيَّةُ امْرَأَةِ الْحَكَمِ الْقُرْظِيِّ - الَّتِي طَرَحَتْ الرَّحَى عَلَى خَلَادِ بْنِ سُوَيْدٍ فَقَتَلَتْهُ . وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَتْلِ كُلِّ مَنْ أَنْبَتَ مِنْهُمْ وَتَرَكَ مَنْ لَمْ يُنْبِتْ . وَكَانَ عَطِيَّةُ الْقُرْظِيِّ - مَنْ لَمْ يُنْبِتْ ، فَامْتَحِيَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي الصَّحَابَةِ . وَوَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لثَابِتِ ابْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ وَلَدَ الزَّيْبِرِ بْنِ بَاطَا فَاسْتَحْيَاهُمْ ؛ مِنْهُمْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الزَّيْبِرِ أَسْلَمَ وَلَهُ صَحْبَةٌ . وَوَهَبَ أَيْضًا عَلَيْهِ السَّلَامُ رِفَاعَةَ بْنَ سَمُوءَ الْقُرْظِي لَأُمِّ الْمُنْذِرِ سَلَمَى بِنْتِ قَيْسٍ ، أُخْتُ سَلَيْطِ ابْنِ قَيْسٍ مِنْ بَنِي النَّجَارِ ، وَكَانَتْ قَدْ صُلَّتْ إِلَى الْقَبَاتَيْنِ ؛ فَأَسْلَمَ رِفَاعَةَ وَلَهُ صَحْبَةٌ وَرَوَايَةٌ . وَرَوَى ابْنُ وَهَبٍ وَابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ قَالَ : أَتَى ثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ إِلَى ابْنِ بَاطَا - وَكَانَتْ لَهُ عِنْدَهُ يَدٌ - وَقَالَ : قَدْ اسْتَوْهَبْتُكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَدَكَ الَّتِي لَكَ عِنْدِي ، قَالَ : ذَلِكَ يَفْعَلُ الْكَرِيمُ بِالْكَرِيمِ ، ثُمَّ قَالَ : وَكَيْفَ يَعِيشُ رَجُلٌ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا أَهْلَ ؟ قَالَ : فَأَتَى ثَابِتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَأَعْطَاهُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ ؛ فَأَتَى فَأَعْلَمَهُ فَقَالَ : كَيْفَ يَعِيشُ رَجُلٌ لَا مَالَ لَهُ ؟ فَأَتَى ثَابِتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَطَلَبَهُ فَأَعْطَاهُ مَالَهُ ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَأَخْبَرَهُ ؛ قَالَ : مَا فَعَلَ ابْنُ أَبِي الْحَقِّيقِ الَّذِي كَانَ وَجْهَهُ مِرْآةَ صِينِيَّةٍ ؟ قَالَ : قَتَلَ . قَالَ : فَمَا فَعَلَ الْمَجْلِسَانِ ، يَعْنِي بَنِي كَعْبِ بْنِ قُرَيْظَةَ وَبَنِي عَمْرُو ابْنِ قُرَيْظَةَ ؟ قَالَ : قَتَلُوا . قَالَ : فَمَا فَعَلْتَ الْفَتْنَانِ ؟ قَالَ : قَتَلْنَا . قَالَ : بَرِئْتَ ذِمَّتِكَ ، وَلَنْ أَصِيبَ فِيهَا دَلُومًا أَبَدًا ، يَعْنِي النَّخْلَ ، فَالْحَقْنِي بِهِمْ ، فَأَبَى أَنْ يَقْتُلَهُ فَقَتَلَهُ غَيْرَهُ . وَالْبَدِ الَّذِي كَانَتْ لِابْنِ بَاطَا عِنْدَ ثَابِتٍ أَنَّهُ أَسْرَهُ يَوْمَ بُعَاثَ بِخَزِ نَاصِيَتِهِ وَأَطْلَقَهُ .

العاشرة - وقسم صلى الله عليه وسلم أموال بني قريظة فأقسمهم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهمًا . وقد قيل : للفارس سهمان وللراجل سهم . وكانت الخيل للمسلمين يومئذ ستة وثلاثين فرسا . ووقع للنبي صلى الله عليه وسلم من سبيهم ريحانة بنت عمرو بن جنانة (١) أحد بني عمرو بن قريظة ، فلم تزل عنده إلى أن مات صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن غنيمة قريظة هي أول غنيمة قسم فيها للفارس والراجل ، وأول غنيمة جعل فيها الخمس . وقد تقدم أن أول ذلك كان في بعث عبد الله بن جحش ، فأنه أعلم . قال : أبو عمر : وتهذيب ذلك أن تكون غنيمة قريظة أول غنيمة جرى فيها الخمس بعد نزول قوله : « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ » (٢) الآية . وكان عبد الله بن جحش قد ختم قبل ذلك في بعثه ، ثم نزل القرآن بمثل ما فعله ؛ وكان ذلك من فضائله رحمة الله عليه .

وكان فتح قريظة في آخر ذي القعدة وأول ذي الحجة من السنة الخامسة من الهجرة . فلما تم أمر بني قريظة أجيبت دعوة الرجل الفاضل الصالح سعد بن معاذ ، فاتفق جرحه ، وانفتح عرقه ، فخرى دمه ومات رضى الله عنه . وهو الذى أتى الحديث فيه : « اهتزلتموته عرش الرحمن » يعنى سكان العرش من الملائكة فراحوا بقسود روحه واهتزلوا له . وقال ابن القاسم عن مالك : حدثني يحيى بن سعيد قال : لقد نزل لموت سعد بن معاذ سبعون ألف ملك ، ما نزلوا إلى الأرض قبلها . قال مالك : ولم يستشهد يوم الخندق من المسلمين إلا أربعة أو خمسة .

قلت : الذى استشهد يوم الخندق من المسلمين ستة نفر فيما ذكر أهل العلم بالسيرة : سعد ابن معاذ أبو عمرو من بني عبد الأشهل ، وأنس بن أوس بن عتيك ، وعبد الله بن سهل ، وكلاهما أيضا من بني عبد الأشهل ، والطفيل بن النعمان ، وثعلبة بن غنمة ، وكلاهما من بني سلمة ، وكعب بن زيد من بني دينار بن النجار ، أصابه سهم غرب فقتله ، رضى الله عنهم .

(١) ويقال : فيه « خنافة » بالخاء المعجمة . (٢) راجع ج ٨ ص ١ . (٣) في المواهب اللدنية والإصابة : « ثعلبة بن غنمة بفتح العين المهملة والنون » . (٤) قال ابن هشام : « سهم غرب » ومهم غرب (بإضافة وغير إضافة) وهو الذى لا يعرف من أين جاء ولا من رعى به .

وقتل من الكفار ثلاثة : منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار ، أصابه سهم مات منه بمكة . وقد قيل : إنما هو عثمان بن أمية بن منبه بن عبيد بن السباق . ونوفل بن عبد الله ابن المغيرة المخزومي ، اقتحم الخندق فتورط فيه فقتل ، وغلب المسلمون على جسده ؛ فروى عن الزهري أنهم أعطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في جسده عشرة آلاف درهم فقال : « لا حاجة لنا بجسده ولا بثمنه » ، فحلى بينهم وبينه . وعمر بن [عبد] ود الذي قتله على مبارزة ، وقد تقدم . واستشهد يوم قريظة من المسلمين خلاد بن سويد بن ثعلبة بن عمرو بن بني الحارث بن الخزرج ؛ طرحت عليه امرأة من بني قريظة رchy فقتلته . ومات في الحصار أبو سنان بن محصن بن حُرثان الأسدي ، أخو عكاشة بن محصن ، فدفنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقبرة بني قريظة التي يتدفن فيها المسلمون السكان بها اليوم . ولم يُصب غير هذين ، ولم يغز كفار قريش المؤمنين بعد الخندق . وأسند الدارمي أبو محمد في مسنده : أخبرنا يزيد ابن هارون عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال : حُبسنا يوم الخندق حتى ذهب هوى^(١) من الليل حتى كفينا ؛ وذلك قول الله عز وجل : « وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا » فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالآل فأقام فصلي الظهر فأحسن كما كان يصلها في وقتها ، ثم أمره فأقام العصر فصلاها ، ثم أمره فأقام المغرب فصلاها ، ثم أمره فأقام العشاء فصلاها ، وذلك قبل أن ينزل : « فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالَ^(٢) أَوْ رُكْبَانًا » نحرجه النساء أيضا . وقد مضت هذه المسألة في « طه » . وقد ذكرنا في هذه الغزاة أحكاما كثيرة لمن تأملها في مسائل عشر . ثم نرجع إلى أول الآي وهي تسع عشرة آية تضمنت ما ذكرناه .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ يعني الأحزاب . ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ قال مجاهد : هي الصَّبا ، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم ونزعت فساطيطهم . قال : والجنود الملائكة ولم تقاتل يومئذ . وقال عكرمة : قالت الجنوب للشمال ليسلة الأحزاب :

(١) الهوى (بالفتح) : الزمان الطويل . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٢٣ . (٣) راجع ج ١١ ص ١٨٠

(١)
انطلق لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت الشمال : إن محمودة لا تسيرى بليل . فكانت
الريح التي أرسلت عليهم الصبا . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : " نصرت بالصبا وأهلكك عاد بالدبور " . وكانت هذه الريح معجزة
للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين كانوا قريباً منها ، لم يكن
بينهم وبينها إلا عرض الخندق ، وكانوا في عافية منها ، ولا خبر عندهم بها . ﴿ وَجُنُودًا لَمْ
تَرَوْهَا ﴾ وقرئ بالياء ؛ أى لم يرها المشركون . قال المفسرون : بعث الله تعالى عليهم الملائكة
فقلعت الأوتاد ، وقطعت أطناب الفساطيط ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وجالت
الخليل بعضها في بعض ، وأرسل الله عليهم الرعب ، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر ،
حتى كان سيد كل خباء يقول : يا بنى فلان هلم إلى فلان إذا اجتمعوا قال لهم : النجاء النجاء ؛
لما بعث الله تعالى عليهم من الرعب . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ وقرئ : « يعملون » بالياء
على الخبر ، وهى قراءة أبى عمرو . الباقون بالتاء ؛ يعنى من حفر الخندق والتحرز من العدو .

قوله تعالى : إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ

الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ « إِذْ » فى موضع نصب بمعنى
واذكر . وكذا « وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ » . « مِّنْ فَوْقِكُمْ » يعنى من فوق الوادى ، وهو أعلاه من
قبل المشرق ، جاء منه عوف بن مالك فى بنى نصر ، وعيينة بن حصن فى أهل نجد ، وطليحة
ابن خويلد الأسدى فى بنى أسد . « وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ » يعنى من بطن الوادى من قبل
المغرب ، جاء منه أبو سفيان بن حرب على أهل مكة ، ويزيد بن جحش على قريش ، وجاء
أبو الأعور السامى ومعه حبي بن أخطب اليهودى فى يهود بنى قريظة مع عامر بن الطفيل من
وجه الخندق . ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ أى شخّصت . وقيل : مالت ؛ فلم تلتفت إلا إلى

(١) محمودة : من أسماء الشمال ؛ لأنها تحمى السحاب وتذهب بها ، وهى معرفة لا تنصرف ، ولا تدخلها ألف ولا ميم .

عدوها دَهْشًا من فرط الهول . (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) أى زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحناجر وهى الحلاقيم ، واحدها حنجرة ؛ فلولا أن الخلق ضاقت عنها لخرجت ؛ قاله قتادة . وقيل : هو على معنى المبالغة على مذهب العرب على إضمار كاد ؛ قال :

إذا ما غَضِبْنَا غَضَبَةً مُضَرِّيَةً • هَتَكًا حجاب الشمس أو قطرت دَمًا

أى كادت تقطر . ويقال : إن الرئة تنفتح عند الخوف فيرتفع القلب حتى يكاد يبلغ الحنجرة مثلاً ؛ ولهذا يقال للجبان : انتفخ سَخْرُه . وقيل : إنه مثل مضروب فى شدة الخوف ببلوغ القلوب الحناجر وإن لم تزل عن أماكنها مع بقاء الحياة . قال معناه عكرمة . روى حماد ابن زيد عن أبوب عن عكرمة قال : بلغ فزعها . والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضربانه ، أى كأنه أشد اضطرابه بلغ الحنجرة . والحنجرة والحنجور (بزيادة النون) حرف الحلق . (وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا) قال الحسن : ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون ، وظن المؤمنون أنهم ينصرون . وقيل : هو خطاب للمنافقين ؛ أى قلتم هلك محمد وأصحابه . وأختلف القراء فى قوله تعالى : «الظُّنُونَا ، والرسولَا ، والسبيلَا» آخر السورة ؛ فأثبت ألفتها فى الوقف والوصل نافع وابن عامر . وروى عن أبى عمرو والكسائى تمسكاً بخط المصحف ، مصحف عثمان ، وجميع المصاحف فى جميع البلدان . وأختره أبو عبيد ؛ إلا أنه قال : لا ينبغي للقارئ أن يدرج القراءة بعدهن لكن يقف عليهن . قالوا : ولأن العرب تفعل ذلك فى قوافي أشعارهم ومصاريحها ؛ قال :

نحن جلبنا القَرْحَ القَوَافِلَا * تستنفر الأواخر الأوائلا^(٢)

وقرأ أبو عمرو والمجذرى ويعقوب وحمة بحذفها فى الوصل والوقف معاً . قالوا : هى زائدة فى الخط كما زادت الألف فى قوله تعالى : «وَلَا وَضَعُوا^(٣) خِلَالَكُمْ» فكاتبوها كذلك ، وغير هذا . وأما الشعر فوضع ضرورة ، بخلاف القرآن فإنه أفصح اللغات ولا ضرورة فيه . قال ابن الأنبارى : ولم يخالف المصحف من قرأ . «الظنون ، والسبيل . والرسول» بغير ألف

(١) القائل هو بشار بن برد . (٢) القرح : جمع القارج ، وهى النانة أول ما تحمل .

(٣) هذا يدل على أن رسم المصحف : «ولا أرضعوا» بزيادة ألف .

في الحروف الثلاثة ، وخطهن في المصحف بألف لأن الألف التي في « أطعنا » والداخله في أول « الرسول . والظنون . والسبيل » كفى من الألف المتطرفة المتأخرة كما كَفَتْ أَلْفُ أبي جادٍ من ألف هواز . وفيه حجة أخرى : أن الألف أنزلت منزلة الفتحة وما يلحق دِعامه للحركة التي تسبق والنية فيه السقوط ؛ فلما نُحْمِلُ على هذا كانت الألف مع الفتحة كالشيء الواحد يوجب الوقف سقوطهما ويعمل على أن صورة الألف في الخط لا توجب موضعا في اللفظ ، وأنها كالألف في « سُحْران » وفي « فِطْرَ السموات والأرض » وفي « وَعَدْنَا مُوسَى » وما يشبههن مما يُحذف من الخط وهو موجود في اللفظ ، وهو مسقط من الخط . وفيه حجة ثالثة هي أنه كتب على لغة من يقول لقيت الرجل . وقرئ على لغة من يقول : لقيت الرجل ، بغير ألف . أخبرنا أحمد بن يحيى عن جماعة من أهل اللغة أنهم رَوَوْا عن العرب قام الرجلُ ، بواو ، ومررت بالرجلي ، بياء ، في الوصل والوقف . ولقيت الرجل ؛ بألف في الحالتين كليهما . قال الشاعر :

أَمَّا لَئِلَّةٌ عُمَيْرَةُ عَنْ أَبِيهَا * خَلَالَ الْجَيْشِ تَعْتَرِفُ الرِّكَابُ^(١)

فأثبت الألف في « الركاب » بناء على هذه اللغة . وقال الآخر :

إِذَا الْجَوْزَاءُ أُرْدِفَتِ الثَّرِيَا * ظَنَنْتُ بِآلِ فَاطِمَةَ الظَّنُونَا

وعلى هذه اللغة بنى نافع وغيره . وقرأ ابن كثير وابن محيصن والكسائي بإثباتها في الوقف وحذفها في الوصل . قال ابن الأنباري : ومن وصل بغير ألف ووقف بألف فخائر أن يحتاج بأن الألف احتاج إليها عند السكت حرصاً على بقاء الفتحة ، وأن الألف تدعمها وتقويها .

قوله تعالى : هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

« هنا » للقريب من المكان . و « هنالك » للبعيد . و « هناك » للوسط . ويشار به إلى الوقت ؛ أي عند ذلك اختبر المؤمنون ليقين المخلص من المنافق . وكان هذا الابتلاء بالخوف والقتال والجوع والحصر والنزال . (وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا) أي حرّكوا تحريكاً .

(١) في الأصول : « وهو موجود في اللفظ ويثبت في اللفظ وهو ... » .

(٢) البيت لبشر بن أبي خازم . واعترف القوم : سألهم .

قال الزجاج : كل مصدر من المضاعف على فعلاّل يجوز فيه الكسر والفتح ؛ نحو قفلقلته قلفلالا وقلفلالا ، وزلزلوا زلزالا وزلزالا . والكسر أجود ؛ لأن غير المضاعف على الكسر نحو دحرجته دحراجا . وقراءة العامة بكسر الزاي . وقرأ عاصم والبخاري « زلزالا » بفتح الزاي . قال ابن سلام : أي حرّكوا بالخوف تحريكا شديدا . وقال الضحاك : هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق . وقيل : إنه اضطرابهم عما كانوا عليه ؛ فمنهم من اضطرب في نفسه ومنهم من اضطرب في دينه . و « هنالك » يجوز أن يكون العامل فيه « أبتلي » فلا يوقف على « هنالك » . ويجوز أن يكون « وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا » فيوقف على « هنالك » .

قوله تعالى : وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أي شك ونفاق . (مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) أي باطلا من القول . وذلك أن طعمة بن أبيريق ومعتب ابن قشير وجماعة نحو من سبعين رجلا قالوا يوم الخندق : كيف يعدنا كنوز كسرى وقبصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرز ؟ وإنما قالوا ذلك لما فشا في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من قوله عند ضرب الصخرة ، على ما تقدم في حديث النساء ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَعِذُّنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا) الطائفة نفع على الواحد فما فوقه . وعني به هنا أوس بن قبيصة والد عرابة بن أوس ؛ الذي يقول فيه الشماخ :
إذا ما راية رُفعت لمجد * تلقاها عرابة باليمن

و «يَثْرِب» هي المدينة؛ وسمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم طَيْبَةً وطَابَةً . وقال أبو عبيدة : يَثْرِب اسم أرض ، والمدينة ناحية منها . السَّهْبِيلِيّ : وسميت يَثْرِب لأن الذي نزلها من العماليق اسمه يَثْرِب بن عميل بن مهلائيل بن عوض بن عملاق بن لاوذ بن إرم . وفي بعض هذه الأسماء اختلاف . وبنو عميل هم الذين سكنوا الجُحْفَةَ فأجحفت بهم السيول فيها . وبها سميت الجحفة . (لَا مُقَامَ لَكُمْ) بفتح الميم قراءة العامة . وقرأ حفص والسلمي والمجدي وأبو حيوة : بضم الميم ؛ يكون مصدرا من أقام يقيم ، أى لا إقامة ، أو موضعا يقيمون فيه . ومن فتح فهو اسم مكان ؛ أى لا موضع لكم تقيمون فيه . (فَارْجِعُوا) أى إلى منازلكم . أمروهم بالهروب من عسكر النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : قالت اليهود لعبد الله بن أبيّ ابن سلول وأصحابه من المنافقين : ما الذي يحلّمك على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان وأصحابه ! فارجعوا إلى المدينة فإننا مع القوم فأنتم آمنون .

قوله تعالى : (وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ) في الرجوع إلى منازلهم بالمدينة ، وهم بنو حارثة ابن الحارث ، في قول ابن عباس . وقال يزيد بن رومان : قال ذلك أوس بن قَيْظَى عن ملا من قومه . (يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ) أى سائبة ضائعة ليست بحصينة ، وهى مما يلي العدو . وقيل : مُمَكِّنَةٌ للسراق لخلوها من الرجال . يقال : دارٌ مُعَوْرَةٌ وذات عَوْرَةٍ إذا كان يسهل دخولها . يقال : عَوْر المكان عَوْرًا فهو عَوْر . وبُيُوت عَوْرَةٌ . وأَعْوَر فهو مُعَوَّر . وقيل : عَوْرَةٌ ذات عَوْرَةٍ . وكل مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عَوْرَةٌ ؛ قاله الهروي . وقرأ ابن عباس وعكرمة وبجاهد وأبو رجاء العطاردي : «عَوْرَةٌ» بكسر الواو ؛ يعنى قصيرة الجدران فيها خلل . تقول العرب : دار فلانٍ عَوْرَةٌ إذا لم تكن حصينة . وقد أعور الفارس إذا بدأ فيه خلل للضرب والطعن ؛ قال الشاعر :

مَتَى تَلَقَّهِمْ لَمْ تَلَقْ فِي الْبَيْتِ مُعَوَّرًا * وَلَا الضَّيْفَ مَفْجُوعًا وَلَا الْجَارَ مُرْمَلًا

(١) في كتاب معجم البلدان لياقوت : «يَثْرِب بن قانوة بن مهلائيل بن إرم عييل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام» . (٢) في معجم البلدان : «وقال الكلبي : إن العماليق أخرجوا بنى عقيل وهم إخوة عاد فنزلوا الجحفة ...» .

الجوهري : والعورة كل خلل يُتَخَوَّفُ منه في نَفَرٍ أو حرب . النحاس : يقال أعور المكان إذا تَبَيَّنَتْ فيه عورة ، وأعور الفارس إذا تَبَيَّنَ فيه موضع الخلل . المهدوي : ومن كسر الواو في «عورة» فهو شاذ ؛ ومثله قولهم : رجل عور ؛ أى لاشئ له ، وكان القياس أن يُعَلَّ فيقال : عار ؛ كيوم راج ، ورجل مال ؛ أصلهما روح ومويل . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ تكذيباً لهم وردا عليهم فيما ذكروه . ﴿ إِنَّ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أى ما يريدون إلا الهرب . قيل : من القتل . وقيل : من الدين . وحكى النفاش أن هذه الآية نزلت في قبيلتين من الأنصار : بنى حارثة وبنى سَلِمة ؛ وهما أن يتركوا سراكرهم يوم الخندق ، وفيهم أنزل الله تعالى : « إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا » الآية . فلما نزلت هذه الآية قالوا : والله ما ساءنا ما كنا هممنا به ؛ إذ الله وَلِيُّنَا . وقال السدي : الذي استأذنه منهم رجلان من الأنصار من بنى حارثة أحدهما — أبو عَرَابَةَ بن أوس ، والآخر أوس بن قَيْظَى . قال الضحاك : ورجع ثمانون رجلاً بغير إذنه .

قوله تعالى : وَلَوْ دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَنزَلْنَاهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ﴾ وهى البيوت أو المدينة ؛ أى من نواحيها وجوانبها ، الواحد قُطْرٌ ، وهو الجانب والناحية . وكذلك القُتْر لغة فى القطر . ﴿ ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَنزَلْنَاهَا ﴾ أى لجأوها ؛ هذا على قراءة نافع وابن كثير بالقصر . وقرأ الباقر بالمد ؛ أى لأعطوها من أنفسهم ، وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقد جاء فى الحديث : أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يعدُّون فى الله ويسألون الشرك ، فكل أعطى ما سألوه إلا بلالاً . وفيه دليل على قراءة المد ، من الإعطاء . ويدل على قراءة القصر قوله : « وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ

(١) اضطربت الأصول هنا ؛ فقد ذكر فى ش : « رجل أعور أى لاشئ له » . وفى ج : « رجل عور كور ... »

بالكاف . وفى ك : « رجل عور لور ... » باللام . ولعل الكلمة الأخيرة اتباع ؛ على أننا لم نجد لها فى مظاهرها .

(٢) أى ذوريج وذومال . (٣) راجع ج ٤ ص ١٨٥ .

لَا يُؤْلُونَ الْأَذْبَارَ » ؛ فهذا يدل على «لَا تَوَهَّاءَ» مقصورا . وفي «الفتنة» هنا وجهان : أحدهما — سئلوا القتال في العصبية لأمرعوا إليه ؛ قاله الضحاك . الثاني — ثم سئلوا الشرك لأجابوا إليه مسرعين ؛ قاله الحسن . (وَمَا تَدَّبُّوا بِهَا) أى بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلا حتى يهلكوا ؛ قاله السُّدِّيُّ والقَتَيْبِيُّ والحسن والفراء . وقال أكثر المفسرين : أى وما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلا ولأجابوا بالشرك مسرعين ؛ وذلك لضعف نياتهم ولفرط نفاقهم ؛ فلو اختلطت بهم الأحزاب لأظهروا الكفر .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلُونَ الْأَذْبَارَ^ع
وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ) أى من قبل غزوة الخندق وبعد بدر . قال قتادة : وذلك أنهم غابوا عن بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر ، فقالوا ائنا أشهدنا الله قتالا لنقاتلن . وقال يزيد بن رومان : هم بنو حارثة ، هموا يوم أحد أن يفشلوا مع بنى سلمة ، فلما نزل فيهم منازل عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها فذكر الله لهم الذى أعطوه من أنفسهم . (وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا) أى مسئولوا عنه . قال مقاتل والكلبي : هم سبعون رجلا بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وقالوا : اشترط لنفسك ولربك ما شئت . فقال : « اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا واشترط لنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأموالكم وأولادكم » فقالوا : فمالنا إذا فعلنا ذلك يا نبي الله ؟ قال : « لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة » . فذلك قوله تعالى : « وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا » أى أن الله ليسألهم عنه يوم القيامة .

قوله تعالى : قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ
وَإِذَا لَا تُنْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾ أى من حضر أجله مات أو قتل ؛ فلا ينفع الفرار . ﴿ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى فى الدنيا بعد الفرار إلى أن تنقضى آجالكم ؛ وكل ما هو آتٍ فقريب . وروى الساجى عن يعقوب الحضرمي : « وَإِذَا لَا يُمْتَعُونَ » بياء . وفى بعض الروايات « وَإِذَا لَا تَمْتَعُوا » نصب بـ « إِذَا » والرفع بمعنى ولا تمتعون . و « إِذَا » ملغاة ، ويجوز إعمالها . فهذا حكمها إذا كان قبلها الواو والفاء . فإذا كانت مبتدأة نصبت بها فقلت : إذا أكرمك .

قوله تعالى : قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى يمنعكم منه . ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا ﴾ أى هلاكاً . ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ أى خيراً ونصراً وعافية . ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أى لا قريباً ينفعهم ولا ناصراً ينصرهم .

قوله تعالى : قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ ﴾ أى المعترضين منكم لأن يصدّوا الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهو مشتق من عاقى عن كذا أى صرفنى عنه . وعوق ، على التكثير ﴿ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ على لغة أهل الحجاز . وغيرهم يقولون : « هَلِّمُوا » للجماعة ، وهلمى للراءة ؛ لأن الأصل : « ها » التى للتنبيه صُمت إليها « لَمْ » ثم حذفت الألف استخفافاً وبُنيت على الفتح . ولم يحذف الكسر ولا الضم لأنها لا تنصرف . ومعنى « هَلِّم » أقبل ؛ وهؤلاء طائفتان ؛ أى منكم من يثبط ويعوق . والعوق المنع والصرف ؛ يقال : عاقه يعوقه عوقاً ، وعوقه واعتاقه بمعنى واحد . قال مقاتل : هم عبد الله بن أبيّ وأصحابه المنافقون .

« وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ » فيهم ثلاثة أقوال : أحدها — أنهم المنافقون ؛ قالوا للمسلمين : ما مجد وأصحابه إلا أكلة رأس ، وهو هالك ومن معه ، فهلم إلينا . الثاني — أنهم اليهود من بنى قريظة ؛ قالوا لإخوانهم من المنافقين : هلم إلينا ؛ أى تعالوا إلينا وفارقوا هذا فإنه هالك ، وإن أبا سفيان إن ظفر لم يبق منكم أحدا . والثالث — ما حكاه ابن زيد : أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بين الرماح والسيوف ؛ فقال أخوه — وكان من أمه وأبيه — : هلم إلى ، قد تبع بك وبصاحبك ؛ أى قد أحيط بك وبصاحبك . فقال له : كذبت ، والله لأخبرنه بأمرك ؛ وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره ، فوجده قد نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى : « قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا » . ذكره الماوردي والثعلبي أيضا . ولفظه : قال ابن زيد هذا يوم الأحزاب ، انطلق رجل من عند النبي صلى الله عليه وسلم فوجد أخاه بين يديه رغيف وشواء ونبيذ ؛ فقال له : أنت في هذا ونحن بين الرماح والسيوف ؟ فقال : هلم إلى هذا فقد تبع لك ولأصحابك ، والذي تحلف به لا يستقل بها مجد أبدا . فقال : كذبت . فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره فوجده قد نزل عليه جبريل بهذه الآية . (وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا) خوفا من الموت . وقيل : لا يحضرون القتال إلا رياء وسُمتة .

قوله تعالى : أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُومُ بِالسِّنَةِ حَدَادٍ أَشِحَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ) أى بخلاء عليكم ؛ أى بالحفر في الخندق والنفقة في سبيل الله ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقيل : بالقتال معكم . وقيل : بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم .

(١) أى هم قليل يشبههم رأس واحد ؛ وهو جمع آكل .

وقيل : أشحّة بالغنائم إذا أصابوها ؛ قاله السدي . وانتصب على الحال . قال الزجاج : ونصبه عند الفراء من أربع جهات : إحداها — أن يكون على الذم ؛ ويجوز أن يكون عنده نصبا بمعنى يعوقون أشحّة . ويجوز أن يكون التقدير : والفائلين أشحّة . ويجوز عنده [« وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا »] أشحّة ؛ أي أنهم يأتونه أشحّة على الفقراء بالغنيمة^(١) . النحاس : ولا يجوز أن يكون العامل فيه « المعوقين » ولا « الفائلين » ؛ لئلا يفرق بين الصلوة والموصول . ابن الأنباري : « إِلَّا قَلِيلًا » غير تام ؛ لأن « أَشْحَتَهُ » متعلق بالأول ، فهو ينتصب من أربعة أوجه : أحدها — أن تنصبه على القطع من « المعوقين » كأنه قال : قد يعلم الله الذين يعوقون عن القتال ويشجون عن الإنفاق على فقراء المسلمين . ويجوز أن يكون منصوبا على القطع من « الفائلين » أي وهم أشحّة . ويجوز أن تنصبه على القطع مما في « يأتون » ؛ كأنه قال : ولا يأتون البأس إلا جبئا بخلاء . ويجوز أن تنصب « أشحّة » على الذم . فمن هذا الوجه الرابع يحسن أن تقف على قوله : « إِلَّا قَلِيلًا » . « أَشْحَتَهُ عَلَيْهِمْ » وقف حسن . ومثله « أَشْحَتَهُ عَلَى الْخَيْرِ » حال من المضمرف في « سَلَقُوهُمْ » وهو العامل فيه . (فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) وصفهم بالحبس ؛ وكذا سبيل الجبان ينظر يمينا وشمالا محددا بصره ، وربما غشى عليه . وفي « الْخَوْفُ » وجهان : أحدهما — من قتال العدو إذا أقبل ؛ قاله السدي . الثاني — الخوف من النبي صلى الله عليه وسلم إذا غلب ؛ قاله ابن شجرة . « رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ » خوفا من القتال على القول الأول . ومن النبي صلى الله عليه وسلم على الثاني . « تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ » لذهاب عقولهم حتى لا يصح منهم النظر إلى جهة . وقيل : لشدة خوفهم حذرا أن يأتهم القتل من كل جهة . (فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوهُمْ بِالْأَسَنَةِ حِدَادٍ) وحكى الفراء « صَلَقُوهُمْ » بالصاد . وخطيب مِثْلَاقٍ وَمِثْلَاقٍ إِذَا كَانَ بَلِيغًا . وأصل الصلأ الصلأ الصوت ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لعن الله الصالقة والخالقة والشاقة » . قال الأعشى :

(١) ما بين المربعين من كتاب النحاس وهو واضح . وعبرة الأصول : « وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا » ، يأتونه أشحّة ؛ أي أشحّة على الفقراء بالغنيمة جبئا .

فيهم المجد والسماحة والتج. * مَدَّةٌ فِيهِمْ وَالْخَاطِبُ السَّلَاقُ^(١)

قال قتادة : ومعناه بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة ، يقولون : أعطنا
أعطنا ، فإننا قد شهدنا معكم . فعند الغنيمة أُنشِخَ قُورِمٌ وأبسطهم لسانا ، ووقت البأس أجنب
قورِمٌ وأخوفهم . قال النحاس : هذا قول حسن ؛ لأن بعده « أَشِخَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ » . وقيل :
المعنى بالغوا في محاصمتكم والاحتجاج عليكم . وقال القتيبي : المعنى آذوكم بالكلام الشديد .
السَّاقُ : الأذى . ومعناه قول الشاعر :

ولقد سلقنا هـوازنا * بنواهلٍ حتى انحنينا

« أَشِخَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ » أى على الغنيمة ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : على المال أن ينفقوه
في سبيل الله ؛ قاله السدي . « أَوْلَيْكَ لَمْ يُؤْمِنُوا » يعنى بقلوبهم وإن كان ظاهرهم الإيمان ؛
والمنافق كافر على الحقيقة لوصف الله عز وجل لهم بالكفر . (فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ) أى لم
يُثَبِّتْهُمْ عَلَيْهَا ؛ إذا لم يقصدوا وجه الله تعالى بها . (وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) يحتمل وجهين :
أحدهما — وكان نفاقهم على الله هينا . الثانى — وكان إحباط أعمالهم على الله هينا .

قوله تعالى : يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا
لَوْ أَنَّهُمْ بِأَدُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ
مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا) أى لجنهم ؛ يظنون الأحزاب لم ينصرفوا
وكانوا انصرفوا ، ولكنهم لم يتباعدوا في السير . (وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ) أى وإن يرجع
الأحزاب إليهم للقتال . (يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بِأَدُونَ فِي الْأَعْرَابِ) تمنوا أن يكونوا مع الأعراب
حذرًا من القتل وتربصًا للدوائر . وقراء طلحة بن مصرف « لَوْ أَنَّهُمْ بِأَدْنَى فِي الْأَعْرَابِ » ؛
يقال : بادٍ وبُدئى ؛ مثل غازٍ وغزى . ويمد مثل صائم وصوام . بدا فلان يبدو إذا خرج

(١) ويروى : « السلاق » . (٢) في الأصول : « أشخه عليكم » .

(٣) عبارة الأصول : « لوصف الله عز وجل بالكفر » وهو خطأ .

إلى البادية . وهى البداوة والبداوة ؛ بالكسر والفتح . وأصل الكلمة من البدو وهو الظهور .
 ﴿ يَسْأَلُونَ ﴾ وقرأ يعقوب فى رواية رُويس « يتساءلون عن أنباءكم » أى عن أخبار النبىِّ
 صلى الله عليه وسلم . يتحدثون : أما هلك عهد وأصحابه ! أما غلب أبو سفيان وأحزابه ! أى
 يودوا لو أنهم بادون سائلون عن أنباءكم من غير مشاهدة القتال لفرط جبنهم . وقيل : أى
 هم أبداً لجبنهم يسألون عن أخبار المؤمنين ، وهل أصيبوا . وقيل : كان منهم فى أطراف
 المدينة من لم يحضر الخندق ، جعلوا يسألون عن أخباركم ويتمنون هزيمة المسلمين . ﴿ وَلَوْ كَانُوا
 فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى رمياً بالنبل والحجارة على طريق الرياء والسمعة ؛ ولو كان ذلك
 لله لكان قليله كثيراً .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ
 يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٣١﴾
 فيه مسألان .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ هذا عتاب للتخلفين
 عن القتال ؛ أى كان لكم قدوة فى النبىِّ صلى الله عليه وسلم حيث بذل نفسه لنصرة دين الله
 فى خروجه إلى الخندق . والأسوة القدوة . وقرأ عاصم « أُسْوَةٌ » بضم الهمزة . الباقون
 بالكسر ؛ وهما لغتان . والجمع فيهما واحد عند الفراء . والعلّة عنده فى الضم على لغة من كسر
 فى الواحدة : الفرق بين ذوات الواو وذوات الياء ؛ فيقولون كِسْوَةٌ وكُسَاءً ، وَلِحِيَةٌ وَلَحَى .
 الجوهري : والأُسْوَةُ والإِسْوَةُ بالضم والكسر لغتان . والجمع أُسَى وإِسَى . وروى عقبه
 ابن حسان الهجرى عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ
 أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » قال : فى جوع النبىِّ صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره الخطيب أبو بكر أحمد وقال :
 تفرد به عقبه بن حسان عن مالك ، ولم أكتبه إلا بهذا الإسناد .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ أُسْوَةٌ ﴾ الأسوة القدوة . والأسوة ما يتأسى به ؛ أى يتعزى به .
 فيقتدى به فى جميع أفعاله ويتعزى به فى جميع أحواله ؛ فلقد شجَّ وجهه ، وكسرت رباعيته ،

وَقُتِلَ عَمَّهُ حَمْزَةً « وجاع بطنه ، ولم يُلَفَّ إِلَّا صَابِرًا مُحْتَسِبًا ، وشاكراً راضياً . وعن أنس ابن مالك عن أبي طلحة قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفعنا ^(١) [عن بطوننا] عن حَجَرٍ حَجَرٍ ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين . خرجه أبو عيسى الترمذى وقال فيه : حديث غريب . وقال صلى الله عليه وسلم لما شُجَّ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » وقد تقدم . ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ قال سعيد بن جبير : المعنى لمن كان يرجو لقاء الله بإيمانه ويصدق بالبعث الذى فيه جزاء الأفعال . وقيل : أى لمن كان يرجو ثواب الله فى اليوم الآخر . ولا يجوز عند الخذاق من النحويين أن يكتب « يرجو » إلا بغير ألف إذا كان لواحد ؛ لأن العلة التى فى الجمع ليست فى الواحد . ﴿ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴾ خوفاً من عقابه ، ورجاء لثوابه . وقيل : إن « لِمَنْ » بدل من قوله : « لَكُمْ » ولا يميزه البصريون ؛ لأن الغائب لا يبدل من المخاطب ، وإنما اللام من « لِمَنْ » متعلقة بـ « بحسنة » ، و « أسوة » اسم « كَانَ » و « لَكُمْ » الخبر . واختلف فيمن أريد بهذا الخطاب على قولين : أحدهما — المنافقون ؛ عطفًا على ما تقدم من خطابهم . الثانى — المؤمنون ؛ لقوله : « لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ » .

واختلف فى هذه الأسوة بالرسول عليه السلام ، هل هى على الإيجاب أو على الاستحباب ؛ على قولين : ﴿ أحدهما — على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب . الثانى — على الاستحباب حتى يقوم دليل على الإيجاب . ويحتمل أن يحمل على الإيجاب فى أمور الدين ، وعلى الاستحباب فى أمور الدنيا .

قوله تعالى : وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ ﴾ ومن العرب من يقول : « راء » على القلب . ﴿ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ ﴾ يريد قوله تعالى فى سورة البقرة : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ

تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ^(١)» الآية . فلما رأوا الأحزاب يوم الخندق قالوا : « هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ » ، قاله قتادة . وقول ثانٍ رواه كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ذكرت الأحزاب فقال : « أخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها — يعني على قصور الحيرة ومدائن كسرى — فأبشروا بالنصر » فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله ، موعد صادق ؛ إذ وعدنا بالنصر بعد الحصر . فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون : « هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ » ذكره الماوردي . و « مَا وَعَدَنَا » إن جعلت « ما » بمعنى الذي فالهاء محذوفة . وإن جمعتها مصدرا لم تحتاج إلى عائد (وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا) قال الفراء : وما زادهم النظر إلى الأحزاب . وقال على بن سليمان : « رأى » يدل على الرؤية ، وتأنيث الرؤية غير حقيق ، والمعنى : ما زادهم الرؤية إلا إيماناً بالرب وتسليماً للقضاء ، قاله الحسن ، ولو قال : ما زادوهم لحاز . ولما أشدت الأمر على المسلمين وطال المقام في الخندق ، قام عليه السلام على التل الذي عليه مسجد الفتح في بعض الليالي ، وتوقع ما وعده الله من النصر وقال : « من يذهب ليأتينا بنجرهم وله الجنة » فلم يجبه أحد . وقال ثانياً وثالثاً فلم يجبه أحد ، فنظر إلى جانبه وقال : « من هذا ؟ » فقال حذيفة . فقال : « ألم تسمع كلامي منذ الليلة ؟ » قال حذيفة : فقلت يا رسول الله ، منعني أن أجيبك الضّر والقر . قال : « انطلق حتى تدخل في القوم فتسمع كلامهم وتأنييني بنجرهم . اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى ترده إلي » ، انطلق ولا يتحدث شيئاً حتى تأنييني . فانطلق حذيفة بسلاحه ، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده يقول : « يا صريح المكروين ويا مجيب المضطرين اكشف همي وغمي وكربي فقد ترى حالي وحال أصحابي » . فنزل جبريل وقال : « إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك » فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وبسط يديه وأرخى عليه وهو يقول : « شكراً شكراً كما رحمتني ورحمت أصحابي » . وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليهم ريحاً ، فبشر أصحابه بذلك ،

قال حذيفة : فاتتهت إليهم وإذا نيرانهم لتتقد؛ فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء فما تركت لهم نارا إلا أطفأتها ولا بناء إلا طرحته، وجعلوا يترسون من الحصباء . وقام أبوسفیان إلى راحلته وصاح في قريش : النجاء النجاء ! وفعل كذلك عيينة بن حصن والحارث بن عوف والأقرع ابن حابس . وتفترقت الأحزاب ، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد إلى المدينة وبه من الشعث ما شاء الله ، بخاءته فاطمة بغسول فكانت تغسل رأسه ، فأتاه جبريل فقال : "وضعت السلاح ولم تضعه أهل السماء، ما زلت أتبعهم حتى جاوزت بهم الروحاء - ثم قال - انهض إلى بنى قريظة" . وقال أبوسفیان : ما زلت أسمع قعقة السلاح حتى جاوزت الروحاء .

قوله تعالى : **مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ٢٣ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ٢٤**

قوله تعالى : **(مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ)** رفع بالابتداء، وصلح الابتداء بالنكرة لأن «صَدَقُوا» في موضع النعت . **(فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ)** . «مَنْ» في موضع رفع بالابتداء . وكذا «وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ» والخبر في المجرور . والنَّحْبُ : النذر والعهد؛ تقول منه : نَحَبْتُ أَنَحْبُ ؛ بالضم . قال الشاعر :

وإذا نَحَبْتُ كَلْبٌ عَلَى النَّاسِ لَهُمْ * أَحَقُّ بِتَاجِ الْمَاجِدِ الْمُتَكْرَمِ

وقال آخر :

* قَدْ نَحَبَ الْمَجْدُ عَلَيْنَا نَحْبًا ^(١) *

وقال آخر :

* أَنَحْبُ فَيَقْضَىٰ أُمُّ ضَلَالٍ وَبَاطِلٍ ^(٢) *

(١) قبله : * باعم - روي ابن الأكرميين نسبا *

(٢) هذا بجزء بيت للبيد، وصدده : * ألا تسألان المرء ماذا يحاول *

وروى البخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال : قال عمي أنس بن النضر — سُميت به — ولم يشهد بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكُبر عليه فقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غُبت عنه ، أما والله إني أراي الله مشهدًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعدَ ليرين الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ؛ فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد من العام القابل ، فاستقبله سعد بن مالك فقال : يا أبا عمرو أين ؟ قال : وأهال^(١) لريح الجنة ! أجدها دون أُحد ؛ فقاتل حتى قُتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية . فقالت عمتي الربيع بنت النضر : فما عرفت أني إلا بئبانه ، ونزلت هذه الآية « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا » لفظ الترمذي ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقالت عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » الآية : منهم طلحة بن عبيد الله ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أُصيبت يده ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أوجب طلحة الجنة » . وفي الترمذي عنه : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا لأعرابي جاهل : سألته عن قضى نَحْبَهُ من هو ؟ وكانوا لا يجتريون على مسألته ، يوقرونه ويهابونه ؛ فسأله الأعرابي فأعرض عنه ، ثم سأله فأعرض عنه ؛ ثم إنني أطلعت من باب المسجد وعلى ثياب خضر ، فلما رآني النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أين السائل عن قضى نَحْبَهُ » ؟ قال الأعرابي : أنا يا رسول الله . قال : « هذا ممن قضى نَحْبَهُ » قال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يونس بن بكير . وروى البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من أُحد ، مرَّ على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه ، فوقف عليه ودعا له ، ثم تلا هذه الآية : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ — إلى — تَبْدِيلًا » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) هذه الكلمة توضع موضع الإعجاب بالشيء .

(٢) أوجب الرجل : إذا فعل فعلاً وجبت له به الجنة أو النار .

وسلم : " أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزورهم والذي نفسى بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه " . وقيل : النحب الموت ؛ أى مات على ما عاهد عليه ؛ عن ابن عباس . والنحب أيضا الوقت والمدة . يقال : قضى فلان نحبه إذا مات . وقال ذو الرقة :

عِشِيَّةَ فَرَّ الْحَارِثِيُّونَ بَعْدَ مَا * قَضَى نَحْبَهُ فِي مَلَقَى الْخَيْلِ هَوْبُرُ

والنحب أيضا الحاجة والهمة ؛ يقول قائلهم : مالى عندهم نحب ؛ وليس المراد بالآية . والمعنى فى هذا الموضع بالنحب النذر كما قدمنا أولا ؛ أى منهم من بذل جهده على الوفاء بعهده حتى قتل ؛ مثل حمزة وسعد بن معاذ وأنس بن النضر وغيرهم . ومنهم من ينتظر الشهادة وما بذلوا عهدهم ونذرهم . وقد روى عن ابن عباس أنه قرأ « فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمِنْهُمْ مَنْ بَدَّلَ تَبْدِيلًا » . قال أبو بكر الأنبارى : وهذا الحديث عند أهل العلم مردود ؛ لخلافه الإجماع ، ولأن فيه طعنا على المؤمنين والرجال الذين مدحهم الله وشرفهم بالصدق والوفاء ؛ فما يعرف فيهم مغير وما وجد من جماعتهم مبتدل ؛ رضى الله عنهم . ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أى أمر الله بالجهاد ليجزى الصادقين فى الآخرة بصدقهم . ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ فى الآخرة ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ أى إِنْ شَاءَ أَنْ يعذبهم لم يوفقهم للتوبة ؛ وإن لم يشأ أن يعذبهم تاب عليهم قبل الموت . ﴿ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ قال محمد بن عمرو يرفعه إلى عائشة : قالت « الَّذِينَ كَفَرُوا » هاهنا أبو سفيان وهيبنة بن بدر ، رجع أبو سفيان إلى يثامة ، ورجع عيبنة إلى نجد . ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ بأن أرسل عليهم ريحا وجنودا حتى رجعوا ورجعت بنو قريظة إلى صياصيمهم ؛ فكفى أمر قريظة بالعرب . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا ﴾ أمره ﴿ عَزِيزًا ﴾ لا يُغْلَب .

قوله تعالى : وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعنى الذين عاونوا الأحزاب : قريشا و غطفان ؛ وهم بنو قريظة . وقد مضى خبرهم . ﴿ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ أى حصونهم ؛ واحدا صيصة . قال الشاعر :

فأصبحت الثيران صرعى وأصبحت * نساء تميم يلتدزن الصياصيا^(١)

ومنه قيل لشوكة الحائك التى بها يسوى السداة والخمعة : صيصة . قال دريد بن الصمة :
لجئت إليه والراح تنوشه * كوقع الصياصى فى النسيج المتمد

ومنه : صيصة الديك التى فى رجله . وصياصى البقر قرونها ؛ لأنها تمنع بها . وربما كانت تركب فى الرماح مكان الأسنة ؛ ويقال : جاذ الله صيصته ؛ أى أصله . ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ وهم الرجال . ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ وهم النساء والذرية ؛ على ما تقدم . ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا ﴾ بعد . قال يزيد ابن رومان وابن زيد ومقاتل : يعنى حنين ؛ ولم يكونوا نالوها ، فوعدهم الله إياها . وقال قتادة : كنا نتحدث أنها مكة . وقال الحسن : هى فارس والروم . وقال عكرمة : كل أرض تفتح إلى يوم القيامة . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — على ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير ؛ قاله محمد بن إسحاق . الثانى — على ما أراد أن يفتحها

(١) البيت لعبد بنى الحساس ، وقد أورده صاحب اللسان شاهدا على أن صياصى البقر قرونها ؛ وروايته فى البيت :

فأصبحت الثيران غرق وأصبحت * نساء تميم يلتقطن الصياصيا

أى يلتقطن القرون لينسجن بها ، يريد لكثرة المطر غرق الوحش .

من الحصون والقرى قدير؛ قاله النقاش . وقيل : « وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَاصِدًا » مما وعدكموه « قَدِيرًا » لا ترد قدرته ولا يهزم عليه العجز تعالى . ويقال : تأسرون وتأسرون (بكسر السين وضمها) حكاه الفراء .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

فيه ثمانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ) قال علماءنا : هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وكان قد تأذى ببعض الزوجات . قيل : سألته شيئاً من عرض الدنيا . وقيل : زيادة في النفقة . وقيل : أذنبه بغيرة بعضهن على بعض . وقيل : أمر صلى الله عليه وسلم بتلاوة هذه الآية عليهن وتخييرهن بين الدنيا والآخرة . وقال الشافعي رحمه الله تعالى : إن من ملك زوجة فليس عليه تخييرها . أمر صلى الله عليه وسلم أن يخير نساءه فأخترته . وبجملة ذلك أن الله سبحانه خير النبي صلى الله عليه وسلم بين أن يكون نبياً ملكاً وعرض عليه مفاتيح خزائن الدنيا ، وبين أن يكون نبياً مسكيناً ؛ فشاور جبريل فأشار عليه بالمسكنة فاختارها ؛ فلما اختارها وهى أعلى المنزلتين ، أمره الله عز وجل أن يخير زوجاته ؛ فربما كان فيهن من يكره المقام معه على الشدة تنزيهاً له . وقيل : إن السبب الذى أوجب التخيير لأجله ، أن امرأة من أزواجه سألته أن يصوغ لها حلقة من ذهب ، فصاغ لها حلقة من فضة وطلاها بالذهب — وقيل بالزعفران — فأبت إلا أن تكون من ذهب ؛ فترأت آية التخيير فخبرهن ، فقلن اخترنا الله ورسوله . وقيل : إن واحدة منهن اختارت الفراق . فأنه أعلم . روى البخاري ومسلم — واللفظ لمسلم — عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله

صلى الله عليه وسلم، فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال : — فأذن لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجماً ساكناً — قال : — فقال والله لأقولن شيئاً أضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمْتُ إليها فوجأت عنقها، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ” هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلَنِي النِّفْقَةَ “ فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يَجَأُ عنقها، كلاهما يقول : تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ! ! فقلن : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً أبداً ليس عنده . ثم اعتزلن شهراً أو تسعاً وعشرين . ثم نزلت عليه هذه الآية : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِلْأَزْوَاجِ كَ— حَتَّى بَلَغَ — لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا » . قال : فبدأ بعائشة فقال : ” يا عائشة، إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحبُّ ألا تعجل في فيه حتى تستشيري أباي “ قالت : وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيك يا رسول الله أستشير أباي ! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت . قال : ” لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معتداً ولا مُتَعَتِّداً ولكن بعثني معلماً ميسراً “ . وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخيير أزواجه بدأ بي فقال : ” يا عائشة، إني ذا كرك أمراً فلا عليك ألا تستعجلي حتى تستأمرى أباي “ قالت : وقد علم أن أباي لم يكونا ليأمراني بفراقه، قالت ثم قال : ” إن الله يقول : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِلْأَزْوَاجِ كَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا — حَتَّى بَلَغَ — لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا » “ فقلت : أفى هذا استأمر أباي ! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، وفعل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت . قال : هذا حديث حسن صحيح . قال العلماء : وأما أمر النبي صلى الله عليه وسلم عائشة أن تشاور أبايها لأنه كان يحبها، وكان يخاف أن يحملها فرط الشباب على أن تخنار فراقه، ويعلم من أبايها أنهما لا يشيران عليها بفراقه .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا زَوَاجَكَ ﴾ كان للنبي صلى الله عليه وسلم أزواج ، منهن من دخل بها ، ومنهن من عقد عليها ولم يدخل بها ، ومنهن من خطبها فلم يتم نكاحه معها .
 فأقولن : خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب . وكانت قبله عند أبي هالة واسمه زرارة بن النباش الأسدي ، وكانت قبله عند عتيق بن عائذ ، ولدت منه غلاما اسمه عبد مناف . وولدت من أبي هالة هند بن أبي هالة ، وعاش إلى زمن الطاعون فمات فيه . ويقال : إن الذي عاش إلى زمن الطاعون هند بن هند ، وسمعت نادبته تقول حين مات : واهند بن هنداه ، واربيب رسول الله . ولم يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم على خديجة غيرها حتى ماتت . وكانت يوم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت أربعين سنة ، وتوفيت بعد أن مضى من النبوة سبع سنين ، وقيل : عشر . وكان لها حين توفيت خمس وستون سنة . وهي أول امرأة آمنت به . وجميع أولاده منها غير إبراهيم .
 قال حكيم بن حزام : توفيت خديجة فخرجنا بها من منزلها حتى دفناها بالبحون ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرتها ، ولم تكن يومئذ سنة الجنازة الصلاة عليها .

ومنهن : سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس العامرية ، أسلمت قديما وبايعت ، وكانت عند ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو ، وأسلم أيضا ، وهاجرا جميعا إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية ، فلما قدما مكة مات زوجها . وقيل : مات بالحبشة ، فلما حلت خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ف تزوجها ودخل بها بمكة ، وهاجر بها إلى المدينة ، فلما كبرت أراد طلاقها فسالته ألا يفعل وأن يدعها في نسائه ، وجعلت ليلتها لعائشة - حسبما هو مذكور في الصحيح - فأمسكها ، وتوفيت بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين .

ومنهن : عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وكانت مسماة بلحبير بن مطيم ، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، دعني أسألها من جبير سلا رقيقا ، ف تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة بستين ، وقيل بثلاث سنين ، وبني بها بالمدينة

(١) في كتب الصحابة أقوال فيمن كان قبل .

وهي بنت تسع، وبقيت عنده تسع سنين، ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي بنت ثمان عشرة، ولم يتزوج بكراً غيرها، وماتت سنة تسع وخمسين، وقيل ثمان وخمسين .

ومنهن : حفصة بنت عمر بن الخطاب القرشية العدوية، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم طلقها، فأناه جبريل فقال : ”إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوامة قوامة“ فراجعها . قال الواقدي : وتوفيت في شعبان سنة خمس وأربعين في خلافة معاوية، وهي ابنة ستين سنة . وقيل : ماتت في خلافة عثمان بالمدينة .

ومنهن : أم سلمة ، واسمها هند بنت أبي أمية المخزومية — واسم أبي أمية سهيل — تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليال بقين من شوال سنة أربع، زوجها منه أنها سلمة على الصحيح، وكان عمرُ ابنها صغيراً، وتوفيت في سنة تسع وخمسين . وقيل : سنة ثنتين وستين ، والأول أصح . وصلى عليها سعيد بن زيد . وقيل أبو هريرة . وقُبرت بالبقيع وهي ابنة أربع وثمانين سنة .

ومنهن ، أم حبيبة، واسمها رَمْلَة بنت أبي سفيان . بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، ليخطب عليه أم حبيبة فزوجه إياها، وذلك سنة سبع من الهجرة، وأصدق النجاشي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين ديناراً، وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة، وتوفيت سنة أربع وأربعين . وقال الدارقطني : كانت أم حبيبة تحت عبيد الله بن جحش فمات بأرض الحبشة على النصرانية، فزوجه النجاشي النبي صلى الله عليه وسلم، وأمهرها عنه أربعة آلاف، وبعث بها إليه مع شرحبيل بن حسنة .

ومنهن : زينب بنت جحش بن رثاب الأسدية، وكان اسمها برة فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب، وكان اسم أبيها برة، فقالت : يا رسول الله ، بطل اسم أبي فإن البرة حقيرة، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : ”لو كان أبوك مؤمناً سميناها باسم رجل منا أهل البيت ولكني قد سميتك بحشاً والجحش من البرة“ ذكر هذا الحديث الدارقطني . تزوجه

رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في سنة خمس من الهجرة ، وتوفيت سنة عشرين ،
وهي بنت ثلاث وخمسين .

ومنهن : زينب بنت خُزيمة بن الحارث [بن عبد الله] بن عمرو بن عبد مناف بن هلال
ابن عامر بن صعصعة الهلالية ، كانت تسمى في الجاهلية أم المساكين ، لإطعامها إياهم .
تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان على رأس واحد وثلاثين شهرا من الهجرة ،
فمكثت عنده ثمانية أشهر ، وتوفيت في حياته في آخر ربيع الأول على رأس تسعة وثلاثين
شهرا ، ودفنت بالبقيع .

ومنهن : جُويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية المُصْطَلِقيّة ، أصابها في غزوة بني
المُصْطَلِق فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبها ؛ ففضى رسول الله صلى الله عليه
وسلم كتابتها وتزوجها ، وذلك في شعبان سنة ست ، وكان أممها برة فسماها رسول الله صلى
الله عليه وسلم جُويرية ، وتوفيت في ربيع الأول سنة ست وخمسين . وقيل : سنة خمسين ،
وهي ابنة خمس وستين .

ومنهن : صفية بنت حُيَيّ بن أخطب المازونية ، سبها النبي صلى الله عليه وسلم يوم خيبر
واصطفها لنفسه ، وأسلمت وأعتقها ، وجعل عتقها صداقها . وفي الصحيح : أنها وقعت
في سهم دحية الكلبي فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعة أرؤس ، وماتت في سنة
خمسين . وقيل : سنة اثنتين وخمسين ، ودفنت بالبقيع .

ومنهن : ریحانة بنت زيد بن عمرو بن خُنافة من بني النضير ، سبها رسول الله صلى الله
عليه وسلم وأعتقها ، وتزوجها في سنة ست ، وماتت مُرجعة من حجة الوداع ، فدفنها بالبقيع .
وقال الواقدي : ماتت سنة ست عشرة وصلى عليها عمر . قال أبو الفرج الجوزي : وقد
سمعت من يقول : إنه كان يطؤها يملك اليمين ولم يعتقها .

قلت : ولهذا والله أعلم لم يذكرها أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي في عداد أزواج النبي
صلى الله عليه وسلم .

ومنهن : ميمونة بنت الحارث الهلالية ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيرف على عشرة أميال من مكة ، وذلك في سنة سبع من الهجرة في عُمره القضيّة ، وهي آخر امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدّر الله تعالى أنها ماتت في المكان الذي بنى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، ودفنت هنالك ، وذلك في سنة إحدى وستين . وقيل : ثلاث وستين . وقيل ثمان وستين .

فهؤلاء المشهورات من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وهنّ اللاتي دخل بهن ؛ رضى الله عنهن .

فأما من تزوجهن ولم يدخل بهن ؛ فمنهن : الكلابية . واختلفوا في أسمها ؛ فقيل فاطمة . وقيل عمّرة . وقيل العالية . قال الزهري : تزوج فاطمة بنت الضحاك الكلابية فاستعادت منه فطلقها ، وكانت تقول : أنا الشقيّة . تزوجها في ذى القعدة سنة ثمان من الهجرة ، وتوفيت سنة ستين .

ومنهن : أسماء بنت النعمان بن الجحّون بن الحارث الكندية ، وهي الجونية . قال قتادة : لما دخل عليها دعاها فقالت : تعال أنت ، فطلقها . وقال غيره : هي التي استعادت منه . وفي البخاري قال : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أممية بنت ثراحيل ، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين . وفي لفظ آخر قال أبو أسيد : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجونية ، فلما دخل عليها قال : ” هي لي نفسك “ فقالت : وهل تهب الملكة نفسها للسوقة ! فأهوى بيده ليضعها عليها لتسكن ، فقالت : أعوذ بالله منك ! فقال : ” قد عذت بمعاذ “ ثم خرج علينا فقال : ” يا أبا أسيد ، أكسها رازقين وألحقها بأهلها “ .^(١)

ومنهنّ : قُتَيْلَة بنت قيس ، أخت الأشعث بن قيس ، تزوجها إياه الأشعث ، ثم أنصرف إلى حَضْرَمَوْت ، فحملها إليه فبلغه وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . فردّها إلى بلاده ، فارتد

(١) قوله « رازقين » بالنثية ، صفة موصوف محذوف للعلم . في رواية « رازقين » والرازقية : ثياب من كتان بيض طوال .

وارتدت معه . ثم تزوجها عكرمة بن أبي جهل ، فوجد من ذلك أبو بكر وجداً شديداً .
فقال له عمر : إنها والله ما هي من أزواجه ، ماخيرها ولا حجبها . ولقد برأها الله منه^(١)
بالارتداد . وكان عروة ينكر أن يكون تزوجها .

ومنهن : أم شريك الأزدية ، واسمها غزيرة بنت جابر بن حكيم^(٢) ، وكانت قبله عند أبي بكر
ابن أبي سلمى ، فطلقها النبي صلى الله عليه وسلم ولم يدخل بها . وهي التي وهبت نفسها .
وقيل : إن التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم خولة بنت حكيم .

ومنهن : خولة بنت الهذيل بن هبيرة ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهلك
قبل أن تصل إليه .

ومنهن : شراف بنت خليفة ، أخت دحية ، تزوجها ولم يدخل بها .

ومنهن : ليلي بنت الحطيم ، أخت قيس ، تزوجها وكانت غيورا فاستقانتها فأقالها .

ومنهن : عمرة بنت معاوية الكندية ، تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم . قال الشعبي :
تزوج امرأة من كندة فجاء بها بعد ما مات .

ومنهن : ابنة جندب بن ضمرة الجندعية . قال بعضهم : تزوجها رسول الله صلى الله
عليه وسلم . وأنكر بعضهم وجود ذلك .

ومنهن : الغفارية . قال بعضهم : تزوج امرأة من غفار ، فأمرها فتزعت ثيابها فرأى
بياضا فقال : ” الحقيق بأهلك ” . ويقال : إنما رأى البياض بالكلابية . فهؤلاء اللاتي
عقد عليهن ولم يدخل بهن ؛ صلى الله عليه وسلم .

فأما من خطبهن فلم يتم نكاحه معهن ؛ ومن وهبت له نفسها :

فمنهن : أم هانئ بنت أبي طالب ، واسمها فاختة . خطبها النبي صلى الله عليه وسلم
فقال : إني امرأة مضية^(٣) واعتذرت إليه فعذرها .

(١) كذا في الأصول وأسد الغابة ، وعبارته : « ولقد برأها الله بالردة » والذي في شرح المواهب :

« ... وارتدت مع أخيها فبرئت من الله ورسوله ... الخ » . (٢) في المواهب : « جابر بن عوف » .

(٣) أي ذات صيدان .

ومنهنّ : ضباعة بنت عامر .

ومنهنّ : صفية بنت بشامة بن نضلة ، خطبها النبي صلى الله عليه وسلم وكان أصابها سياء ، فغيرها النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ” إن شئت أنا وإن شئت زوجك “ ؟ قالت : زوجي . فأرسلها ؛ فلعننها بنو تميم ؛ قاله ابن عباس .

ومنهنّ : أم شريك . وقد تقدّم ذكرها .

ومنهنّ : ليل بنت الحطيم ؛ وقد تقدّم ذكرها .

ومنهنّ : خولة بنت حكيم بن أمية ؛ وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فأرجأها ، فترّجها عثمان بن مظعون .

ومنهنّ : بجرة بنت الحارث بن عوف المزني ؛ خطبها النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبوها : إن بها سوءاً ولم يكن بها ، فرجع إليها أبوها وقد برّصت ، وهى أم شبيب بن البرصاء الشاعر .

ومنهنّ : سودة القرشية ؛ خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مصيبة . فقالت : أخاف أن يَضْغُوَ صَبِيَّتِي عند رأسك . فحَمِدَهَا ودعا لها .

ومنهنّ : امرأة لم يُذكر اسمها . قال مجاهد : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت : أستمري أبى . فلقيت أباه فأذن لها ، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ” قد التحفنا لحافاً غيرك “ .

فهؤلاء جميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان له من السّراري سُرَّتَان : مارية القبطية ، ورَيحانة ؛ في قول قتادة . وقال غيره : كان له أربع : مارية ، ورَيحانة ، وأخرى جميلة أصابها في السَّيِّ ، وجاريةٌ وهبتها له زينب بنت جحش .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ « إِنَّ » شرط ، وجوابه « فَتَعَالَيْنَ » ؛ فعلق التخيير على شرط . وهذا يدل على أن التخيير والطلاق المعلقين على شرط صحيحان ، فينفذان ويمضيان ؛ خلافاً للجهاال المبتدعة الذين يزعمون أن الرجل إذا قال لزوجته : أنت طالق إن دخلت الدار ، أنه لا يقع الطلاق إن دخلت الدار ؛ لأن الطلاق الشرعي هو المنجز في الحال لا غير .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَيْنَ ﴾ هو جواب الشرط ، وهو فعل جماعة النساء ، من قولك تعالى ؛ وهو دعاء إلى الإقبال إليه يقال : تعال بمعنى أقبل ، وضع لمن له جلالة ورفعة ، ثم صار في الاستعمال لكل داع إلى الإقبال ، وأما في هذا الموضع فهو على أصله ؛ فإن الداعي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ أُمْتَعَنَّ ﴾ قد تقدم الكلام في المُنْتَعَةِ في « البقرة » . وقرئ « أُمْتَعَنَّ » بضم العين . وكذا « وَأُسْرَحَنَّ » بضم الحاء على الاستئناف . والسراح الجميل : هو أن يكون طلاقاً للسنة من غير ضرار ولا منع واجب لها .

الخامسة — اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه على قولين : الأول — أنه خيرهن بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية أو الطلاق ، فاخترن البقاء ؛ قالته عائشة ومجاهد وعكرمة والشعبي وأبن شهاب وربيعه . ومنهم من قال : إنما خيرهن بين الدنيا فيفارقهن ، وبين الآخرة فيمسكنهن ؛ لتكون لهن المنزلة العليا كما كانت لزوجهن ؛ ولم يخيرهن في الطلاق ؛ ذكره الحسن وقتادة . ومن الصحابة على قيا رواه عنه أحمد بن حنبل أنه قال : لم يخير رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه إلا بين الدنيا والآخرة .

قلت : القول الأول أصح ؛ لقول عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن الرجل يخير امرأته فقالت : قد خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أفكان طلاقاً ! في رواية : فاخترناه فلم يعد طلاقاً . ولم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا التخيير المأمور بين البقاء والطلاق ؛ لذلك قال : « يا عائشة إني ذا كركٍ أمراً فلا عليك ألا تعجلي فيه حتى تستأمري

أبويك“ الحديث . ومعلوم أنه لم يرد الاستئثار في اختيار الدنيا وزينتها على الآخرة . فثبت أن الاستئثار إنما وقع في الفرقة ، أو النكاح . والله أعلم .

السادسة - اختلف العلماء في المخيرة إذا اختارت زوجها ؛ فقال جمهور العلماء من السلف وغيرهم وأئمة الفتوى : إنه لا يلزمه طلاق ، لا واحدة ولا أكثر ؛ هذا قول عمر ابن الخطاب وعليّ وابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس وعائشة . ومن التابعين عطاء ومسروق وسليمان بن يسار وربيعه وابن شهاب . وروى عن عليّ وزيد أيضا : إن اختارت زوجها فواحدة بائنة ؛ وهو قول الحسن البصريّ والليث ، وحكاها الخطابي والنقاش عن مالك . وتعلقوا بأن قوله : اختارى ، كناية عن إيقاع الطلاق ، فإذا أضافه إليها وقعت طلاقه ؛ كقوله : أنتِ بائن . والصحيح الأول ؛ لقول عائشة : خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه فلم يعتده علينا طلاقا . أخرجه الصحيحان . قال ابن المنذر : وحديث عائشة يدل على أن المخيرة إذا اختارت زوجها لم يكن ذلك طلاقا ، ويدل على أن اختيارها نفسها يوجب الطلاق ، ويدل على معنى ثالث ؛ وهو أن المخيرة إذا اختارت نفسها أنها تطليقة يملك زوجها رجعتها ؛ إذ غير جائز أن يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلاف ما أمره الله . وروى هذا عن عمر وابن مسعود وابن عباس . وبه قال ابن أبي ليلى والثوريّ والشافعيّ . وروى عن عليّ أنها إذا اختارت نفسها أنها واحدة بائنة . وهو قول أبي حنيفة وأصحابه . ورواه ابن خُوَيْرِمْ مَدَّاد عن مالك . وروى عن زيد بن ثابت أنها إذا اختارت نفسها أنها ثلاث . وهو قول الحسن البصريّ ، وبه قال مالك والليث ؛ لأن الملك إنما يكون بذلك . وروى عن عليّ رضي الله عنه أنها إذا اختارت نفسها فليس بشيء . وروى عنه أنها إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية .

السابعة - ذهب جماعة من المدنيين وغيرهم إلى أن التملك والتخير سواء ، والقضاء ما قضت فيهما جميعا ؛ وهو قول عبد العزيز بن أبي سلمة . قال ابن شعبان : وقد آختره كثير من أصحابنا ، وهو قول جماعة من أهل المدينة . قال أبو عمر : وعلى هذا القول أكثر

الفقهاء . والمشهور من مذهب مالك الفرق بينهما ؛ وذلك أن التملك عند مالك هو قول الرجل لامرأته : قد ملكك ؛ أى قد ملكك ما جعل الله لى من الطلاق واحدة أو اثنتين أو ثلاثا ؛ فلما جاز أن يملكها بعض ذلك دون بعض وادعى ذلك ، كان القول قوله مع يمينه إذا نكحها . وقالت طائفة من أهل المدينة : له المناكحة فى التملك وفى التخيير سواء فى المدخول بها . والأول قول مالك فى المشهور . وروى ابن خزيمة مناد عن مالك أن للزوج أن يناكر المخيرة فى الثلاث ، وتكون طلقة بائنة كما قال أبو حنيفة . وبه قال أبو الجهم . قال سحنون : وعليه أكثر أصحابنا .

وتحصيل مذهب مالك : أن المخيرة إذا اختارت نفسها وهى مدخول بها فهو الطلاق كله ، وإن أنكر زوجها فلا نكحة له . وإن اختارت واحدة فليس بشىء ، وإنما الخيار البتات ، إما أخذته وإما تركته ؛ لأن معنى التخيير التسريح ؛ قال الله تعالى فى آية التخيير : ﴿ فَتَعَالَيْنِ أُمَتِّعَنَّ وَأُسْرَحَنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾^(١) فمعنى التسريح البتات ، قال الله تعالى : « الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فِيمَا سَأَلَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ » . والتسريح بإحسان هو الطلقة الثالثة ؛ روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم . ومن جهة المعنى أن قوله : اختارنى أو اختارى نفسك يقتضى ألا يكون له عليها سبيل إذا اختارت نفسها ، ولا يملك منها شيئا ؛ إذ قد جعل إليها أن تخرج ما يملكه منها أو تقيم معه إذا اختارته ، فإذا اختارت البعض من الطلاق لم تعمل بمقتضى اللفظ ، وكانت بمنزل من خير بين شيئين فاختر غيرهما . وأما التى لم يدخل بها فله مناكرتها فى التخيير والتملك إذا زادت على واحدة ؛ لأنها تبين فى الحال .

الثامنة — اختلفت الرواية عن مالك متى يكون لها الخيار ؛ فقال مرة : لها الخيار ما دامت فى المجلس قبل القيام أو الاشتغال بما يدل على الإعراض . فإن لم تختار ولم تقض شيئا حتى أفرقا من مجلسهما بطل ما كان من ذلك إليها ؛ وعلى هذا أكثر الفقهاء . وقال مرة : لها الخيار أبدا ما لم يعلم أنها تركت ؛ وذلك يعلم بأن تمكنه من نفسها بوطء أو مباشرة ؛ فعلى هذا إن منعت نفسها ولم تختار شيئا كان له رفعها إلى الحاكم لتوقع أو تسقط ، فإن أبت أسقط

الحاكم تملكها . وعلى القول الأول إذا أخذت في غير ذلك من حديث أو عمل أو مشى أو ما ليس في التخيير بشيء كما ذكرنا سقط تخييرها . واحتج بعض أصحابنا لهذا القول بقوله تعالى : « فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » ^(١) . وأيضا فإن الزوج أطلق لها القول ليعرف الخيار منها ، فصار كالعقد بينهما ، فإن قبلته وإلا سقط ؛ كالذى يقول : قد وهبت لك أو بايعتك ، فإن قبل وإلا كان الملك باقيا بحاله . هذا قول الثوري والكوفيين والأوزاعي والليث والشافعي وأبي ثور ، وهو اختيار ابن القاسم . ووجه الرواية الثانية أن ذلك قد صار في يدها وملكوته على زوجها بملكها إياها فلما ملكت ذلك وجب أن يبقى في يدها كبقائه في يد زوجها .

قلت : وهذا هو الصحيح لقوله عليه السلام لعائشة : " إني ذاكر لك أمرا فلا عليك ألا تستعجلي حتى تستأمرى أبويك " رواه الصحيح ، وخرجه البخاري ، وصححه الترمذي . وقد تقدم في أول الباب . وهو حجة لمن قال : إنه إذا خير الرجل امرأته أو ملكها أن لها أن تقضى في ذلك وإن أفتقا من مجلسهما ؛ روى هذا عن الحسن والزهرى ، وقاله مالك في إحدى روايته . قال أبو عبيد : والذي عندنا في هذا الباب ، اتباع السنة في عائشة في هذا الحديث ، حين جعل لها التخيير إلى أن تستأمر أبويها ، ولم يجعل قيامها من مجلسهما خروجاً من الأمر . قال المروزي : هذا أصح الأقاويل عندي ، وقاله ابن المنذر والطحاوي .

قوله تعالى : يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَفْعَلْ مِّنْكُمْ لَهٗ رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال العلماء : لما آختر نساء النبي صلى الله عليه وسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم شكرهن الله على ذلك فقال تكملة لهن : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ^(١) » الآية . وبين حكمهن عن غيرهن فقال : وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ^(٢) . وجعل ثواب طاعتهم وعقاب معصيتهم أكثر مما لغيرهن فقال : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » . فأخبر تعالى أن من جاء من نساء النبي صلى الله عليه وسلم بفاحشة — والله عاصم رسوله عليه السلام من ذلك كما مر في حديث الإفك ^(٣) — يضاعف لها العذاب ضعفين ؛ لشرف منزلتهن وفضل درجاتهن ، وتقدمهن على سائر النساء أجمع . وكذلك بينت الشريعة في غير ما موضع حسماً تقدم بيانه غير مرة — أنه كلما تضاعفت الحرمات فهتكت تضاعفت العقوبات ؛ ولذلك ضوعف حد الحر على العبد والثلث على البكر . وقيل : لما كان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في مهبط الوحي وفي منزل أوامر الله ونواهيه ، قوى الأمر عليهن ولزمهن بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم غيرهن ؛ فضوعف لهن الأجر والعذاب . وقيل ، إنما ذلك لعظم الضرر في جرائمهن بإيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فكانت العقوبة على قدر عظم الجريمة في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ^(٤) » . واختار هذا القول السيكا الطبرى .

الثانية — قال قوم : لو قدر الزنى من واحدة منهم — وقد أعاذهن الله من ذلك — لكانت تُحد حدّين لعظم قدرها ، كما يزداد حدّ الحرّة على الأمّة . والعذاب بمعنى الحدّ ، قال الله تعالى : « وَلَيَشْهَدَنَّ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ ^(٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ^(٣) » . وعلى هذا فمعنى الضعفين معنى المثلين أو المراتين . وقال أبو عبيدة : ضعف الشيء شيئان حتى يكون ثلاثة . وقاله أبو عمرو فيما

(١) راجع ص ٢١٩ وص ٢٢٨ وص ٢٣٧ من هذا الجزء .

(٢) راجع ج ١٢ ص ١٩٧ فما بعد وص ١٦٦ . (٣) راجع ج ١٢ ص ١٦٢ .

حكى الطبري عنه؛ فيضاف إليه عذابان مثله فيكون ثلاثة أعذبة . وضعفه الطبري . وكذلك هو غير صحيح وإن كان له باللفظ تعلق الاحتمال . وكون الأجر مرتين مما يفسد هذا القول ؛ لأن العذاب في الفاحشة بإزاء الأجر في الطاعة ؛ قاله ابن عطية . وقال النحاس : فرق أبو عمرو بين « يُضَاعَف وَيُضَعَّف » قال : « يُضَاعَف » للرار الكثيرة . و « يُضَعَّف » مرتين . وقرأ « يُضَعَّف » لهذا . وقال أبو عبيدة : « يُضَاعَف لَهَا الْعَذَابُ » يجعل ثلاثة أعذبة . قال النحاس : التفريق الذي جاء به أبو عمرو وأبو عبيدة لا يعرفه أحد من أهل اللغة علمته ، والمعنى في « يُضَاعَف وَيُضَعَّف » واحد ؛ أى يجعل ضعفين ؛ كما تقول : إن دفعت إلى درهما دفعت إليك ضعفيه ؛ أى مثليه ؛ يعنى درهمين . ويدل على هذا « نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ » ولا يكون العذاب أكثر من الأجر . وقال في موضع آخر « آتَاهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ » أى مثلين . وروى معمر عن قتادة « يُضَاعَف لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » قال : عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . قال القشيري أبو نصر : الظاهر أنه أراد بالضعفين المثلين ؛ لأنه قال : « نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ » . فأما في الوصايا ، لو أوصى لإنسان بضعفى نصيب ولده فهو وصية بأن يعطى مثل نصيبه ثلاث مرات ؛ فإن الوصايا تجرى على العرف فيما بين الناس ، وكلام الله يرد تفسيره إلى كلام العرب ، والضعف في كلام العرب المثل إلى ما زاد ، وليس بمقصود على مثلين . يقال : هذا ضعف هذا ؛ أى مثله . وهذا ضعفاه ؛ أى مثلاه ؛ فالضعف في الأصل زيادة غير محصورة ؛ قال الله تعالى : « قَاُولِئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ » ولم يرد مثلاً ولا مثلين . كل هذا قول الأزهري . وقد تقدم في « النور » الاختلاف في حد من قذف واحدة منهن ؛ والحمد لله .

الثالثة — قال أبو رافع : كان عمر رضى الله عنه كثيراً ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأحزاب في الصبح ، وكان إذا بلغ « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ » رفع بها صوته ؛ فقبل له في ذلك فقال : « أَذْكُرْهُنَّ الْعَهْدَ » . قرأ الجمهور : « مَنْ يَأْتِ » بالياء . وكذلك « مَنْ يَقْنُتْ » حملاً على لفظ

«مَنْ» . والقنوت الطاعة ؛ وقد تقدم . وقرأ يعقوب : «مَنْ تَأْتِ» و «تَقْنَتُ» بالتاء من فوق ، حملا على المعنى . وقال قوم : الفاحشة إذا وردت معرفة فهي الزنى واللواط . وإذا وردت منكورة فهي سائر المعاصي . وإذا وردت منعوتة فهي عقوق الزوج وفساد عشرته . وقالت فرقة : بل قوله «فَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ» تعم جميع المعاصي . وكذلك الفاحشة كيف وردت . وقرأ ابن كثير «مُبَيَّنَةٍ» بفتح الياء . وقرأ نافع وأبو عمرو بكسرها . وقرأت فرقة : «يُضَاعَفُ» بكسر العين على إسناد الفعل إلى الله تعالى . وقرأ أبو عمرو فيما روى خارجة «نُضَاعَفُ» بالنون المضمومة ونصب «العذاب» وهذه قراءة ابن مُحْيِصِن . وهذه مفاعلة من واحد ؛ كطارقت النعل وعاقبت اللص . وقرأ نافع وحزمة والكسائي «يُضَاعَفُ» بالياء وفتح العين ، «العذاب» رفعا . وهى قراءة الحسن وابن كثير وعيسى . وقرأ ابن كثير وابن عامر «نُضَعَّفُ» بالنون وكسر العين المشددة ، «العذاب» نصبا . قال مقاتل : هذا التضعيف في العذاب إنما هو في الآخرة ؛ لأن إتياء الأجر مرتين أيضا في الآخرة . وهذا حسن ؛ لأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم لا يأتين بفاحشة توجب حدا . وقد قال ابن عباس : ما بَغَتْ امرأة نبي قط ، وإنما خانت في الإيمان والطاعة . وقال بعض المفسرين : العذاب الذي تُوعَدُّن به «ضعفين» هو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ؛ فكذلك الأجر . قال ابن عطية : وهذا ضعيف ، اللهم إلا أن يكون أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لا ترفع عنهن حدود الدنيا عذاب الآخرة ، على ما هي حال الناس عليه ؛ بحكم حديث عبادة بن الصامت ^(٢) . وهذا أمر لم يرو في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ولا حفظ تقرره . وأهل التفسير على أن الرزق الكريم الجنة ؛ ذكره النحاس .

(١) راجع ج ٢ ص ٨٦ وج ٣ ص ٢١٣ .

(٢) لفظ الحديث كما في كتاب البخارى في تفسير سورة المتحة : «قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "أتبايعوننى على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنا ولا تسرقوا — وقرأ آية النساء (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك — فن وفى منكم فأجره على الله . ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له . ومن أصاب منها شيئا من ذلك فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفرله)» .

قوله تعالى : **يٰۤاَيُّهَا النَّبِيُّ لَسْتَ مِنْ اِتِّفَاقِ الْنِّسَاءِ** ^ج **اِنْ اَتَّقَيْتُنَّ**
فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : **(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ اِنْ اَتَّقَيْتُنَّ)** ^(١) **﴿٣٢﴾** يعنى فى الفضل والشرف .
 وقال : « كَأَحَدٍ » ولم يقل كواحدة ؛ لأن أحدا نفى من المذكر والمؤنث والواحد والجماعة .
 وقد يقال على ما ليس بآدمى ؛ يقال : ليس فيها أحد ، لاشاة ولا بعير . وإنما خصص النساء
 بالذكر لأن فيمن تقدم آسية ومريم . وقد أشار إلى هذا قتادة ؛ وقد تقدم فى « آل عمران »
 الاختلاف فى التفضيل بينهما ، فتأمله هناك . ثم قال : **« اِنْ اَتَّقَيْتُنَّ »** أى خفتن الله . فبين
 أن الفضيلة إنما تم لمن بشرط التقوى ؛ لما منجهن الله من صحبة الرسول وعظيم المحل منه ،
 ونزول القرآن فى حقهن .

قوله تعالى : **(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ)** فى موضع جزم بالنهى ؛ إلا أنه مبنى كجانبى الماضى ،
 هذا مذهب سيويه ؛ أى لا تلتن القول . أمرهن الله أن يكون قولهن جزلا وكلامهن فصلا ،
 ولا يكون على وجه يظهر فى القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين ؛ كما كانت الحال عليه فى نساء
 العرب من مكاملة الرجال بترخيم الصوت ولينه ؛ مثل كلام المربيات والمومسات . فهناهن
 عن مثل هذا .

قوله تعالى : **(فَيَطْمَعَ)** بالنصب على جواب النهى . **(الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ)** أى شك
 ونفاق ؛ عن قتادة والسدى . وقيل : تشوف لفجور ، وهو الفسق والغزل ؛ قاله صكرمة .
 وهذا أصوب ، وليس للنفاق مدخل فى هذه الآية . وحكى أبو حاتم أن الأعرج قرأ
« فَيَطْمَعَ » بفتح الياء وكسر الميم . النحاس : أحسب هذا غلطا ، وأن يكون قرأ **« فَيَطْمَعَ »**
 بفتح الميم وكسر العين بعطفه على **« تَخْضَعْنَ »** فهذا وجه جيد حسن . ويجوز **« فَيَطْمَعَ »**
 بمعنى فيطمع الخضوع أو القول .

(٢) راجع ج ٤ ص ٨٢

(١) كذا فى الأصول ؛ يريد أنه نفى عام للمذكر والمؤنث .

(٣) فى الأصول : « بفتح الياء » .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ قال ابن عباس : أمرهن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والمرأة تندب إذا خاطبت الأجانب وكذا المحترمات عليها بالمصاهرة إلى الغلظة في القول من غير رفع صوت ؛ فإن المرأة مأمورة بخفض الكلام . وعلى الجملة فالقول المعروف : هو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس .

قوله تعالى : وَقُرْآنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى ﴿ وَقُرْآنَ ﴾ قرأ الجمهور « وقرن » بكسر القاف . وقرأ عاصم ونافع بفتحها . فأما القراءة الأولى فتحتمل وجهين : أحدهما — أن يكون من الوقار ؛ تقول : وقرَ يقر وقرًا أى سكن ، والأمر قر ، وللنساء قرن ، مثل عدن وزن . والوجه الثانى — وهو قول المبرد ، أن يكون من القرار ؛ تقول : قررت بالمكان (بفتح الراء) أقتر ، والأصل إقرن ، بكسر الراء ، فحذفت الراء الأولى تخفيفاً ؛ كما قالوا فى ظلمات : ظلت ، ومسست : مست ، ونقلوا حركتها إلى القاف ، واستغنى عن ألف الوصل لتحرك القاف . قال أبو على : بل على أن أبدلت الراء ياء كراهة التضعيف ؛ كما أبدلت فى قيراط ودينار ، ويصير للياء حركة الحرف المبدل منه ؛ فالتقدير : إقرن ، ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحرك الياء بالكسر ، فتسقط الياء لاجتماع الساكنين ، وتسقط همزة الوصل لتحرك ما بعدها فيصير « قرن » . وأما قراءة أهل المدينة وعاصم ، فعلى لغة العرب : قررت فى المكان إذا أقمت فيه (بكسر الراء) أقتر (بفتح القاف) ؛ من باب حمد يحمّد ، وهى لغة أهل الحجاز ذكرها أبو عبيد فى « الغريب المصنف » عن الكسائى ، وهو من أجل مشايخه ، وذكرها الزجاج وغيره ، والأصل « إقرن »

حذفت الراء الأولى لثقل التضعيف ، وألقيت حركتها على القاف فتقول : قَرَن . قال الفراء : هو كما تقول : أَحَسَّتْ صاحبك ؛ أى هل أَحَسَسْتُ . وقال أبو عثمان المازني : قَرَرْتُ به عينا (بالكسر لا غير) ، من قُوَّة العين . ولا يجوز قَرَرْتُ في المكان (بالكسر) وإنما هو قَرَرْتُ (بفتح الراء) ، وما أنكره من هذا لا يقدح في القراءة إذا ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فيستدل بما ثبت عنه من القراءة على صحة اللغة . ^(١) وذهب أبو حاتم أيضا أن « قَرَن » لا مذهب له في كلام العرب . قال النحاس : وأما قول أبي حاتم : « لا مذهب له » فقد خولف فيه ، وفيه مذهبان : أحدهما ما حكاه اليكساني ، والآخر ما سمعت علي بن سليمان يقول ، قال : وهو من قَرَرْتُ به عينا أَقَرَّ ، والمعنى : وأقررن به عينا في بيوتكن . وهو وجه حسن ؛ إلا أن الحديث يدل على أنه من الأول . كما روى أن عمارا قال لعائشة رضى الله عنها : إن الله قد أمرك أن تَقَرِّي في منزلك ؛ فقالت : يا أبا اليقظان ، مازلت قوالا بالحق ! فقال : الحمد لله الذي جعلني كذلك على لسانك . وقرأ ابن أبي عبلة « وأقررن » بألف وصل وراءين ، الأولى مكسورة .

الثانية — معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت ، وإن كان الخطاب للنساء النبي صلى الله عليه وسلم فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى . هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء ؛ كيف والشرعة طالفة بلزوم النساء بيوتهن ، والاكتفاف عن الخروج منها إلا لضرورة ؛ على ما تقدم في غير موضع . فأمر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم بملازمة بيوتهن ، وخاطبهن بذلك تشريفا لهن ، ونهاهن عن التبرج ، وأعلم أنه فعل الجاهلية الأولى فقال : ((وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرَجَ الْجَاهِلِيَّةُ الْأُولَى)) . ^(٢) وقد تقدم معنى التبرج في «النور» . وحقيقته إظهار ما ستره أحسن ؛ وهو مأخوذ من السعة ، يقال : في أسنانه بَرَج إذا كانت متفرقة ؛ قاله المبرد . واختلاف الناس في «الجاهلية الأولى» ؛ فقيل : هي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام ، كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ ، فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال . وقال الحكم بن عيينة : ما بين آدم ونوح ،

(٢) راجع ج ١٢ ، ص ٣٠٩ .

(١) في ج ، رش ، وك : « زم » .

وهي ثمانمائة سنة ، وحُكِيت لهم سِيرَ ذِمِّيَّة . وقال ابن عباس : ما بين نوح وإدريس .
الكَلْبِيّ : ما بين نوح وإبراهيم . قيل : إن المرأة كانت تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مَحِيْط
الجانبين ، وتلبس الثياب الرقاق ولا توارى بدنّها . وقالت فرقة : ما بين موسى وعيسى .
الشَّمْعِيّ : ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . أبو العالية : هي زمان داود وسليمان ؛
كان فيه للمرأة قميص من الدرّ غير مَحِيْط الجانبين . وقال أبو العباس المبرد : والجاهلية الأولى
كما تقول الجاهلية الجهلاء ، قال : وكان النساء في الجاهلية الجهلاء يُظهرن ما يقبح إظهاره ،
حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وِخْلَهَا^(١) ، فينفرد خِلْهَا بما فوق الإزار إلى الأعلى ، وينفرد
زوجها بما دون الإزار إلى الأسفل ، وربما سأل أحدهما صاحبه البذل . وقال مجاهد :
كان النساء يتمشّين بين الرجال ، فذلك التبرج . قال ابن عطية : والذي يظهر عندي أنه
أشار للجاهلية التي لحقنها ، فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها ، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة
الكفرة ؛ لأنهم كانوا لا غيرة عندهم ، وكان أمر النساء دون حجاب ، وجَعَلَهَا^(٢) أولى بالنسبة
إلى ما كنّ عليه ؛ وليس المعنى أن تمّ جاهلية أخرى . وقد أوقع اسم الجاهلية على تلك المدة
التي قبل الإسلام ، فقالوا : جاهليّ في الشعراء . وقال ابن عباس في البخاريّ : سمعت أبي
في الجاهلية يقول ؛ إلى غير هذا .

قلت : وهذا قول حسن . ويعترض بأن العرب كانت أهل قَشَفٍ وضَنكٍ في الغالب ،
وأن التّنعّم وإظهار الزينة إنّما جرى في الأزمان السابقة ، وهي المراد بالجاهلية الأولى ،
وأن المقصود من الآية مخالفة من قبلهنّ من المشية على تَغْنِيْجٍ وتكسير وإظهار المحاسن
للرجال ، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعا . وذلك يشمل الأقوال كلّها ويعمّها فيلزم
البيوت ، فإن مست الحاجة إلى الخروج فليكنّ على تبذّل وتَسْتُر تام . والله الموفق .

الثالثة — ذكر الثعلبيّ وغيره : أن عائشة — رضى الله عنها — كانت إذا قرأت هذه
الآية تبكى حتى تبّل نمارها . وذكر أن سودة قيل لها : لم لا تحجّين ولا تَعْتَمرين كما يفعل

(١) في ش : « خِلْهَا » والخلم (بالكسر) : الصديق الخالص . (٢) في الأصول : « حجة » .

(٣) التبذل : ترك الزين والتّهيز بالهيئة الحسنّة الجميلة على جهة التواضع .

أخوانك؟ فقالت: قد حججت واعتمررت، وأمرني الله أن أقتر في بيتي. قال الراوى: فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها. رضوان الله عليها! قال ابن العربي: لقد دخلت نيفاً على ألف قرية، فما رأيت نساء أصون عيالا ولا أعف نساء من نساء نابلس، التي رُمى بها الخليل صلى الله عليه وسلم بالنار؛ فإني أقمت فيها فما رأيت امرأة في طريق نهارا إلا يوم الجمعة فلأنهم يخرجون إليها حتى يمتلئ المسجد منهم، فإذا قُضيت الصلاة وانقلبوا إلى منازلهم لم تقع عيني على واحدة منهم إلى الجمعة الأخرى. وقد رأيت بالمسجد الأقصى عفاف ما خرجن من معتكفهن حتى استشهدن فيه.

الرابعة — قال ابن عطية: بكاء عائشة رضي الله عنها لما كان بسبب سفرها أيام الجمل، وحينئذ قال لها عمار: إن الله قد أمرك أن تقرى في بيتك. قال ابن العربي: تعلق الرافضة — لعنهم الله — بهذه الآية على أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إذ قالوا: إنها خالفت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجت تقود الجيوش، وتباشر الحروب، وتقتحم مأزق الطعن والضرب فيما لم يفرض عليها ولا يجوز لها. قالوا: ولقد حُصر عثمان، فلما رأت ذلك أمرت برواحلها فقربت لتخرج إلى مكة؛ فقال لها مروان: أقيمى هنا يا أُم المؤمنين، وردى هؤلاء الزعاع؛ فإن الإصلاح بين الناس خير من حَجِّكَ. قال ابن العربي قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إن عائشة رضي الله عنها، نذرت الحج قبل الفتنة، فلم تر التخلف عن نذرها؛ ولو خرجت في تلك الثائرة لكان ذلك صوابا لها. وأما خروجها إلى حرب الجمل فما خرجت لحرب، ولكن تعلق الناس بها، وشكروا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتهارج الناس، ورجوا بركتها، وطعمعوا في الاستحياء منها إذا وقفت إلى الخلق، وظنت هي ذلك [نخرجت] مقتدية بالله في قوله: «لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ»^(٢)، وقوله: «وَأِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا»^(٣). والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر وأنثى؛ حرَّ

(١) زيادة عن ابن العربي. (٢) راجع ج ٥ ص ٣٨٢. (٣) راجع ج ١٦ ص ٣١٥.

أو عبد . فلم يرد الله تعالى بسابق قضائه ونافذ حكمه أن يقع إصلاح ، ولكن جرت مطاعنات وجراحات حتى كاد يفنى الفريقان ، فعمد بعضهم إلى الجمل فعرقبه ، فلما سقط الجمل لجنبه أدرك محمد بن أبي بكر عائشة رضى الله تعالى عنها ، فاحتملها إلى البصرة ، وخرجت في ثلاثين امرأة ، قرَّهنَّ على بها حتى أوصلوها إلى المدينة برَّةً تقيَّةً مجتهدة ، مصيبة مثابة فيما تأولت ، مأجورة فيما فعلت ؛ إذ كل مجتهد في الأحكام مصيب . وقد تقدَّم في « النحل »^(١) اسم هذا الجمل ، وبه يعرف ذلك اليوم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى فيما أمر ونهى .
﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ قال الزجاج : قيل يراد به نساء النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : يراد به نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته ؛ على ما يأتي بيانه بعد .
و « أَهْلَ الْبَيْتِ » نصب على المدح . قال : وإن شئت على البذل . قال : ويجوز الرفع والخفض . قال النحاس : إن خفض على أنه بدل من الكاف والميم لم يجوز عند أبي العباس محمد بن يزيد ، قال لا يبدل من المخاطبة ولا من المخاطب ؛ لأنهما لا يحتاجان إلى تبين .
﴿ وَيُطَهِّرْكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ مصدر فيه معنى التوكيد .

قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾^ج
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ هذه الألفاظ تعطى أن أهل البيت نساؤه . وقد اختلف أهل العلم في أهل البيت ، من هم ؟ فقال عطاء وعكرمة وابن عباس : هم زوجاته خاصة ، لا رجل معهن . وذهبوا إلى أن البيت أريد به مساكن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ . وقالت فرقة منهم الكلبي : هم علي وفاطمة والحسن والحسين خاصة ؛ وفي هذا أحاديث عن النبي عليه السلام ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرْكُمْ ﴾

بالميم، ولو كان للنساء خاصة لكان « عنكن ويظهركن » ؛ إلا أنه يحتمل أن يكون خرج على لفظ الأهل ؛ كما يقول الرجل لصاحبه : كيف أهلك ؛ أى أمرأتك ونسائك ؛ فيقول : هم بخير ؛ قال الله تعالى : « أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ^(١) » .
والذى يظهر من الآية أنها عامة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم . وإنما قال : « وَيُطَهِّرُكُمْ » لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلياً وحَسَنًا وحُسَيْنًا كان فيهم ، وإذا اجتمع المذكور والمؤنث غلب المذكور ؛ فافتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت ، لأن الآية فيهن ، والمخاطبة لهن ، يدل عليه سياق الكلام . والله أعلم . أما أن أم سلمة قالت : نزلت هذه الآية في بيتي ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وفاطمة وحَسَنًا وحُسَيْنًا ، فدخل معهم تحت كساء خَيْرِي وقال : « هؤلاء أهل بيتي » — وقرأ الآية — وقال : « اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » فقالت أم سلمة : وأنا معهم يا رسول الله ؟ قال : « أَنْتِ عَلَى مَكَانِكَ وَأَنْتِ عَلَى خَيْرٍ » أخرجه الترمذى وغيره وقال : هذا حديث غريب . وقال القشيري : وقالت أم سلمة أدخلت رأسى فى الكساء وقلت : أنا منهم يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . وقال الثعلبي : هم بنو هاشم ، فهذا يدل على أن البيت يراد به بيت النسب ، فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم . وروى نحوه عن زيد بن أرقم رضى الله عنهم أجمعين . وعلى قول الكلبي يكون قوله : « وَأَذْكُرَنَّ » ابتداء مخاطبة الله تعالى ، أى مخاطبة أمر الله عز وجل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، على جهة الموعظة وتعدد النعمة بذكر ما يتلى في بيوتهن من آيات الله تعالى والحكمة . قال أهل العلم بالتأويل : « آيَاتِ اللَّهِ » القرآن . « وَالْحِكْمَةُ » السنة . والصحيح أن قوله : « وَأَذْكُرَنَّ » منسوق على ما قبله . وقال « عنكم » لقوله « أهل » فالأهل مذكر ؛ فساهن — وإن كنَّ إناثا — باسم التذكير فلذلك صار « عنكم » . ولا اعتبار بقول الكلبي وأشباهه ، فإنه توجد له أشياء فى هذا التفسير ما لو كان فى زمن السلف الصالح لمنعه من ذلك وحجروا عليه . فالآيات كلها من قوله : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ — إلى قوله — إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا — منسوق بعضها على بعض ،

فكيف صار في الوسط كلاماً منفصلاً لغيره؟! وإنما هذا شيء جرى في الأخبار أن النبي عليه السلام لما نزلت عليه هذه الآية دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين ، فعمد النبي صلى الله عليه وسلم إلى كساء فلفها عليهم ، ثم أوى بيده إلى السماء فقال : ” اللَّهُمَّ هؤلاء أهل بيتي اللَّهُمَّ أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا “ . فهذه دعوة من النبي صلى الله عليه وسلم لهم بعد نزول الآية ، أحب أن يدخلهم في الآية التي خوطب بها الأزواج ، فذهب الكلبي ومن وافقه فصيرها لهم خاصة ، وهي دعوة لهم خارجة من التنزيل .

الثانية — لفظ الذِّكْرُ يحتمل ثلاثة معان : أحدها — أى أذكرن موضع النعمة ، إذ صيركن الله في بيوت تُتلى فيها آيات الله والحكمة . الثانى — أذكرن آيات الله وأقدرن قدرها ، وفكرن فيها حتى تكون منكن على بالٍ لتعظن بمواعظ الله تعالى ، ومن كان هذا حاله ينبغي أن تحسن أفعاله . الثالث — «أذكرن» بمعنى أحفظن وأقرأن والزمنه الألسنة ، فكأنه يقول : أحفظن أوامر الله تعالى ونواهيه ، وذلك هو الذى يُتلى في بيوتكن من آيات الله . فأمر الله سبحانه وتعالى أن يخبرن بما ينزل من القرآن في بيوتهن ، وما يرين من أفعال النبي عليه الصلاة والسلام ، ويسمعن من أقواله حتى يبلغن ذلك إلى الناس ، فيعملوا ويقتدوا . وهذا يدل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء في الدين .

الثالثة — قال ابن العربى : في هذه الآية مسألة بديعة ، وهى أن الله تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزل عليه من القرآن ، وتعليم ما علمه من الدين ، فكان إذا قرأ على واحد أو ما اتفق سقط عنه الفرض ، وكان على من سمعه أن يبلغه إلى غيره ، ولا يلزمه أن يذكره لجميع الصحابة ، ولا كان عليه إذا علم ذلك أزواجه أن يخرج إلى الناس فيقول لهم نزل كذا ولا كان كذا ؛ ولهذا قلنا : يجوز العمل بخبر ^(١)بصرة في إيجاب الوضوء من مس الذكر ، لأنها روت ما سمعت وبلغت ما وعّت . ولا يلزم أن يبلغ ذلك الرجال ، كما قال أبو حنيفة ، على أنه قد نقل عن سعد بن أبى وقاص وأبن عمر .

(١) هى بصرة بنت صفوان بن نوفل ؛ روت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَالْقَنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ
وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِرِينَ
وَالصَّابِرَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

فيه مسألتان :

الأولى - روى الترمذى عن أم عُمارة الأنصارية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت :
ما أرى كل شيء إلا للرجال ، وما أرى النساء يذكرن بشيء ! فنزلت هذه الآية : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ
وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » الآية . هذا حديث حسن غريب . و « الْمُسْلِمِينَ » اسم
« إِنْ » . « وَالْمُسْلِمَاتِ » عطف عليه . ويجوز رفعهن عند البصريين ، فأما الفراء فلا يجوز
عنده إلا فيما لا يتبين فيه الإعراب .

الثانية - بدأ تعالى في هذه الآية بذكر الإسلام الذى يعم الإيمان وعمل الجوارح ،
ثم ذكر الإيمان تخصيصا له وتنبيها على أنه عظم الإسلام ودعامته . والقائت : العابد المطيع .
والصادق : معناه فيما عوهد عليه أن يفى به . والصابر عن الشهوات وعلى الطاعات فى المكروه
والمُنشَط^(١) . والخاشع : الخائف لله . والمتصدق بالفرض والنفل . وقيل : بالفرض خاصة ؛
والأول أمدح . والصائم كذلك . (والحافظين فروجهم والحافظات) أى عما لا يحل من
الزنى وغيره . وفى قوله : « وَالْحَافِظَاتِ » حذف يدل عليه المتقدم ، تقديره : والحافظات ،
فاكتفى بما تقدم . وفى « الذَّاكِرَاتِ » أيضا مثله ، ونظيره قول الشاعر :

(١) المكروه (بفتح الميم) : المكروه . والمنشط : وهو الأمر الذى تنشط له وتخوف إليه وتؤثر فعله ؛ وهو مصدر

بمعنى النشاط .

وَكُنَّا مُدَّةً كَأَنَّ مَتْنَهَا * جرى فوقها واستشعرت لَوْنٌ مُذْهِبٌ^(١)

وروى سيبويه : « لَوْنٌ مُذْهِبٌ » بالنصب . وإنما يجوز الرفع على حذف الهاء ، كأنه قال : واستشعرت به فيمن رفع لونا . والذا كرقيل في أدبار الصلوات وغُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وفي المضاجع وعند الانبأ من النوم . وقد تقدم هذا كله مفصلاً في مواضعه ، وما يترتب عليه من الفوائد والأحكام ، فأغنى عن الإعادة^(٢) . والحمد لله رب العالمين . قال مجاهد : لا يكون ذا كرا لله تعالى كثيراً حتى يذكره قائماً وجالساً ومضطجعاً . وقال أبو سعيد الخدري : رضى الله عنه : من أيقظ أهله بالليل وصلياً أربع ركعات كتبنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣١﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — روى قتادة وابن عباس ومجاهد في سبب نزول هذه الآية : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب زينب بنت جحش ، وكانت بنت عمته ، فظننت أن الخطبة لنفسه ، فلما تبين أنه يريد لها زيدا ، كرهت وأبت وامتنعت ، فنزلت الآية . فأذعنت زينب حينئذ وتزوجته . في رواية : فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنفسها من قريش ، وأن زيدا كان بالأمس عبداً ، إلى أن نزلت هذه الآية ، فقال له أخوها : مُرْنِي بِمَا شِئْتُ ، فزوجهها من زيد . وقيل : لأنها نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وكانت وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم ، فزوجهها من زيد بن حارثة ، فكرهت ذلك هي وأخوها وقالوا : إنما أردنا رسول

(١) الكت : جمع أكت ، وهي حمرة تضرب إلى السواد . والمدة : شديدة الحمرة مثل الدم . والمتون : جمع متن ، وهو الظهور . واستشعرت : جعلت شعارها . والمذهب : الموه بالذهب . والبيت لطفي الغنوى (عن سيبويه والعين) .

(٢) راجع ج ١ ص ٣٣١ وج ٤ ص ٨٢ و ٣١٠ .

الله صلى الله عليه وسلم فزوجنا غيره؛ فنزلت الآية بسبب ذلك، فأجابا إلى تزويج زيد، قاله ابن زيد. وقال الحسن: ليس لئمن ولا مؤمنة إذا أمر الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم بأمر أن يمصياه.

الثانية — لفظة «ما كان، وما ينبغي» ونحوهما، معناها الحظر والمنع. فتجىء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون؛ كما في هذه الآية. وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلا كقوله تعالى: «مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا»^(١). وربما كان العلم بامتناعه شرعا كقوله تعالى: «مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ»^(٢)، وقوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ»^(٣). وربما كان في المندوبات؛ كما تقول: ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل، ونحو هذا.

الثالثة — في هذه الآية دليل بل نص في أن الكفاءة لا تعتبر في الأحساب وإنما تعتبر في الأديان؛ خلافا لمالك والشافعي والمغيرة وسحنون. وذلك أن الموالى تزوجت في قريش؛ تزوج زيد زينب بنت جحش. وتزوج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير. وتزوج أبو حذيفة سالما من فاطمة بنت الوليد بن عتبة. وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف. وقد تقدم هذا المعنى في غير موضع^(٤).

الرابعة — قوله تعالى: «أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْحَيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ»^(٥) قرأ الكوفيون: «أَنْ يَكُونَ» بالياء. وهو اختيار أبي عبيد؛ لأنه قد فرق بين المؤنث وبين فعله. الباقون بالتاء؛ لأن اللفظ مؤنث [فتأنيث] فعله حسن. والتذكير على أن الحيرة بمعنى التخير؛ فالحيرة مصدر بمعنى الاختيار. وقرأ ابن السميع «الحيرة» بإسكان الياء. وهذه الآية في ضمن قوله تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ»^(٦). ثم توعد تعالى وأخبر أن من يعص الله ورسوله فقد ضل.

(١) راجع ج ١٣ ص ٢٢١. (٢) راجع ج ٤ ص ١٢١. (٣) راجع ج ١٦ ص ٥٣.

(٤) في الأصول وابن العربي: «هند» والنصيب عن كتب الصحابة. (٥) راجع ج ٣ ص ٦٩.

وج ١٣ ص ٢٧٨. (٦) راجع ص ١٢١ من هذا الجزء.

وهذا أدل دليل على ما ذهب إليه الجمهور من فقهاءنا، وفقهاء أصحاب الإمام الشافعي وبعض الأصوايين، من أن صيغة « أفعل » للوجوب في أصل وضعها ؛ لأن الله تبارك وتعالى نفى خيرة المكلف عند سماع أمره وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم أطلق على من بقيت له خيرة عند صدور الأمر اسم المعصية ، ثم علق على المعصية بذلك الضلال ، فلزم حل الأمر على الوجوب . والله أعلم .

قوله تعالى : وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٧٧﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — روى الترمذي قال : حدثنا علي بن حجر قال حدثنا داود بن الزبرقان عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحي لكتّم هذه الآية : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ يعنى بالإسلام ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالعتق فاعتقته . ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ — إلى قوله — وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوجها قالوا : تزوج حليمة أبنة ، فأنزل الله تعالى : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبناه وهو صغير، فلبث حتى صار رجلا يقال له زيد بن محمد، فأنزل الله تبارك وتعالى « آدَعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلِإِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ »

فلان مولى فلان ، وفلان أخو فلان ، هو أقسط عند الله [يعنى أعدل] . قال أبو عيسى : هذا حديث [غريب^(١)] قد روى عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها . قالت : لو كان النبي صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي لكتّم هذه الآية « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ » هذا الحرف لم يرو بطوله .

قلت : هذا القدر هو الذى أخرجه مسلم فى صحيحه ، وهو الذى صححه الترمذى فى جامعه . وفى البخارى عن أنس بن مالك أن هذه الآية « وَنُخَفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ » نزلت فى شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة . وقال عمر وابن مسعود وعائشة والحسن : ما أنزل الله على رسوله آية أشدّ عليه من هذه الآية . وقال الحسن وعائشة : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي لكتّم هذه الآية لشدتها عليه . وروى فى الخبر أنه : أمسى زيد فأوى إلى فراشه ، قالت زينب : ولم يستطعنى زيد ، وما أمتنع منه غير ما منعه الله منى ، فلا يقدر على . هذه رواية أبى عصمة نوح بن أبى مرجم ، رفع الحديث إلى زينب أنها قالت ذلك . وفى بعض الروايات : أن زيدا توزم ذلك منه حين أراد أن يقربها ، فهذا قريب من ذلك . وجاء زيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن زينب تؤذنى بلسانها وتفعل وتفعل ! وإنى أريد أن أطلقها ، فقال له : « أمسك عليك زوجك واتق الله » الآية . فطلقها زيد فنزلت : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ » الآية .

واختلف الناس فى تأويل هذه الآية ، فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين ، منهم الطبرى وغيره — إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم وقع منه استحسان لزينب بنت جحش ، وهى فى عصمة زيد ، وكان حريصاً على أن يطلقها زيد فيتزوجها هو ، ثم إن زيدا لما أخبره بأنه يريد فراقها ، ويشكو منها غلظة قول وعصيان أمر ، وأذى باللسان وأعظم بالشرف ، قال له : « اتق الله — أى فيما تقول عنها — وأمسك عليك زوجك » وهو يخفى الحرص على طلاق زيد إياها . وهذا الذى كان يخفى فى نفسه ، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف .

وقال مقاتل : زوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش من زيد فبكثت عنده حيناً ، ثم إنه عليه السلام أتى زيدا يودا يطلبه ، فأبصر زينب قائمة ، كانت بيضاء بحيلة جسيمة من أتم نساء قريش ، فهويها وقال : ” سبحان الله مقلب القلوب “ ! فسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ، ففطن زيد فقال : يا رسول الله ، ائذن لي في طلاقها ، فإن فيها كبراً ، تعظم على وتؤذي بالسانها ، فقال عليه السلام : ” أمسك عليك زوجك واتق الله “ . وقيل : إن الله بعث ريحا فرفعت الستور زينب متفضلة في منزلها ، فرأى زينب ف وقعت في نفسه ، ووقع في نفس زينب أنها وقعت في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك لما جاء يطلب زيدا ، فخاء زيد فأخبرته بذلك ، فوقع في نفس زيد أن يطلقها . وقال ابن عباس : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ ﴾ الحب لها . ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ أى تستحييهم . وقيل : تخاف وتكره لائمة المسلمين لو قلت طلقها ، ويقولون أمر رجلا بطلاق امرأته ثم نكحها حين طلقها . ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ في كل الأحوال . وقيل : والله أحق أن تستحي منه ، ولا تأمر زيدا بلمسك زوجته بعد أن أعلمك الله أنها ستكون زوجتك ، فعاتبه الله على جميع هذا . وروى عن علي بن الحسين : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيدا يطلق زينب ، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها ، فلما تشكى زيد للنبي صلى الله عليه وسلم خلّق زينب ، وأنها لا تطيعه ، وأعلمه أنه يريد طلاقها ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على جهة الأدب والوصية : ” اتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك “ وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها ، وهذا هو الذي أخفى في نفسه ، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوجها ، وخشى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد ، وهو مولاه ، وقد أمره بطلاقها ، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشي الناس في شيء قد أباحه الله له ، بأن قال : « أَمْسِكْ » مع علمه بأنه يطلق . وأعلمه أن الله أحق بالخشية ، أى في كل حال . قال علماءنا رحمته الله عليهم : وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية ، وهو الذي

(١) تفضلت المرأة : أبست ثياب مهنها . أو كانت في ثوب واحد .

عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراشدين ؛ كالزهري^(١) والقاضي بكر بن العلاء القشيري ، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم . والمراد بقوله تعالى : « وَتَخْشَى النَّاسَ » إنما هو إرجاف المنافقين بأنه نهى عن تزويج نساء الأبناء وتزوج بزوجة آبنه . فأما ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم هوى زينب امرأة زيد — وربما أطلق بعض المجان لفظ عَشَقَ — فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل هذا ، أو مستخف بحرمته . قال الترمذي الحكيم في نواذر الأصول ، وأسند إلى علي بن الحسين قوله : فعلى بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جوهرًا من الجواهر ، ودُرًا من الدَّرَر ، أنه إنما عَتَبَ الله عليه في أنه قد أعلمه أن ستكون هذه من أزواجك ، فكيف قال بعد ذلك لزيد : « أمسك عليك زوجك » وأخذتك خشية الناس أن يقولوا : تزوج امرأة آبنه ؛ والله أحق أن تخشاه . وقال النحاس : قال بعض العلماء : ليس هذا من النبي صلى الله عليه وسلم خطيئة ؛ ألا ترى أنه لم يؤمر بالتوبة ولا بالاستغفار منه . وقد يكون الشيء ليس بخطيئة إلا أن غيره أحسن منه ، وأخفى ذلك في نفسه خشية أن يفتتن الناس .

الثانية — قال ابن العربي : فإن قيل لأى معنى قال له : « أمسك عليك زوجك » وقد أخبره الله أنها زوجته . قلنا : أراد أن يختبر منه ما لم يعلمه الله من رغبته فيها أو رغبته عنها ؛ فأبدى له زيد من الثفرة عنها والكراهة فيها ما لم يكن علمه منه في أمرها . فإن قيل : كيف يأمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لا بد منه ؟ وهذا تناقض . قلنا : بل هو صحيح للقاصد الصحيحة ؛ لإقامة الحجّة ومعرفة العاقبة ؛ ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن ، فليس في مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به عقلا وحكما . وهذا من نفيس العلم فتيقنوه وتقبلوه وقوله : « وَاتَّقِ اللَّهَ » أى في طلاقها ، فلا تطلقها . وأراد نهى تنزيه لا نهى تحريم ، لأن الأولى ألا يطلق . وقيل : « اتَّقِ اللَّهَ » فلا تذمها بالنسبة

(١) هو القاضي بكر بن محمد بن العلاء القشيري ، الفقيه المالكي ولي قضاء العراق . له كتاب في الأحكام والرد على المنزى والأثرية ، ورد فيه على الطحاوى ، وكتاب في الأصول ، والرد على القدريّة والرد على الشافعي . توفي سنة ٣٤٣ هـ (الوافى بالوفيات للصفدى) .

إلى الكبر وأذى الزوج . « وَتُخْنِي فِي نَفْسِكَ » قيل تعلق قلبه . وقيل : مفارقة زيد لإياها .
وقيل : علمه بأن زيدا سيطلقها ؛ لأن الله قد أعلمه بذلك .

الثالثة - روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لزيد : "ما أجد في نفسي أوثق منك فأخطب زينب علي" قال : فذهبت ووليتها ظهري توقيرا للنبي صلى الله عليه وسلم ، وخطبتها ففرحت وقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربِّي^(١) ، فقامت إلى مسجدتها ونزل القرآن ، فتروجها النبي صلى الله عليه وسلم ودخل بها .

قلت : معنى هذا الحديث ثابت في الصحيح ، وترجم له النسائي (صلاة المرأة إذا خطبت واستخارتها ربها) روى الأئمة - واللفظ لمسلم - عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد : "فاذكرها علي" قال : فانطلق زيد حتى أتاها وهي تُحْمَرُ عَجِينَهَا . قال : فلما رأيتها عَظُمَتْ في صدري ، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فولّيتها ظهري ، وَنَكَصْتُ على عقبي ، فقلت : يا زينب ، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ؛ قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربِّي ؛ فقامت إلى مسجدتها ونزل القرآن . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن . قال : فقال ولقد رأيتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار... الحديث . في رواية "حتى تركوه" . وفي رواية عن أنس أيضا قال : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لم على امرأة [من نسائه]^(٢) ما أو لم على زينب ؛ فإنه ذبح شاة . قال علماؤنا : فقولاه عليه السلام لزيد : "فاذكرها علي" أي أخطبها ؛ كما بينه الحديث الأول . وهذا امتحان لزيد واختبار له ، حتى يظهر صبره وانقياده وطوعه .

قلت : وقد يستنبط من هذا أن يقول الإنسان لصاحبه : اخطب علي فلانة ، لوجه المطلقة منه ، ولا حرج في ذلك . والله أعلم .

(١) أمره في أمره ، ورامره واستأمره : شارره .

(٢) زيادة من مسلم .

الرابعة - لما وكّلت أمرها إلى الله وصحّ تفويضها إليه تولى الله إنكاحها ؛ ولذلك قال : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا كَهَا ﴾ . وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وسلم « وَطَرًا زَوَّجْتُهَا » . ولما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن ، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق ، ولا شيء مما يكون شرطاً في حقوقنا^(١) ومشروعاً لنا . وهذا من خصوصياته صلى الله عليه وسلم ، التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع من المسلمين . ولهذا كانت زينب تفاحر نساء النبي صلى الله عليه وسلم وتقول : زوجكنّ أبأؤكنّ وزوجني الله تعالى . أخرجہ النسائي عن أنس بن مالك قال : كانت زينب تفخّخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم تقول : إن الله عز وجل أنكحني من السماء . وفيها نزلت آية الحجاب ؛ وسيأتي .

الخامسة - المنعم عليه في هذه الآية هو زيد بن حارثة ، كما بيناه ؛ وقد تقدّم خبره في أول السورة . وروى أن عمّه لقيّه يوماً وكان قد ورد مكة في شغل له ، فقال : ما أسمك يا غلام ؟ قال : زيد ؛ قال : أبن من ؟ قال : ابن حارثة . قال ابن من ؟ قال : ابن شراحيل الكلبي . قال : فما اسم أمك ؟ قال : سَعْدَى ، وكنت في أخوالى طيّ ؛ فضمّه إلى صدره . وأرسل إلى أخيه وقومه لحضروا ، وأرادوا منه أن يقيم معهم ؛ فقالوا : لمن أنت ؟ قال : لمحمد ابن عبد الله ؛ فأتوه وقالوا : هذا أبنا فردّه علينا . فقال : ” أُعْرِضْ عليه فإن اختاركم نخذوا بيده “ فبعث إلى زيد وقال : ” هل تعرف هؤلاء “ ؟ قال نعم ! هذا أبي ، وهذا أخي ، وهذا عمي . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ” فأى صاحب كنت لك “ ؟ فبكى وقال : لم سألني عن ذلك ؟ قال : ” أخيرك فإن أحببت أن تلحق بهم فآلحق وإن أردت أن تقيم فأنا من قد عرفت “ فقال : ما اختار عليك أحدا . فخذبه عمّه وقال : يا زيد ، اخترت العبوديّة على أهلك وعمك ! فقال : أى والله العبوديّة عند محمد أحبّ إلى من أن أكون عندكم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” اشهدوا أنى وارث وموروث “ . فلم يزل يقال : زيد بن محمد إلى أن نزل قوله تعالى : « ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ » ونزل « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ » .

(١) في ش : « حقوقها » . (٢) راجع ص ١١٨ من هذا الجزء .

السادسة — قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السَّهْبِيلِي رضى الله عنه : كان يقال زيد بن محمد حتى نزل « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ » فقال : أنا زيد بن حارثة . وحرّم عليه أن يقول : أنا زيد بن محمد . فلمّا نُزِعَ عنه هذا الشرف وهذا الفخر ، وعلم الله وحشته من ذلك شرفه بخصّصة لم يكن يُخصّص بها أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى أنه سماه في القرآن ؛ فقال تعالى : « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا » يعنى من زينب . ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم حتى صار اسمه قرآنا يُتلى في المحاريب ، نوه به غاية التنويه ؛ فكان في هذا تأنيس له وعوض من الفخر بأبوة محمد صلى الله عليه وسلم له . ألا ترى إلى قول أبي ابن كعب حين قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ” إن الله أمرنى أن أقرأ عليك سورة كذا “ فبكى وقال : أَوَدَّ كُتُّ هُنَالِكَ ؟ وكان بكاءه من الفرح حين أخبر أن الله تعالى ذكره ؛ فكيف بمن صار اسمه قرآنا يُتلى مغلّدا لا يبيد ، يتلوه أهل الدنيا إذا قرءوا القرآن ، وأهل الجنة كذلك أبدا ، لا يزال على السنة المؤمنين ، كما لم يزل مذكورا على الخصوص عند رب العالمين ؛ إذ القرآن كلام الله القديم ، وهو باق لا يبيد ؛ فاسم زيد هذا في الصحف المكترمة المرفوعة المطهرة ، تذكره في التلاوة السَّفَرَةُ الكرام البررة . وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبي من الأنبياء ، ولزيد بن حارثة تعويضا من الله تعالى له مما نُزِعَ عنه . وزاد في الآية أن قال : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » أى بالإيمان ؛ فدّل على أنه من أهل الجنة ، علم ذلك قبل أن يموت ، وهذه فضيلة أخرى .

السابعة — قوله تعالى : (وَطَرًا) الوَطَرُ كُلُّ حاجة للمرء له فيها همّة ؛ والجمع الأوطار . قال ابن عباس : أى بلغ ما أراد من حاجته ؛ يعنى الجماع . وفيه إضمار ؛ أى لما قضى وطره منها وطلقها « زَوَّجْنَا كَهَا » . وقراءة أهل البيت « زَوَّجْتُكَهَا » . وقيل : الوطر عبارة عن الطلاق ؛ قاله قتادة .

الثامنة — ذهب بعض الناس من هذه الآية ، ومن قول شعيب : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ » (٣) إلى أن ترتيب هذا المعنى في المهور ينبغى أن يكون : « أنكحه إياها » فتقدم

(١) في الأصول : « ... وهذا الفخر منه » بزيادة لفظة « منه » .

(٢) لفظة « اسمه » ساقطة من الأصل المطبوع . (٣) راجع ج ١٣ ص ٢٧١ .

ضمير الزوج كما في الآيتين . وكذلك قوله عليه السلام لصاحب الرداء " اذهب فقد أنكحتكما بما معك من القرآن " . قال ابن عطية : وهذا غير لازم ؛ لأن الزوج في الآية مخاطب بحسن تقديمه ، وفي المهور الزوجان [سواء] ، فقدم من شئت ، ولم يبق ترجيح إلا بدرجة الرجال ، وأنهم القوامون .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ زَوْجَنَا كَهَا ﴾ دليل على ثبوت الولي في النكاح ؛ وقد تقدم الخلاف في ذلك . روى أن عائشة وزينب تفاخرتا ، فقالت عائشة : أنا التي جاء بي المَلَك إلى النبي صلى الله عليه وسلم في سرقة من حرير فيقول : " هذه امرأتك " خرجه الصحيح . وقالت زينب : أنا التي زوجني الله من فوق سبع سموات . وقال الشعبي : كانت زينب تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأدِلُّ عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدلُّ بهن — : إن جدِّي وجدُّك واحد ، وإن الله أنكحك إياي من السماء ، وإن السَّفير في ذلك جبريل . وروى عن زينب أنها قالت : لما وقعت في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستطعني زيد ، وما أمتنع منه غير ما يمنعه الله تعالى مني فلا يقدر عليّ .

قوله تعالى : مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة .

أعلمهم أن هذا ونحوه هو السنن الأقدم في الأنبياء أن ينالوا ما أحله لهم ؛ أي سنَّ لمحمد صلى الله عليه وسلم التوسعة عليه في النكاح سنة الأنبياء الماضية ؛ كداود وسليمان . فكان لداود مائة امرأة وثلاثمائة سُرِّية ، وسليمان ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سُرِّية . وذكر الثعلبي عن مقاتل وابن الكلبي أن الإشارة إلى داود عليه السلام ؛ حيث جمع الله بينه وبين من فُتن بها .

(١) راجع ج ٣ ص ٧٢ فما بعدها . (٢) السرق (بفتح السين) : شقق الحرير الأبيض .

و «سُنَّة» نصب على المصدر؛ أى سَنَّ الله له سُنَّة واسعة . و «الَّذِينَ خَلَوْا» هم الأنبياء؛
بدليل وصفهم بعد بقوله : «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ» .

قوله تعالى : مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ
وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمًا ﴿١٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما تزوج زينب قال الناس : تزوج امرأة ابنه ؛ فنزلت الآية ؛ أى ليس
هو بأب له حتى تحرم عليه حليلته ، ولكنه أبو أمته فى التبجيل والتعظيم ، وأن نساءه عليهم حرام .
فاذهب الله بهذه الآية ما وقع فى نفوس المنافقين وغيرهم ، وأعلم أن محمدا لم يكن أباً أحد من
الرجال المعاصرين له فى الحقيقة . ولم يقصد بهذه الآية أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن
له ولد ، فقد ولد له ذكور : إبراهيم ، والقاسم ، والطيب ، والمطهر ؛ ولكن لم يعيش له ابن حتى
يصير رجلاً . وأما الحسن والحسين فكانا طفلين ، ولم يكونا رجلين معاصرين له .

الثانية — قوله تعالى : (وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ) قال الأخفش والفراء : أى ولكن
كان رسول الله . وأجازا « ولكن رسول الله وخاتم » بالرفع . وكذلك قرأ ابن أبى عبلة
وبعض الناس « ولكن رسول الله » بالرفع ؛ على معنى هو رسول الله وخاتم النبيين . وقرأت
فرقة « ولكن » بتشديد النون ، ونصب « رسول الله » على أنه اسم « لكن » والخبر محذوف .
« وَخَاتَمَ » قرأ عاصم وحده بفتح التاء ، بمعنى أنهم به ختموا ؛ فهو كالخاتم والطابع لهم .
وقرأ الجمهور بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم ؛ أى جاء آخرهم . وقيل : الخاتم والخاتم لغتان ؛
مثل طابع وطابع ، ودائق ودائق ، وطابق من اللحم وطابق .

الثالثة — قال ابن عطية : هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأئمة خلقت سلفاً متلقاةً^(١)
على العموم التام مقتضية نصاً أنه لا نبى بعده صلى الله عليه وسلم . وما ذكره القاضى أبو الطيب
فى كتابه المسمى بالهداية : من تجويز الاحتمال فى ألفاظ هذه الآية ضعيف . وما ذكره الفزائى

(١) فى ج، ش : «الأئمة» .

في هذه الآية ، وهذا المعنى في كتابه الذي سماه بالافتصاد ، إلحاد عندي ، وتطرق خبيث إلى تشويش عقيدة المسلمين في ختم محمد صلى الله عليه وسلم النبوة ؛ فالحذر الحذر منه ! والله الهادي برحمته .

قلت : وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا نبوة بعدى إلا ما شاء الله " . قال أبو عمر : يعني الرؤيا — والله أعلم — التي هي جزء منها ؛ كما قال عليه السلام : " ليس يبقى بعدى من النبوة إلا الرؤيا الصالحة " . وقرأ ابن مسعود « من رجالكم ولكن نبياً ختم النبيين » . قال الرماني : ختم به عليه الصلاة والسلام الاستصلاح ، فمن لم يصلح به فيئوس من صلاحه .

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه السلام : " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " . وفي صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فاتمها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضعُ اللبنة ! — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — فأنا موضع اللبنة جئت فختمتُ الأنبياء " . ونحوه عن أبي هريرة ، غير أنه قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين " .

قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا** ﴿٤١﴾

أمر الله تعالى عباده بأن يذكروه ويشكروه ، ويكثرُوا من ذلك على ما أنعم به عليهم . وجعل تعالى ذلك دون حدٍّ لسهولته على العبد . ولعظم الأجر فيه قال ابن عباس : لم يُعذر أحد في ترك ذكر الله إلا من غلب على عقله . وروى أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : " أكثرُوا ذكر الله حتى يقولوا مجنون " . وقيل : الذكر الكثير ما جرى على الإخلاص من القلب ، والقليل ما يقع على حكم النفاق كالذكر باللسان .

قوله تعالى : **وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** ﴿٤٢﴾

أى اشغلوا أنفسكم في معظم أحوالكم بالتسبيح والتلهيل والتحميد والتكبير . قال مجاهد : وهذه كلمات يقولهن الطاهر والمحيط والجنب . وقيل : أدعوه . قال جرير :

فلا تنس تسبيح الضحى إن يوسفًا * دَعَا رَبَّهُ فَاخْتَارَهُ حِينَ سَبَّحَا
وقيل : المراد صلّوا لله بكرة وأصيلًا ؛ والصلاة تسمى تسبيحًا . وخص الفجر والمغرب والعشاء
بالذكر لأنها أحق بالتحريض عليها ، لا اتصالها بأطراف الليل^(١) . وقال قتادة والطبري : الإشارة
إلى صلاة الغداة وصلاة العصر . والأصيل : العشيّ . وجمعه أصائل . والأصل بمعنى الأصيل^(٢) ،
وجمعه آصال ؛ قاله المبرد . وقال غيره : أصل جمع أصيل ؛ كغيف ورغف . وقد تقدم .
مسألة — هذه الآية مدنية ، فلا تعلق بها لمن زعم أن الصلاة إنما فرضت أولاً
صلاتين في طرفي النهار . والرواية بذلك ضعيفة فلا التفات إليها ولا معول عليها . وقد مضى
الكلام في كيفية فرض الصلاة وما للعلماء في ذلك في « سبحان »^(٣) والحمد لله .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ) قال ابن عباس : لما نزل « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ
يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ » قال المهاجرون والأنصار : هذا لك يا رسول الله خاصة ، وليس لنا فيه
شيء ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قلت : وهذه نعمة من الله تعالى على هذه الأمة من أكبر النعم ؛ ودليل على فضلها على
سائر الأمم . وقد قال : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ »^(٤) . والصلاة من الله على العبد هي
رحمته له وبركته لديه . وصلاة الملائكة : دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم ؛ كما قال :
« وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا »^(٥) وسيأتي . وفي الحديث : أن بنى إسرائيل سألوا موسى عليه
السلام : أيصلي ربك جل وعز ؟ فأعظم ذلك ؛ فأوحى الله جل وعز : « إن صلاتي بأن رحمتي
سبقت غضبي » ذكره النحاس . وقال ابن عطية : وروى فرقة أن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) في ك : « بأطراف النهار » . (٢) راجع ج ٧ ص ٣٥٥ (٣) راجع ج ١٠ ص ٢١٠

(٤) في ١ ، ج ١ ، ش : « فضيلتها » . (٥) راجع ج ٤ ص ١٧٠ (٦) راجع ج ١٥ ص ٢٩٣ فما بعد .

قيل له : يا رسول الله ، كيف صلاة الله على عباده . قال : «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ - رحمتي سبقت غضبي» . واختلف في تأويل هذا القول ؛ ف قيل : إنه كلمة من كلام الله تعالى وهي صلته على عباده . وقيل سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ من كلام محمد صلى الله عليه وسلم ، وقدمه بين يدي نطقه باللفظ الذي هو صلاة الله وهو «رحمتي سبقت غضبي» من حيث فهم من السائل أنه توهم في صلاة الله على عباده وجهًا لا يليق بالله عز وجل ؛ فقدم التنزيه والتعظيم بين يدي إخباره . قوله تعالى : ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى من الضلالة إلى الهدى . ومعنى هذا التثبيت على الهداية ؛ لأنهم كانوا في وقت الخطاب على الهداية . ثم أخبر تعالى برحمته بالمؤمنين تأنيسًا لهم فقال : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ .

قوله تعالى : ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ ٤٤

اختلف في الضمير الذى فى «يَلْقَوْنَهُ» على من يعود ؛ ف قيل على الله تعالى ، أى كان بالمؤمنين رحيمًا ، فهو يؤمنهم من عذاب الله يوم القيامة . وفى ذلك اليوم يلقونه . و«تَحِيَّتُهُمْ» أى تحية بعضهم لبعض . ﴿سَلَامٌ﴾ أى سلامة لنا ولكم من عذاب الله . وقيل : هذه التحية من الله تعالى ؛ المعنى : فيسلمهم من الآفات ، أو يبشرهم بالأمن من المخافات ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ أى يوم القيامة بعد دخول الجنة . قال معناه الزجاج ؛ واستشهد بقوله جل وعز : ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ . وقيل : «يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ» أى يوم يلقون ملك الموت ؛ وقد ورد أنه لا يقبض روح مؤمن إلا سلم عليه . روى عن البراء بن عازب قال : «تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ» فيسلم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه ، لا يقبض روحه حتى يسلم عليه .

قوله تعالى : ﴿يَنَّايَهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ٤٥

وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ٤٦

هذه الآية فيها تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وتكريم لجميعهم . وهذه الآية تضمنت من أسمائه صلى الله عليه وسلم ستة أسماء ولبنينا صلى الله عليه وسلم أسماء كثيرة وسمات جليلة ، ورد ذكرها في الكتاب والسنة والكتب المتقدمة . وقد سماه الله في كتابه محمداً وأحمد . وقال صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه الثقات العدول : « يلى خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يحو الله بى الكفر وأنا الحاشى الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب » . وفى صحيح مسلم من حديث جبير بن مطعم : وقد سماه الله « رَعُوفًا رَحِيمًا » . وفيه أيضا عن أبى موسى الأشعرى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى لنا نفسه أسماء ، فيقول : « أنا محمد وأحمد والمُقَفَّى والحاشى ونبي التوبة ونبي الرحمة » . وقد تتبع القاضى أبو الفضل عياض فى كتابه المسمى (بالشففا) ما جاء فى كتاب الله وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومما نقل فى الكتب المتقدمة ^(١) ، وإطلاق الأمة أسماء كثيرة وصفات عديدة ، قد صدقت عليه صلى الله عليه وسلم مُسمَّياتها ، ووجدت فيه معانيها . وقد ذكر القاضى أبو بكر بن العربى فى أحكامه فى هذه الآية من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم سبعة وستين اسما . وذكر صاحب (وسيلة المتعبدين إلى متابعة سيد المرسلين) عن ابن عباس أن لمحمد صلى الله عليه وسلم مائة وثمانين اسما ، من أرادها وجدها هناك . وقال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ومعادا ، فبعثهما إلى اليمن ، وقال : « اذهبا فبشرا ولا تُنفرا ، ويسرا ولا تُعسرا فإنه قد أنزل على ... » وقرأ هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ شَاهِدًا ﴾ قال سعيد عن قتادة : « شاهدًا » على أتمته بالتبليغ إليهم ، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم ؛ ونحو ذلك . ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ معناه للمؤمنين برحمة الله وبالجنة . ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ معناه للعصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد . ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ ﴾ الدعاء إلى الله هو تبليغ التوحيد والأخذ به ، ومكافحة الكفرة . ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ هنا معناه : بأمره وإياك ، وتقديره ذلك فى وقته وأوانه . ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ هنا استعارة للنور الذى يتضمنه شرعه .

وقيل : « وَسَرَجًا » أى هاديا من ظلم الضلالة ؛ وأنت كالمصباح المضيء . ووصفه بالإشارة لأن من السُّرُج ما لا يضيء ، إذا قَلَّ سَلِيْطُهُ ^(١) ودَقَّتْ فَنِيْلُهُ . وفى كلام بعضهم : ثلاثة نُضْيِي : رسول بطل ، وسراج لا يضيء ، ومائدة ينتظر لها من يجي . وسئل بعضهم عن الموحشين فقال : ظلام ماتر وسراج فاتر ، وأسند النحاس قال : حدثنا محمد بن إبراهيم الرازى قال حدثنا عبد الرحمن بن صالح الأزدي قال حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى عن شيبان النحوى قال حدثنا قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسَرَاجًا مُنِيرًا » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ومعاذا فقال : « انطلقا فبشرا ولا تُعسرا فإنه قد نزل على الليلة آية « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا — من النار — ودَاعِيَا إِلَى اللَّهِ — قال — شهادة أن لا إله إلا الله — بإذنه — بأمره — وَسَرَجًا مُنِيرًا — قال — بالقرآن » . وقال الزجاج : « وَسَرَجًا » أى وذا سراج مُنير ؛ أى كتاب نير . وأجاز أيضا أن يكون بمعنى : وتالياً لكتاب الله .

قوله تعالى : وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) الواو عاطفة جملة على جملة ؛ والمعنى منقطع من الذى قبله . أمره تعالى أن يبشر المؤمنين بالفضل الكبير من الله تعالى . وعلى قول الزجاج : ذا سراج منير ، أو وتالياً سراجاً منيراً ، يكون معطوفاً على الكاف لا فى « أَرْسَلْنَاكَ » . قال ابن عطية : قال لنا أبى رضى الله عنه : هذه من أرحى آية عندى فى كتاب الله تعالى ؛ لأن الله عز وجل قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلاً كبيراً ، وقد بين تعالى الفضل الكبير فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ

عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ^(١) . فالآية التي في هذه السورة خبر ، والتي في « حَم . عَسَى » تفسير لها . (وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) أى لا تطعمهم فيما يشيرون عليك من المداينة في الدين ولا تمائمهم . « الْكَافِرِينَ » : أبى سفيان وعكرمة وأبى الأعور السامى ؛ قالوا : يا محمد ، لا تذكر آلهتنا بسوء تتبعك . « وَالْمُنَافِقِينَ » : عبد الله بن أبى وعبد الله ابن سعد وطعمة بن أبيريق ، حثوا النبي صلى الله عليه وسلم على إجابتهم بتعلة المصلحة . (وَدَعِ أَذَاهُمْ) أى دع ابن توذهم مجازاة على إذايتهم إياك . فأمره تبارك وتعالى بترك معاقبتهم ، والصفح عن زللهم ؛ فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول . ونسخ من الآية على هذا التأويل ما يخص الكافرين ، وناسخه آية السيف . وفيه معنى ثان : أى أعرض عن أقوالهم وما يؤذونك ، ولا تشتغل به ؛ فالمصدر على هذا التأويل مضاف إلى الفاعل . وهذا تأويل مجاهد ، والآية منسوخة بآية السيف . (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) أمره بالتوكل عليه وآتسه بقوله : (وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) وفي قوة الكلام وعد بنصر . والوكيل : الحافظ القائم على الأمر .

قوله تعالى : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمِنْ تَعَوُّهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ) لما جرت قصة زيد وتطلقه زينب ، وكانت مدخولا بها ، وخطبها النبي صلى الله عليه وسلم بعد انقضاء عدتها — كما بيناه — خاطب الله المؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل البناء ، وبين ذلك الحكم للأمة ؛ فالمطابقة إذا لم تكن ممسوسة لا عدّة عليها بنص الكتاب وإجماع الأمة على ذلك . فإن دخل بها فعليها العدّة لإجماعا .

الثانية — النكاح حقيقة في الوطاء، وتسمية العقد نكاحاً ملائمة له من حيث إنه طريق إليه . ونظيره تسميتهم الخمر إثمًا^(١) لأنه سبب في إقتراف الإثم . ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد، لأنه في معنى الوطاء، وهو من آداب القرآن، الكفاية عنه بلفظ : الملامسة والمماساة والقربان والتغشي والإتيان .

الثالثة — استدل بعض العلماء بقوله تعالى : « ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ » وبمهلة « ثُمَّ » على أن الطلاق لا يكون إلا بعد نكاح، وأن من طلق المرأة قبل نكاحها وإن عيَّنَها، فإن ذلك لا يلزمه . وقال هذا نيف على ثلاثين من صاحب وتابع وإمام . سَمَّى البخاري منهم اثنين وعشرين . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم "لا طلاق قبل نكاح" ومعناه : أن الطلاق لا يقع حتى يحصل النكاح . قال حبيب بن أبي ثابت : سئل على بن الحسين رضى الله عنهما عن رجل قال لامرأة : إن تزوجتك فأنت طالق ؟ فقال : ليس بشيء، ذكر الله عز وجل النكاح قبل الطلاق . وقالت طائفة من أهل العلم : إن طلاق الميمنة الشخص أو القبيلة أو البلد لازم قبل النكاح، منهم مالك وجميع أصحابه، وجمع عظيم من علماء الأمة . وقد مضى في «براءة» الكلام فيها ودليل المريقين . والحمد لله . فإذا قال : كل امرأة أتزوجها [طالق] وكل عبد أشتريه حرًا . لم يلزمه شيء . وإن قال : كل امرأة أتزوجها إلى عشرين سنة ، أو إن تزوجت من بلد فلان أو من بنى فلان فهي طالق ، لزمه الطلاق ما لم يخف العنت على نفسه في طول السنين ، أو يكون عمره في الغالب لا يبلغ ذلك ، فله أن يتزوج . وإنما لم يلزمه الطلاق إذا عمم لأنه ضيق على نفسه المناكح، فلو منعناه ألا يتزوج الحرج وخيف عليه العنت . وقد قال بعض أصحابنا : إنه إن وجد ما يتسرربه لم ينكح، وليس بشيء ، وذلك أن الضرورات والأعذار ترفع الأحكام، فيصير هذا من حيث الضرورة كن لم يخلف، قاله ابن خويز مَنَدَاد .

(١) الخمر : توث وتذكر ، والثاني أكثر . (٢) الذي سماهم البخاري في (باب لا طلاق قبل

النكاح) أربعة وعشرون . (٣) راجع ج ٨ ص ٢١١ (٤) حرج : إثم .

الرابعة — استدّل داود — ومن قال بقوله — ان المطلقة الرجعية إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضى عدتها ثم فارقها قبل أن يمسه، أنه ليس عليها أن تنم عدتها ولا عدة مستقبلية؛ لأنها مطلقة قبل الدخول بها . وقال عطاء بن أبي رباح وفرقة : تمضي في عدتها من طلاقها الأول — وهو أحد قولي الشافعي — ؛ لأن طلاقه لها إذا لم يمسه في حكم من طلقها في عدتها قبل أن يراجعها . ومن طلق امرأته في كل طهر مرة بنت ولم تستأنف . وقال مالك : إذا فارقها قبل أن يمسه إنها لا تبني على ما مضى من عدتها ، وإنما تنشئ من يوم طلقها عدة مستقبلية . وقد ظلم زوجها نفسه وأخطأ إن كان آرجعها ولا حاجة له بها . وعلى هذا أكثر أهل العلم ؛ لأنها في حكم الزوجات المدخول بهن في النفقة والسكنى وغير ذلك ؛ ولذلك تستأنف العدة من يوم طلقت ، وهو قول جمهور فقهاء البصرة والكوفة ومكة والمدينة والشام . وقال الثوري : أجمع الفقهاء عندنا على ذلك .

الخامسة — فلو كانت بائنة غير مبتوتة ففزوجها في العدة ثم طلقها قبل الدخول فقد اختلفوا في ذلك أيضا ، فقال مالك والشافعي وزفر وعثمان البتي : لها نصف الصداق وتم بقية العدة الأولى . وهو قول الحسن وعطاء وعكرمة وابن شهاب . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف والثوري والأوزاعي : لها مهر كامل للنكاح الثاني وعدة مستقبلية . جعلوها في حكم المدخول بها لا اعتدادها من مائه . وقال داود : لها نصف الصداق ، وليس عليها بقية العدة الأولى ولا عدة مستقبلية . والأولى ما قاله مالك والشافعي ، والله أعلم .

السادسة — هذه الآية مخصصة لقوله تعالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » ، ولقوله : « وَاللَّائِي يَتُسَّنَّ مِنَ الْحَيْضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ آرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ » .^(١)
وقد مضى في « البقرة » ، ومضى فيها الكلام في المتعة ، فأغنى عن الإعادة هنا . (وسرّحوهنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا) فيه وجهان : أحدهما — أنه دفع المتعة بحسب الميسرة والعُسرة ، قاله

(١) راجع ج ١٨ ص ١٦٢

(٢) راجع ج ٣ ص ١١٢ فابعد ، و ص ٢٠٠ فابعد .

ابن عباس . الثاني — أنه طلاقها طاهرا من غير جماع ؛ قاله قتادة . وقيل : فسرحوهن بعد الطلاق إلى أهلهن ، فلا يجتمع الرجل والمطلقة في موضع واحد .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ فَتَّحُوهُنَّ ﴾ قال سعيد : هي منسوخة بالآية التي في البقرة ، وهي قوله : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصِفُ مَا فَرَضْتُمْ » أي فلم يذكر المتعة . وقد مضى الكلام في هذا في « البقرة » مستوفى . وقوله : « وَسَرَّحُوهُنَّ » طلقوهن . والتسريح كناية عن الطلاق عند أبي حنيفة ، لأنه يستعمل في غيره فيحتاج إلى النية . وعند الشافعي صريح . وقد مضى في « البقرة » القول فيه فلا معنى للإعادة . (جَمِيلًا) سُنَّة ، غير بدعة .

قوله تعالى : يَتَّيِّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأَمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٥﴾

فيه تسعة عشرة مسألة :

الأولى — روى السدي عن أبي صالح عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت : خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرني ؛ ثم أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّكَ وَبَنَاتِ

(١) راجع ج ٣ ص ٢٠٤ و ص ١٢٥ (٢) قالت : إني امرأة مصيبة (ذات صبيان) . وفي بعض

الروايات : قالت يا رسول الله ، لآنت أحب إلى من سمعي وبصري وحق الزوج عظيم . فأخشي أن أضيع حق الزوج .

عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ وَاللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ) قالت : فلم أكن أحل له ، لأنى لم أهاجر ، كنت من الطلقاء . خرجه أبو عيسى وقال : هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه . قال ابن العربي : وهو ضعيف جدا ، ولم يأت هذا الحديث من طريق صحيح يُحتج بها .

الثانية — لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه فاخترته ، حرم عليه التزوج بغيرهن والاستبدال بهن ، مكافأة لمن على فعلهن . والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ الآية . وهل كان يحل له أن يطلق واحدة منهن بعد ذلك ؟ فقل : لا يحل له ذلك جزاء لمن على اختيارهن له . وقيل : كان يحل له ذلك كغيره من الناس ولكن لا يتزوج بدله . ثم نسخ هذا التحريم فأباح له أن يتزوج بمن شاء عليهن من النساء ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ والإحلال يقتضى تقدم حظر . وزوجاته اللاتي في حياته لم يكن محرمات عليه ، وإنما كان حرم عليه التزويج بالأجنبيات فانصرف الإحلال إليهن ، ولأنه قال في سياق الآية ﴿ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ ﴾ الآية . ومعلوم أنه لم يكن تحته أحد من بنات عمه ولا من بنات عماته ولا من بنات خاله ولا من بنات خالاته ، فثبت أنه أحل له التزويج بهذا ابتداء . وهذه الآية وإن كانت مقدمة في التلاوة فهي متأخرة النزول على الآية المنسوخة بها ، كآتي الوفاة في « البقرة »^(١) .

وقد اختلف الناس في تأويل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ فقل : المراد بها أن الله تعالى أحل له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها ، قاله ابن زيد والضحاك . فعلى هذا تكون الآية مبيحة لجميع النساء حاشا ذوات المحارم . وقيل : المراد أحللنا لك أزواجك ، أى الكائنات عندك ، لأنهن قد اخترتك على الدنيا والآخرة ، قاله الجمهور من العلماء . وهو الظاهر ، لأن قوله : « آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ » ماضٍ ، ولا يكون الفعل الماضى بمعنى الاستقبال إلا بشروط . ويحىء الأمر على هذا التأويل ضيقاً على النبي صلى الله عليه وسلم . ويؤيد هذا التأويل ما قاله

ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوج في أى الناس شاء ، وكان يشق ذلك على نسائه ، فلما نزلت هذه الآية وحرم عليه بها النساء إلا من سُمي ، سُرَّ نساؤه بذلك .

قلت : والقول الأول أصح لما ذكرناه . ويدل أيضا على صحته ماخرجه الترمذى عن عطاء قال : قالت عائشة رضى الله عنها : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله تعالى له النساء . قال : هذا حديث حسن صحيح .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ أحل الله تعالى السرارى لنبيه صلى الله عليه وسلم ولأئمة مطلقا ، وأحل الأزواج لنبيه عليه الصلاة والسلام مطلقا ، وأحلّه للخلق بعدد . وقوله : ﴿ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أى رده عليك من الكفار . والغنيمة قد تسمى فيثا ، أى مما أفاء الله عليك من النساء بالماخوذ على وجه القهر والغلبة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ ﴾ أى أحللنا لك ذلك زائدا من الأزواج اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك ، على قول الجمهور ؛ لأنه لو أراد أحللنا لك كل امرأة تزوجت وآتيت أجرها ، لما قال بعد ذلك : « وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ » لأن ذلك داخل فيما تقدم .

قلت : وهذا لا يلزم ، وإنما خص هؤلاء بالذكر تشريفا ، كما قال تعالى : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ » . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ الْأَلَا تِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ فيه قولان : الأول — لا يحل لك من قرابتك كبنات عمك العباس وغيره من أولاد عبد المطلب ، وبنات أولاد بنات عبد المطلب ، وبنات الخلال من ولد بنات عبد مناف بن زهرة إلا من أسلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله تعالى عنه » . الثانى — لا يحل لك منهن إلا من هاجر إلى المدينة ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ

مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ^(١)) وَمَنْ لَمْ يَهَاجِرْ لَمْ يَكُنْ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَصْلَحْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي كُنَّ وَشَرُفَ وَعَظُمَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

السادسة — قوله تعالى : (مَعَكَ) المَعِيَّةُ هُنَا الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة فيها ؛ فَن هَاجِرٌ حَلَّ لَهُ ، كَانَ فِي صَحْبَتِهِ إِذَا هَاجَرَ أَوْ لَمْ يَكُنْ . يُقَالُ : دَخَلَ فُلَانٌ مَعِيَ وَخَرَجَ مَعِيَ ؛ أَيْ كَانَ عَمَلُهُ كَعَمَلِي وَإِنْ لَمْ يَقْتَرِنْ فِيهِ عَمَلُكَمَا . وَأَوْ قُلْتُ : خَرَجْنَا مَعًا لَاقْتَضَى ذَلِكَ الْمَعْنَيْنِ جَمِيعًا : الْإِشْتِرَاكَ فِي الْفِعْلِ ، وَالْإِفْتِرَانِ [فِيهِ] .

السابعة — ذكر الله تبارك وتعالى العَمَّ قَرْدًا وَالْعَمَّاتِ جَمْعًا . وَكَذَلِكَ قَالَ : « خَالِكَ » ، « وَخَالَاتِكَ » وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ : أَنَّ الْعَمَّ وَالْخَالَ فِي الْإِطْلَاقِ اسْمُ جِنْسٍ كَالشَّاعِرِ وَالرَّاجِزِ ؛ وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْعَمَّةُ وَالْخَالَةُ . وَهَذَا عُرِفَ لِقَوَى ، بِجَاءِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ بِغَايَةِ الْبَيَانِ لِرَفْعِ الْإِشْكَالِ ، وَهَذَا دَقِيقٌ فَتَأَمَّلُوهُ ؛ قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ .

الثامنة — قوله تعالى : (وَأَمْرَأَةً مُؤْمِنَةً) عَطَفَ عَلَى « أَحَلَّلْنَا » . الْمَعْنَى وَأَحَلَّلْنَا لَكَ امْرَأَةً تَهَبُ نَفْسَهَا مِنْ غَيْرِ صَدَاقٍ . وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي هَذَا الْمَعْنَى ؛ فَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : لَمْ تَكُنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امْرَأَةٌ إِلَّا بِعَقْدِ نِكَاحٍ أَوْ مِلْكٍ يَمِينٍ . فَأَمَّا الْهَبَةُ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ أَحَدٌ . وَقَالَ قَوْمٌ : كَانَتْ عِنْدَهُ مُوْهُوبَةً .

قُلْتُ : وَالَّذِي فِي الصَّحِيحِينَ يَقْوَى هَذَا الْقَوْلُ وَيَمُضُّهُ ؛ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَهَا قَالَتْ : كُنْتُ أَغَارُ عَلَى اللَّاتِي وَهَبَنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَقُولُ : أَمَا تَسْتَحْيِ امْرَأَةً تَهَبُ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ ! حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى « تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ » فَقُلْتُ : وَاللَّهِ مَا أَرَى رَبِّكَ إِلَّا يَسَارِعُ فِي هَوَاكَ . وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ أَنَهَا قَالَتْ : كَانَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ مِنَ اللَّاتِي وَهَبَنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُنَّ كُنَّ غَيْرَ وَاحِدَةٍ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ . الزَّخَّشَرِيُّ : وَقِيلَ الْمَوْهَبَاتُ أَرْبَعٌ : مَيْمُونَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ ، وَزَيْنَبُ بِنْتُ خَزِيمَةَ أُمِّ الْمَسَاكِينِ الْأَنْصَارِيَّةِ ، وَأُمُّ شَرِيكَ بِنْتُ جَابِرٍ ، وَخَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ .

قلت : وفي بعض هذا اختلاف . قال قتادة : هي ميمونة بنت الحارث . وقال الشعبي : هي زينب بنت خزيمة أم المساكين امرأة من الأنصار . وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل : هي أم شريك بنت جابر الأسدية . وقال عروة بن الزبير : أم حكيم بنت الأوقص السلمية .

التاسعة — وقد اختلف في اسم الواهبة نفسها ؛ ف قيل هي أم شريك الأنصارية ، اسمها غُزَيَّة . وقيل غُزَيْلَة . وقيل ليلي بنت حكيم . وقيل : هي ميمونة بنت الحارث حين خطبها النبي صلى الله عليه وسلم ، بغاءها الخاطب وهي على بعيرها فقالت : البعير وما عليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : هي أم شريك العامرية ، وكانت عند أبي العكر الأزدي . وقيل عند الطفيل بن الحارث فولدت له شريكا . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها ؛ ولم يثبت ذلك . والله تعالى أعلم ؛ ذكره أبو عمر بن عبد البر . وقال الشعبي وعروة : هي زينب بنت خزيمة أم المساكين . والله تعالى أعلم .

العاشرة — قرأ جمهور الناس « إِنْ وَهَبْتَ » بكسر الألف ، وهذا يقتضى استئناف الأمر ؛ أى إن وقع فهو حلال له . وقد روى عن ابن عباس ومجاهد أنهما قالا : لم يكن عند النبي صلى الله عليه وسلم امرأة موهوبة ؛ وقد دللنا على خلافه . وروى الأئمة من طريق سهل وغيره في الصحاح : أن امرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت أهب لك نفسى ، فسكت حتى قام رجل فقال : زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فلو كانت هذه الهبة غير جائزة لما سكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لا يقتر على الباطل إذا سمعه ؛ غير أنه يحتمل أن يكون سكوته منتظرا بيانا ؛ فنزلت الآية بالتحليل والتخيير ، فاختار تركها وزوجها من غيره . ويحتمل أن يكون سكت ناظرا في ذلك حتى قام الرجل لها طالبا . وقرأ الحسن البصرى وأبى بن كعب والشعبي « أَنْ » بفتح الألف . وقرأ الأعمش « وَأَمْرًا مُؤَمِّنَةً وَهَبْتَ » . قال النحاس : وكسر « إِنْ » أجمع للعاني ؛ لأنه قيل إنهن نساء . وإذا فتح كان المعنى على واحدة بعينها ؛ لأن الفتح على البدل من امرأة ، أو بمعنى لأن .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مُؤْمِنَةً ﴾ يدلّ على أن الكافرة لا تحلّ له . قال إمام الحرمين : وقد اختلف في تحريم الحرة الكافرة عليه . قال ابن العربي : والصحيح عندي تحريمها عليه . وبهذا يميز علينا ؛ فإنه ما كان من جانب الفضائل والكرامة فخطه فيه أكثر ، وما كان من جانب النقائص بخائبه عنها أطهر ؛ بخوز لنا نكاح الخرائر الكتابيات ، وقصر هو صلى الله عليه وسلم لجلالته على المؤمنات . وإذا كان لا يحلّ له من لم تهجر لنقصان فضل الهجرة فأحرى ألا تحلّ له الكافرة الكتابية لنقصان الكفر^(١) .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا ﴾ دليل على أن النكاح عقد معاوضة على صفات مخصوصة ، قد تقدمت في « النساء » وغيرها . وقال الزجاج : معنى « إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ » حلت . وقرأ الحسن : « أن وهبت » بفتح الهمزة . و « أن » في موضع نصب . قال الزجاج : أى لأن . وقال غيره : « أن وهبت » بدل اشتمال من « امرأة » .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ أى إذا وهبت المرأة نفسها وقبلها النبي صلى الله عليه وسلم حلت له ، وإن لم يقبلها لم يلزم ذلك . كما إذا وهبت لرجل شيئا فلا يجب عليه القبول ؛ بيد أن من مكارم أخلاق نبينا أن يقبل من الواهب هبته . ويرى الأكارم أن ردها هجينة في العادة ، ووصمة على الواهب وأذية لقلبه ؛ فبين الله ذلك في حق رسوله صلى الله عليه وسلم وجعله قرآنا يتلى ؛ ليرفع عنه الحرج ، ويبطل بطل الناس في عاداتهم وقولهم .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ ﴾ أى هبة النساء أنفسهن خالصة ومزية لا تجوز ؛ فلا يجوز أن تهب المرأة نفسها لرجل . ووجه الخاصية أنها لو طلبت فرض المهر قبل الدخول لم يكن لها ذلك . فأما فيما بيننا فلمنفوضة طلب المهر قبل الدخول ، ومهر المثل بعد الدخول .

(١) في ابن العربي « الحرة » . (٢) راجع ج ٥ ص ١٢٧ فإبعد .

الخامسة عشرة — أجمع العلماء على أن هبة المرأة نفسها غير جائز^(١)، وأن هذا اللفظ من الهبة لا يتم عليه نكاح ؛ إلا ما روى عن أبي حنيفة وصاحبيه فإنهم قالوا : إذا وهبت فأشهد هو على نفسه بمهر فذلك جائز . قال ابن عطية : فليس في قولهم إلا تجوز العبارة ولفظة الهبة ، وإلا فالأفعال التي اشترطوها هي أفعال النكاح بعينه ، وقد تقدمت هذه المسألة في «القصص» مستوفاة^(٢) . والحمد لله .

السادسة عشرة — خص الله تعالى رسوله في أحكام الشريعة بمعان لم يشاركه فيها أحد — في باب الفرض والتحريم والتحليل — منزلة على الأمة وهبت له^(٣) ، ومرتبة خص بها ؛ ففرضت عليه أشياء ما فرضت على غيره ، وحرمت عليه أفعال لم تحرم عليهم ، وحلت له أشياء لم تحل لهم ؛ منها متفق عليه ومختلف فيه .

فأما ما فُرض عليه فتسعة : الأول — التهجّد بالليل ؛ يقال : إن قيام الليل كان واجبا عليه إلى أن مات ؛ لقوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ قُمِ اللَّيْلَ» الآية . والمنصوص أنه كان واجبا عليه ثم نسخ بقوله تعالى : «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ» وسيأتي . الثاني — الضحَا . الثالث — الأَصْحَى . الرابع — الوتر ؛ وهو يدخل في قسم التهجد . الخامس — السواك . السادس — قضاء دين من مات معسرا . السابع — مشاورة ذوي الأحلام في غير الشرائع . الثامن — تخيير النساء . التاسع — إذا عمل عملا أثبته . زاد غيره : وكان يجب عليه إذا رأى منكرا أنكره وأظهره ، لأن إقراره لغيره على ذلك يدل على جوازه ، ذكره صاحب البيان . وأما ما حرم عليه فحملته عشرة : الأول — تحريم الزكاة عليه وعلى آله . الثاني —

صدقة التطوع عليه ، وفي آله تفصيل باختلاف . الثالث — خاتنة الأعين ، وهو أن يظهر خلاف ما يضمّر ، أو يتخذ عما يجب . وقد ذم بعض الكفار عند إذنه ثم ألان له القول

(١) أي أمر غير جائز . (٢) راجع ج ١٣ ص ٢٧٢ (٣) في ابن العربي : « وهبة له » .

(٤) راجع ج ١٩ ص ٣٠ (٥) راجع ج ١٠ ص ٣٠٧ (٦) الخاتنة بمعنى الخيانة ، وهي من

المصادر التي جاءت على لفظ الفاعلة كالعافية ؛ فإذا كف الإنسان لسانه وأوما بعينه فقد خان ، وإذا كان ظهور تلك الحالة من قبل العين سميت خاتنة الأعين .

عند دخوله ^(١) . الرابع — حرم الله عليه إذا لبس لأتمته ^(٢) أن يخلعها عنه أو يحكم الله بينه وبين محاربه . الخامس — الأكل متكئا . السادس — أكل الأطعمة الكريهة الرائحة . السابع — التبذل بأزواجه ؛ وسياق . الثامن — نكاح امرأة تكره صحبتها . التاسع — نكاح الحرة الكتابية . العاشر — نكاح الأمة .

وحرم الله عليه أشياء لم يحرمها على غيره تنزيها له وتطهيرا . فحرم الله عليه الكتابة وقول الشعر وتعليمه ؛ تأكيد المجته وبينا للمعجزته ؛ قال الله تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ » . وذكر النقاش أن النبي صلى الله عليه وسلم ما مات حتى كتب ؛ والأول هو المشهور . وحرم عليه أن يمد عينيه إلى ما متع به الناس ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِ زَوَاجًا مِنْهُمْ ^(٤) » الآية .

وأما ما أحل له صلى الله عليه وسلم بفحمله ستة عشر : الأول — صفى المغنم . الثانى — الاستبداد بخمس الخمس أو الخمس . الثالث — الوصال . الرابع — الزيادة على أربع نسوة . الخامس — النكاح بالفظ الهبة . السادس — النكاح بغير ولي . السابع — النكاح بغير صداق . الثامن — نكاحه في حالة الإحرام . التاسع — سقوط القسم بين الأزواج عنه ؛ وسياق . العاشر — إذا وقع بصره على امرأة وجب على زوجها طلاقها ؛ وحل له نكاحها . قال ابن العربى : هكذا قال إمام الحرمين ، وقد مضى ما للعلماء في قصة زيد من هذا المعنى . الحادى عشر — أنه أعتق صفية وجعل عتقها صداقها . الثانى عشر — دخوله مكة بغير إحرام ، وفي حقنا فيه اختلاف . الثالث عشر — القتال بمكة . الرابع عشر — أنه لا يورث . وإنما ذكر هذا في قسم التحليل لأن الرجل إذا قارب الموت بالمرض زال عنه أكثر ملكه ، ولم يبق له إلا الثالث خالصا ، وبقى ملك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما تقرّر بيانه في آية المواريث ، وسورة « صريم » ^(٥) بيانه أيضا . الخامس عشر — بقاء زوجيته من بعد

(١) راجع كتاب البخارى ومسلم (باب الأدب) . (٢) اللأمة (وقد يترك هزها) : الدرع . وقيل السلاح .

(٤) راجع ج ١١ ص ٢٦١ .

(٣) راجع ج ١٣ ص ٣٥١ .

(٦) راجع ج ١١ ص ١٨ .

(٥) راجع ج ٥ ص ٥٩ .

الموت . السادس عشر — إذا طلق امرأة تبقى حرمتها عليها فلا تنكح . وهذه الأقسام الثلاثة تقدم معظمها مفصلاً في مواضعها . وسيأتى إن شاء الله تعالى .

[وأبيح^(١) له عليه الصلاة والسلام أخذ الطعام والشراب من الجائع والعطشان ، وإن كان من هو معه يخاف على نفسه الهلاك ، لقوله تعالى : « النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ » . وعلى كل أحد من المسلمين أن يقي النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه . وأبيح له أن يحيى لنفسه . وأكرمه الله بتحايل الغنائم . وجعلت الأرض له ولأئمة مسجداً وطهوراً . وكان من الأنبياء [مَنْ] لا تصح صلاتهم إلا في المساجد . ونُصِرَ بالرُّعب ؛ فكان يخافه العدو من مسيرة شهر . وبُعِثَ إلى كافة الخلق ، وقد كان من قبله من الأنبياء يُبعث الواحد إلى بعض الناس دون بعض . وجُعِلَت معجزاته كمعجزات الأنبياء قبله وزيادة . وكانت معجزة موسى عليه السلام العصا وانفجار الماء من الصخرة . وقد آنشق القمر للنبي صلى الله عليه وسلم ، وخرج الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم . وكانت معجزة عيسى صلى الله عليه وسلم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . وقد سبَّح الحصى في يد النبي صلى الله عليه وسلم ، وحنَّ الجذع إليه ؛ وهذا أبلغ . وفضَّله الله عليهم بأن جعل القرآن معجزة له ، وجعل معجزته فيه باقية إلى يوم القيامة ، ولهذا جُعِلَت نبوته مؤبدة لا تُنسخ إلى يوم القيامة^(٢)] .

السابعة عشر — قوله تعالى : « أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا » أى ينكحها ، يقال : نَكَحَ واستنكح ؛ مثل نَحِبَ واستعجب ، وعَجِلَ واستعجل . ويجوز أن يرد الاستنكاح بمعنى طلب النكاح ، أو طاب الوطء ، و « خَالِصَةً » نصب على الحال ، قاله الزجاج . وقيل : حال من ضمير متصل بفعل مضمر دل عليه المضمر ، تقديره : أحلنا لك أزواجك ، وأحلنا لك امرأة مؤمنة أحلناها خالصة ، بلفظ الهبة وبغير صداق وبغير ولي .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : « مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » فائدته أن الكفار وإن كانوا مخاطبين بفروع الشريعة عندنا فليس لهم في ذلك دخول ، لأن تصريح الأحكام إنما يكون فيهم على تقدير الإسلام .

(١) ما بين المربعين ساقط من ج وك . (٢) في ش : « بنفسه » بالباء بدل اللام ؛ والجملة غير ظاهرة .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ ﴾ أى ما أوجبنا على المؤمنين ، وهو ألا يتزوجوا إلا أربع نسوة بمهر و بينة و ولي . قال معناه أبى بن كعب وقتادة وغيرهما .
 التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ أى ضيق فى أمر أنت فيه محتاج إلى السعة ، أى بيننا هذا البيان و شرحنا هذا الشرح « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ » .
 فـ « لِكَيْلَا » متعلق بقوله : « إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ » أى فلا يضيق قلبك حتى يظهر منك أنك قد أثمت عند ربك فى شئ . ثم آنس تعالى جميع المؤمنين بغفرانه و رحمته فقال تعالى :
 ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : تُرْجَى مِنْ نِسَاءٍ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَىٰ إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ وَمِنْ أَبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥٦﴾

فيه إحدى عشرة مسألة .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ تُرْجَى مِنْ نِسَاءٍ ﴾ قرئ مهموزا و غير مهموز ، وهما لغتان ، يقال : أرجيت الأمر و أرجأته إذا أخرته . ﴿ وَتُؤْوَىٰ ﴾ تَضُمُّ ، يقال : آوى إليه (ممدودة الألف) ضمَّ إليه . و آوى (مقصورة الألف) انضمَّ إليه .

الثانية — و اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ، وأصح ما قيل فيها . التوسعة على النبي صلى الله عليه وسلم فى ترك القسم ، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته . وهذا القول هو الذى يناسب ما مضى ، وهو الذى ثبت معناه فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها ؛ قالت : كنت أغار على اللأى و هبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم و أقول : أوتهب المرأة نفسها لرجل ؟ فلما أنزل الله عز وجل « تُرْجَى مِنْ نِسَاءٍ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَىٰ إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ وَمِنْ أَبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ » قالت : قلت والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هوائك . قال

أبن العربي : هذا الذي ثبت في الصحيح هو الذي ينبغي أن يعول عليه . والمعنى المراد : هو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مخيراً في أزواجه ، إن شاء أن يقسم قسم ، وإن شاء أن يترك القسم ترك . فخص النبي صلى الله عليه وسلم بأن جعل الأمر إليه فيه ؛ لكنه كان يقسم من قبل نفسه دون أن فرض ذلك عليه ، تطيباً لنفوسهن ، وصوتاً لهن عن أقوال الفئرة التي تؤدي إلى ما لا ينبغي . وقيل : كان القسم واجباً على النبي صلى الله عليه وسلم ثم نسخ الوجوب عنه بهذه الآية . قال أبو رزين : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هم بطلاق بعض نسائه فقلن له : اقسم لنا ما شئت . فكان من آوى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب ، فكان قسمتهن من نفسه وماله سواء بينهن . وكان ممن أرجى سودة وجويرية وأم حبيبة وميمونة وصفية ؛ فكان يقسم لهن ما شاء . وقيل : المراد الواهبات . روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة في قوله : « تُرْجَى مَن نَّشَاءُ مِنْهُنَّ » قالت : هذا في الواهبات أنفسهن . قال الشعبي : هن الواهبات أنفسهن ؛ تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم منهن وترك منهن . وقال الزهري : ما علمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرجأ أحداً من أزواجه ، بل أواههن كلهن . وقال ابن عباس وغيره : المعنى في طلاق من شاء ممن حصل في عصمته ، وإمساك من شاء . وقيل غير هذا . وعلى كل معنى فالآية معناها التوسعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والإباحة . وما اخترناه أصح والله أعلم .

الثالثة — ذهب هبة الله في النسخ والمنسوخ إلى أن قوله : « تُرْجَى مَن نَّشَاءُ » الآية ، ناسخ لقوله : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » الآية . وقال : ليس في كتاب الله ناسخ تقدم المنسوخ سوى هذا . وكلامه يضعف من جهات . وفي « البقرة » مدة المتوفى عنها أربعة أشهر وعشر ، وهو ناسخ للحول وقد تقدم عليه ^(١) .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَبْتَغَيْتْ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ « أَبْتَغَيْتْ » طلبت ، والابتغاء الطلب . و « عَزَلْتَ » أزالت ، والعزلة الإزالة ، أى إن أردت أن تؤوى إليك امرأة ممن

عنزلتهن من القسمة وتضمها إليك فلا بأس عليك في ذلك . وكذلك حكم الإرجاء ، فدلّ أحد الطرفين على الثاني .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ أى لا ميل ، يقال : جنحت السفينة أى مالت إلى الأرض . أى لا ميل عليك باللوم والتوبيخ .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَأُ عَيْنَهُنَّ ﴾ قال قتادة وغيره : أى ذلك التخير الذى خيرناك فى صحبتهم أدنى إلى رضاهن إذ كان من عندنا ؛ لأنهن إذا علمن أن الفعل^(١) من الله قوت أعينهن بذلك ورضين ؛ لأن المرء إذا علم أنه لا حق له فى شيء كان راضيا بما أوتى منه وإن قل . وإن علم أن له حقاً لم يقنعه ما أوتى منه ، واشتدت خيبرته عليه وعظم حرصه فيه . فكان ما فعل الله لرسوله من تفويض الأمر إليه فى أحوال أزواجه أقرب إلى رضاهن معه ، وإلى استقرار أعينهن بما يسمح به لهن ، دون أن تتعلق قلوبهن بأكثر منه . وقرئ : « تُقَرَّ أعينهن » بضم التاء ونصب الأعين . « وَتُقَرَّ أعينهن » على البناء للفعل . وكان عليه السلام مع هذا يشدد على نفسه فى رعاية النسوية بينهن ، تطيباً لقلوبهن — كما قدمناه — ويقول : « اللهم هذه قدرتى فيما أملك فلا تلهنى فيما تملك ولا أملك » يعنى قلبه ؛ لإيثاره عائشة رضى الله عنها دون أن يكون يظهر ذلك فى شيء من فعله . وكان فى مرضه الذى توفى فيه يطاف به محمولا على بيوت أزواجه ، إلى أن استأذن أن يقيم فى بيت عائشة . قالت عائشة : أول ما اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت ميمونة ، فاستأذن أزواجه أن يمرض فى بيتها — يعنى بيت عائشة — فأذن له ... الحديث ، خرج الصحيح . وفى الصحيح أيضا عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتفقد^(٢) ،

(١) فى شوك : « المعدل » . (٢) كذا فى شوك ، والذى فى البخارى : لينعذر

قال القسطلانى : « بالعين المهملة والذال المعجمة ؛ أى يطلب العذر فيما يحاوله من الانتقال إلى بيت عائشة . وعند القابسي « ينقذر » بالقاف والذال المهملة ؛ أى يسأل عن قدر ما بقى إلى يومها ليهون عليه بعض ما يجحد ، لأن المريض يجحد عند بعض أهله ما لا يجده عند بعض من الأنس والسكون » .

يقول : " أين أنا اليوم أين أنا غدا " استبطاء ليوم عائشة رضى الله عنها . قالت : فلما كان يومى قبضه الله تعالى بين سَحْرَى ونَحْرَى ^(١) ؛ صلى الله عليه وسلم .

السابعة — على الرجل أن يعدل بين نسائه لكل واحدة منهن يوما وليلة ؛ هذا قول عامة العلماء . وذهب بعضهم إلى وجوب ذلك في الليل دون النهار . ولا يُسْقِطُ حق الزوجة مرضها ولا حيضها ، ويلزمه المقام عندها في يومها وليلتها . وعليه أن يعدل بينهن في مرضه كما يفعل في صحته ؛ إلا أن يعجز عن الحركة فيقيم حيث غلب عليه المرض ، فإذا صح استأنف القسم . والإماء والحرائر والكنانيات والمسلمات في ذلك سواء . قال عبد الملك : للحرة ليلتان وللأمة ليلة . وأما السرارى فلا قسم بينهن وبين الحرائر ، ولا حظ لهن فيه .

الثامنة — ولا يجمع بينهن في منزل واحد إلا برضاهن ، ولا يدخل لإحداهن في يوم الأخرى وليلتها لغير حاجة . واختلف في دخوله لحاجة وضرورة ؛ فالأكثر على جوازه ؛ مالك وغيره . وفي كتاب ابن حبيب منعه . وروى ابن بكير عن مالك عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان ، فإذا كان يوم هذه لم يشرب من بيت الأخرى الماء . قال ابن بكير : وحدثنا مالك عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان ماتتا في الطاعون . فأمسهم بينهما أيهما تدلى أول .

التاسعة — قال مالك : ويعدل بينهن في النفقة والكسوة إذا كن معتدلات الحال ، ولا يلزم ذلك في المختلفات المناصب . وأجاز مالك أن يفضل إحداهما في الكسوة على غير وجه الميل . فأما الحب والبغض فخارجان عن الكسب فلا يتأتى العدل فيهما ، وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم في قسمه . " اللهم هذا فعلى فيما أملك فلا تلبنى فيما تملك ولا أملك " . أخرجه النسائي وأبو داود عن عائشة رضى الله عنها . وفي كتاب أبي داود « يعنى القلب » ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ » ، وقوله تعالى : « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ » . وهذا هو وجه تخصيصه بالذكر هنا ، تنبيها منه لنا على أنه يعلم

(١) تريد بين جنبي وصدرى . والسحر : الرقة ، فأطلقت على الجنب مجازا ، من باب تسمية المحل باسم الحال ،

فيه . والنحر : الصدر . (٢) راجع ج ٥ ص ٤٠٧ .

ما في قلوبنا من ميل بعضنا إلى بعض من عندنا من النساء دون بعض ، وهو العالم بكل شيء
« لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » ^(١) « يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » ^(٢) لكنه سمح في ذلك ،
إذ لا يستطيع العبد أن يصرف قلبه عن ذلك الميل ، وإلى ذلك يعود قوله : « وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَحِيمًا » . وقد قيل في قوله : « ذَلِكَ أَذْنِي أَنْ تَقْرَأَهُنَّ » وهي :

العاشرة — أى ذلك أقرب ألا يحزن إذا لم يجمع إحداهن مع الأخرى ويعاين الأثره
والميل . وروى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كانت له
امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل » . (وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ)
توكيد للضمير ، أى ويرضين كلهن . وأجاز أبو حاتم والزجاج « وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ »
على التوكيد للضمير الذى فى « آتَيْنَهُنَّ » . والفراء لا يميزه ، لأن المعنى ليس عليه ، إذ كان
المعنى وترضى كل واحدة منهن ، وليس المعنى بما أعطيتن كلهن . النحاس : والذى قاله حسن .

الحادية عشرة — قوله تعالى : (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) خبر عام ، والإشارة إلى
ما فى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من محبة شخص دون شخص . وكذلك يدخل فى المعنى
أيضا المؤمنون . وفى البخارى عن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه على
جيش ذات السلاسل ، فأتيته فقلت : أى الناس أحب إليك ؟ فقال : « عائشة » فقلت :
من الرجال ؟ قال : « أبوها » قلت : ثم من ؟ قال : « عمر بن الخطاب ... » فعد رجالا .
وقد تقدم القول فى القلب بما فيه كفاية فى أول « البقرة » ^(٣) ، وفى أول هذه السورة ^(٤) .
يروى أن لقمان الحكيم كان عبدا نجارا قال له سيده : اذبح شاة واثنتى بأطيبها بضعتين ،
فأثاه باللسان والقلب . ثم أمره بذبح شاة أخرى فقال له : ألق أخبثها بضعتين ، فألقى اللسان
والقلب . فقال : أمرتك أن تأتينى بأطيبها بضعتين فأتيتنى باللسان والقلب ، وأمرتك أن
تلقى بأخبثها بضعتين فألقيت اللسان والقلب ! ؟ فقال : ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ،
ولا أخبث منهما إذا خبثا .

(٢) راجع ج ١١ ص ١٦٥ فما بعد .

(٤) ص ١١٧ من هذا الجزء .

(١) راجع ج ٤ ص ٦ فما بعد .

(٣) راجع ج ١ ص ١٨٧ .

قوله تعالى : لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَغْبَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — اختلف العلماء في تأويل قوله : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » على أقوال سبعة :

الأولى — أنها منسوخة بالسنة ، والناسخ لها حديث عائشة ، قالت : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحلّ له النساء . وقد تقدّم .^(١)

الثاني — أنها منسوخة بآية أخرى ، روى الطحاوي عن أم سلمة قالت : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحلّ الله له أن يتزوج من النساء من شاء ؛ إلا ذات محرم ، وذلك قوله عز وجل : « تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ » . قال النحاس : وهذا والله أعلم أولى ما قيل في الآية ؛ وهو قول عائشة واحد في النسخ . وقد يجوز أن تكون عائشة أرادت أحلّ له ذلك بالقرآن . وهو مع هذا قول علي بن أبي طالب وابن عباس وعلي بن الحسين والضحاك . وقد عارض بعض فقهاء الكوفيين فقال : محال أن تنسخ هذه الآية يعني « تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ » « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » وهي قبلها في المصحف الذي أجمع عليه المسلمون . ورجح قول من قال نسخت بالسنة . قال النحاس : وهذه المعارضة لا تلزم وقائلها غلط ؛ لأن القرآن بمنزلة سورة واحدة ، كما صحّ عن ابن عباس : أنزل الله القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في شهر رمضان . ويبين لك أن اعتراض هذا [المعترض] لا يلزم [أن] قوله عز وجل « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لَأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ »^(٢) منسوخة على قول أهل التأويل — لا نعلم بينهم

خلافا — بِالْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » :

الثالث — أنه صلى الله عليه وسلم حظر عليه أن يتزوج على نسائه ؛ لأنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ؛ هذا قول الحسن وابن سيرين وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام . قال النحاس : وهذا القول يجوز أن يكون هكذا ثم نسخ .
الرابع — أنه لما حرم عليهن أن يتزوجن بعده حُرِّمَ عليه أن يتزوج غيرهن ؛ قاله أبو أمامة بن سهل بن حنيف .

الخامس — « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » أى من بعد الأصناف التى سُمِّيت ؛ قاله أبي بن كعب وعكرمة وأبو رزين ، وهو اختيار محمد بن جرير . ومن قال إن الإباحة كانت له مطابقة قال هنا : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ » معناه لا تحل لك اليهوديات ولا النصرانيات . وهذا تأويل فيه بُعْدٌ . وروى عن مجاهد وسعيد بن جبيرة وعكرمة أيضا . وهو القول السادس . قال مجاهد : لئلا تكون كافرة أمّا للمؤمنين . وهذا القول يبعد ؛ لأنه يقدره : من بعد المسلمات ، ولم يحرم للمسلمات ذكر . وكذلك قدر « وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ » أى ولا أن تطلق مسلمة لتستبدل بها كتابية .

السابع — أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له حلال أن يتزوج من شاء ثم نسخ ذلك . قال : وكذلك كانت الأنبياء قبله صلى الله عليه وعليهم وسلم ؛ قاله محمد بن كعب القرظي .
الثانية — قوله تعالى : « وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ » قال ابن زيد : هذا شيء كانت العرب تفعله ، يقول أحدهم : خذ زوجتي وأعطني زوجتك ، روى الدارقطني عن أبي هريرة قال : كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل : انزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى وأزيدك ؛ فأنزل الله عز وجل « وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ » قال : فدخل عيينة بن حصن الفزاري على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده

عائشة ، فدخل بغير إذن ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يا عيينة فأين الاستئذان ؟ ” فقال : يا رسول الله ، ما استأذنت على رجل من مَضْرَمَنْد أدركت . قال : مَنْ هذه الحميراء إلى جنبك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” هذه عائشة أم المؤمنين ” قال : أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق . فقال : ” يا عيينة ، إن الله قد حرّم ذلك ” . قال فلما خرج قالت عائشة : يا رسول الله ، مَنْ هذا ؟ قال : ” أحق مطاعٌ وإنه على ما ترين لَسَيِّدُ قومه ” . وقد أنكر الطبري والنحاس وغيرهما ما حكاه ابن زيد عن العرب ، من أنها كانت تبادل بأزواجها . قال الطبري : وما فعلت العرب قط هذا ، وما روى من حديث عيينة بن حصن من أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عائشة ... الحديث ، فليس بتبديل ، ولا أراد ذلك ، وإنما آحتقر عائشة لأنها كانت صبية فقال هذا القول .

قلت : وما ذكرناه من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة من أن البديل كان في الجاهلية يدلّ على خلاف ما أنكر من ذلك ، والله أعلم . قال المسبرد : وقرئ «لَا يَجِلُّ» بالياء والتاء . فنقرأ بالتاء فعلى معنى جماعة النساء ، والياء من تحت على معنى جميع النساء . وزعم القراء قال : اجتمعت القراء على أن القراءة بالياء ، وهذا فلفظ ، وكيف يقال : اجتمعت القراء وقد قرأ أبو عمرو بالتاء بلا اختلاف عنه !

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ قال ابن عباس : نزل ذلك بسبب أسماء بنت عميس ، أعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مات عنها جعفر بن أبي طالب حُسْنَهَا ، فأراد أن يتزوجها ، فنزلت الآية ، وهذا حديث ضعيف قاله ابن العربي .

الرابعة — في هذه الآية دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها . وقد أراد المغيرة بن شعبه زواج امرأة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ” انظر إليها فإنه أجد أن يؤدم بينكما ”^(١) . وقال عليه السلام لآخر : ” انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئا ” أخرجه الصحيح . قال الحميدى وأبو الفرج الجوزي . يعني صفراء أوزرقاء . وقيل رمصاء^(٢) .

(١) أى أرى أن ندوم المودة بينكما . يقال : آدم الله بينهما يادم أى ألف ورفق .

(٢) الرمص (بالتحريك) : رشح يجتمع في الموق ؛ فإن سال فهو غصص ، وإن جد فهو رمص .

الخامسة — الأمر بالنظر إلى المخطوبة إنما هو على جهة الإرشاد إلى المصلحة؛ فإنه إذا نظر إليها فلعله يرى منها ما يرغبه في نكاحها . ومما يدل على أن الأمر على جهة الإرشاد ما ذكره أبو داود من حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل“ . فقله : ”فإن استطاع فليفعل“ لا يقال مثله في الواجب . وبهذا قال جمهور الفقهاء مالك والشافعي والكوفيون وغيرهم وأهل الظاهر . وقد ذكره ذلك قوم لا مبالاة بقولهم ؛ للأحاديث الصحيحة ؛ وقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّجَبَكَ حُسْنُهُنَّ » . وقال سهل بن أبي حثمة : رأيت محمد بن مسلمة يطارد ثُبَيْتَةَ بنت الضحاك على إجار من أجار المدينة فقلت له : أتفعل هذا ؟ فقال نعم ! قال النبي صلى الله عليه وسلم : ”إذا ألقى الله في قلب أحدكم خطبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها“ . الإجار : السطح ، بلغة أهل الشام والحجاز . قال أبو عبيد : وجمع الإجار أجار وأجاره .

السادسة — اختلف فيما يجوز أن ينظر منها ؛ فقال مالك : ينظر إلى وجهها وكفها ، ولا ينظر إلا بياضها . وقال الشافعي وأحمد : بياضها وبغير إذنها إذا كانت مستورة . وقال الأوزاعي : ينظر إليها ويحتجده وينظر مواضع اللحم منها . قال داود : ينظر إلى سائر جسدها ؛ تمسكاً بظاهر اللفظ . وأصول الشريعة ترد عليه في تحريم الاطلاع على العورة . والله أعلم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ اختلف العلماء في إحلال الأمة الكافرة للنبي صلى الله عليه وسلم على قولين : تحل لعموم قوله : « إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ » ؛ قاله مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم . قالوا : قوله تعالى « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » أى لا تحل لك النساء من غير المسلمات ، فأما اليهوديات والنصرانيات والمشركات فحرام عليك ؛ أى لا يحل لك أن تزوج كافرة فتكون أمّاً للؤمنين ولو أعجبك حسنها ؛ إلا ما ملكت يمينك ، فإن له أن يتسرى بها . القول الثاني — لا تحل ؛ تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة ، وقد قال الله تعالى : « وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ »^(١) فكيف به صلى الله عليه وسلم .

و « ما » في قوله : « إِلَّا مَا مَلَكَت يَمِينُكَ » في موضع رفع بدل من « النساء » . ويجوز أن يكون في موضع نصب على استثناء ، وفيه ضعف . ويجوز أن تكون مصدرية ، والتقدير : إلا ملك يمينك ، وملك بمعنى مملوك ، وهو في موضع نصب لأنه استثناء من غير الجففس الأول .

قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِحَدِيثٍ ^ج إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحِيهِ مِنْكُمْ ^ب وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِيهِ مَنْ أَحَقَّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ^ج وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ ^ج مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

فيه ست عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ « أن » في موضع نصب على معنى : إلا بأن يؤذن لكم ، ويكون الاستثناء ليس من الأول . ﴿ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ ﴾ نصب على الحال ، أى لا تدخلوا في هذه الحال . ولا يجوز في « غير » الخفض على النعت للطعام ، لأنه لو كان نعتا لم يكن بد من إظهار الفاعلين ، وكان يقول : غير ناظرين إناهم أتم . ونظير هذا من النحو : هذا رجلٌ مع رجلٍ ملازمٌ له ، وإن شئت قلت : هذا رجلٌ مع رجلٍ ملازمٍ له هو .

وهذه الآية تضمنت قصتين : إحداهما — الأدب في أمر الطعام والجلوس . والثانية — أمر الحجاب . وقال حماد بن زيد : هذه الآية نزلت في الثقلاء . فاما القصة الأولى فالجمهور

من المفسرين على أن : سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب بنت جحش امرأة زيد أولم عليها ، فدعا الناس ، فلما طعموا جالس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته مولىة وجهها إلى الحائط ، فثقلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أنس : فما أدري أنا أخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أن القوم قد خرجوا أو أخبرني . قال : فأنطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه فالتقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب . قال : ووعظ القوم بما وُعضوا به ، وأنزل الله عز وجل « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ — إِلَى قَوْلِهِ — إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا » أخرجه الصحيح . وقال قتادة ومقاتل في كتاب الثعلبي : إن هذا السبب جرى في بيت أم سلمة . والأقول الصحيح ، كما رواه الصحيح . وقال ابن عباس : نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي صلى الله عليه وسلم فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، فيقعدون إلى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون . وقال إسماعيل بن أبي حكيم : وهذا أدب أدب الله به الثقلاء . وقال ابن أبي عاصم في كتاب الثعلبي : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم . وأما قصة الحجاب فقال أنس بن مالك وجماعة : سببها أمر القعود في بيت زينب ، القصة المذكورة آنفا . وقالت عائشة رضي الله عنها وجماعة : سببها أن عمر قال قلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت الآية . وروى الصحيح عن ابن عمر قال : قال عمر وافقت ربي في ثلاث : في مقام إبراهيم ، وفي الحجاب ، وفي أسارى بدر . هذا أصح ما قيل في أمر الحجاب ، وما عدا هذين القولين من الأقوال والروايات فواهية ، لا يقوم شيء منها على ساق ، وأضعفها ما روى عن ابن مسعود : أن عمر أمر نساء النبي صلى الله عليه وسلم بالحجاب ، فقالت زينب بنت جحش : يا بن الخطاب ، إنك تغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا ! فأنزل الله تعالى : « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ » وهذا باطل ، لأن الحجاب نزل يوم البناء بزينب ، كما بيناه . أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطعم ومعه بعض

(١) أى التى كانت امرأة زيد ثم طلقها وانقضت نكحتها منه .

أصحابه ، فأصاب يَد رجل منهم يَد عائشة ، فكره النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت آية الحجاب . قال ابن عطية : وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونُضِجَه . وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك ، فنهى الله المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، ودخل في النهي سائر المؤمنين ، والترم الناس أدب الله تعالى لهم في ذلك ، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل ، لاقبله لانتظار نُضِج الطعام .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ دليل على أن البيت للرجل ، وبمحكم له به ، فإن الله تعالى أضافه إليه . فإن قيل : فقد قال الله تعالى : « وَأَذْكُرَنَّ مَا بُنِيَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا » قلنا : إضافة البيوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم إضافة ملك ، وإضافة البيوت إلى الأزواج إضافة محل ، بدليل أنه جعل فيها الإذن للنبي صلى الله عليه وسلم ، والإذن إنما يكون للمالك .

الثالثة — واختلف العلماء في بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إذ كان يسكن فيها أهله بعد موته ، هل هي ملك لمن أم لا على قولين : فقالت طائفة : كانت ملكا لمن ، بدليل أنهم سكن فيها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم إلى وفاتهم ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وهب ذلك لمن في حياته . الثاني — أن ذلك كان إسكانا كما يسكن الرجل أهله ولم يكن هبة ، وتمادى سكاهن بها إلى الموت . وهذا هو الصحيح ، وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البر وابن العربي وغيرهم ، فإن ذلك من موقوفته التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم استثنائها لمن ، كما استثنى لمن نفقاتهن حين قال : « لَا تَقْسَمُ وَرَثَتِي دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، مَا تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ أَهْلِي وَمَنْوَنَةِ عَامِلٍ فَهُوَ صَدَقَةٌ » . هكذا قال أهل العلم ، قالوا : ويدل على ذلك أن مساكنهن لم يرثها عنهن ورثتهن . قالوا : ولو كان ذلك ملكا لمن كان لا شك قد ورثه عنهن ورثتهن . قالوا : وفي ترك ورثتهن ذلك دليل على أنها لم تكن لمن ملكا ، وإنما كان لمن

(١) راجع ص ١٨٢ من هذا الجزء .

سكنى حياتهن ، فلما توفين جعل ذلك زيادة في المسجد الذي يعم المسلمين نفعه ، كما جعل ذلك الذي كان لهن من النفقات في تركة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مضين لسبيلهن ، فزيد إلى أصل المال فصرف في منافع المسلمين مما يعم جميعهم نفعه . والله الموفق .
قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ نَاطِرِينَ إِيَّاهُ ﴾ أى غير منتظرين وقت نُضَجِه . و « إِيَّاهُ »

مقصود ، وفيه لغات : « إِيَّ » بكسر الهمزة . قال الشيبانى :

وَكَسَرَى إِذْ تَقَسَّمَهُ بَنُوهُ * بِأَسْيَافٍ كَمَا اقْتَسَمَ النَّهَامُ

تَمَخَّضَتِ الْمَنُونُ لَهُ يَوْمَ * أَنَّى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَامُ

وقرأ ابن أبى عبلة : « غَيْرِ نَاطِرِينَ إِيَّاهُ » مجرورا صفة لـ « طعام » . الزمخشري : وليس بالوجه ، لأنه جرى على غير ما هوله ، فمن حق ضمير ما هوله أن يبرز إلى اللفظ ، فيقال : غير ناطرين إياه أتم ، كقولك : هندٌ زيدٌ ضاربته هى . وأنى (بفتحها) ، وإياه (بفتح) (الهمزة والمد) قال الخطيئة :

وَأَثَرَتِ الْعَشَاءُ إِلَى سُهَيْلٍ * أَوِ الشَّعْرَى فَطَالَ بِي الْأَنَاءُ

يعنى إلى طلوع سهيل . وإياه مصدر أى الشيء يأنى إذا فرغ وحن وأدرك .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ فأكّد المنع ،

وخصّ وقت الدخول بأن يكون عند الإذن على جهة الأدب ، وحفظ الحضرة الكريمة من المباشطة المكروهة . قال ابن العربى : وتقدير الكلام : ولكن إذا دعيتم وأذن لكم فى الدخول فأدخلوا ، وإلا فنفس الدعوة لا تكون إذنا كافيا فى الدخول . والفاء فى جواب « إذا » لازمة لما فيها من معنى المجازاة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ أمر تعالى بعد الإطعام بأن

يتفرق جميعهم وينتشروا . والمراد إلزام الخروج من المنزل عند انقضاء المقصود من الأكل . والدليل على ذلك أن الدخول حرام ، وإنما جاز لأجل الأكل ، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح وعاد التحريم إلى أصله .

(١) « أنى » هنا فعل ماض ، بمعنى أدرك وبلغ ؛ كما فى اللسان وشرح القاموس .

السادسة - في هذه الآية دليل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف لا على ملك نفسه ؛ لأنه قال : « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا » فلم يجعل له أكثر من الأكل ، ولا أضاف إليه سواه ، وبقى الملك على أصله .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ عطف على قوله : « غَيْرَ نَاطِرِينَ » و « غَيْرَ » منصوبة على الحال من الكاف والميم في « لكم » أى غير ناظرين ولا مستأنسين ؛ والمعنى المقصود : لا تمكثوا مستأنسين بالحديث كما فعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في وليمة زينب . ﴿ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ أى لا يمتنع من بيانه وإظهاره . ولما كان ذلك يقع من البشر لعلة الاستحياء نفى عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك في البشر . وفي الصحيح عن أم سلمة قالت : جاءت أم سليم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحي من الحق ، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رأت الماء » .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا ﴾ الآية . روى أبو داود الطيالسي عن أنس بن مالك قال قال عمر : وافقت ربي في أربع ... ؛ الحديث . وفيه : قلت يا رسول الله ، لو ضربت على نسائك الحجاب ، فإنه يدخل عليهن البر والفاجر ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ .

واختلف في المتاع ؛ فقليل : ما يمتنع به من العواري^(٢) . وقيل فتوى . وقيل صحف القرآن . والصواب أنه عام في جميع ما يمكن أن يطلب من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا .

التاسعة - في هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهم من وراء حجاب في حاجة تعرض ، أو مسألة يُستفتى فيها ، ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى ، وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة ، بدنها وصوتها ؛ كما تقدم ، فلا يجوز كشف ذلك إلا الحاجة كالشهادة عليها ، أو داء يكون ببدنها ، أو سؤالها عما يعرض وتعين عندها .

(١) في ح ، ش : « إلهيم » . (٢) العواري : جمع العارية ، ما تداولوه بينهم .

المباشرة — استدلل بعض العلماء بأخذ الناس عن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من وراء حجاب على جواز شهادة الأعمى ، وبأن الأعمى يطاء زوجته بمعرفته بكلامها . وعلى إجازة شهادته أكثر العلماء ، ولم يجزها أبو حنيفة والشافعي وغيرهما . قال أبو حنيفة : تجوز في الأنساب . وقال الشافعي : لا تجوز إلا فيما رآه قبل ذهاب بصره .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِنَا ﴾ يريد من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء ، وللنساء في أمر الرجال ؛ أي ذلك أنفي للريبة وأبعد للتهمة وأقوى في الحماية . وهذا يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له ؛ فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ الآية . هذا تكرار للعلامة وتأكيد لحكمها ؛ وتأكيد العلل أقوى في الأحكام .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾ روى إسماعيل ابن إسحاق قال حدثنا محمد بن عبيد قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة أن رجلا قال : لو قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزوجت عائشة ؛ فأنزل الله تعالى : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ » الآية . ونزلت : « وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » . وقال القشيري أبو نصر عبد الرحمن : قال ابن عباس قال رجل من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حراء — في نفسه — لو توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم لتزوجت عائشة ، وهي بنت عمي . قال مقاتل : هو طلحة بن عبيد الله . قال ابن عباس : وندم هذا الرجل على ما حدث به في نفسه ، فشى إلى مكة على رجله وحمل على عشرة أفراس في سبيل الله ، وأعتق رقيقا فكفر الله عنه . وقال ابن عطية : روى أنها نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال : لو مات رسول الله صلى الله عليه وسلم لتزوجت عائشة ؛ فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأذى به ؛ هكذا كنى عنه ابن عباس ببعض الصحابة . وحكى مكي عن معمر أنه قال : هو طلحة بن عبيد الله .

قلت : وكذا حكى النحاس عن معمر أنه طلحة ؛ ولا يصح . قال ابن عطية : لله دَر ابن عباس ! وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله . قال شيخنا الإمام أبو العباس : وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة ، وحاشاهم عن مثله ! والكذب في نقله ؛ وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال . يروى أن رجلا من المنافقين قال حين تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة بـمد أبي سلمة ، وحفصة بـمد حُنين بن حذافة : ما بال محمد يتزوج نساءنا ! والله لو قدمنا لأجلنا السهام على نساءه ؛ فنزلت الآية في هذا ؛ فحرم الله نكاح أزواجه من بعده ، وجعل لمن حكم الأمهات . وهذا من خصائصه تمييزاً لشرفه وتنبيها على مرتبته صلى الله عليه وسلم . قال الشافعي رحمه الله : وأزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتي مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهن ، ومن استحل ذلك كان كافرا ؛ لقوله تعالى : « وَآكَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَيْنِهِ أَبَدًا » . وقد قيل : إنما منع من التزوج بزوجاته ؛ لأنهن أزواجه في الجنة ، وأن المرأة في الجنة لآخر أزواجه . قال حذيفة لأمراته : إن سرك أن تكوني زوجتي في الجنة إن جمعنا الله فيها فلا تزوجي من بعدى ؛ فإن المرأة لآخر أزواجه . وقد ذكرنا ما للعلماء في هذا في (كتاب التذكرة) من أبواب الجنة .

الرابعة عشرة — اختلف العلماء في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته ؛ هل بقين أزواجا أم زال النكاح بالموت ، وإذا زال النكاح بالموت فهل عليهن عدة أم لا ؟ فقيل : عليهن العدة ؛ لأنه توفى عنهن ، والعدة عبادة . وقيل : لا عدة عليهن ؛ لأنها مدة تربص لا ينتظر بها الإباحة . وهو الصحيح ؛ لقوله عليه السلام : « ما تركت بعد نفقة عيالي » وروى « أهلي » وهذا اسم خاص بالزوجية ؛ فأبقى عليهن النفقة والسكنى مدة حياتهن لكونهن نساءه ، وحرمن على غيره ؛ وهذا هو معنى بقاء النكاح . وإنما جعل الموت في حقه عليه السلام لمن بمنزلة المغيب في حق غيره ؛ لكونهن أزواجه في الآخرة قطعا بخلاف سائر

(١) في ش : « وحاشاهم عن مثله ... وإنما ... والكذب في نقله » وموضع النقط في الأصل بياض .

وفي ك : « وحاشاهم عن مثله وإنما الكذب في نقله » .

الناس ؛ لأن الرجل لا يعلم كونه مع أهله في دار واحدة ، فربما كان أحدهما في الجنة والآخر في النار ؛ فهذا انقطع السبب في حق الخلق وبقى في حق النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وقد قال عليه السلام : ” زوجاتي في الدنيا هن زوجاتي في الآخرة “ . وقال عليه السلام : ” كل سبب ونسب ينقطع إلا سببي ونسبي فإنه باق إلى يوم القيامة “ .

فرع - فأما زوجاته عليه السلام اللاتي فارقهن في حياته مثل الكلبية وغيرها ؛ فهل كان يحل لغيره نكاحهن ؟ فيه خلاف . والصحيح جواز ذلك ؛ لما روى أن الكلبية التي فارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها عكرمة بن أبي جهل على ما تقدم . وقيل : إن الذي تزوجها الأشعث بن قيس الكندي . قال القاضي أبو الطيب : الذي تزوجها مهاجر بن أبي أمية ، ولم ينكر ذلك أحد ؛ فدل على أنه إجماع .

الخامسة عشرة - قوله تعالى : ﴿ إِنْ زِلْكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ يعني أذية رسول الله صلى الله عليه وسلم أو نكاح أزواجه ؛ بفعل ذلك من جملة الكبائر ولا ذنب أعظم منه .

السادسة عشرة - قد بينا سبب نزول الحجاب من حديث أنس وقول عمر ، وكان يقول لسودة إذا خرجت وكانت امرأة طويلة : قد رأيناك يا سودة ، حرصا على أن يتزل الحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب . ولا بُد في نزول الآية عند هذه الأسباب كلها - والله أعلم - بيد أنه لما ماتت زينب بنت جحش قال : لا يشهد جنازتها إلا ذو محرم منها ؛ مراعاةً للحجاب الذي نزل بسببها . فدلته أسماء بنت عميس على سترها في النعش في القبة ، وأعلمته أنها رأت ذلك في بلاد الحبشة فصنعه عمر . وروى أن ذلك صنع في جنازة فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَبَدُّوا شَيْعًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٦٠ ﴾ الباري سبحانه وتعالى عالم بما بدا وما خفي وما كان وما لم يكن ، لا يخفى عليه ما مضى تقضى ، ولا مستقبل يأتي . وهذا على العموم تمدح به ، وهو أهل المدح والحمد . والمراد به هاهنا التوبيخ والوعيد لمن تقدم التعريض به في الآية قبلها ، من أشير إليه بقوله : « ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ » ، ومن أشير إليه في قوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ

تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا» فقبل لهم في هذه الآية : إن الله تعالى يعلم ما تخفونه من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة ويجازيكم عليها . فصارت هذه الآية منعطفة^(١) على ما قبلها مبينة لها . والله أعلم .

قوله تعالى : لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَيْنَ اللَّهُ إِنْ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت هذه الآية .

الثانية — ذكر الله تعالى في هذه الآية من يحل للمرأة البروز له ، ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين . وقد يسمى العم أبا ، قال الله تعالى : « نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ »^(٢) وإسماعيل كان العم . قال الزجاج : العم والخال ربما يصفان المرأة لولديهما ، فان المرأة تحل لابن العم وابن الخال فكذلك لها الرؤية . وقد كره الشعبي وعكرمة أن تضع المرأة نحرها عند عمها أو خالها . وقد ذكر في هذه الآية بعض المحارم وذكر الجميع في سورة « النور » ، فهذه الآية بعض تلك ، وقد مضى الكلام هناك مستوفى ، والحمد لله .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَ اللَّهُ ﴾ لما ذكر الله تعالى الرخصة في هذه الأصناف وانجزمت الإباحة ، عطف بأمرهن بالتقوى عطف جملة . وهذا في غاية البلاغة والإيجاز ، كانه قال : اقتصرن على هذا واتقين الله فيه أن لتعدينه إلى غيره . وخص النساء بالذكر وعيّنهن في هذا الأمر ، لقلّة تحفظهن وكثرة استرسالهن . والله أعلم . ثم توعّد تعالى بقوله : ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ .

(٢) راجع ج ٢ ص ١٣٨ .

(١) في ابن العربي « منقطة » وهو تحريف .

(٣) راجع ج ١٢ ص ٢٢٦ .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

هذه الآية شرف الله بها رسوله عليه السلام حياته وموته ، وذكر منزلته منه ، وطهرها
سوء فعل من استصحب في جهته فكرة سوء ، أو في أمر زوجاته ونحو ذلك . والصلاة من
الله رحمته ورضوانه ، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره .
مسألة — واختلاف العلماء في الضمير في قوله : « يُصَلُّونَ » فقالت فرقة : الضمير فيه
لله والملائكة ؛ وهذا قول من الله تعالى شرف به ملائكته ، فلا يصحبه الاعتراض الذي جاء
في قول الخطيب : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى . فقال له رسول
الله صلى الله عليه وسلم : ” بئس الخطيب أنت ، قل ومن يعص الله ورسوله “ أخرجه
الصحيح . قالوا : لأنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره في ضمير ، والله أن يفعل
في ذلك ما يشاء . وقالت فرقة : في الكلام حذف ، تقديره إن الله يصلي وملائكته يصلون ،
وليس في الآية اجتماع في ضمير ، وذلك جائز للبشر فعله . ولم يقل رسول الله صلى الله عليه
وسلم ” بئس الخطيب أنت “ لهذا المعنى ، وإنما قاله لأن الخطيب وقف على ومن يعصهما ،
وسكت سكتة . واستدلوا بما رواه أبو داود عن عدي بن حاتم أن خطيبا خطب عند النبي
صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله ومن يعصهما . فقال : ” قم — أو اذهب —
بئس الخطيب أنت “ . إلا أنه يحتمل أن يكون لما خاطاه في وقفه وقال له : ” بئس الخطيب “
أصلح له بعد ذلك جميع كلامه ، فقال : ” قل ومن يعص الله ورسوله “ كما في كتاب مسلم .
وهو يؤيد القول الأول بأنه لم يقف على « ومن يعصهما » . وقرأ ابن عباس : « وملائكته »
بالرفع على موضع اسم الله قبل دخول « إن » . والجمهور بالنصب عطفا على المكتوبة .

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » أمر الله تعالى
عباده بالصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم دون أنبيائه تشريفا له ، ولا خلاف في أن

الصلاة عليه فرض في العمر مرة ، وفي كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ولا يغفلها إلا من لاخير فيه . الرَّخْشَرَى : فإن قلت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة أم مندوب إليها ؟ قلت : بل واجبة . وقد اختلفوا في حال وجوبها ، فمنهم من أوجبها كلها جرى ذكره . وفي الحديث : ” من ذكرت عنده فلم يصل على فدخل النار فأبعده الله “ . ويروى أنه قيل له : يا رسول الله ، أرايت قول الله عز وجل : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” هذا من العلم الممكن ولولا أنكم سألتوني عنه ما أخبرتكم به إن الله تعالى وكل بي ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصلّي على إلا قال ذلك الملكان غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جواباً لذينك الملكين آمين . ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلّي على إلا قال ذلك الملكان لا غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته لذينك الملكين آمين “ . ومنهم من قال : تجب في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره ، كما قال في آية السجدة وتشميت العاطس . وكذلك في كل دعاء في أوله وآخره ومنهم من أوجبها في العمر . وكذلك قال في إظهار الشهادتين . والذي يقتضيه الاحتياط : الصلاة عند كل ذكر ، لما ورد من الأخبار في ذلك

الثانية — واختلفت الآثار في صفة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، فروى مالك عن أبي مسعود الأنصاري قال : أنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مجلس سعد ابن عباد ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله ، فكيف نصلي عليك ؟ قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد والصلام كما قد علمتم “ . ورواه النسائي عن طلحة مثله ، بإسقاط قوله : ” في العالمين “ وقوله : ” والصلام كما قد علمتم “ . وفي الباب عن كعب بن عُجرة وأبي حميد الساعدي وأبي سعيد الخدري وعلي بن أبي طالب وأبي هريرة وبريدة الخزاعي وزيد بن خارجة ،

ويقال ابن حارثة . أخرجهما أئمة أهل الحديث في كتبهم . وصحح الترمذى حديث كعب ابن عُجْرَة . نَرَجَّه مسلم في صحيحه مع حديث أبي حميد الساعدي . قال أبو عمر : روى شُعبة والثوري عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عُجْرَة قال : لما نزل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة ؟ فقال : " قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد " وهذا لفظ حديث الثوري لا حديث شعبة ، وهو يدخل في التفسير المسند إليه لقول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » فبين كيف الصلاة عليه وعلهم في التحيات كيف السلام عليه ، وهو قوله : " السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته " . وروى المسعودي عن عون ابن عبد الله عن أبي فاخنة عن الأسود عن عبد الله أنه قال : إذا صليت على النبي صلى الله عليه وسلم فأحسنوا الصلاة عليه ؛ فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه . قالوا فاعلمنا ؛ قال : " قولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ونبيك ورسولك إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة . اللهم أبعثه مقامًا محمودًا يغبطه به الأولون والآخرون . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد " . وروينا بالإسناد المتصل في كتاب (الشفا) للقاضي عياض عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : عذهن في يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " عذهن في يدي جبريل وقال هكذا أنزلت من عند رب العزة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم وترحم على محمد وعلى آل محمد كما ترحم على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم وتحنن على محمد

وعلى آل محمد كما تحننت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد“ . قال ابن العربي : من هذه الروايات صحيح ومنها سقيم ، وأصحها ما رواه مالك فاعتمده . ورواية غير مالك من زيادة الرحمة مع الصلاة وغيرها لا يقوى ، وإنما على الناس أن ينظروا في أديانهم نظرم في أموالهم ، وهم لا يأخذون في البيع ديناراً معيباً ، وإنما يختارون السالم الطيب ، كذلك لا يؤخذ من الروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم سنده ، لئلا يدخل في حيز الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو يطلب الفضل إذا به قد أصاب النقص ، بل ربما أصاب الخسران المبين .

الثالثة — في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا “ . وقال سهل بن عبد الله : الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم أفضل العبادات ، لأن الله تعالى تولاهما هو وملائكته ، ثم أمر بها المؤمنين ، وسائر العبادات ليس كذلك . قال أبو سليمان الداراني : من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يسأل الله حاجته ، ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى يقبل الصلوتين وهو أكرم من أن يرد ما بينهما . وروى سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : الدعاء يُجَّجْ دون السماء حتى يصل على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا جاءت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم رفع الدعاء . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” من صلى على في كتاب لم تزل الملائكة يصلون عليه ما دام اسمي في ذلك الكتاب “ .

الرابعة — واختلف العلماء في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة ؛ فالذي عليه الجَم الغفير والجمهور الكثير : أن ذلك من سنن الصلاة ومستحباتها . قال ابن المنذر : يستحب ألا يصل أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ترك ذلك تارك فصلاته مجزية في مذهب مالك وأهل المدينة وسفيان الثوري وأهل الكوفة من أصحاب الرأي وغيرهم . وهو قول جُل أهل العلم . وحكى عن مالك وسفيان أنها في التشهد الأخير

مستحبة ، وأن تاركها في التشهد مسيء . وشذ الشافعي فأوجب على تاركها في الصلاة الإعادة . وأوجب إسحاق الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان . وقال أبو عمر : قال الشافعي إذا لم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم في التشهد الأخير بعد التشهد وقبل التسليم أعاد الصلاة . قال : وإن صلى عليه قبل ذلك لم تجزه . وهذا قول حكاه عنه حرمله بن يحيى ، لا يكاد يوجد هكذا عن الشافعي إلا من رواية حرمله عنه ، وهو من كبار أصحابه الذين كتبوا كتبه . وقد تقلده أصحاب الشافعي ومالوا إليه وناظروا عليه ، وهو عندهم تحصيل مذهبه . وزعم الطحاوي أنه لم يقل به أحد من أهل العلم غيره . وقال الخطابي وهو من أصحاب الشافعي : وليست بواجبة في الصلاة ، وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعي ، ولا أعلم له فيها قدوة . والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عمل الساف الصالح قبل الشافعي وإجماعهم عليه ، وقد شُنع عليه في هذه المسألة جدا . وهذا تشهد ابن مسعود الذي اختاره الشافعي وهو الذي علمه النبي صلى الله عليه وسلم ، ليس فيه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كل من روى التشهد عنه صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عمر : كان أبو بكر يعلمنا التشهد على المنبر كما تعلمون الصبيان في الكتاب . وعلمه أيضا على المنبر عمر ، وليس فيه ذكر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

قلت : قد قال بوجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة محمد بن المواز من أصحابنا فيما ذكر ابن القصار وعبد الوهاب ، واختاره ابن العربي للحديث الصحيح : إن الله أمرنا أن نصلي عليك فكيف نصلي عليك ؟ فعلم الصلاة ووقتها فتعينت كيفية ووقتها . وذكر الدارقطني عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين أنه قال : لو صليت صلاة لم أصلي فيها على النبي صلى الله عليه وسلم ولا على أهل بيته لرأيت أنها لا تتم . وروى مرفوعا عنه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم . والصواب أنه قول أبي جعفر ، قاله الدارقطني .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ قال القاضي أبو بكر بن بكير : نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم فأمر الله أصحابه أن يسلموا عليه . وكذلك من بعدهم امروا

أن يسلموا عليه عند حضورهم قبره وعند ذكره . وروى النسائي عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى في وجهه ، فقالت : إنا لنرى البشرى في وجهك ! فقال : ” إنه أتاني الملك فقال يا محمد إن ربك يقول أما يرضيك إنه لا يصفى عليك أحد إلا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشرا “ . وعن محمد بن عبد الرحمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” ما منكم من أحد يسلم على إذا مت إلا جاءني سلامه مع جبريل يقول يا محمد هذا فلان بن فلان يقرأ عليك السلام فأقول وعليه السلام ورحمة الله وبركاته “ وروى النسائي عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام “ . قال القشيري : والتسليم قولك : سلام عليك .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا** ﴿٥٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — اختلف العلماء في أذية الله بماذا تكون ؟ فقال الجمهور من العلماء : معناه بالكفر ونسبة الصحابة والولد والشريك إليه ، ووصفه بما لا يليق به ؛ كقول اليهود لعنهم الله : وقالت اليهود يد الله مغلولة . والنصارى : المسيح ابن الله . والمشركون : الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه . وفي صحيح البخارى قال الله تعالى : ” كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك ... “ الحديث . وقد تقدم في سورة « مريم » ^(١) . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال الله تبارك وتعالى : ” يؤذيني ابن آدم يقول يا خيبة الدهر فلا يقول أحدكم يا خيبة الدهر فلاني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما “ . هكذا جاء هذا الحديث موقوفا على أبي هريرة في هذه الرواية . وقد جاء مرفوعا عنه ” يؤذيني ابن آدم

يُسَبِّ الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار“ أخرجه أيضا مسلم . وقال عكرمة : معناه بالتصوير والتعرض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور وغيرها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لعن الله المصوّرين “ . قلت : وهذا مما يقوّى قول مجاهد في المنع من تصوير الشجر وغيرها ؛ إذ كل ذلك صفة اختراع وتشبه بفعل الله الذي انفرد به سبحانه وتعالى . وقد تقدّم هذا في سورة « النمل »^(١) والحمد لله . وقالت فرقة : ذلك على حذف مضاف ، تقديره : يؤذون أولياء الله . وأما أذية رسوله صلى الله عليه وسلم فهي كل ما يؤذيه من الأقوال في غير معنى واحد ، ومن الأفعال أيضا . أما قولهم : « فساخر . شاعر . كاهن مجنون . وأما فعلهم : فكسر رباعيته وشج وجهه يوم أحد ، وبمكة إلقاء السِّلَى على ظهره وهو ساجد » إلى غير ذلك . وقال ابن عباس : نزلت في الذين طعنوا عليه حين آتخذ صفية بنت حُجَيٍّ . وأطلق إيذاء الله ورسوله وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبدا . وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فنه . . ومنه . .

الثانية — قال علماءنا : والطعن في تأمير أسامة بن زيد أذية له عليه السلام . روى الصحيح عن ابن عمر قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا وأمر عليهم أسامة ابن زيد فطعن الناس في إمرته ؛ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ” إن تطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمره أبيه من قبل وأيم الله إن كان خليقا للإمارة وإن كان لئن أحب الناس إلى وإن هذا لمن أحب الناس إلى بعده “ . وهذا البعث — والله أعلم — هو الذي جهّزه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أسامة وأمره عليهم وأمره أن يغزوا « أُبَيَّ » وهي القرية التي عند مُؤَتَّة ، الموضع الذي قُتل فيه زيد أبوه مع جعفر بن أبي طالب وعبد الله ابن رَوَاحَة . فأمره أن يأخذ بشار أبيه فطعن من في قلبه ريب في إمرته ؛ من حيث إنه كان من الموالي ، ومن حيث إنه كان صغير السن ؛ لأنه كان إذ ذاك ابن ثمان عشرة سنة ؛ فمات النبي صلى الله عليه وسلم وقد برز هذا البعث عن المدينة ولم ينفصل بعد عنها ؛ فنفضه أبو بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثالثة - في هذا الحديث أوضح دليل على جواز إمامة المَوَلَى والمفضول على غيرهما ما عدا الإمامة الكبرى . وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم سالماً مولى أبي حذيفة على الصلاة بقباء ، فكان يؤتمهم وفيهم أبو بكر وعمر وغيرهم من كبار قريش . وروى الصحيح عن عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بمُسَفَّان ، وكان عمر يستعمله على مكة فقال : من استعملت على هذا الوادي ؟ قال : ابن أبزى . قال : ومن ابن أبزى ؟ قال : مَوَلَى من موالينا . قال : فأستخلفت عليهم مَوَلَى ! قال : إنه لقارئ لكتاب الله وإنه لعالم بالفرائض - قال - أما إن نبيكم قد قال : "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين" .

الرابعة - كان أسامة رضي الله عنه الحب ابن الحب وبذلك كان يُدعى ، وكان أسود شديداً السواد ، وكان زيد أبوه أبيض من القطن . هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح . وقال غير أحمد : كان زيد أزهر اللون وكان أسامة شديداً الأدمة . ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُحَسِّن أسامة وهو صغير ويمسح غطاءه ، وينتقى أنفه ويقول : "لو كان أسامة جارية لزيّناه وجهزناه وحَبَّبناه إلى الأزواج" . وقد ذكر أن سبب ارتداد العرب بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه لما كان عليه السلام في حجة الوداع بجبل عرفة عشية عرفة عند النَّفَر ، احتبس النبي صلى الله عليه وسلم قليلاً بسبب أسامة إلى أن أتاه ، فقالوا : ما احتبس إلا لأجل هذا ! تحقيراً له . فكان قولهم هذا سبب ارتدادهم . ذكره البخاري في التاريخ بمعناه . والله أعلم .

الخامسة - كان عمر رضي الله عنه يفرض لأسامة في العطاء خمسة آلاف ، ولأبنة عبد الله ألفين ، فقال له عبد الله : فضلت على أسامة وقد شهدت ما لم يشهد ! فقال : إن أسامة كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، وأباه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ، ففضل رضي الله عنه محبوب رسول الله صلى الله عليه وسلم على محبوبه . وهكذا يجب أن يُحَبَّ ما أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُبَغِّض مَنْ أبغض . وقد قابل مروان هذا الحب بنقيضه ، وذلك أنه مرّ بأسامة بن زيد وهو يصلي عند باب بيت

النبي صلى الله عليه وسلم فقال له مروان : إنما أردت أن نرى مكانك ، فقد رأينا مكانك ، فعل الله بك ! وقال قولاً قبيحاً . فقال له أسامة : إنك آذيتني ، وإنك فاحش متفحش ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى يبغض الفاحش المتفحش " . فانظر ما بين الفعلين وقس ما بين الرجلين ، فقد آذى بنو أمية النبي صلى الله عليه وسلم في أحبابه ، وناقضوه في محابه .

قوله تعالى : (لَعَنَهُمُ اللَّهُ) معناه أبعدوا من كل خير . واللعن في اللغة : الإبعاد ، ومنه اللعان . (وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا) تقدم معناه في غير موضع . والحمد لله رب العالمين .
قوله تعالى : وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾

أذية المؤمنين والمؤمنات هي أيضا بالأفعال والأقوال القبيحة ، كالبهتان والتكذيب الفاحش المختلق . وهذه الآية نظير الآية التي في النساء : « وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا »^(٢) كما قال هنا . وقد قيل : إن من الأذية تعييره بحسب مذموم ، أو حرفة مذمومة ، أو شيء يثقل عليه إذا سمعه ، لأن أذاه في الجملة حرام . وقد ميز الله تعالى بين أذاه وأذى الرسول وأذى المؤمنين بفعل الأول كفرا والثاني كبيرة ، فقال في أذى المؤمنين : (فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا) وقد بيناه . وروى أن عمر بن الخطاب قال لأبي بن كعب : قرأت الباردة هذه الآية ففزعت منها « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا » الآية ، والله إني لأضربهم وأنهرهم . فقال له أبي : يا أمير المؤمنين ، لست منهم ، إنما أنت معلم ومقوم . وقد قيل : إن سبب نزول هذه الآية أن عمر رأى جارية من الأنصار فضربها وكره ما رأى من زينتها ، فخرج أهلها فأذوا عمر باللسان ، فأنزل الله هذه الآية . وقيل : نزلت في علي ، فإن المنافقين كانوا يؤذونه ويكذبون عليه . رضى الله عنه .

قوله تعالى : يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يُعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ ﴾ قد مضى الكلام في تفضيل أزواجه واحدة واحدة . قال قتادة : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تسع . خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة . وثلاث من سائر العرب : ميمونة ، وزينب بنت جحش ، وجويرية . وواحدة من بني هارون : صفية . وأما أولاده فكان للنبي صلى الله عليه وسلم أولاد ذكور وإناث .

فالذكور من أولاده : القاسم ، أمه خديجة ، وبه كان يُكنى صلى الله عليه وسلم ، وهو أول من مات من أولاده ، وعاش سنتين . وقال عروة : ولدت خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم القاسم والطاهر وعبد الله والطيب . وقال أبو بكر البرقي : ويقال إن الطاهر هو الطيب وهو عبد الله . وإبراهيم أمه مارية القبطية ، ولد في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة ، وتوفي ابن ستة عشر شهرا ، وقيل ثمانية عشر ، ذكره الدارقطني . ودفن بالبقيع . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن له مرضعا تُتم رضاعه في الجنة " . وجميع أولاد النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة سوى إبراهيم . وكل أولاده ماتوا في حياته غير فاطمة .

وأما الإناث من أولاده فمنهن : فاطمة الزهراء بنت خديجة ، ولدتها وقريش تبنى البيت قبل النبوة بخمس سنين ، وهي أصغر بناته ، وتزوجها علي رضي الله عنهما في . . . ثانية من الهجرة في رمضان ، وبني بها في ذي الحجة . وقيل : تزوجها في رجب ، وتوفيت بعده رسول الله صلى الله عليه وسلم بيسير ، وهي أول من لحقه من أهل بيته . رضي الله عنها .

(١) راجع ص ١٦٢ فما بعد من هذا الجزء .

ومنهن : زينب — أمها خديجة — تزوجها ابن خالتها أبو العاصي بن الربيع ، وكانت أم العاصي هالة بنت خويلد أخت خديجة . وأمهم أبي العاصي لقيط . وقيل هاشم . وقيل هُشيم . وقيل مِقْسَم . وكانت أكبر بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفيت سنة ثمان من الهجرة ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبرها .

ومنهن : رُقَيْة — أمها خديجة — تزوجها عتبة بن أبي لهب قبل النبوة ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ^(١) » قال أبو لهب لابنه : رأسى من رأسك حرام إن لم تطلق أبنته ؛ ففارقها ولم يكن بئى بها . وأسلمت حين أسلمت أمها خديجة ، وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم هي وأخواتها حين بايعه النساء ، وتزوجها عثمان بن عفان ، وكانت نساء قريش يقلن حين تزوجها عثمان :

أحسنُ شخصين رأى لإنسانُ * رُقَيْةٌ وبعلاها عثمانُ

وهاجرت معه إلى أرض الحبشة الهجرتين ، وكانت قد أسقطت من عثمان سقطاً ، ثم ولدت بعد ذلك عبد الله ، وكان عثمان يُكنى به في الإسلام ، وبلغ ست سنين فنقره ديك في وجهه فمات ، ولم تلد له شيئاً بعد ذلك . وهاجرت إلى المدينة ومرضت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز إلى بدر فخلف عثمان عليها ، فتوفيت ورسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ، على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة . وقدم زيد بن حارثة بشيراً من بدر ، فدخل المدينة حين سوى التراب على رُقَيْة . ولم يشهد دفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهن : أم كلثوم — أمها خديجة — تزوجها عتبة بن أبي لهب — أخو عتبة — قبل النبوة ، وأمره أبوه أن يفارقها للسبب المذكور في أمر رُقَيْة ، ولم يكن دخل بها ، فلم تزل بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأسلمت حين أسلمت أمها ، وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أخواتها حين بايعه النساء ، وهاجرت إلى المدينة حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما توفيت رُقَيْة تزوجها عثمان ، وبذلك سمى ذا النورين . وتوفيت

(١) راجع ج ٢٠ ص ٢٣٤ . (٢) السقط : بتلث السين ؛ والكسر أكثر .

في حياة النبي صلى الله عليه وسلم في شعبان سنة تسع من الهجرة . وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرها، ونزل في حفرتها على الفضل وأسامة . وذكر الزبير بن بكار أن أكبر ولد النبي صلى الله عليه وسلم : القاسم ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، وكان يقال له الطيب والظاهر ، وولد بعد النبوة ومات صغيرا . ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية . فمات القاسم بمكة ثم مات عبد الله .

الثانية — لما كانت عادة العربيات التبذل ، وكُنَّ يكشفن وجوههن كما يفعل الإماماء ، وكان ذلك داعية إلى نظر الرجال إليهن ، وتشعب الفكرة فيهن ، أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمرهن بإرخاء الجلابيب عليهن إذا أردن الخروج إلى حوائجهن ، وكُنَّ يتبرزن في الصحراء قبل أن تتخذ الكُنْف — فيقع الفرق بينهن وبين الإماماء ، فتعرف الحرائر بسترهن ، فيكف عن معارضتهن من كان عذبا أو شابا . وكانت المرأة من نساء المؤمنين قبل نزول هذه الآية تتبرز للحاجة فيتعرض لها بعض الفجار يظن أنها أمة ، فتصبح به فيذهب ، فشكوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم . ونزلت الآية بسبب ذلك . قال معناه الحسن وغيره .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ جَلَابِيبٍ ﴾ الجلابيب جمع جلباب ، وهو ثوب أكبر من الخمار . وروى عن ابن عباس وابن مسعود أنه الرداء . وقد قيل : إنه القناع . والصحيح أنه الثوب الذي يستر جميع البدن . وفي صحيح مسلم عن أم عطية قلت : يا رسول الله ، إحدانا لا يكون لها جلباب ؟ قال : " تُلْبِسُهَا أَخْتُهَا مِنْ جَلَابِيبِهَا " .

الرابعة — واختلف الناس في صورة إرخائه ، فقال ابن عباس وعبيدة السلماني : ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها . وقال ابن عباس أيضا وقتادة : ذلك أن تلويه فوق الجبين وتشده ، ثم تعطفه على الأنف ، وإن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه . وقال الحسن : تغطي نصف وجهها .

الخامسة — أمر الله سبحانه جميع النساء بالستر ، وأن ذلك لا يكون إلا بما لا يصف جلدتها ، إلا إذا كانت مع زوجها فلها أن تلبس ما شاءت ؛ لأن له أن يستمتع بها كيف شاء .

ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ ليلة فقال : ”سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن وماذا فتح من الخزائن من يوقظ صواحب الحجر رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة“ .
وروى أن دحية الكلبي لما رجع من عند هيرقل فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم قبضة ، فقال : ”اجعل صديماً لك قميصاً وأعط صاحبك صديقاً تختمر به“ . والصديع النصف .
ثم قال له : ”مرها تجعل تحتها شيئاً لئلا يصف“ . وذكر أبو هريرة رقة الثياب للنساء فقال :
الكاسيات العاريات الناعمات الشقيات . ودخل نسوة من بنى تميم على عائشة رضي الله عنها^(١)
عليهن ثياب رقاق ، فقالت عائشة : إن كنتن مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات ، وإن^(٢)
كنتن غير مؤمنات فتمتعينه . وأدخلت امرأة عروس على عائشة رضي الله عنها وعليها نحر قبطة
مُعَصْفَر ، فلما رأتها قالت : لم تؤمن بسورة « النور » امرأة تلبس هذا . وثبت عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال : ”نساء كاسيات عاريات مائلات مُمِيلَات رءوسهن مثل أسنمة البُخْت
لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا“ . وقال عمر رضي الله عنه : ما يمنع المرأة المسلمة إذا كانت
لها حاجة أن تخرج في أطمارها أو أطمار جارتها مستخفية ، لا يعلم بها أحد حتى ترجع إلى بيتها .
السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ أَذْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ ﴾ أى الحرائر ، حتى لا يختلطن
بالإماء ، فإذا عُرفن لم يقابلن بأذن من المعارضة مراقبة لرتبة الحرية ، فنقطع الأطمار عنهن .
وليس المعنى أن تُعرف المرأة حتى تُعلم من هي . وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى أمة قد
تقنعت ضربها بالدرّة ، محافظة على زى الحرائر . وقد قيل : إنه يجب الستر والتقنع الآن
في حق الجميع من الحرائر والإماء . وهذا كما أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا النساء
المساجد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قوله : ”لا تمنعوا إماء الله مساجد الله“
حتى قالت عائشة رضي الله عنها : لو عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا لمنعهن
من الخروج إلى المساجد كما مُنعت نساء بنى إسرائيل . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ تأنيس
للنساء في ترك الحلايب قبل هذا الأمر المشروع .

(١) في ح : « المنعمات » . (٢) وردت هذه الكلمة محذوفة في نسخ الأصل ، ولعلها « فتمتنع به » .

(٣) الأطمار : جمع الطمر (بكسر الطاء وسكون الميم) وهو الثوب الخلق .

قوله تعالى : لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦١﴾
مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقُفُوا أَخَذُوا وَثَقُلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا
مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٣﴾
فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ) الآية . أهل التفسير على أن الأوصاف
الثلاثة لشيء واحد ؛ كما روى سفيان بن سعيد عن منصور عن أبي رزين قال : « الْمُنَافِقُونَ
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ » قال : هم شيء واحد ، يعني أنهم قد جمعوا
هذه الأشياء . والواو مقحمة ، كما قال :

إلى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتبية في المزدحم

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتبية ، وقد مضى في « البقرة »^(١) . وقيل : كان
منهم قوم يُرجفون ، وقوم يتبعون النساء للرّيبة ، وقوم يشككون المسلمين . قال عكرمة وشهر
ابن حوشب : « الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » يعني الذين في قلوبهم الزنى . وقال طاوس :
نزلت هذه الآية في أمر النساء . وقال سلمة بن كهيل : نزلت في أصحاب الفواحش ، والمعنى
متقارب . وقيل : المنافقون والذين في قلوبهم مرض شيء واحد ، عبر عنهم بلفظين ؛ دليله
آية المنافقين في أول سورة « البقرة »^(١) . والمرجفون في المدينة قوم كانوا يخبرون المؤمنين
بما يسوءهم من عدوهم ، فيقولون إذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنهم قد
قتلوا أو هزموا ، وإن العدو قد أهلك ، قاله قتادة وغيره . وقيل كانوا يقولون : أصحاب
الصفّة قوم عزّاب ، فهم الذين يتعرّضون للنساء . وقيل : هم قوم من المسلمين ينطقون
بالأخبار الكاذبة حباً للفتنة . وقد كان في أصحاب الإفك قوم مسلمون ولكنهم خاضوا حباً

للفتنة . وقال ابن عباس : الإرجاف التماس الفتنة ، والإرجاف : إشاعة الكذب والباطل للاعتقاد^(١) به . وقيل : تحريك القلوب ، يقال : رجفت الأرض — أى تحزكت وتزلزلت — ترجف رجفا . والرجفان : الاضطراب الشديد . والرجاف : البحر ، سُمي به لاضطرابه . قال الشاعر :

المطعمون اللحم كلَّ عشيّة * حتى تغيب الشمس في الرجاف^(٢)

والإرجاف : واحد أراجيف الأخبار . وقد أرجفوا في الشيء ، أى خاضوا فيه . قال الشاعر :

فأنا وإن صيرتمونا بقتله * وأرجف بالإسلام باغ وحاسد

وقال آخر :

أبالأراجيف يابن اللؤم توعدنى * وفي الأراجيف خلت اللؤم والخور^(٣)

فالإرجاف حرام ، لأن فيه إذابة . فدلّت الآية على تحريم الإيذاء بالإرجاف .

الثانية — قوله تعالى : (لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ) أى لنسلطنك عليهم فتسأصلهم بالقتل .

وقال ابن عباس : لم ينتهوا عن إيذاء النساء وأن الله عز وجل قد أغراه بهن . ثم إنه قال عز وجل : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُنَّ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ »^(٤) وإنه أمره بلعنهم ، وهذا هو الإغراء ؛ وقال محمد بن يزيد : قد أغراه بهن في الآية التي تلى هذه مع اتصال الكلام بها ، وهو قوله عز وجل : « أَيْنَمَا تُقِفُوا أَخَذُوا وَقَتَّلُوا تَقْتِيلًا » . فهذا فيه معنى الأمر

(١) في ز : « الاهتمام » وفي ش : الإغمام . (٢) قال ابن برى : البيت لمطروود بن كعب الخزاعي

يرقى عبد المطلب جد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقوله :

يأيها الرجل المحول رحله * هلا نزلت بآل عبد مناف

(٣) البيت للعين المنقرى يهجو به العجاج أورؤية . والرواية المعروفة فيه :

أبالأراجيف يابن اللؤم توعدنى * وفي الأراجيف خلت اللؤم والخور

والأراجيف : جمع أرجوزة بمعنى الرجز ، وهو بحر من بحور الشعر . وجاء به علماء النحو شاهدا على أن « خلت » من الأفعال التي يلغى عملها لتوسطها بين مفعولها . ولو نصبت قوله « اللؤم والخور » على المفعولية لحاز . (راجع

كتاب سيبويه ج ١ ص ٦١ وباب ظن وأخواتها في كتب النحو) . (٤) راجع ج ٨ ص ٢١٨ .

بقتلهم وأخذهم ؛ أى هذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف . وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : « نَحْمَسُ يُقْتَلُنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ » . فهذا فيه معنى الأمر كالأية سواء . النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فى الآية . وقيل : إنهم قد انتهوا عن الإرجاف فلم يُغَرِّبَهُمْ . ولام « لَتُغَرِّبَنَّكَ » لام القسم ، واليمين واقعة عليها ، وأدخلت اللام فى « إن » توطئة لها .

الثالثة — قوله تعالى : « ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا » أى فى المدينة . (إِلَّا قَلِيلًا) نصب على الحال من الضمير فى « يُجَاوِرُونَكَ » ، فكان الأمر كما قال تبارك وتعالى ؛ لأنهم لم يكونوا إلا أقلاء . فهذا أحد جوابى الفراء ، وهو الأولى عنده ، أى لا يجاورونك إلا فى حال قلتهم . والجواب الآخر — أن يكون المعنى إلا وقتنا قليلا ، أى لا يبقون معك إلا مدة يسيرة ، أى لا يجاورونك فيها إلا جوارا قليلا حتى يهلكوا ، فيكون نعتا لمصدر أو ظرف محذوف . ودل على أن من كان معك ساكنا بالمدينة فهو جار . وقد مضى فى « النساء » .

الرابعة — قوله تعالى : « مَلْعُونِينَ » هذا تمام الكلام عند محمد بن يزيد ، وهو منصوب على الحال . وقال ابن الأنبارى : « قَلِيلًا مَلْعُونِينَ » وقف حسن . النحاس : ويجوز أن يكون التمام « إِلَّا قَلِيلًا » وتنصب « مَلْعُونِينَ » على الشتم . كما قرأ عيسى بن عمر : « وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ » . وقد حكى عن بعض النحويين أنه قال : يكون المعنى أينما نُقِفُوا أخذوا ملعونين . وهذا خطأ لا يعمل ما [كان] مع المجازاة فيما قبله . وقيل : معنى الآية إن أصرّوا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلا وهم مطرودون ملعونون . وقد فعل بهم هذا ، فإنه لما نزلت سورة « براءة » جمعوا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يَا فُلَانُ قُمْ فَانْجِرْ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ وَيَا فُلَانُ قُمْ » فقام إخوانهم من المسلمين وتولّوا إخراجهم من المسجد .

الخامسة — قوله تعالى : « سُنَّةَ اللَّهِ » نصب على المصدر ؛ أى سن الله جل وعز فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويُقتل . (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) أى تحويلا وتغيرا ، حكاه النقاش . وقال السدى : يعنى أن من قُتِلَ بِحَقِّ فَلَانٍ دِيَّةٌ عَلَى قَاتِلِهِ .

المهدوي : وفي الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد ، والدليل على ذلك بقاء المنافقين معه حتى مات . والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم وتأخير وعيدهم ، وقد مضى هذا في « آل عمران »^(١) وغيرها .

قوله تعالى : **يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةُ تَكُونُ قَرِيبًا** ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : **(يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ)** هؤلاء المؤذنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما تَوَعَّدُوا بالعذاب سألوا عن الساعة ، استبعادا وتكديبا ، موهمين أنها لا تكون . **(قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ)** أى أجبههم عن سؤالهم وقل علمها عند الله ، وليس فى إخفاء الله وقتها عنى ما يبطل نبؤى ، وليس من شرط النبى أن يعلم الغيب بغير تعليم من الله جل وعز . **(وَمَا يُدْرِيكَ)** أى ما يعلمك . **(لَعَلَّ السَّاعَةُ تَكُونُ قَرِيبًا)** أى فى زمان قريب . وقال صلى الله عليه وسلم : " بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ " وأشار إلى السَّابَّةِ والوسطى ، خرجه أهل الصحيح . وقيل : أى ليست الساعة تكون قريبا ، فحذف هاء التانيث ذهابا بالساعة إلى اليوم ؛ كقوله : **« إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ »** ولم يقل قريبة ذهابا بالرحمة إلى العفو ، إذ ليس تأنيثها أصليا . وقد مضى هذا مستوفى . وقيل : ^(٢) إنما أخفى وقت الساعة ليكون العبد مستعدا لها فى كل وقت

قوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا** ﴿٦٤﴾
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : **(إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ)** أى طردهم وأبعدهم . واللعن : الطرد والإبعاد عن الرحمة . وقد مضى فى « البقرة » بيانه . **(وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)** فأنث السعير لأنها بمعنى النار . **(لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)** ينجيهم من عذاب الله والخلود فيه .

قوله تعالى : **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ** ﴿٦٦﴾ **وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ** ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : **(يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ)** قراءة العامة بضم التاء وفتح اللام، على الفعل المجهول . وقرأ عيسى الهمداني وابن إسحاق : « نُقَلَّبُ » بنون وكسر اللام . « وُجُوهُهُمْ » نصبا . وقرأ عيسى أيضا : « تُقَلَّبُ » بضم التاء وكسر اللام على معنى تقاب السعير وجوهمهم . وهذا التقلب تغيير ألوانهم بلفح النار، فتسود مرة وتخضر أخرى . وإذا بدلت جلودهم بجلود أخرى فينشد يمتنون أنهم ما كفروا **(يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا)** . ويجوز أن يكون المعنى : يقولون يوم تقلب وجوههم في النار يا ليتنا . **(أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ)** أى لم نكفر فنتنجز من هذا العذاب كما نجا المؤمنون . وهذه الألف تقع في الفواصل فيوقف عليها ولا يوصل بها . وكذا « السَّبِيلَا » وقد مضى في أول السورة . وقرأ الحسن : **(إِنَّا أَطَعْنَا سَادَاتِنَا)** بكسر التاء ، جمع سادة . وكان في هذا زجر عن التقليد . والسادة جمع السيد ، وهو قعدة ، مثل كتبة وبخرة . وساداتنا جمع الجمع . والسادة والكبراء بمعنى . وقال قتادة : هم المطعمون في غزوة بدر . والأظهر العموم في القادة والرؤساء في الشرك والضلالة ، أى أطعناهم في معصيتك وما دعونا إليه **(فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا)** أى عن السبيل وهو التوحيد ، فلما حذف الجار وصل الفعل فنصب . والإضلال لا يتعدى إلى مفعولين من غير توسط حرف الجر ، كقوله : **(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ)** ^(٢) .

قوله تعالى : **رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعَفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُهُمْ لَعَنَّا كَبِيرًا** ﴿٦٨﴾

(١) راجع ص ١٤٥ من هذا الجزء .

(٢) راجع ج ١٣ ص ٢٥ فـأ بعد .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ قال قتادة : عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . وقيل : عذاب الكفر وعذاب الإضلال ؛ أى عذبهم مثلى ماتعذبنا فلأنهم ضلوا وأضلوا . ﴿ وَالْعَنُومُ لَعْنَا كَبِيرًا ﴾ قرأ ابن مسعود وأصحابه ويحيى وعاصم بالباء . الباقون بالثاء ، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد والنحاس ، لقوله تعالى : « أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ^(١) » وهذا المعنى كثير . وقال محمد بن أبي السرى : رأيت فى المنام كأتى فى مسجد عسقلان وكان رجلا يناظرنى فيمن يفيض أصحاب محمد فقال : وألعنهم لعنا كثيرا ، ثم كررها حتى غاب عني ، لا يقولها إلا بالثاء . وقراءة الباء ترجع فى المعنى إلى الثاء ؛ لأن ما كبر كان كثيرا عظيم المقدار .

قوله تعالى : يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَىٰ فَهَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

لما ذكر الله تعالى المنافقين والكفار الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، حذر المؤمنين من التعرض للإيذاء ، ونهاهم عن التشبه ببنى إسرائيل فى أذيتهم نبيهم موسى . واختلف الناس فيما أودى به محمد صلى الله عليه وسلم وموسى ، فحكى النقاش أن أذيتهم محمدا عليه السلام قولهم : زيد بن محمد . وقال أبو وائل : أذيته أنه صلى الله عليه وسلم قسم قسما فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فغضب وقال : " رحم الله موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر " . وأما أذية موسى صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس وجماعة : هى ما تضمنته حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه قال : " كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة وكان موسى عليه السلام يتستر كثيرا ويخفى بدنه فقال قوم هو آدر وأبرص أو به آفة ، فانطلق ذات يوم يغتسل فى عين بارض الشام وجعل ثيابه على صخرة ففزع الحجر بثيابه واتبعه موسى عريانا يقول توبى حجر توبى حجر حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فنظروا إليه وهو من

(١) راجع ج ٢ ص ١٨٤ فما بعد . (٢) الأدره (وزان الفرقة) : انتفاخ الخصىة .

(٣) أى دع توبى بالحجر .

أحسنهم خلقاً وأعد لهم صورة وليس به الذى قالوا فهو قوله تبارك وتعالى : « فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا »^(١) أخرجه البخارى ومسلم بمعناه . ولفظ مسلم : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « كانت بنو إسرائيل يفتسلون عرابة ينظر بعضهم إلى سَوَاءٍ بعض وكان موسى عليه السلام يفتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يفتسل معنا إلا أنه آدر قال فذهب يوماً يفتسل^(٢)
 فوضع ثوبه على حجر فغمر الحجر بثوبه قال فجمع موسى عليه السلام بلائره يقول ثوبى حجرتوبى حجرتحتى نظرت بنو إسرائيل إلى سَوَاءٍ موسى وقالوا والله ما بموسى من بأس فقام الحجر حتى نظر إليه قال فأخذ ثوبه فطفيق بالحجر ضرباً^(٣) قال أبو هريرة : والله إنه بالحجر ندب ستة أو سبعة ضرب موسى بالحجر . فهذا قول . وروى عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال : آذوا موسى بأن قالوا : قتل هارون ؛ وذلك أن موسى وهرون نجرا من شخص التيه إلى جبل فمات هارون فيه ، بغاء موسى فقالت بنو إسرائيل لموسى : أنت قتلته ، وكان ألين لنا منك وأشد حُباً . فآذوه بذلك فأمر الله تعالى الملائكة فحملته حتى طافوا به فى بنى إسرائيل ، وراوا آية عظيمة دلتهم على صدق موسى ، ولم يكن فيه أثر القتل . وقد قيل : إن الملائكة تكلمت بموته ولم يعرف موضع قبره إلا الرخم ، وأنه تعالى جملة أصم أبكم . ومات هارون قبل موسى فى التيه ، ومات موسى قبل انقضاء مدة التيه بشهرين . وحكى القشيري عن علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه : أن الله تعالى أحيا هارون فأخبرهم أنه لم يقتله ، ثم مات . وقد قيل : إن أذية موسى عليه السلام رميمهم إياه بالسحر والجنون . والصحيح الأول . ويحتمل أن فعلوا كل ذلك فبرأه الله من جميع ذلك . مسألة — فى وضع موسى عليه السلام ثوبه على الحجر ودخوله فى الماء عرياناً — داليل على جواز ذلك ، وهو مذهب الجمهور . ومنعه ابن أبى ليلى واحتج بحديث لم يصح ، وهو

(١) فى مسلم : « مرة » . (٢) جرى أشد الجرى . (٣) الندب (بالتحريك) : أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد ، فشبه به أثر الضرب فى الحجر . (٤) قال ياقوت : الفحص كل موضع يسكن مهلاً كان أو جبلاً بشرط أن يزرع . والتيه : هو الموضع الذى ضل فيه موسى بن عمران عليه السلام وقومه . وهو أرض بين أيلة (العقبة) ومصر وبحر القلزم (البحر الأحمر) . وهو الآن قلب شبه جزيرة طور سينا .

قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تدخلوا الماء إلا بمئزر فإن للاء عامرا " . قال القاضى عياض : وهو ضعيف عند أهل العلم .

قلت : أما إنه يستحب التستر لما رواه إسرائيل عن عبد الأعلى أن الحسن بن علي دخل غديرا وعليه برد له متوشحا به ، فلما خرج قيل له ، قال : إنما تسترت ممن يرانى ولا أراه ؛ يعنى من ربي والملائكة . فإن قيل : كيف نادى موسى عليه السلام الحجر نداء من يعقل ؟ قيل : لأنه صدر عن الحجر فعل من يعقل . و « حَجْرٌ » منادى مفرد محذوف حرف النداء ، كما قال تعالى : « يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » . و « ثوبى » منصوب بفعل مضمر ، التقدير : أعطنى ثوبى ، أو اترك ثوبى ، فحذف الفعل لدلالة الحال عليه .

قوله تعالى : (وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا) أى عظيما . والوجيه عند العرب : العظيم القدر الرفيع المنزلة . ويروى أنه كان إذا سأل الله شيئا أعطاه إياه . وقرأ ابن مسعود : « وَكَانَ عَبْدًا لِلَّهِ » . وقيل : معنى « وَجِيهًا » أى كلمه تكليما . قال أبو بكر الأنبارى فى (كتاب الرد) : زعم من طعن فى القرآن أن المسلمين صحفوا « وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا » وأن الصواب عنده « وَكَانَ عَبْدًا لِلَّهِ وَجِيهًا » وذلك يدل على ضعف مقصده ونقصان فهمه وقلة علمه ، وذلك أن الآية لو حملت على قوله وقرئت : « وكان عبدا » نقص الثناء على موسى عليه السلام ؛ وذلك أن « وَجِيهًا » يكون عند أهل الدنيا وعند أهل زمانه وعند أهل الآخرة ، فلا يوقف على مكان المدح ، لأنه إن كان وجيها عند بنى الدنيا كان ذلك إنعاما من الله عليه لا يبين عليه معه ثناء من الله . فلما أوضح الله تعالى موضع المدح بقوله : « وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا » استحق الشرف وأعظم الرفعة بأن الوجاهة عند الله ، فمن غير اللفظة صرف عن نبي الله أنخر الثناء وأعظم المدح .

قوله تعالى : يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي فصدداً وحقاً ، وقال ابن عباس : أي صواباً . وقال قتادة ومقاتل : يعني قولوا قولاً سديداً في شأن زينب وزيد ، ولا تنسبوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما لا يحل . وقال عكرمة وابن عباس أيضاً : القول السداد لا إله إلا الله . وقيل : هو الذي يوافق ظاهره باطنه . وقيل : هو ما أريد به وجه الله دون غيره . وقيل : هو الإصلاح بين المشاجرين . وهو مأخوذ من تسديده السهم ليصاب به الغرض . والقول السداد يعم الخيرات ، فهو عام في جميع ما ذكر وغير ذلك . وظاهر الآية يعطى أنه إنما أشار إلى ما يكون خلافاً للأذى الذي قيل في جهة الرسول وجهة المؤمنين . ثم وعد جل وعز بأنه يجازى على القول السداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب ، وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة . ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي فيما أمر به ونهى عنه ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ .

قوله تعالى : إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

لما بين تعالى في هذه السورة من الأحكام ما بين ، أمر بالتزام أوامره . والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور . روى الترمذي الحكيم أبو عبد الله : حدثنا إسماعيل بن نصر عن صالح بن عبد الله عن محمد بن يزيد بن جوهر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله تعالى لآدم يا آدم إني عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطعها فهل أنت حاملها بما فيها فقال

وما فيها يارب قال إن حملتها أحرّت وإن ضيعتها عُدَّتْ فاحتملها بما فيها فلم يلبث في الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجهُ الشيطان منها . فالأمانة هي الفرائض التي ائتمن الله عليها العباد . وقد اختلف في تفاصيل بعضها على أقوال ؛ فقال ابن مسعود : هي في أمانات الأموال كالودائع وغيرها . وروى عنه أنها في كل الفرائض ، وأشدها أمانة المال . وقال أبي بن كعب : من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها . وقال أبو الدرداء : غسل الجنابة أمانة ، وأن الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها . وفي حديث مرفوع "الأمانة الصلاة" إن شئت قلت قد صليت وإن شئت قلت لم أصل . وكذلك الصيام وغسل الجنابة . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : أول ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه وقال هذه أمانة استودعتكها ، فلا تلبسها^(١) إلا بحق . فإن حفظتها حفظتك ، فالفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واللسان أمانة ، والبطن أمانة ، واليد أمانة ، والرجل أمانة ، ولا إيمان لمن لا أمانة له . وقال السدي : هي ائتمان آدم أبنه قابيل على ولده وأهله ، وخيانتة إياه في قتل أخيه . وذلك أن الله تعالى قال له : " يا آدم ، هل تعلم أن لي بيتا في الأرض " قال : " اللهم لا " قال : " فإن لي بيتا بمكة فاته ، فقال للسماء : احفظي ولدي بالأمانة ؟ فأبت ، وقال للأرض : احفظي ولدي بالأمانة فأبت ، وقال للجبال كذلك فأبت . فقال لقابيل : احفظ ولدي بالأمانة ، فقال نعم ، تذهب وترجع فتجد ولدك كما يسرك . فرجع فوجده قد قتل أخاه ، فذلك قوله تبارك وتعالى : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا » الآية . وروى معمر عن الحسن أن الأمانة عُرِضَتْ على السموات والأرض والجبال ، قالت : وما فيها ؟ قيل لها : إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت . فقالت لا . قال مجاهد : فلما خلق الله تعالى آدم عرضها عليه ، قال : وما هي ؟ قال : إن أحسنت أجزتك وإن

(١) كذا وردت هذه الجملة في نسخ الأصل . والذي في نوادر الأصول : « فلا تلبس منها شيئا إلا بحقها » والإيسال هنا التصريح ؛ وهو رواية الدر المنثور ؛ قال : « فلا تضيعها إلا في حقها » . يقال : أسلت فلانا إذا أسلمته للهلكة .

أسأت عذبتك . قال : فقد تحملتها يارب . قال مجاهد : فما كان بين أن تحملها إلى أن أخرج من الجنة إلا قدر ما بين الظهر والعصر . وروى على بن طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ » قال : الأمانة الفرائض ، عرضها الله عز وجل على السموات والأرض والجبال ، إن أدّوها أثابهم ، وإن ضيّعوها عذبهم . فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيماً لدين الله عز وجل ألا يقوموا به . ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها . قال النحاس : وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير . وقيل : لما حضرت آدم صلى الله عليه وسلم الوفاة أمر أن يعرض الأمانة على الخلق ، فعرضها فلم يقبلها إلا بنوه . وقيل : هذه الأمانة هي ما أودعه الله تعالى في السموات والأرض والجبال والخلق ، من الدلائل على ربوبيته أن يظهرها فأظهروها ، إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدما ، قاله بعض المتكلمين . ومعنى « عَرَضْنَا » أظهرنا ، كما تقول : عرضت الجارية على البيع . والمعنى إنا عرضنا الأمانة وتضييعها على أهل السموات وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن (فَأَيِّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا) أى أن يحمن وزرها ، كما قال جل وعز : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ^(١) » . (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) قال الحسن : المراد الكافر والمنافق . (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا) لنفسه (جَهُولًا) بربه . فيكون على هذا الجواب مجازاً ، مثل : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ^(٢) » . وفيه جواب آخر على أن يكون حقيقة أنه عرض على السموات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها وهي الثواب والعقاب ، أى أظهر لمن ذلك فلم يحمن وزرها ، وأشفقت وقالت : لا أبتغي ثواباً ولا عقاباً ، وكلُّ يقول : هذا أمر لا نطيقه ، ونحن لك سامعون ومطيعون فيما أمرن به ونُخَرَّن له ، قاله الحسن وغيره . قال العلماء : معلوم أن الجباد لا يفهم ولا يجيب ، فلا بد من تقدير الحياة على القول الأخير . وهذا العرض عرض تخيير لا إلزام . والعرض على الإنسان إلزام . وقال الفقهاء وغيره : العرض في هذه الآية ضرب مثل ، أى أن السموات والأرض على كبر أجرامها ، لو كانت بحيث يجوز تكليفها الثقل عابها

(٢) راجع ج ٩ ص ٢٤٥ فابعد .

(١) راجع ج ١٣ ص ٣٣٠ فابعد .

تقلد الشرائع ، لما فيها من الثواب والعقاب ، أى أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد كُلفه الإنسان وهو ظلموم جهول لو عقل . وهذا كقولہ : « لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ » - ثم قال : - « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » . قال القفال : فإذا تقرر في أنه تعالى يضرب الأمثال ، وورد علينا من الخبر ما لا يخرج إلا على ضرب المثل ، وجب حمله عليه . وقال قوم : إن الآية من المجاز ، أى إنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ، رأينا أنها لا تطيقها ، وأنها لو تكلمت لأبت واشفقت ، فعبر عن هذا المعنى بقوله . « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ » الآية . وهذا كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأباه ، وأنت تريد قايست قوته بثقل الحمل ، فرأيت أنها تقصر عنه . وقيل : « عَرَضْنَا » بمعنى عارضنا الأمانة بالسموات والأرض والجبال فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة ، ورجحت الأمانة بثقلها عليها . وقيل : إن عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال إنما كان من آدم عليه السلام . وذلك أن الله تعالى لما استخلفه على ذريته ، وسأطه على جميع ما في الأرض من الأنعام والطيور والوحش ، وعيَّده إليه عهداً أمره فيه ونهاه وحرَّم وأحل ، فقبله ولم يزل عاملاً به . فلما أن حضرته الوفاة سأل الله أن يعلمه مَنْ يستخلف بعده ، ويقبله من الأمانة ما تقلده ، فأمره أن يعرض ذلك على السموات بالشرط الذى أخذ عليه من الثواب إن أطاع ومن العقاب إن عصى ، فأبى أن يقبله شَفَقًا من عذاب الله . ثم أمره أن يعرض ذلك على الأرض والجبال كلها فأبياه . ثم أمره أن يعرض ذلك على ولده فعرضه عليه فقبله بالشرط ، ولم يهب منه ما تهيبت السموات والأرض والجبال . « إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا » لنفسه « جَهُولًا » بعاقبة ما تقلد لربه . قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي : عجب من هذا القائل من أين أتى بهذه القصة ! فإن نظرنا إلى الآثار وجدناها بخلاف ما قال ، وإن نظرنا إلى ظاهره وجدناه بخلاف ما قال ، وإن نظرنا إلى باطنه وجدناه بمبدأ مما قال ! وذلك أنه ردّد ذكر الأمانة ولم يذكر ما الأمانة ، إلا أنه يرمي في مقالته إلى أنه سألطه على

جميع ما في الأرض، وعهد الله إليه عهداً فيه أمره ونهيهِ وحِلُّه وحرامه، وزعم أنه أمره أن يعرض ذلك على السموات والأرض والجبال؛ فما تصنع السموات والأرض والجبال بالحلال والحرام؟ وما التسليط^(١) على الأنعام والطير والوحش! وكيف إذا عرضه على ولده فقبله في أعناق ذريته من بعده. وفي مبتدأ الخبر في التنزيل أنه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال حتى ظهر الإباء منهم، ثم ذكر أن الإنسان حملها، أي من قبل نفسه لآ أنه حمل ذلك، فسماه «ظُلُومًا» أي لنفسه، «جَهُولًا» بما فيها. وأما الآثار التي هي بخلاف ما ذكر، فحدثني أبي رحمه الله قال حدثنا الفيض بن الفضل الكوفي حدثنا السري بن إسماعيل عن عامر الشعبي عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: لما خلق الله الأمانة مثلها صخرة، ثم وضعها حيث شاء، ثم دعا لها السموات والأرض والجبال ليحملنها، وقال لمن: إن هذه «الأمانة»، ولها ثواب وعليها عقاب؛ قالوا: يارب، لا طاقة لنا بها؛ وأقبل الإنسان من قبل أن يدعى فقال للسموات والأرض والجبال: ما وقوفكم؟ قالوا: دعانا ربنا أن نحمل هذه فأشفقن منها ولم نطقها؛ قال: فحركها بيده وقال: والله لو شئت أن أحملها لحملتها؛ فحملها حتى بلغ بها إلى ركبتيه، ثم وضعها وقال: والله لو شئت أن أزداد لزددت؛ قالوا: دونك! فحملها حتى بلغ بها حقويه^(٢)، ثم وضعها وقال: والله لو شئت أن أزداد لزددت؛ قالوا: دونك، فحملها حتى وضعها على عاتقه، فلما أهوى ليضعها، قالوا: مكانك! إن هذه «الأمانة» ولها ثواب وعليها عقاب، وأمرنا ربنا أن نحملها فأشفقن منها، وحملتها أنت من غير أن تدعى لها، فهي في عنقك وفي أعناق ذريتك إلى يوم القيامة، إنك كنت ظلوما جهولا. وذكر أخباراً عن الصحابة والتابعين تقدم أكثرها. (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) أي التزم القيام بحققها، وهو في ذلك ظلوم لنفسه. وقال قتادة: للأمانة، جهول بقدر ما دخل فيه. وهذا تأويل ابن عباس وابن جبير. وقال الحسن: جهول بربه. قال: ومعنى «حملها» خان فيها. وقال الزجاج: والآية في الكافر والمنافق والعصاة على قدرهم على هذا التأويل. وقال ابن عباس وأصحابه

(٢) الحقير (يفتح الحاء وكرها): الخاصرة.

(١) في ١: «وما تسليطه».

والضحك وغيره : «الإنسان» آدم، تحمل الأمانة فما تم له يوم حتى عصى المعصية التي أخرجته من الجنة . وعن ابن عباس أن الله تعالى قال له : أتحمل هذه الأمانة بما فيها . قال وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جُزيت وإن أسأت عوقبت . قال : أنا أحملها بما فيها بين أذنى وعاتقى . فقال الله تعالى له : إني ساعينك ، قد جعلت لبصرك حجابا فأغلقه عما لا يحل لك ، ولفرجك لباسا فلا تكشفه إلا على ما أحلت لك . وقال قوم : «الإنسان» النوع كله . وهذا حسن مع عموم الأمانة كما ذكرناه أولا . وقال السدى : الإنسان قابيل . فانه أعلم . ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ اللام في «لِيُعَذِّبَ» متعلقة بـ «حمل» أى حملها ليعذب العاصي ويشيب المطيع ؛ فهى لام التعليل ؛ لأن العذاب نتيجة حمل الأمانة . وقيل بـ «عرضنا» ؛ أى عرضنا الأمانة على الجميع ثم قلدهاها الإنسان ليظهر شرك المشرك وتفاق المنافق ليعذبهم الله ، وإيمان المؤمن ليثيبه الله . ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ﴾ قراءة الحسن بالرفع ، يقطعه من الأول ؛ أى يتوب الله عليهم بكل حال . ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ خبر بعد خبر لـ «كان» . ويموز أن يكون نعتا لغفور ، ويموز أن يكون حالا من المضممر . والله أعلم بالصواب .

سورة سبأ

مكية في قول الجميع ، إلا آية واحدة اختلف فيها ، وهى قوله تعالى : «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» الآية . فقالت فرقة : هى مكية ، والمراد المؤمنون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس . وقالت فرقة : هى مدنية ، والمراد بالمؤمنين من أسلم بالمدينة ؛ كعبد الله بن سلام وغيره ؛ قاله مقاتل . وقال قتادة : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنون به كأئنا من كان . وهى أربع وخمسون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ « الَّذِي » في موضع خفض على النعت أو البدل . ويجوز أن يكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ ، وأن يكون في موضع نصب بمعنى أغنى . وحكى سيبويه « الحمد لله أهل الحمد » بالرفع والنصب والخفض . والحمد الكامل والثناء الشامل كله لله ؛ إذ النعم كلها منه . وقد مضى الكلام فيه في أول الفاتحة . ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ قيل : هو قوله تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ » . وقيل : هو قوله « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » فهو المحمود في الآخرة كما أنه المحمود في الدنيا ، وهو المالك للآخرة كما أنه المالك للأولى . ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ في فعله . ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بأمر خلقه .

قوله تعالى : يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ
مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى ما يدخل فيها من قطر وغيره ، كما قال : « فَسَلَكُهُ يَنَاسِعَ فِي الْأَرْضِ » من الكنوز والدفائن والأموات وما هي له كفات . ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من نبات وغيره . ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والمقادير والبركات . وقرأ علي بن أبي طالب « وما تنزل » بالنون والتشديد . ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ من الملائكة وأعمال العباد ؛ قاله الحسن وغيره . ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ .

(٢) راجع ج ١٥ ص ٢٨٤ فما بعد ص ٢٤٥ .

(١) راجع ج ١ ص ١٣١ .

(٤) الكفات : الموضع الذي يضم إليه الشيء ويقبض .

(٣) راجع ج ٨ ص ٣١٣ .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ) قيل : المراد أهل مكة . قال مقاتل : قال أبو سفيان لكفار مكة : واللآل والعزى لا تأتينا الساعة أبدا ولا نبعث . فقال الله : (قُلْ) يا محمد (بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ) وروى هارون عن طلق المعلم قال : سمعت أشياخنا يقرءون « قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَيَأْتِيَنَّكُمْ » بياء ، حملوه على المعنى ، كأنه قال : لَيَأْتِيَنَّكُمْ البعث أو أمره . كما قال : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ » . فهو لاء الكفار مقترنون بالابتداء منكرون الإعادة ، وهو نقض لما اعترفوا بالقدره على البعث ، وقالوا : وإن قدر لا يفعل . فهذا تحكم بعد أن أخبر على السنة الرسل أنه يبعث الخلق ، وإذا ورد الخبر بشئ وهو ممكن في الفعل مقدور ، فتكذيب من وجب صدقه محال . (عَالِمِ الْغَيْبِ) بالرفع قراءة نافع وابن كثير على الابتداء ، وخبره « لَا يَعْزُبُ عَنْهُ » وقرأ عاصم وأبو عمرو « عَالِمِ » بالخفض ، أى الحمد لله عالم ، فعل هذه القراءة لا يحسن الوقف على قوله : « لَتَأْتِيَنَّكُمْ » . وقرأ حمزة والكسائي : « عَالِمِ الْغَيْبِ » على المبالغة والنعت . (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ) أى لا يغيب عنه ، « وَيَعْزُبُ » أيضا . قال الفراء : والكسر أحب إلى . النحاس : وهى قراءة يحيى بن وثاب ، وهى لغة معروفة . يقال : عَزَبَ يَعْزُبُ وَيَعْزِبُ إِذَا بَعُدَ وَغَاب . (مِثْقَالُ ذَرَّةٍ) أى قدر نملة صغيرة . (فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ) وفى قراءة الأعمش « وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ » بالفتح فهما عطفا على « ذَرَّةٍ » . وقراءة العامة

بالرفع عطفا على « مِثْقَالُ » . (إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) فهو العالم بما خلق ولا يخفى عليه شيء .
 (لِيَجْزِيَ) منصوب بلام كي ، والتقدير : لتأنيبكم ليجزي . (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)
 بالثواب ، والكافرين بالعقاب . (أُولَئِكَ) يعني المؤمنين . (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) لذنوبهم .
 (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) وهو الجنة .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ
 عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا) أى فى إبطال أدلتنا والتكذيب بآياتنا .
 (مُعْجِزِينَ) مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا ، وأن الله لا يقدر على بعثهم فى الآخرة ، وظنوا
 أنا نُهملهم ؛ فهؤلاء (لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ) يقال : عاجزه وأعجزه إذا غلبه وسبقه .
 و « أَلِيمٍ » قراءة نافع بالكسر نعتا للرجز ، فإن الرجز هو العذاب ، قال الله تعالى : « فَأَنْزَلْنَا عَلَى
 الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ »^(١) . وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم « عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ »^(٢)
 برفع « الميم » هنا وفى « الجاثية » نعتا للعذاب . وقرأ ابن كثير وابن محيصن ومحمد بن قيس ومجاهد
 وأبو عمرو « مُعْجِزِينَ » مشبطين ؛ أى ثبطوا الناس عن الإيمان بالمعجزات وآيات القرآن .

قوله تعالى : وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
 هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٥١﴾

لما ذكر الذين سَعَوْا فى إبطال النبوة بين أن الذين أُوتُوا العلم يرون أن القرآن حق .
 قال مقاتل : « الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » هم مؤمنو أهل الكتاب . وقال ابن عباس : هم أصحاب
 محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل جميع المسلمين ، وهو أصح لعمومه . والرؤية بمعنى العلم ، وهو
 فى موضع نصب عطفا على « لِيَجْزِيَ » أى ليجزى ويرى ، قاله الزجاج والفراء . وفيه نظر ،

لأن قوله : « لِيَجْزِيَ » متعلق بقوله : « لَتَأْتِيَنَّكُمْ السَّاعَةُ » ، ولا يقال : لتأتينكم الساعة ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق ، فإنهم يرون القرآن حقاً وإن لم تأتهم الساعة . والصحيح أنه رفع على الاستئناف ، ذكره الفشيري .

قلت : وإذا كان « لِيَجْزِيَ » متعلقاً بمعنى أثبت ذلك في كتاب مبين ، فيحسن عطف « وَيَرَى » [عليه] ، أى وأثبت أيضاً ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق . ويجوز أن يكون مستأنفاً . (الَّذِي) في موضع نصب على أنه مفعول أول « يرى » (هُوَ الْحَقُّ) مفعول ثان ، و « هو » فاصلة . والكوفيون يقولون « هو » عماد . ويجوز الرفع على أنه مبتدأ . و « الْحَقُّ » خبره ، والجملة في موضع نصب على المفعول الثاني ، والنصب أكثر فيما كانت فيه الألف واللام عند جميع النحويين ، وكذا ما كان نكرة لا يدخله الألف واللام فيشبه المعرفة . فإن كان الخبر اسماً معروفاً نحو قولك : كان أخوك هو زيد ، فزعم الفراء أن الاختيار فيه الرفع . وكذا كان محمد هو عمرو . وطلته في اختياره الرفع أنه لما لم تكن فيه الألف واللام أشبه النكرة في قولك : كان زيد هو جالس ، لأن هذا لا يجوز فيه إلا الرفع . (وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) أى يهدي القرآن إلى طريق الإسلام الذي هو دين الله . ودل بقوله : « العزيز » على أنه لا يغالب . وبقوله : « الحميد » على أنه لا يليق به صفة المعجز .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ

إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لِنِ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ) وإن شئت أدغمت اللام في النون لقربها منها . (يُنْبِئُكُمْ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ) هذا إخبار عن قال : « لَا تَأْتِيَنَّ السَّاعَةُ » أى هل نرشدكم إلى رجل ينبئكم ، أى يقول لكم : إنكم تبعثون بعد البلى في القبور . وهذا صادر عن فرط إنكارهم . الزمخشري : « فإن قلت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهوراً في قريش ، وكان أنباؤه بالبعث شائعاً عندهم ، فما معنى قولهم : « هَلْ نَدُلُّكُمْ

(١) في الأصول : « وأثبت أيضاً رؤية الذين ... » .

عَلَى رَجُلٍ يَنْبُئُكُمْ» فنكروهم ولم وعرضوا عليهم الدلالة عليه ، كما يدل على مجهول في أمر مجهول . قلت : كانوا يقصدون بذلك الطنتر^(١) والهنز والسخرية ، فأخرجوه مخرج التحكى ببعض الأحاجي التي يتحاجى بها للضحك والتلهي ، متجاهلين به وبأمره . و « إذا » في موضع نصب والعامل فيها « مَرَّقُم » قاله النحاس . ولا يجوز أن يكون العامل فيها « يَنْبُئُكُمْ » ، لأنه ليس يخبرهم ذلك الوقت . ولا يجوز أن يكون العامل فيها ما بعد « إِنَّ » ، لأنه لا يعمل فيما قبله ، وألا يتقدم عليها ما بعدها ولا معمولها . وأجاز الزجاج أن يكون العامل فيها محذوفاً ، التقدير : إذا مرقم كل ممزق بعتم ، أو ينبئكم بأنكم تبعثون إذا مرقم . المهدوي : ولا يعمل فيه « مَرَّقُم » ؛ لأنه مضاف إليه ، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف . وأجازه بعضهم على أن يجعل « إذا » للجازاة ، فيعمل فيها حينئذ ما بعدها لأنها غير مضافة إليه . وأكثر ما تقع « إذا » للجازاة في الشعر . ومعنى (مَرَّقُمُ كُلِّ مُمَزَّقٍ) فرقم كل تفريق . والمزق خرق الأشياء ، يقال : ثوب مَرَّقٍ وممزق وممزق وممزق .

قوله تعالى : أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾

قوله تعالى : (أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) لما دخلت ألف الاستفهام استغنيت عن ألف الوصل لحذفها ، وكان فتح ألف الاستفهام فرقا بينها وبين ألف الوصل . وقد مضى هذا في سورة « مريم » عند قوله تعالى : « أَطْلَعَ الْغَيْبِ » مستوفى . (أَمْ بِهِ جِنَّةٌ) هذا مردود على ما تقدم من قول المشركين ، والمعنى : قال المشركون « أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » . والافتراء الاختلاق . « أَمْ بِهِ جِنَّةٌ » أى جنون ، فهو يتكلم بما لا يدري . ثم رد عليهم فقال : (بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ) أى ليس الأمر كما قالوا ، بل هو أصدق الصادقين ، ومن ينكر البعث فهو غداً في العذاب ، واليوم في الضلال عن الصواب ؛ إذ صاروا إلى تعجيز الإله ونسبة الافتراء إلى من أیده الله بالمعجزات .

(١) الطنتر : السخرية . (٢) في الكشف والبحر : « النحلي » باللام . (٣) راجع ج ١١ ص ١٤٧

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ
السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

أعلم الله تعالى أن الذي قدر على خلق السموات والأرض وما فيهن قادر على البعث
وعلى تعجيل العقوبة لهم ، فاستدل بقدرته عليهم ، وأن السموات والأرض ملكه ، وأنهما
محيطتان بهم من كل جانب ، فكيف يأمنون الخسف والكسف كما فعل بقارون وأصحاب
الأيكة . وقرأ حمزة والكسائي « إِن نَّشَأْ يُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يُسْقِطَ » بالياء في الثلاث ،
أى إن يشأ الله أمر الأرض فتخسف بهم ، أو السماء فتسقط عليهم كسفاً . الباقر بالنون
على التعظيم . وقرأ السلمي وحفص « كِسْفًا » بفتح السين . الباقر بالإسكان . وقد تقدّم
بيانه في « سبحان » (١) و غيرها . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أى في هذا الذى ذكرناه من قدرتنا
« لآية » أى دلالة ظاهرة . ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أى تائب رجّاع إلى الله بقلبه . وخص
المنيب بالذكر لأنه المنتفع بالفكرة في جميع الله وآياته .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا^ط يَجِبَالُ أَوَّيٍ مَّعَهُ
وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْخَدِيدُ ﴿١٠﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ بين لمنكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أن إرسال الرسل
ليس أمراً بدعاً ، بل أرسلنا الرسل وأيدناهم بالمعجزات ، وأحللنا بمن خالفهم العقاب . ﴿ آتَيْنَا ﴾
أعطينا . ﴿ فَضْلًا ﴾ أى أمراً فضله به على غيره . واختلف في هذا الفضل على تسعة أقوال :
الأول - النبوة . الثانى - الزبور . الثالث - العلم ، قال الله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ
عِلْمًا » (٢) . الرابع - القوة ، قال الله تعالى : « وَآذَكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ » (٣) . الخامس - تسخير

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٣٠ (٢) راجع ج ١٣ ص ١٦٣ فابعد . (٣) راجع ج ١٥ ص ١٥٨

الجبال والناس، قال الله تعالى : « يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ^(١) » . السادس — التوبة ، قال الله تعالى : « فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ^(١) » . السابع — الحكم بالعدل ، قال الله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ » الآية . الثامن — إِلَانَةُ الحديد ، قال تعالى : « وَاللَّنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ^(١) » . التاسع — حسن الصوت ، وكان داود عليه السلام ذا صوت حسن ووجه حسن . وحسن الصوت هبة من الله تعالى وتفضل منه ، وهو المراد بقوله تبارك وتعالى : « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ^(٢) » على ما يأتي إن شاء الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم لأبي موسى : ” لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود “ . قال العلماء : المزمار والمزمور الصوت الحسن ، وبه سميت آلة الزمر مزمارا . وقد استحسن كثير من فقهاء الأمصار القراءة بالتزيين والترجيع ، وقد مضى هذا في مقدمة الكتاب ^(٣) والحمد لله .

قوله تعالى : « يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ » أي وقلنا يا جبال أَوِّبِي معه ، أي سبّحي معه ، لأنه قال تبارك وتعالى : « إِنَّا نَسَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَّ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ^(١) » . قال أبو ميسرة : هو التسبيح بلسان الحبشة ، ومعنى تسبيح الجبال : هو أن الله تعالى خلق فيها تسبيحا كما خلق الكلام في الشجرة ، فَيُسْمَعُ منها ما يُسْمَعُ من المسبّح معجزة لداود عليه الصلاة والسلام . وقيل : المعنى سيري معه حيث شاء ، من التأويب الذي هو سير النهار أجمع وينزل الليل . قال ابن مقبل :

لحقنا بحى أوبوا السير بعد ما * دفعنا شعاع الشمس والطرف يمنح

وقرأ الحسن وقتادة وغيرهما : « أَوِّبِي مَعَهُ » أي رَجِّمِي معه ؛ من آب يثوب إذا رجع ، أَوَّبًا وأوبة وإيابًا . وقيل : المعنى تصرفي معه على ما يتصرف عليه داود بالنهار ، فكان إذا قرأ الزبور صوتت الجبال معه ، وأصغت إليه الطير ، فكانها فعلت ما فعل . وقال وهب ابن منبه : المعنى نوحى معه والطير تساعد على ذلك ، فكان إذا نادى بالنياحة أجابته الجبال

(١) راجع ج ١٥ ص ١٨٤ و ١٨٨ و ١٥٩ (٢) راجع ص ٣١٨ فما بعد من هذا الجزء .

(٣) راجع ج ١ ص ١١ فما بعد .

بصداها ، وعكفت الطير عليه من فوقه . فصَدَى الجبال الذى يسمعه الناس إنما كان من ذلك اليوم إلى هذه الساعة ؛ فأيد بمساعدة الجبال والطير لثلاث ^(١) قتر ، فإذا دخلت الفترة احتاج ، أى ثار وتحرك ، وقوى بمساعدة الجبال والطير . وكان قد أعطى من الصوت ما يتزاحم الوحوش من الجبال على حسن صوته ، وكان الماء الجارى ينقطع عن الجرى وقوفا لصوته . « وَالطَّيْرُ » بالرفع قراءة ابن أبى إسحاق ونصر عن عاصم وابن هرْمُزٍ ومَسْلَمَةَ بن عبد الملك ، عطفا على لفظ الجبال ، أو على المضمرة فى « أَوَّي » وحسنه الفصل بجمع . الباقيون بالنصب عطفا على موضع « يَا جِبَالَ » أى نادينا الجبال والطير ، قاله سيبويه . وعند أبى عمرو ابن العلاء بإضمار فعل على معنى وسخرنا له الطير . وقال الكسائى : هو معطوف ، أى وآتيناه الطير ، حملا على « وَأَقْدَمْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا » . النحاس : ويجوز أن يكون مفعولا معه ، كما تقول : استوى الماء والخشبة . وسمعت الزجاج يحيز : قت وزيدا ، فالمعنى أوبى معه ومع الطير . ﴿ وَاللَّنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ قال ابن عباس : صار عنده كالشمع . وقال الحسن : كالعجين ، فكان يعمل من غير نار . وقال السدى : كان الحديد فى يده كالطين المبلول والعجين والشمع ، يصرفه كيف شاء ، من غير إدخال نار ولا ضرب بمطرقة . وقاله مقاتل . وكان يفرغ من الدرع فى بعض اليوم أو بعض الليل ، ثمنها ألف درهم . وقيل : أعطى قوة يثني بها الحديد ، وسبب ذلك أن داود عليه السلام ، لما ملك بنى إسرائيل لقي ملكا وداود يظنه إنسانا ، وداود متكره خرج يسأل عن نفسه وسيرته فى بنى إسرائيل فى خفاء ، فقال داود لذلك الشخص الذى تمثل له : « ما قولك فى هذا الملك داود ؟ » فقال له الملك « نعم العبد لولا خلّة فيه » قال داود : « وما هى ؟ » قال : « يرتزق من بيت المال ولو أكل من عمل يده لثمت فضائله » . فرجع فدعا الله فى أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه ، فعلمه صنعة كبُوس كما قال جل وعز فى سورة الأنبياء ^(٢) ، فالان له الحديد فصنع الدروع ، فكان يصنع الدرع فيما بين يومه وليلته يساوى ألف درهم ، حتى أذخر منها كثيرا وتوسعت

(١) الفترة : الضعف .

(٢) راجع ج ١١ ص ٢٢٠

معيشة منزله ، ويتصدق على الفقراء والمساكين ، وكان ينفق ثلث المال في مصالح المسلمين ، وهو أول من اتخذ الدروع وصنعها وكانت قبل ذلك صفائح . ويقال : إنه كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف . والدروع مؤنثة إذا كانت للحرب . ودروع المرأة مذكر .

مسألة - في هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع ، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم ، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم ؛ إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم ، وكسب الحلال الحلى عن الامتنان . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن خير ما أكل المرء من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده " . وقد مضى هذا في « الأنبياء » مجودا والحمد لله .

قوله تعالى : **أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَاحِحًا**
إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ **أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَاتٍ** ﴾ أى دروعا سابغات ، أى كوامل تامات واسمات ؛ يقال : سبغ الدرع والثوب وغيرهما إذا غطى كل ما هو عليه وفضل منه . ﴿ **وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ** ﴾ قال قتادة : كانت الدروع قبله صفائح فكانت ثقالا ؛ فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع من الخفة والحصانة . أى قدر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه . أى لا تقصد الحصانة فتثقل ، ولا الخفة فتزيل المنعة . وقال ابن زيد : التقدير الذى أمر به هو فى قدر الحلقة ، أى لا تعملها صغيرة فتضعف فلا تقوى الدروع على الدفاع ، ولا تعملها كبيرة فينال لا بسها . وقال ابن عباس : التقدير الذى أمر به هو فى المسمار ، أى لا تجعل مسمار الدرع رقيقا فيقلق^(١) ، ولا غليظا فيقصم الحلق . روى « يقصم » بالقاف ، والفاء أيضا رواية . ﴿ **فِي السَّرْدِ** ﴾ السرد نسج حلق الدروع ، ومنه قيل لصانع حلق الدروع : السرد والزرد ، تبدل من السين الزاى ، كما قيل : سراط وزراط . والسرد : الحرز ، يقال : سرد يسرد إذا حرز . والمسرَد : الإشفى ، ويقال سراد ؛ قال الشماخ :

(١) القلق : ألا يستقر فى مكان واحد .

(١) فظلت تباعا خيلنا في بيوتكم * كما تابعت سرْد العنان الخواِرُ
والسَّراد : السير الذي يخرز به ؛ قال لبيد :

يشك صفاحها بالزُّوق شَزْرًا * كما خرج السَّراد من النقال (٢)

ويقال : قد سرد الحديث والصوم ؛ فالسرد فيهما أن يحىء بهما ولاء في نسق واحد، ومنه سرد الكلام . وفي حديث عائشة : لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يسرد الحديث كسردكم ، وكان يحدث الحديث لو أراد العاذ أن يمدّه لأحصاه . قال سيدي : ومنه رجل سرّدى أى جرى ، قال : لأنه يمضى قُدماً (٤) . وأصل ذلك في سرد الدرع ، وهو أن يحكمها ويجعل نظام حلقها ولاء غير مختلف . قال لبيد .

صنع الحديد مضاعفاً أسراده * لينال طول العيش غير مَرُوم
وقال أبو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما * داود أو صنع السوايغ تُبَّع (٥)

(وَاعْمَلُوا صَالِحًا) أى عملاً صالحاً . وهذا خطاب لداود وأهله ، كما قال : « اَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا » . (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) .

قوله تعالى : وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمَنْ أَلْحَنَ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢)

قوله تعالى : (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ) قال الزجاج ، التقدير وسخرنا لسليمان الريح . وقراً عاصم في رواية أبي بكر عنه : « الرِّيحُ » بالرفع على الابتداء ، والمعنى له تسخير الريح ، أو بالاستقرار ،

(١) رواية البيت كما في ديوانه :

شككن بأحشاء الذنابي على هدى * كما تابعت الخ

(٢) الرُّوق : القرن . والنقال : جمع النقل (بالتحريك) والنقل ، وهو الخلف الخلق . (٣) في الأصول : « به » .

(٤) أى لم يعزج ولم ينق ؛ يوصف به الذكر والأنثى . (٥) قضاها : أحكمها ، أو فرغ منها . والصنع

(بالتحريك) : الحذف في العمل . والصنع ها هنا تبع ، وهو ملك من ملوك حير . وپروى : « أوصع السوايغ » .

أى وسليمان الريح ثابتة، وفيه ذلك المعنى الأول . فإن قال قائل : إذا قلت أعطيت زيدا درهما ولعمرو دينار؛ فرفعته فلم يكن فيه معنى الأول، وجاز أن يكون لم تعطه الدينار . وقيل : الأمر كذا ولكن الآية على خلاف هذا من جهة المعنى ، لأنه قد علم أنه لم يسخرها أحد إلا الله عز وجل . (غَدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ) أى مسيرة شهر . قال الحسن : كان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر، وبينهما مسيرة شهر للسرع، ثم يروح من إصطخر ويبيت بكابل، وبينهما شهر للسرع . قال السدي : كانت تسير به في اليوم مسيرة شهرين . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان سليمان إذا جلس نصبت حواليه أربعمائة ألف كرسى، ثم جلس رؤساء الإنس مما يليه، وجلس سفلة الإنس مما يليهم، وجلس رؤساء الجن مما يلي سفلة الإنس، وجلس سفلة الجن مما يليهم، وموكل بكل كرسى طائر لعملي قد عرفه، ثم تقلهم الريح، والطير تظلمهم من الشمس، فيغدو من بيت المقدس إلى إصطخر، فيبيت بيت المقدس، ثم قرأ ابن عباس : « غَدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ » . وقال وهب بن منبه : ذكر لي أن منزلا بناحية دجلة مكتوبا فيه — كتبه بعض صحابة سليمان ، إماما من الجن وإماما من الإنس — : نحن نزلنا وما بنينا ، ومبنيًا وجدناه ، غَدُوْنَا من إصطخر فقلناه ، ونحن رآهم منه إن شاء الله تعالى فباتون في الشام . وقال الحسن : شغلت سليمان الخليل حتى فاتته صلاة العصر، فمقر الخليل فأبدله الله خيرا منها وأسرع ، أبدله الريح تجرى بأمره حيث شاء ، غَدُوْهَا شهر ورَوَّاحُهَا شهر . وقال ابن زيد : كان مستقر سليمان بمدينة تدمر ، وكان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشام إلى العراق، فبنوها له بالصفا^(١)ح والعمد والرخام الأبيض والأصفر . وفيه يقول النابغة :

إِلَّا سَلِيْمَانَ إِذَا قَالَ الْإِلَٰهَ لَهُ * قُمْ فِي الْبَرِّيَّةِ فَأَحْدِثْهَا عَنِ الْفَنَدِ
وَخَيْسَ الْجَنِّ إِنِّي قَدْ أَذْنْتُ لَهُمْ * يَنْشُونَ تَدْمُرَ بِالْصَّفَّاحِ وَالْعَمَدِ^(٢)

(٢) الحد : المنع . والفند : الخفا .

(١) الصفا^(١)ح (كرمان) : حجارة عريضة رقيقة .

(٣) خيس : ذلل .

فمن أطاعك فأنفعه بطاعته * كما أطاعك وأدلكه على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة * ^(١) تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد

ووجدت هذه الأبيات منقورة في صخرة بارض يشكر، أنشأهن بعض أصحاب سليمان
عليه الصلاة والسلام :

ونحن ولا حول سوى حول ربنا * نروح إلى الأوطان من أرض تدمر
إذا نحن رُحنا كان ريث رواحنا * مسيرة شهر والغدو لآخر
أناس شروا لله طوعاً نفوسهم * ^(٢) بنصر ابن داود النبي المطهر
لهم في معالي الدين فضل ورفعة * وإن نُسبوا يوماً فن خير معشر
متى يركبوا الريح المطيعة أسرع * مبادرة عن شهرها لم تقصر
نظلمهم طير صفوف عليهم * متى رقرقت من فوقهم لم تنفر

قوله تعالى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ القطر : النحاس ؛ عن ابن عباس وغيره . أسيلت
له مسيرة ثلاثة أيام كما يسيل الماء ، وكانت بارض اليمن ، ولم يذب النحاس فيما روى لأحد
قبله ، وكان لا يذوب ، ومن وقته ذاب ؛ وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله تعالى
لسليمان . قال قتادة : أسال الله عينا يستعملها فيما يريد . وقيل لعكرمة : إلى أين سالت ؟
فقال : لا أدري ! وقال ابن عباس ومجاهد والسدي : أجريت له عين الصفر ثلاثة أيام بلياليهن .
قال القشيري : وتخصيص الإمالة بثلاثة أيام لا يدري ما حده ، ولعله وهم من الناقل ؛
إذ في رواية عن مجاهد : أنها سالت من صنعاء ثلاث ليال مما يليها ؛ وهذا يشير إلى بيان الموضع
لا إلى بيان المدة . والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان في معدنه عينا تسيل كعيون المياه ،
دلالة على نبوته . وقال الخليل : القطر : النحاس المذاب .

قلت : دليله قراءة من قرأ : « مِنْ قِطْرِ آيَةٍ » . (وَمِنْ الْجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ)
أى بأمره (وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا) الذي أمرناه به من طاعة سليمان . (نَذِقُهُ مِنْ

(١) الضمد : الحقد . (٢) في الأصول : « رافة » والنصوب عن البحر وروح المعاني .

عَذَابِ السَّعِيرِ) أى فى الآخرة ، قاله أكثر المفسرين . وقيل ذلك فى الدنيا ، وذلك أن الله تعالى وكل بهم - فيما روى السُّدى - ملكاً بيده سوط من نار ، فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة من حيث لا يراه فأحرقته . و « من » فى موضع نصب بمعنى وسخرنا له من الجن من يعمل . ويجوز أن يكون فى موضع رفع ، كما تقدم فى الريح .

قوله تعالى : يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾

فيه ثمانى مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (مِنْ مَّحَارِبَ وَتَمَثِيلٍ) المحراب فى اللغة : كل موضع مرتفع . وقيل للذى يصلّى فيه : محراب ؛ لأنه يجب أن يرفع ويعظم . وقال الضحاك : « مِنْ مَّحَارِبَ » أى من مساجد . وكذا قال قتادة . وقال مجاهد : المحاريب دون القصور . وقال أبو عبيدة : المحراب أشرف بيوت الدار . قال :

وماذا عليه أن ذكرت أوانسا * كخزلان رمل فى محاريب أقيال^(١)

وقال عدي بن زيد :

كدّمى العاج فى المحاريب أو كالا * بيّض فى الروض زهره مستنير^(٢)

وقيل : هو ما يرقى إليه بالدرج كالغرفة الحسنة ؛ كما قال : « إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » وقوله : « نَخْرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ »^(٣) أى أشرف عليهم . وفى الخبر " أنه أمر أن يعمل حول كرسية ألف محراب فيها ألف رجل عليهم المسوح يصرخون إلى الله دائباً ، وهو على الكرسي فى مركبته والمحاريب حوله ، ويقول لجنوده إذا ركب : سَبِّحُوا اللَّهَ إِلَى ذَلِكَ الْعَلَمِ ، فإذا بلغوه قال : هَلِّلُوهُ إِلَى ذَلِكَ الْعَلَمِ ، فإذا بلغوه قال : كَبِّرُوهُ إِلَى ذَلِكَ الْعَلَمِ الْآخَرِ ، فَتَلَجَّ الْجُنُودُ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ لِحَقَّةٍ وَاحِدَةٍ .

(١) البيت لامرئ القيس . والأقيال : جمع قيل ، وهو الملك .

(٢) راجع ج ١١ ص ١٤

(٣) راجع ج ١٥ ص ١٦٥

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَتَمَثَّلَ ﴾ جمع تمثال . وهو كل ما صُوِّرَ على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان . وقيل : كانت من زجاج ونحاس ورخام تمثال أشياء ليست بحيوان . وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا ، قال صلى الله عليه وسلم : ” إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره معجدا وصوروا فيه تلك الصور “ . أى ليتذكروا عبادتهم فيجتهدوا في العبادة . وهذا يدل على أن التصوير كان مباحا في ذلك الزمان ، ونسخ ذلك بشرع محمد صلى الله عليه وسلم . وسيأتى لهذا مزيد بيان في سورة « نوح »^(١) عليه السلام . وقيل : التماثيل طُلِّمَت كان يعملها ، ويحرم على كل مصوِّر أن يتجاوزها فلا يتجاوزها ، فيعمل تماثلا للذباب أو للبعوض أو للتماسيح في مكان ، ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزوه واحد أبدا مادام ذلك التمثال قائما . وواحد التماثيل تمثال بكسر التاء . قال :

و يَارُبُّ يَوْمٍ قَدْ لَهَوْتُ وَلَيْلَةٍ * بَأَنَسَةٍ كَأَنَّهَا خَطٌّ تَمَثَّلَ^(٢)

وقيل : إن هذه التماثيل رجال اتخذهم من نحاس وسأل ربه أن ينفخ فيها الروح ليقاتلوا في سبيل الله ولا يَحِيكُ فيهم السلاح^(٣) . ويقال : إن اسفند يار كان منهم ، والله أعلم . وروى أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما ، وإذا قعد أطلق النسran أجنحتهما .

الثالثة — حكى مكى في الهداية له : أن فرقة تجوز التصوير ، وتحتج بهذه الآية . قال ابن عطية : وذلك خطأ ، وما أحفظ عن أحد من أئمة العلم من يجوزه .

قلت : ما حكاه مكى ذكره النحاس قبله ، قال النحاس : قال قوم عمل الصور جائز لهذه الآية ، ولمّا أخبر الله عز وجل عن المسيح . وقال قوم : قد صح النهى عن النبي صلى الله عليه وسلم عنها ، والتوعد لمن عملها أو اتخذها ، فنسخ الله عز وجل بهذا ما كان مباحا قبله ، وكانت الحكمة في ذلك لأنه بُعث عليه السلام والصور تُعبد ، فكان الأصلح لإزالتها .

(١) راجع ج ١٨ ص ٣٠٧ فما بعد . (٢) البيت لامرئ القيس . (٣) حاكه الديف حبكا : أنزوع عمل .

الرابعة — التمثال على قسمين : حيوان وهوات . والموات على قسمين : جماد ونائم ؛ وقد كانت الجن تصنع لسليان جميعه ؛ لعموم قوله : « وَتَمَّائِيل » . وفي الإسرائيليات : أن التمائيل من الطير كانت على كرسي سليان . فإن قيل : لا عموم لقوله : « وَتَمَّائِيل » فإنه إثبات في نكرة ، والإثبات في النكرة لا عموم له ، إنما العموم في النفي في النكرة . قلنا : كذلك هو ، بَيِّنَد أنه قد اقترن بهذا الإثبات في النكرة ما يقتضى حمله على العموم ، وهو قوله : « مَا يَشَاءُ » فاقتران المشيئة به يقتضى العموم له . فإن قيل : كيف استجاز الصور المنهى عنها ؟ قلنا : كان ذلك جائزا في شرعه ونسخ ذلك بشرعنا كما بينا ، والله أعلم . وعن أبي العالية : لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرما .

الخامسة — مقتضى الأحاديث يدل على أن الصور ممنوعة ، ثم جاء " إلا ما كان رَقْمًا^(١) في ثوب " فنخص من جملة الصور ، ثم ثبتت الكراهية فيه بقوله عليه السلام لعائشة في الثوب : " أتحريره عني فإنى كلما رأيته ذكرت الدنيا " . ثم بهتكت الثوب المصوّر على عائشة^(٢) منع منه ، ثم بقطعهما له وسادتين تغيرت الصورة وخرجت عن هيئتها ، فإن جواز ذلك إذا لم تكن الصورة فيه متصلة الهيئة ، ولو كانت متصلة الهيئة لم يجوز ، لقولها في التبرقة المصورة^(٣) : اشتريتها لك لتقدم عليها وتوسدّها ، فنع منه وتوعدّ عليه . وتبين بحديث الصلاة إلى الصور أن ذلك جائز في الرقم في الثوب ثم نسخ المنع منه . فهكذا استقر الأمر فيه والله أعلم ؛ قاله ابن العربي .

السادسة — روى مسلم عن عائشة قالت : كان لنا ستر فيه تمثال طائر وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حولى هذا فإنى كلما دخلت فرأيت ذكرت الدنيا " . قالت : وكانت لنا قطيفة كنا نقول صلّوها حرير ، فكنا نلبسها . وعنها قالت : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مستترة بِقِرَامٍ^(٤) فيه صورة ، فتأوّن وجهه ،

(١) الرقم : النقش والوشى . (٢) الهتك : الخرق والشق . (٣) التبرقة (بضم النون والراء وبكسرهما) بغير هاء : الوسادة . (٤) القرام : الستر الرقيق .

ثم تناول الستر فهتكه ، ثم قال : ” إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يُسَبِّهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ هَزْجًا وَجَلًّا “ . وعنهما : أنه كان لها ثوب فيه تصاوير ممدود إلى سَهْوَةٍ ^(١) ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلّي إليه فقال : ” أَتُحْرِيه عَنِّي “ قالت : فأخبرته بفعلته وسادتين . قال بعض العلماء : ويمكن أن يكون تهتيكه عليه السلام الثوب وأمره بتأخيره ورعاً ؛ لأن محل النبوة والرسالة الكمال . فتأمله .

السابعة — قال المزني عن الشافعي : إن دعى رجل إلى عرس فرأى صورة ذات روح أو صوراً ذات أرواح ، لم يدخل إن كانت منصوبة . وإن كانت توطأ فلا بأس ، وإن كانت صور الشجر . ولم يختلفوا أن التصاوير في الستور المعلقة مكروهة غير محرمة . وكذلك عندهم ما كان خرطاً أو نقشاً في البناء . واستثنى بعضهم ” ما كان رقماً في ثوب “ ، لحديث سهل بن حنيف .

قلت : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المصوِّرين ولم يستثن . وقوله : ” إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم أحيوا ما خلقتم “ ولم يستثن . وفي الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يخرج عنق من النار يوم القيامة له عيان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول : إني وكُلت بثلاث : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر وبالْمُصَوِّرِينَ “ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وفي البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصوِّرون “ . يدل على المنع من تصوير شيء ، أي شيء كان . وقد قال جل وعز : « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا » ^(٢) على ما تقدّم بيانه فأعلمه .

الثامنة — وقد استثنى من هذا الباب لعب البنات ، لما ثبت عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها وهي بنت سبع سنين ، وزُفَّت إليه وهي بنت تسع

(١) السهوة : بيت صغير منحدر في الأرض قليلاً شبيه بالخندع والخزانة . وقيل : هو كالصفة تكون بين يدي البيت . وقيل : شبه بالف أو الطاق يوضع فيه الشيء . (٢) العنق : القطعة .

(٣) راجع ج ١٣ ص ٢١٩

وُلِّعَها معها، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة سنة . وعنها أيضا قالت : كنت ألعب بالبنات عند النبي صلى الله عليه وسلم وكان لي صواحب يابن معي ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل ينقم منته فيسريهن^(١) إلى فيابن معي . نرجهما مسلم . قال العلماء : وذلك للضرورة إلى ذلك وحاجة البنات حتى يتدربن على تربية أولادهن . ثم إنه لا بقاء لذلك ، وكذلك ما يصنع من الحلاوة أو من العجين لا بقاء له ، فرخص في ذلك ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَجَفَّانِ كَالْجَوَابِ ﴾ قال ابن عرفة : الجوابى جمع الجابية ، وهي حفيرة كالخوض . وقال : كخاض الإبل . وقال ابن القاسم عن مالك : كالجوبة من الأرض ، والمعنى متقارب . وكان يقعد على الجفنة الواحدة ألف رجل . النحاس : « وَجَفَّانِ كَالْجَوَابِ » الأولى أن تكون بالياء ، ومن حذف الياء قال سبيل الألف واللام أن تدخل على النكرة فلا يغيرها عن حالها ، فلما كان يقال جواب ودخلت الألف واللام أقر على حاله فحذف الياء . وواحد الجوابى جابية ، وهي القدر العظيمة ، والخوض العظيم الكبير الذى يُجَبَّى فيه الشيء أى يجمع ؛ ومنه جببت الخراج ، وجببت الجراد ؛ أى جعلت الكساء بجمعه فيه . إلا أن لينا روى عن مجاهد قال : الجوابى جمع جوبة ، والجوبة الحفرة الكبيرة تكون في الجبل فيها ماء المطر . وقال الكسائي : جبوت الماء في الخوض وجبته أى جمعته ، والجابية : الخوض الذى يجبى فيه الماء للإبل ، قال :

تروح على آل المَحَلِّ جَفَنَةً * بكسابة الشيخ العراقي تفهق^(٢)

ويروى أيضا .

نفى الذم عن آل المَحَلِّ جَفَنَةً * بكسابة السبع^(٣)

ذكره النحاس .

(١) أى يتغبن ويدخلن في بيت أو من وراء ستر ، حياء وهدية له عليه السلام . (٢) أى يرسلهن ويبعثن

(٣) البيت للأعشى . والفهق : الامتلاء . وخص العراقي بجهله بالمياه لأنه حضري ؛ فإذا وجدها ملاجا بيته

وأعدها ولم يدر متى يجد المياه ، وأما البدوي فهو عالم بالمياه فهو لا يبالى ألا يعدها . (٤) السبع : الماء

الظاهر الجارى على وجه الأرض .

قوله تعالى : ﴿ وَقُدُورِ رَاسِيَّاتٍ ﴾ قال سعيد بن جبير : هي قدور النحاس تكون بفارس . وقال الضحاك : هي قدور تعمل من الجبال . غيره : قد نحتت من الجبال الصم مما عملت له الشياطين ، أثافيتها منها منحوتة هكذا من الجبال . ومعنى « رَاسِيَّاتٍ » ثوابت ، لا تُحمل ولا تحرك لعظمها . قال ابن العربي : وكذلك كانت قدور عبد الله بن جدعان ، يصعد إليها في الجاهلية بسلم . وعنها عبر طرفة بن العبد بقوله :

كالجوابى لا تبنى مُتَرَعَةً * لِقَدَرِ الأضياف أو للمحتضر

قال ابن العربي : ورأيت برباط أبي سعيد قدور الصوفية على نحو ذلك ، فإنهم يطبخون جميعا ويأكلون جميعا من غير استئثار واحد منهم على أحد .

قوله تعالى : ﴿ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴾ قد مضى معنى الشكر في « البقرة »^(٢) وغيرها . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد المنبر ف تلا هذه الآية ثم قال : « ثلاث من أوتهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود » قال فقلنا : ما هن ؟ فقال : « العدل في الرضا والغضب ، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية الله في السر والعلانية » . خرجه الترمذي الحكيم أبو عبد الله عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة . وروى أن داود عليه السلام قال : « يارب كيف أطيق شكرك على نعمك . وإلهامي وقدرتي على شكرك نعمة لك » فقال : « يا داود الآن عرفتني » . وقد مضى هذا المعنى في سورة « إبراهيم »^(٣) . وأن الشكر حقيقته الاعتراف بالنعمة للنعم واستعمالها في طاعته ، والكفران استعمالها في المعصية . وقليل من يفعل ذلك ؛ لأن الخير أقل من الشر ، والطاعة أقل من المعصية ، بحسب سابق التقدير . وقال مجاهد : لما قال الله تعالى « أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا » قال داود لسليمان : إن الله عز وجل قد ذكر الشكر فاكفني صلاة النهار أكفك صلاة الليل ، قال : لا أقدر ، قال : فاكفني — قال الفاريابي ، أراه قال إلى صلاة الظهر — قال نعم ، فكفاه . وقال الزهري : « أَعْمَلُوا

(١) الأثافي (جمع الأنفة) : ما يوضع عليه القدر . (٢) راجع ج ١ ص ٣٩٧ فما بعد .

(٣) راجع ج ٩ ص ٣٤٣ .

آل داود شكراً» أى قولوا الحمد لله . و«شكراً» نصب على جهة المفعول ؛ أى اعملوا عملاً هو الشكر . وكان الصلاة والصيام والعبادات كلها هى فى نفسها الشكر إذ سدت مسدّه ، وبين هذا قوله تعالى : «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ»^(١) وهو المراد بقوله «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ» . وقد قال سفيان بن عيينة فى تأويل قوله تعالى «إِنْ أَشْكُرْ لِي أَنْتَ الْمُرَادُ بِالشُّكْرِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ . وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تفطّر قدماه ؛ فقالت له عائشة رضى الله عنها : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال : «أفلا أكون عبداً شكوراً» . انفرد بإخراجه مسلم . فظاهر القرآن والسنة أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان ؛ فالشكر بالأفعال عمل الأركان ، والشكر بالأقوال عمل اللسان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (١) يحتمل أن يكون مخاطبة لآل داود ، ويحتمل أن يكون مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن عطية : وعلى كل وجه ففيه تنبيه وتحريض . وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رجلاً يقول : اللهم اجعاني من القليل ؛ فقال عمر : ما هذا الدعاء ؟ فقال الرجل : أردت قوله تعالى «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ» . فقال عمر رضى الله عنه : كل الناس أعلم منك يا عمر ! وروى أن سليمان عليه السلام كان يأكل الشعير ويطعم أهله الخشكار ويطعم المساكين الدرّك^(٢) . وقد قيل : إنه كان يأكل الرماد ويتوسّده ، والأول أصح ، إذ الرماد ليس بقوت . وروى أنه ما شبع قط ، فقيل له فى ذلك فقال : أخاف إن شبعتم أن أنسى الجوع . وهذا من الشكر ومن القليل ، فتأمل ، والله أعلم . قوله تعالى : فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانَُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)

(١) راجع ج ١٥ ص ١٦٥ فابعد . (٢) تفتقر : تشقق . (٣) الخشكار : ما خشن من الطحين (فارسية) . (٤) الدرّك : دقيق الحواري . وهو الدقيق الأبيض .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾ أى فلما حكمنا على سليمان بالموت حتى صار كالأمر المفروغ منه ووقع به الموت ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ﴾ وذلك أنه كان متكئا على المنسأة (وهى العصا بلسان الحبشة ، فى قول السدى . وقيل : هى بلغة اليمن ، ذكره القشيرى) فمات كذلك وبقى خافى الحال إلى أن سقط ميتا لأنكسار العصا لأكل الأرضة إياها ، فعلم موته بذلك ، فكانت الأرضة دالة على موته ، أى سببا لظهور موته ، وكان سأل الله تعالى ألا يعلموا بموته حتى تمضى عليه سنة . واختلفوا فى سبب سؤاله لذلك على قولين : أحدهما ما قاله قتادة وغيره ، قال : كانت الجن تدعى علم الغيب ، فلما مات سليمان عليه السلام وخفى موته عليهم ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ . ابن مسعود : أقام حولا والجن تعمل بين يديه حتى أكلت الأرضة منسأته فسقط . ويروى أنه لما سقط لم يعلم منذ مات ، فوضعت الأرضة على العصا فأكلت منها يوما وليلة ثم حسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة . وقيل : كان رؤساء الجن سبعة ، وكانوا منقادين لسليمان عليه السلام ، وكان دواد عليه السلام أسس بيت المقدس فلما مات أوصى إلى سليمان فى إتمام مسجد بيت المقدس ، فأمر سليمان الجن به ، فلما دنا وفاته قال لأهله : لا تخبروهم بموتى حتى يتموا بناء المسجد ، وكان بقى لإتمامه سنة . وفى الخبر أن ملك الموت كان صديقه فسأله عن آية موته فقال : أن تخرج من موضع سجدك شجرة يقال لها الخرنوبة ، فلم يكن يوم يصبح فيه إلا تنبت فى بيت المقدس شجرة فيسألها : ما اسمك ؟ فتقول الشجرة : اسمى كذا وكذا ، فيقول : ولأى شئ أنت ؟ فتقول : لكذا وكذا ، فيأمر بها فتقطع ، ويغرسها فى بستان له ، ويأمر بكتف منافعها ومضارها وأسمها وما تصلح له فى الطب ، فبينما هو يصلّى ذات يوم إذ رأى شجرة نبتت بين يديه فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخرنوبة ، قال : ولأى شئ أنت ؟ قالت : لخراب هذا المسجد ، فقال سليمان : ما كان الله ليخربه وأنا حي ، أنت التى على وجهك هلاكى وهلاك بيت المقدس ! فزرعها وغرسها فى حائطه ثم قال : اللهم عمّ عن الجن موتى حتى تعلم الإنس أن

الجن لا يعلمون الغيب . وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ، وأنهم يعلمون ما في غد ؛ ثم لبس كفنه وتحنط ودخل المحراب وقام يصلي واتكأ على عصاه على كرسیه ، فمات ولم تعلم الجن إلى أن مضت سنة وتم بناء المسجد . قال أبو جعفر النحاس : وهذا أحسن ما قيل في الآية ، ويدل على صحته الحديث المرفوع ، روى إبراهيم بن طهمان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **« كان نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيسألها ما اسمك ؟ فإن كانت لغرس غرست وإن كانت لدواء كتبت ؛ فبينما هو يصلي ذات يوم إذا شجرة نابتة بين يديه قال ما اسمك ؟ قالت : الخرنوبة ؛ فقال : لأى شيء أنت ؟ فقالت : لخراب هذا البيت ؛ فقال : اللهم عمّ عن الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب ؛ فنحتها عصا فتوكتا عليها حولاً لا يعلمون فسقطت ، فعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فنظروا مقدار ذلك فوجدوه سنة . وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس « تَبَيَّنَتِ الْإِنْسُ أَنْ لَوْ كَانَ الْجِنُّ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ » . وقرأ يعقوب في رواية رويس « تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ » غير مسمى الفاعل . ونافع وأبو عمرو « تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ » بألف بين السين والتاء من غير همز . والباقون بهمزة مفتوحة موضع الألف ، لغتان ، إلا أن ابن ذكوان أسكن الهمزة تخفيفاً ، قال الشاعر في ترك الهمزة :**

إِذَا دَبَّيْتُ عَلَى الْمِنْسَاءِ مِنْ كِبَرٍ * فَقَدْ تَبَاعَدَ عَنْكَ اللَّهُ وَالْغَزَلُ

وقال آخر فهمز وفتح :

ضَرَبْنَا بِمِنْسَاءٍ وَجْهَهُ * فَصَارَ بِذَلِكَ مَهِينًا ذَلِيلًا

وقال آخر :

أَمِنْ أَجْلِ حَبْلِ لَا أَبَاكَ ضَرَبْتَهُ * بِمِنْسَاءٍ قَدْ بَرَحَ حَبْلُكَ أَحْبَلًا

وقال آخر فسكن همزها :

وَقَامَ قَدْ قَامَ مِنْ تَكَايِهِ * كَقَوْمَةِ الشَّيْخِ إِلَى مِنْسَاتِهِ

وأصلها من : نسات الغنم أى زجرتها وسقتها ، فسميت العصا بذلك لأنه يزجر بها الشيء ويساق . وقال طرفة :

أُمُونٌ كَالْوِاحِ الْإِرَانِ نَسَاتُهَا * عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهَرَ بِرَجْدٍ^(١)

فَسَكَنَ هَمْزُهَا . قال النحاس : واشتقاقها يدل على أنها مهموزة ؛ لأنها مشتقة من نساته أى آخرته ودفعته ف قيل لها منسأة لأنها يدفع بها الشيء ويؤخر . وقال مجاهد وعكرمة : هى العصا ، ثم قرأ « منساته » أبدل من الهمزة ألفا ، فإن قيل : البدل من الهمزة قبيح جدا وإنما يحوز فى الشعر على بُعد وشذوذ ، وأبو عمرو بن العلاء لا يغيب عنه مثل هذا لاسيما وأهل المدينة على هذه القراءة . فالجواب على هذا أن العرب استعملت فى هذه الكلمة البدل ونطقوا بها هكذا كما يقع البدل فى غير هذا ولا يقاس عليه حتى قال أبو عمرو : ولست أدرى من هو إلا أنها غير مهموزة لأن ما كان مهموزا فقد يترك همزه وما لم يكن مهموزا لم يحز همزة بوجه . المهديوى : ومن قرأ بهمزة ساكنة فهو شاذ بعيد ؛ لأن هاء التانيث لا يكون ما قبلها إلا متحركا أو ألفا ، لكنه يحوز أن يكون ماسكن من المفتوح استخفافا ، ويحوز أن يكون لما أبدل الهمزة ألفا على غير قياس قلب الألف همزة كما قلبوها فى قولهم العالم والخاتم ، وروى عن سعيد بن جبير « من » مفصولة « سانه » مهموزة مكسورة التاء ؛ ف قيل : إنه من سئة القوس فى لغة من همزها ، وقد روى همزية القوس عن رؤية . قال الجوهري : سية القوس ما عطف من طرفيها ، والجمع سيآت ، والهاء عوض من الواو ، والنسبة إليها سيوى . قال أبو عبيدة : كان رؤية يهمز « سية القوس » وسائر العرب لا يهمزونها . وفى دابة الأرض قولان : أحدهما — أنها الأرضة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقد قرئ « دابة الأرض » بفتح الراء ، وهو جمع الأرضة ؛ ذكره الماوردى . الثانى — أنها دابة تأكل العبدان . قال الجوهري : والأرضة (بالتحريك) : دَوَّيَّةٌ تأكل الخشب ؛ يقال : أرضت الخشب تَرْضُ أرضا (بالتسكين) فهى مأروضة إذا أكلتها .

(١) الأمون : الذى يؤمن عتارها . والإران : تابوت الموتى . واللاحب : الطريق الواضح . والبرجد : كساء مخطط

(٢) فى نسخ الأصل : « وهو واحد » .

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَحَرَ ﴾ أى سقط ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجَنُّ ﴾ قال الزجاج : أى تبينت الجن موته . وقال غيره : المعنى تبين أمر الجن ؛ مثل : « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ » . وفى التفسير بالأسانيد الصحاح عن ابن عباس قال : أقام سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام حولاً لا يُعلم بموته وهو متكئ على عصاه ، والجن منصرفة فيما كان أمرها به ، ثم سقط بعد حول ؛ فلما نَحَرَ تَبَيَّنَتِ الإنس أن لو كان الجن يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين . وهذه القراءة من ابن عباس على جهة التفسير . وفى الخبر : أن الجن شكرت ذلك للأرضة فأينما كانت يأتونها بالماء . قال السدى : والطين ، ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب فإنه مما يأتونها^(١) به الشياطين شكراً ؛ وقالت : لو كنت تأكلين الطعام والشراب لأتيناك بهما . و « أَنْ » فى موضع رفع على البدل من الجن ، والتقدير : تبين أمر الجن ، لحذف المضاف ، أى تبين وظهر للإنس وانكشف لهم أمر الجن أنهم لا يعلمون الغيب . وهذا بدل الاشتمال . ويجوز أن تكون فى موضع نصب على تقدير حذف اللام . و « لَيْشُوا » أقاموا . و « الْعَذَابِ الْمُهِينِ » السُّخْرَةُ والحمل والبنيان وغير ذلك . وعمر سليمان ثلاثاً وخمسين سنة ، ومدة ملكه أربعون سنة ؛ فملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وأبتدأ فى بنيان بيت المقدس وهو ابن سبع عشرة سنة . وقال السدى وغيره : كان عمر سليمان سبعا وستين سنة ، وملك وهو ابن سبع عشرة سنة . وأبتدأ فى بنيان بيت المقدس وهو ابن عشرين سنة ، وكان ملكه خمسين سنة . وحكى أن سليمان عليه السلام أبتدأ بنيان بيت المقدس فى السنة الرابعة من ملكه ، وقرب بعد فراغه منه اثني عشر ألف ثور ومائة وعشرين ألف شاة ، واتخذ اليوم الذى فرغ فيه من بنائه عيداً ، وقام على الصخرة رافعا يديه إلى الله تعالى بالدعاء فقال : اللهم أنت وهبت لى هذا السلطان وقويتنى على بناء هذا المسجد ، اللهم فأوزعنى شكرك على ما أنعمت علىّ وتوفى علىّ مِلَّتَكَ ولا تُرِغْ قلبى بعد إذ هديتني ، اللهم إني أسألك لمن دخل هذا المسجد خمس خصال : لا يدخله مذهب دخل للتوبة إلا غفرت له وتبت عليه . ولا خائف إلا أمنت . ولا سقيم

(١) فى ج ، ح ، ك : « فإنها مما يأتونها بها » .

إلا شفيته . ولا فقير إلا أغنيته . والخامس — ألا تصرف نظرك عن دخله حتى يخرج منه ؛
إلا من أراد إلحاداً أو ظمناً ، يارب العالمين ؛ ذكره الماوردي .

قلت : وهذا أصح مما تقدم أنه لم يفرغ بناؤه إلا بعد موته بسنة ، والدليل على صحة هذا
ما أخرجه النسائي وغيره بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم
« أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خللاً ثلاثة : حكماً يصادف حكمه
فاوتيته ، وسأل الله تعالى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فاوتيته ، وسأل الله تعالى حين فرغ من
بناؤه المسجد ألا يأتيه أحد لا ينزهه^(١) إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه »
وقد ذكرنا هذا الحديث في « آل عمران » وذكرنا بناءه في « سبحان » .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ
وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿٥٠﴾
قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ ﴾^(٢) قرأ نافع وغيره بالصرف والتنوين على
أنه اسم حي ، وهو في الأصل اسم رجل ؛ جاء بذلك التوقيف عن النبي صلى الله عليه وسلم .
روى الترمذي قال : حدثنا أبو كريب وعبد بن حميد قالوا حدثنا أبو أسامة عن الحسن بن
الحكم النخعي قال حدثنا أبو سبرة النخعي عن فروة بن مسيك المرادي قال : أتيت النبي
صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، ألا أقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم ؛ فأذن لي
في قتالهم وأمرني ؛ فلما خرجت من عنده سأل عني : « ما فعل الغُطَيفِي »^(٣) ؟ فأخبرني قد
سرت ، قال : فأرسل في أثرى فردني فأتيته وهو في نفر من أصحابه فقال : « ادع القوم فمن
أسلم منهم فاقبل منه ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك ؛ قال : وأنزل في سبيل
ما أنزل ؛ فقال رجل : يا رسول الله ، وما سبأ ؟ أرض أو امرأة ؟ قال : ليس بأرض ولا بامرأة

(٣) راجع ج ١٠ ص ٢١١

(٢) راجع ج ٤ ص ١٣٧

(١) أي لا يحركه .

(٤) « في مساكنهم » قراءة نافع وبها كان يقرأ المؤلف رحمه الله عليه . (٥) في الأصول والترمذي :

« الغطيفي » بالقاف بدل الغين وهو تحريف .

ولكنه رجل ولد عشرة من العرب فتيا من منهم ستة وتشاءم منهم أربعة . فاما الذين تشاءموا فلقم وجذام وغسان وعاملة . واما الذين تيا منوا فالأزد والأشعريون وحير وكندة ومذحج وأنمار . فقال رجل : يا رسول الله وما أنمار؟ قال : «الذين منهم خثعم وبجيلة» . وروى هذا عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « لِسَبَأَ » بغير صرف ، جعله اسماً للقبيلة ، وهو اختيار أبي عبيد ، وأستدل على أنه اسم قبيلة بأن بعده « فِي مَسَاكِينِهِمْ » . النحاس : ولو كان كما قال لكان في مساكنها . وقد مضى في « التملُّ^(١) » زيادة بيان لهذا المعنى . وقال الشاعر في الصرف :
الواردون وتيم في ذرى سبأ * قد عضّ أعناقهم جلد الجواميس
وقال آخر في غير الصرف :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ * يذنون من دون سبأ العرما
وقرأ قبيل وأبو حيوة والمخدرى « لِسَبَأَ » بإسكان الهمزة . « فِي مَسَاكِينِهِمْ » قراءة العامة على الجمع ، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ؛ لأن لهم مساكن كثيرة وليس بمسكن واحد . وقرأ إبراهيم وحمة وحفص « مسكنهم » موحداً ، إلا أنهم فتحوا الكاف . وقرأ يحيى والأعمش والكسائي موحداً كذلك ، إلا أنهم كسروا الكاف . قال النحاس : والساكن في هذا آيين ؛ لأنه يجمع اللفظ والمعنى ، فإذا قلت « مسكنهم » كان فيه تقديران : أحدهما — أن يكون واحداً يؤدي عن الجمع . والآخر — أن يكون مصدراً لا يثنى ولا يجمع ؛ كما قال الله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم^(٢) غشاءً بالسمع موحداً . وكذا « مقعد صدق^(٣) » و« مسكن » مثل مسجد ، خارج عن القياس ، ولا يوجد مثله إلا سماعاً . (آية) اسم كان ، أى علامة دالة على قدرة الله تعالى على أن لهم خالقاً خلقهم ، وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يخرجوا من الخشبة ثمرة لم يمكنهم ذلك ، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها ، وفي ذلك ما يدل على أنها لا تكون إلا من عالم قادر . (جثان) يجوز

(١) راجع ج ١٣ ص ١٨١ (٢) راجع ج ١ ص ١٨٥ (٣) راجع ج ١٧ ص ١٤٩

أن يكون بدلا من « آية » ، ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف ، فيوقف على هذا الوجه على « آية » وليس بتمام . قال الزجاج : أى الآية جنتان ، بجنتان رفع لأنه خبر ابتداء محذوف . وقال الفراء : رفع تفسيرا للآية ، ويجوز أن تنصب « آية » على أنها خبر كان ، ويجوز أن تنصب الجنتين على الخبر أيضا في غير القرآن . وقال عبد الرحمن بن زيد : إن الآية التى كانت لأهل سبأ فى مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة قط ولا ذبابا ولا برغوثا ولا قملة ولا عقربا ولا حية ولا غيرها من الهوام ، وإذا جاءهم الركب فى ثيابهم القمل والدواب فإذا نظروا إلى بيوتهم ماتت الدواب . وقيل : إن الآية هى الجنتان ، كانت المرأة تمشى فيها وعلى رأسها مكمل^(١) فيمتلئ من أنواع الفواكه من غير أن تمسها بيدها ، قاله قتادة . وروى أن الجنتين كانتا بين جبلين باليمن . قال سفيان : وجد فيهما قصران مكتوب على أحدهما : نحن بنينا سالحين فى سبعين خريفاً دائيين ، وعلى الآخر مكتوب : نحن بنينا صرّواح ، مقبل ومّراح ، فكانت إحدى الجنتين عن يمين الوادى والأخرى عن شماله . قال القشيري : ولم يرد جنتين اثنتين بل أراد من الجنتين يمنة ويسرة ، أى كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار ، تستر الناس بظلالها . ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ أى قيل لهم كلوا ، ولم يكن ثم أمر ، ولكنهم تمكنوا من تلك النعم . وقيل : أى قالت الرسل لهم قد أباح الله تعالى لكم ذلك ، أى أباح لكم هذه النعم فاشكروه بالطاعة . ﴿ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ أى من ثمار الجنتين . ﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ يعنى على ما رزقكم . ﴿ بَلَدٌ طَيِّبٌ ﴾ هذا كلام مستأنف ، أى هذه بلدة طيبة أى كثيرة الثمار . وقيل : غير سبخة . وقيل : طيبة ليس فيها هوام لطيب هوائها . قال مجاهد : هى صنعاء . ﴿ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴾ أى والمنعم بها عليكم رب غفور يسترد ذنوبكم ، فجمع لهم بين مغفرة ذنوبهم وطيب بلدهم ولم يجمع ذلك لجميع خلقه . وقيل : إنما ذكر المغفرة مشيرا إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام . وقد مضى القول فى هذا فى أول « البقرة » . وقيل : إنما امتن عليهم بعفوه عن عذاب الاستئصال بتكذيب من كذبوه من سالف الأنبياء إلى أن استداموا الإصرار فأستؤصلوا .

(١) المكمل : شبه الزنبل .

(٢) راجع ج ١ ص ١٧٧

قوله تعالى : فَأَعْرِضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (فَأَعْرِضُوا) يعني عن أمره واتباع رسله بعد أن كانوا مسلمين . قال السدي وهب : بعث إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبياً فكذبوهم . قال القشيري : وكان لهم رئيس يلقب بالحمار، وكانوا في زمن الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : كان له ولد مات فرفع رأسه إلى السماء فبزق وكفر ، ولهذا يقال : أكفر من حمار . وقال الجوهري : وقولهم « أكفر من حمار » هو رجل من عاد مات له أولاد فكفروا كفراً عظيماً ، فلا يمت بارضه أحد إلا دعاه إلى الكفر ، فإن أجابه وإلا قتله . ثم لما سال السيل بجنتيهم تفرقوا في البلاد؛ على ما يأتي بيانه . ولهذا قيل في المثل : « تفرقوا أيادي سبأ » . وقيل : الأوس والخزرج منهم . (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ) والعريم فيما روى عن ابن عباس : السد ، فالتقدير : سيل السد العريم . وقال عطاء : العرم اسم الوادي . قتادة : العرم وادي سبأ ، كانت تجتمع إليه مسایل من الأودية ، فيل من البحر وأودية اليمن ، فردموا ردماً بين جبلين وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، فكانوا يسقون من الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث على قدر حاجاتهم ، فأخصبوا وكثرت أموالهم ، فلما كذبوا الرسل سلط الله عليهم الفأر فنقب الردم . قال وهب : كانوا يزعمون أنهم يجدون في علمهم وكهاتهم أنه يخرج سدهم فأرة فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا إلى جانبها هرة ، فلما جاء ما أراد الله تعالى بهم أقبلت فأرة حمراء إلى بعض تلك الهرة فساورتها حتى استأنحت عن الصخرة ثم وثبت ودخلت في الفرجة التي كانت عندها ونقبت السد حتى أوهنته للسيل وهم لا يدرون ، فلما جاء السيل دخل تلك الخلل حتى بلغ السد وفاض الماء على أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم . وقال الزجاج : العريم اسم الجرد الذي نقب السكر عليهم ، وهو الذي يقال له الخلد — وقاله قتادة أيضاً — فنسب السيل إليه لأنه بسببه . وقد قال ابن الأعرابي أيضاً : العريم من

أسماء الفار . وقال مجاهد وابن أبي نجيح : العَرِم ماء أحمر أرسله الله تعالى في السد فشقه وهدمه . وعن ابن عباس أيضا أن العَرِم المطر الشديد . وقيل العَرِم بسكون الراء . وعن الضحاك كانوا في الفترة بين هيسى ومجد عليهما السلام . وقال عمرو بن شرحبيل : العَرِم المُسَنَّة ؛ وقاله الجوهري ، قال : ولا واحد لها من لفظها ، ويقال واحدا عَرِمَة . وقال محمد بن يزيد : العَرِم كل شيء حاجز بين شيئين ، وهو الذي يسمى السُّكْر ، وهو جمع عَرِمَة . النحاس : وما يجتمع من مطرين جبلين وفي وجهه مُسَنَّة فهو العَرِم ، والمُسَنَّة هي التي يسميها أهل مصر الجسر ؛ فكانوا يفتحونها إذا شاءوا فإذا رويت جنتاهم سدوها . قال الهروي : المُسَنَّة الضفيرة تبنى للسيل ترده ، سُميت مُسَنَّة لأن فيها مفاتيح الماء . وروى أن العَرِم سد بنته يلقب صاحب سليمان عليه الصلاة والسلام ، وهو المُسَنَّة بلغة حمير ، بنته بالصخر والقار ، وجعلت له أبوابا ثلاثة بعضها فوق بعض ، وهو مشتق من العرامة وهي الشدة ، ومنه : رجل عارم ، أي شديد ، وعَرِمَت العظم أعيرمه وأعيرمه عَرِمًا إذا عَرَقْتَهُ ، وكذلك عَرِمَت الإبل الشجر أي نالت منه . والُعَرَام بالضم : العراق من العظم والشجر . وتعزمت العظم تعزقته . وصبي عارم بين العُرام (بالضم) أي شرس . وقد عَرِم يعرم ويعرم عرامة (بالفتح) . والعَرِم العارم ؛ عن الجوهري .

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِحَنَنَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ نَحِيطٍ ﴾ وقرأ أبو عمرو (أُكُلٍ نَحِيطٍ) بغير تنوين مضافا . قال أهل التفسير والخليل : النحيط الأراك . الجوهري : النحيط ضرب من الأراك له حمل يؤكل . وقال أبو عبيدة : هو كل شجر ذي شوك فيه مرارة . الزجاج : كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله . المبرد : النحيط كل ما تغير إلى ما لا يشتهي ، واللبن نَحِيط إذا حُمِض . والأولى عنده في القراءة « ذَوَاتِي أُكُلٍ نَحِيطٍ » بالتنوين على أنه نعت لـ « أكل » أو بدل منه ؛ لأن الأكل هو النحيط بعينه عنده ، فأما الإضافة فباب جوازها أن يكون

(١) في ج : « الحبس » ، والحبس (بكسر الحاء) : حجارة أو خشب تبنى في مجرى الماء لتحبسه كي يشرب القوم ويسقوا مواهلهم ، والجمع أحباس .

تقديرها ذواتي أكل حموضة أو أكل مرارة . وقال الأخفش : والإضافة أحسن في كلام العرب ؛ نحو قولهم : ثوبٌ نَزَّ . والخط : اللبن الحامض . وذكر أبو عبيد أن اللبن إذا ذهب عنه حلاوة الحلب ولم يتغير طعمه فهو سامط ، وإن أخذ شيئاً من الريح فهو خامط ونحيط ، فإن أخذ شيئاً من طعم فهو مُمَحَّل ، فإذا كان فيه طعم الحلاوة فهو فُوَّهَةٌ ^(١) . وتَحَطُّ الفحل : هَدَرَ . وتَحَطُّ فلان أى غضب وتكبر . وتَحَطُّ البحر أى التطم . وتَحَطَّت الشاةُ أَنْحَطَها نَحَطًا : إذا نزعت جلدها وشويتها فهي [نحيط ، فإن نزعت شعرها وشويتها فهي] سميطة . والخططة : النحر التي قد أخذت ريح الإدراك كريج التفاح ولم تُدرك بعد . ويقال هي الحامضة ؛ قاله الجوهري . وقال القتيبي في أدب الكاتب . يقال للحامضة خططة ، ويقال الخططة التي قد أخذت شيئاً من الريح ؛ وأنشد :

عُقَارٌ كماء النِّى ليست بخططة * ولا خلة يَكْوِي الشُّرُوبَ شِهَابُهَا ^(٢)

(وَأَنبُلٍ) قال الفراء : هو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولاً ؛ ومنه اتخذ منبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولأنبل أصول غليظة يتخذ منه الأبواب ، وورقه كورق الطرفاء ، الواحدة أنلة والجمع أنلات . وقال الحسن : الأنبل الخشب . قتادة : هو ضرب من الخشب يشبه الطرفاء رأيته بَقِيد . وقيل هو السَّمُر . وقال أبو عبيدة : هو شجر النَّضَار . [النضار : الذهب . والنضار : خشب يعمل منه قصاع ، ومنه : قدح نضار] ^(٣) . (وَشَيْءٌ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ) قال الفراء : هو السَّمُر ؛ ذكره النحاس . وقال الأزهرى : السدر من الشجر سدران : برى لا يُنتفع به ولا يصلح ورقه للغسول وله ثمر عَفِص لا يؤكل ، وهو الذى يسمى الضال . والثانى — سدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غَسُول يشبه شجر العناب . قال قتادة : بينما شجر القوم من خير شجر إذ صيره الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم ، فأهلك أشجارهم المشمرة

(١) فى المخصص لابن سبده : « ... فهو فوهة ، صاحب العين : فوهة بالغاء » . وفى كتب اللغة « الفوهة

بالضم » : اللبن تغير قليلا وفيه حلاوة . والفوهة (كقبرة : اللبن فيه طعم الحلاوة . (٢) ما بين المربعين

ساقط من نسخ الأصل . وهو من كتب اللغة . (٣) الخلة : التي جاوزت القدر فخرجت من حال النحر إلى حال

الجوضة والخل . والشروب : الدائم . بقول : هي فى لون اللحم النى . (٤) ما بين المربعين ساقط من ش .

وأثبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر . القشيري : وأشجار البوادي لا تسمى جنة وبستانا ولكن لما وقعت الثانية في مقابلة الأولى أطلق لفظ الجنة ، وهو كقوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ^(١) » . ويحتمل أن يرجع قوله « قليل » إلى جملة ما ذكر من الخط والأثل والسدر .

قوله تعالى : ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا) أى هذا التبديل جزاء كفرهم . وموضع « ذلك » نصب ؛ أى جزيناهم ذلك بكفرهم . (وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورُ) قراءة العامة « يُجَازَى » بياء مضمومة وزاى مفتوحة ، « الْكَفُورُ » رفعا على ما لم يُسم فاعله . وقرأ يعقوب وحفص وحمزة والكسائي : « يُجَازَى » بالنون وكسر الزاى ، « الْكَفُورَ » بالنصب ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، قالوا : لأن قبله « جَزَيْنَهُمْ » ولم يقل جُوزُوا . النحاس : والأمر فى هذا واسع ، والمعنى فيه بين ، ولو قال قائل : خلق الله تعالى آدم صلى الله عليه وسلم من طين ، وقال آخر : خلق آدم من طين ، لكان المعنى واحدا .

مسألة — فى هذه الآية سؤال ليس فى هذه السورة أشد منه ، وهو أن يقال : لم خص الله تعالى المجازاة بالكفور ولم يذكر أصحاب المعاصى ؟ فتكلم العلماء فى هذا ، فقال قوم : ليس يُجَازَى بهذا الجزاء الذى هو الاصطلام ^(٢) والإهلاك إلا من كفر . وقال مجاهد : يجازى بمعنى يعاقب ؛ وذلك أن المؤمن يكفر الله تعالى عنه سيئاته ، والكافر يجازى بكل سوء عمله ؛ فالمؤمن يُجَازَى ولا يُجَازَى لأنه يثاب ^(٣) . وقال طاوس : هو المناقشة فى الحساب ، وأما المؤمن فلا يناقش الحساب . وقال قطرب خلاف هذا ، فجعلها فى أهل المعاصى غير الكفار ، وقال : المعنى على من كفر بالنعم وعمل بالكبائر . النحاس : وأولى ما قيل فى هذه الآية وأجل ما روى فيها : أن الحسن قال مثلاً بمثل . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) راجع ج ١٦ ص ٣٨ فما بعد . (٢) الاصطلام : الاستئصال . (٣) فى نسخ الأصل : « لا يثاب » .

يقول : « من حوسب هلك » فقلت : يا بني الله ، فأين قوله جل وعز : « فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا » ؟ قال : « إنما ذلك العرض ومن نوقش الحساب هلك » . وهذا إسناد صحيح ، وشرحه : أن الكافر يكافأ على أعماله ويحاسب عليها ويحبط ما عمل من خير ، ويبين هذا قوله تعالى في الأول : « ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِمَا كَفَرُوا » وفي الثاني : « وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورُ » ومعنى « يُجَازَى » : يكافأ بكل عمل عمله ، ومعنى « جزاؤهم » . وفيما هم ، فهذا حقيقة اللغة ، وإن كان « جازى » يقع بمعنى « جرى » مجازاً .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً) قال الحسن : يعني بين اليمن والشام . والقرى التي بورك فيها : الشام والأردن وفلسطين . والبركة : قيل إنها كانت أربعة آلاف وسبع مائة قرية بورك فيها بالشجر والتمر والماء . ويحتمل أن يكون « بَارَكْنَا فِيهَا » بكثرة العدد . (قُرًى ظَاهِرَةً) قال ابن عباس : يريد بين المدينة والشام . وقال قتادة : معنى « ظَاهِرَةً » : متصلة على طريق ، يغدون فيقيلون في قرية ويروحون فيبيتون في قرية . وقيل : كان على كل ميل قرية بسوق ، وهو سبب أمن الطريق . قال الحسن : كانت المرأة تخرج معها مغزها وعلى رأسها مكثها ثم تلتقي بمغزها فلا تأتي بيتها حتى يمتلئ مكثها من كل الثمار ، فكان ما بين الشام واليمن كذلك . وقيل « ظَاهِرَةً » أى مرتفعة ، قاله المبرد . وقيل : إنما قيل لها « ظَاهِرَةً » لظهورها ، أى إذا خرجت عن هذه ظهرت لك الأخرى ، فكانت قرى ظاهرة أى معروفة ، يقال : هذا امر ظاهر أى معروف . (وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ) أى جعلنا السير بين قراهم وبين القرى التي باركنا فيها سيرا مقدرا من منزل إلى منزل ، ومن قرية إلى قرية ، أى جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيط في قرية والمبيت في قرية أخرى . وإنما يبالغ الإنسان في السير لعدم الزاد والماء

ولخوف الطريق ، فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقة ونزل أينما أراد . (سِيرُوا فِيهَا) أى وقلنا لهم سيروا فيها ، أى فى هذه المسافة فهو أمر تمكين ، أى كانوا يسرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين ، فهو أمر بمعنى الخبر ، وفيه إضمار القول . (لِيَأْتِيَ وَيَأْتِيَا) ظرفان (آمِنِينَ) نصب على الحال . وقال : « لِيَأْتِيَ وَيَأْتِيَا » بلفظ النكرة تنبيها على قصر أسفارهم ؛ أى كانوا لا يحتاجون إلى طول السفر لوجود ما يحتاجون إليه . قال قتادة : كانوا يسرون غير خائفين ولا جبايع ولا ظماء ، وكانوا يسرون مسيرة أربعة أشهر فى أمان لا يحرك بعضهم بعضا ، ولو لقي الرجل قاتل أبيه لا يحتركه .

قوله تعالى : فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾
قوله تعالى : (فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا) لما بطروا وطفنوا وسموا الراحة ولم يصبروا على العافية تمنوا طول الأسفار والكدح فى المعيشة ؛ كقول بنى إسرائيل : « فَأَذْعُ لَنَا رَبُّكَ يُخْرِجَ لَنَا مِمَّا تُثَبِّتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا » الآية . وكان نصر بن الحارث حين قال : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ » فأجابه الله تبارك وتعالى ، وقُتِلَ يوم بدر بالسيف صَبْرًا ؛ فكذلك هؤلاء تبددوا فى الدنيا ومزقوا كل مُمَزَّقٍ ، وجعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الراحل ويتزودون الأزواد . وقراءة العامة « رَبَّنَا » بالنصب على أنه نداء مضاف ، وهو منصوب لأنه مفعول به ، لأن معناه : نَادَيْتُ وَدَعَوْتُ . « بَعْدَ » سألوا المبالغة فى أسفارهم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن وهشام عن ابن عاصم : « رَبَّنَا » كذلك على الدعاء « بَعْدَ » من التباعد . النحاس : وباعد وبعُد واحد فى المعنى ، كما نقول : قارب وقرب . وقرأ أبو صالح ومحمد بن الحنفية وأبو العالصة ونصر بن عاصم

(١) راجع ج ١ ص ٢٢٢ فابعد . (٢) راجع ج ٨ ص ٣٩٨

(٣) يقال للرجل إذا شدد يده ورجلاه أو أمسكه رجل آخر حتى يضرب عنقه أو حبس على القتل حتى يقتل : قتل صبرا .

ويعقوب، ويروى عن ابن عباس: «رَبَّنَا» رفعاً «بَعْدَ» بفتح العين والذال على الخبر، تقديره: لقد باعد ربنا بين أسفارنا، كأن الله تعالى يقول: قَرَّبْنَا لَهُمْ أَصْفَارَهُمْ فَقَالُوا أَشْرًا وَبَطْرًا: لقد بُوعِدَتْ عَلَيْنَا أَصْفَارُنَا. واختار هذه القراءة أبو حاتم قال: لأنهم ما طلبوا التباعد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب بَطْرًا وعجباً مع كفرهم. وقراءة يحيى بن يعمر وعيسى بن عمر وتروى عن ابن عباس «رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَصْفَارِنَا» بشد العين من غير ألف، وفسرها ابن عباس قال: شَكُّوا أَنْ رُبِّهِمْ بَاعَدَ بَيْنَ أَصْفَارِهِمْ. وقراءة سعيد بن أبي الحسن أنحن الحسن البصري «رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَصْفَارِنَا». «رَبَّنَا» نداء مضاف، ثم أخبروا بعد ذلك فقالوا: «بَعْدَ بَيْنَ أَصْفَارِنَا» ورفع «بين» بالفعل، أى بعدما يتصل بأصفارنا. وروى الفراء وأبو إسحاق قراءة سادسة مثل التي قبلها في ضم العين إلا أنك تنصب «بين» على ظرف، وتقديره في العربية: بعد سيرنا بين أسفارنا. النحاس: وهذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يميز أن يقال إحداها أجود من الأخرى، كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها، ولكن خبر عنهم أنهم دعوا ربهم أن يبعد بين أسفارهم بَطْرًا وَأَشْرًا، وخبر عنهم أنهم لما فعل ذلك بهم خبروا به وشكوا، كما قال ابن عباس: «وَوَظَّاهُمَا أَنْفُسَهُمْ» أى بكفرهم «بِجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ» أى يُتَحَدَّثُ بأخبارهم، وتقديره في العربية: ذوى أحاديث. «وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ» أى لما لحقهم ما لحقهم تفرقوا وتمزقوا. قال الشعبي: فلحققت الأنصار بيثرب، وغسان بالشام، والأسد بعمان، ونخاعة بتهامة، وكانت العرب تضرب بهم المثل فتقول: تفرقوا أيدي سبا وإيادي سبا، أى مذاهب سبا وطرقها. «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» الصبار الذى يصبر عن المعاصى، وهو تكثير صابر يمدح بهذا الاسم. فإن أردت أنه صبر عن المعصية لم يستعمل فيه إلا صبار عن كذا. «شَكُورٍ» لنعمه؛ وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»^(١).

قوله تعالى: وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ فيه أربع قراءات : قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر ويروى عن مجاهد ، « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ » بالتخفيف « إِبْلِيسُ » بالرفع « ظَنَّهُ » بالنصب ؛ أى فى ظنه . قال الزجاج : وهو على المصدر ؛ أى صدق عليهم ظنا ظنه إذ صدق فى ظنه ؛ فنصب على المصدر أو على الظرف . وقال أبو علي : « ظَنَّهُ » نصب لأنه مفعول به ؛ أى صدق الظن الذى ظنه إذ قال : « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ »^(١) وقال : « لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ »^(٢) ؛ ويجوز تعدية الصدق إلى المفعول به ، ويقال : صدق الحديث ، أى فى الحديث . وقرأ ابن عباس ويحيى بن وثاب والأعمش وعاصم وحمة والكسائي : « صدق » بالتشديد « ظَنَّهُ » بالنصب بوقوع الفعل عليه . قال مجاهد : ظن ظنا فكان كما ظن فصديق ظنه . وقرأ جعفر بن محمد وأبو الهيثم « صدق عليهم » بالتخفيف « إِبْلِيسَ » بالنصب « ظَنَّهُ » بالرفع . قال أبو حاتم : لا وجه لهذه القراءة عندى ، والله تعالى أعلم . وقد أجاز هذه القراءة الفراء وذكرها الزجاج وجعل الظن فاعل « صدق » « إِبْلِيسَ » مفعول به ؛ والمعنى : أن إبليس سؤل له ظنه فيهم شيئا فصديق ظنسه ، فكأنه قال : ولقد صدق عليهم ظن إبليس . و« على » متعلقة بـ « صدق » ، كما تقول : صدقت عليك فيما ظننته بك ، ولا تتعلق بالظن لاستحالة تقدم شيء من الصلة على الموصول . والقراءة الرابعة : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ » برفع إبليس والظن ، مع التخفيف فى « صدق » على أن يكون ظنه بدلا من إبليس وهو بدل الاشتغال . ثم قيل : هذا فى أهل سبأ ، أى كفروا وغيروا وبدلوا بعد أن كانوا مسلمين إلا قوما منهم آمنوا برسولهم . وقيل : هذا عام ، أى صدق إبليس ظنه على الناس كلهم إلا من أطاع الله تعالى ؛ قاله مجاهد . وقال الحسن : لما أهبط آدم عليه السلام من الجنة ومعه حواء وهبط إبليس قال إبليس : أما إذ أصبت من الأيوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف ! فكان ذلك ظنا من إبليس ، فأنزل الله تعالى : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ » . وقال ابن عباس : إن إبليس قال : خلقت من نار وخلق آدم من طين

(١) راجع ج ٧ ص ١٧٤ (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٧

(٣) كذا فى نسخ الأصل وكتاب إعراب القرآن للنحاس . وفى روح المعاني والبحر المحيط : « أبو الهيثم » .

والنار تحرق كل شيء «لَا حَتَّكَ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا»^(١) فصدق ظنه عليهم . وقال زيد بن أسلم : إن إبليس قال يارب أرأيت هؤلاء الذين كرمتهم وشرقتهم وفضلتهم على لا تجدد أكثرهم شاكرين ، ظنا منه فصدق عليهم إبليس ظنه . وقال الكلبي : إنه ظن أنه إن أغواهم أجابوه وإن أضلهم أطاعوه ، فصدق ظنه . (فَاتَّبَعُوهُ) قال الحسن : ما ضربهم بسوط ولا بعصا وإنما ظن ظنا فكان كما ظن بوسوسته . (إِلَّا قَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) نصب على الاستثناء ، وفيه قولان : أحدهما أنه يراد به بعض المؤمنين ، لأن كثيرا من المؤمنين من يذنب وينقاد لإبليس في بعض المعاصي ، أي ما سلم من المؤمنين أيضا إلا فريق وهو المعنى بقوله تعالى : «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ»^(٢) . فاما ابن عباس فعنه أنه قال : هم المؤمنون كلهم ، فـ «من» على هذا للتبيين لا للتبعيض ، فإن قيل : كيف علم إبليس صدق ظنه وهو لا يعلم الغيب ؟ قيل له : لما نفذ له في آدم ما نفذ غلب على ظنه أنه ينفذ له مثل ذلك في ذريته ، وقد وقع له تحقيق ما ظن . وجواب آخر وهو ما أجيب من قوله تعالى : «وَأَسْتَفْزِزُ مَنِ اسْتِطَعَتْ مِنْهُمْ إِصْرَتَكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخِيَلِكَ وَرَجْلِكَ»^(٣) فأعطى القوة والاستطاعة ، فظن أنه يملكهم كلهم بذلك ، فلما رأى أنه تاب على آدم وأنه سيكون له نسل يتبعونه إلى الجنة وقال : «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ» علم أن له تبعا ولآدم تبعا ، فظن أن تبعه أكثر من تبع آدم ، لما وضع في يديه من سلطان الشهوات ، ووضعت الشهوات في أجواف الآدميين ، فخرج على ما ظن حيث نفخ فيهم وزين في أعينهم تلك الشهوات ، ومدهم إليها بالأمانى واللدائع ، فصدق عليهم الظن الذي ظنه ، والله أعلم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٢١﴾
قوله تعالى : (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ) أي لم يقهرهم إبليس على الكفر ، وإنما كان منه الدعاء والترين . والسلطان : القوة . وقيل الحجة ، أي لم تكن له حجة يستبعمهم

بها، وإنما اتبعوه بشهوة وتقليد وهوى نفس؛ لا عن حجة ودليل. ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ﴾ يريد علم الشهادة الذى يقع به الثواب والعقاب، فأما الغيب فقد علمه تبارك وتعالى. ومذهب الفراء أن يكون المعنى: إلا لنعلم ذلك عندكم؛ كما قال: «أَيَّنْ شُرَكَائِي»^(١) على قولكم وعندكم، وليس قوله: «إِلَّا لِنَعْلَمَ» جواب «وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ» فى ظاهره إنما هو محمول على المعنى؛ أى وما جعلنا له سلطانا إلا لنعلم، فلا استثناء منقطع، أى لا سلطان له عليهم ولكننا ابتليناهم بوسوسته لنعلم، فـ «إِلَّا» بمعنى لكن. وقيل هو متصل، أى ما كان له عليهم من سلطان، غير أنا سلطاناه عليهم ليم الابتلاء. وقيل: «كَانَ» زائدة؛ أى وماله عليهم من سلطان، كقوله: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ»^(٢) أى أنتم خير أمة. وقيل: لما اتصل طرف منه بقصة سبأ قال: وما كان لإبليس على أولئك الكفار من سلطان. وقيل: وما كان له فى قضائنا السابق سلطان عليهم. وقيل: «إِلَّا لِنَعْلَمَ» إلا لنظهر، وهو كما تقول: النار تحرق الحطب، فيقول آخر لا بل الحطب يحرق النار؛ فيقول الأول تعال حتى نجرب النار والحطب لنعلم أيهما يحرق صاحبه، أى لنظهر ذلك وإن كان معلوما لهم ذلك. وقيل: إلا لتعلموا أنتم. وقيل: أى ليعلم أولياؤنا والملائكة؛ كقوله: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(٣) أى يحاربون أولياء الله ورسوله. وقيل: أى ليميز؛ كقوله: «لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ»^(٤) وقد مضى هذا المعنى فى «البقرة» وغيرها. وقرأ الزهرى «إِلَّا لِنَعْلَمَ» على ما لم يسم فاعله. ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ﴾ أى أنه عالم بكل شيء. وقيل: يحفظ كل شيء على العبد حتى يجازيه عليه.

قوله تعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنِ ظَهِيرٌ ﴿١٢﴾

(١) راجع ج ١٠ ص ٩٨ .

(٢) راجع ج ٤ ص ١٧٠ .

(٣) راجع ج ٦ ص ١٤٧ فما بعد .

(٤) راجع ج ٢ ص ١٥٦ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى هذا الذى مضى ذكره من أمر داود وسليمان وقصة سبأ من آثار قدرتى ، فقل يا محمد لهؤلاء المشركين هل عند شركائكم قدرة على شيء من ذلك . وهذا خطاب توبيخ ، وفيه إضمار : أى ادعوا الذين زعتم أنهم آلهة لكم من دون الله لتضعكم أولئذ عنكم ما قضاه الله تبارك وتعالى عليكم ، فإنهم لا يملكون ذلك ، ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ أى ما لله من هؤلاء من معين على خلق شيء ، بل الله المنفرد بالإيجاد ، فهو الذى يُعبد ، وعبادة غيره محال .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٣﴾ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ ﴾ أى شفاعة الملائكة وغيرهم . ﴿ عِنْدَهُ ﴾ أى عند الله . ﴿ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ قراءة العامة « أَذِنَ » بفتح الهمزة ؛ لذكر الله تعالى أولا . وقرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي « أَذِنَ » بضم الهمزة على ما لم يسم فاعله . والاذن هو الله تعالى . و « مَنْ » يجوز أن ترجع إلى الشافعين ، ويجوز أن ترجع إلى المشفوع لهم . ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : خُلِيَ عن قلوبهم الفزع . قطرب : أخرج ما فيها من الخوف . مجاهد : كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة ؛ أى إن الشفاعة لا تكون من أحد هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام ؛ إلا أن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة وهم على غاية الفزع من الله ؛ كما قال : « وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ^(١) » . والمعنى : أنه إذا أذن لهم في الشفاعة وورد عليهم كلام الله فزعوا ؛ لما يقترب بتلك الحال من الأمر الهائل والخوف أن يقع في تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير ، فإذا سُرِيَ عنهم قالوا للملائكة فوقهم وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالإذن : ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ أى ماذا أمر الله به ؟ فيقولون لهم : ﴿ قَالُوا الْحَقُّ ﴾ وهو أنه أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين . ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ فله أن يحكم في عبادته بما

يريد . ثم يجوز أن يكون هذا إذا لم في الدنيا في شفاعة أقوام ، ويجوز أن يكون في الآخرة . وفي الكلام إضمار ؛ أى ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ففزع لما ورد عليه من الإذن تهيئاً للكلام الله تعالى ، حتى إذا ذهب الفزع عن قلوبهم أجاب بالانقياد . وقيل : هذا الفزع يكون اليوم للملائكة في كل أمر يأمر به الرب تعالى ؛ أى لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم اليوم فزعون ، مطيعون لله تعالى دون الجمادات والشياطين . وفي صحيح الترمذى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : ” إذا قضى الله في السماء أمراً ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاعاً لقوله كأنها سلسلة على صفوان^(١) فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير — قال — والشياطين بعضهم فوق بعض “ قال : حديث حسن صحيح . وقال النّوّاس بن سميان قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” إن الله إذا أراد أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة أو رعدة شديدة خوفاً من الله تعالى فإذا سمع أهل السموات ذلك صَعِقُوا وخروا لله تعالى سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله تعالى ويقول له من وحيه ما أراد ثم يترجم جبريل بالملائكة كلما مر بسماة سألهم ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل فيقول جبريل قال الحق وهو العلى الكبير — قال — فيقول كلهم كما قال جبريل فينتهى جبريل بالوحي حيث أمره الله تعالى “ . وذكر البيهقي عن ابن عباس في قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ » قال : كان لكل قبيل من الجن مقعد من السماء يستمعون منه الوحي ، وكان إذا نزل الوحي سمع له صوت كإمرار السلسلة على الصفوان ، فلا ينزل على أهل سماء إلا صَعِقُوا فإذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير ، ثم يقول يكون العام كذا ويكون كذا فتسمعه الجن فيخبرون به الكهنة والكهنة الناس [يقولون] يكون العام كذا وكذا فيجدونه كذلك ؛ فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم دُحِرُوا بالشَّهْب فقالت العرب حين لم تخبرهم الجن بذلك : هلك من في السماء ، فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيراً ، وصاحب البقر ينحر كل يوم بقرة ،

(١) الصفوان : الصخر الأملس .

وصاحب الغنم ينحر كل يوم شاة؛ حتى أسرعوا في أموالهم فقالت ثقيف وكانت أعقل العرب: أيها الناس! أمسكوا على أموالكم، فإنه لم يمت من في السماء، وإن هذا ليس بانتثار، أستم ترون معالمكم من النجوم كما هي والشمس والقمر والليل والنهار! قال فقال إبليس: لقد حدث في الأرض اليوم حدث، فأتوني من تربة كل أرض فاتوه بها، بفعل يشتمها فلما شم تربة مكة قال من ها هنا جاء الحدث؛ فنصبتوا فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث. وقد مضى هذا المعنى مرفوعا مختصرا في سورة «الأنجر»^(١)، ومعنى القول أيضا في رميهم بالشهب وإحراقهم بها، ويأتي في سورة «الجن»^(٢) بيان ذلك إن شاء الله تعالى. وقيل: إنما يفزعون من قيام الساعة. وقال الكلبي وكعب: كان بين عيسى وعهد عليهما السلام فترة خمسمائة وخمسون سنة لا يحيى فيها الرسل، فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم كلم الله تعالى جبريل بالرسالة، فلما سمعت الملائكة الكلام ظنوا أنها الساعة قد قامت، فصعقوا مما سمعوا، فلما انحدر جبريل عليه السلام جعل يمر بكل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رؤوسهم ويقول بعضهم لبعض ماذا قال ربكم فلم يدروا ما قال ولكنهم قالوا قال الحق وهو العلي الكبير، وذلك أن محمدا عليه السلام عند أهل السموات من أشراط الساعة. وقال الضحاك: إن الملائكة المعقبات الذين يختلفون إلى أهل الأرض يكتبون أعمالهم، يرسلهم الرب تبارك وتعالى، فإذا انحدروا سمع لهم صوت شديد فيحسب الذين هم أسفل من الملائكة أنه من أمر الساعة، فيخرون سُجُداً وبصعقون حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة. وهذا تنبيه من الله تعالى وإخبار أن الملائكة مع اصطفايتهم ورفعتهم لا يمكن أن يشفعوا لأحد حتى يؤذن لهم، فإذا أذن لهم وسمعوا صعقوا، وكان هذه حالهم، فكيف تشفع الأصنام أو كيف تؤملون أتم الشفاعة ولا تعترفون بالقيامة. وقال الحسن وابن زيد ومجاهد: حتى إذا كشف الفرع عن قلوب المشركين. قال الحسن ومجاهد وابن زيد: في الآخرة عند نزول الموت، إقامة للحجة عليهم قالت الملائكة لهم: ماذا قال ربكم في الدنيا قالوا الحق وهو العلي الكبير، فأقروا

(١) راجع ج ١٠ ص ١٠.

(٢) راجع ج ١٩ ص ١٠ فابعد.

حين لا ينفعهم الإقرار، أى قالوا قال الحق . وقراءة العامة « فَرَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ » . وقرأ ابن عباس « فَرَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ » مسمى الفاعل وفاعله ضمير يرجع إلى اسم الله تعالى . ومن بناء للمفعول فالجار والمجرور فى موضع رفع ، والفعل فى المعنى لله تبارك وتعالى . والمعنى فى القراءتين : أزيل الفرع عن قلوبهم ، حسبما تقدم بيانه . ومثله : أشكاه ، إذا أزال عنه ما يشكوه . وقرأ الحسن : « فَرَّعَ » مثل قراءة العامة ، إلا أنه خفف الزاى ، والجار والمجرور فى موضع رفع أيضا ؛ وهو كقولك : انصرف عن كذا إلى كذا . وكذا معنى « فَرَّغَ » بالراء والغين المعجمة والتخفيف غير مسمى الفاعل ، رويت عن الحسن أيضا وقتادة . وعنهما أيضا « فَرَّغَ » بالراء والغين المعجمة مسمى الفاعل ، والمعنى : فرغ الله تعالى قلوبهم أى كشف عنها ، أى فرغها من الفرع والخوف ، وإلى ذلك يرجع البناء للمفعول على هذه القراءة . وعن الحسن أيضا « فَرَّغَ » بالتشديد .

قوله تعالى : قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) لما ذكر أن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة مما يقدر عليه الرب فقرر ذلك فقال : قل يا محمد للمشركين « مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من يخلق لكم هذه الأرزاق الكائنة من السموات ؛ أى عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع . « وَالْأَرْضِ » أى الخارجة من الأرض عن الماء والنبات — أى لا يمكنهم أن يقولوا هذا فعل آلهتنا — فيقولون لا ندري ، فقل إن الله يفعل ذلك الذى يعلم ما فى نفوسكم . وإن قالوا : إن الله يرزقنا فقد تقرررت الحجة بأنه الذى ينبغي أن يعبد . (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) هذا على وجه الإنصاف فى الحجة ؛ كما يقول القائل : أحدنا كاذب ، وهو يعلم أنه صادق وأن صاحبه كاذب . والمعنى : ما نحن وأنتم على أمر واحد ، بل على أمرين متضادين ، وأحد الفريقين مهتد وهو نحن والآخرون ضالّ وهو أنتم ؛

فكذبهم بأحسن من تصريح التكذيب ، والمعنى : أتم الضالون حين أشركتم بالذى يرزقكم من السموات والأرض . « أَوْ إِيَّاكُمْ » معطوف على اسم « إِنْ » ولو عطف على الموضع لكان « أو أتم » ويكون « لَعَلَّ هُدًى » للأول لا غير . وإذا قلت : « أَوْ إِيَّاكُمْ » كان للثاني أولى ، وحذفت من الأول ، ويجوز أن يكون للأول ، وهو اختيار المبرد ، قال : ومعناه معنى قول المستبصر لصاحبه على صحة الوعيد والاستظهار بالحجة الواضحة : أحدنا كاذب ، قد عرف المعنى ، كما تقول : أنا أفعل كذا وتفعل أنت كذا وأحدنا مخطئ ، وقد عرف أنه هو المخطئ ، فهكذا « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » . و « أَوْ » عند البصريين على بابها وليست للشك ، ولكنها على ما تستعمله العرب في مثل هذا إذا لم يرد المخبر أن يبين وهو عالم بالمعنى . وقال أبو عبيدة والفراء : هي بمعنى الواو ، وتقديره : وإنا على هدى وإياكم في ضلال مبين . وقال جرير :

أثعلبة الفوارس أو رياحا * عدلت بهم طهية^(١) والربابا

يعنى أثعلبة ورياحا . وقال آخر :

فلما أشد أمر الحرب فينا * تأملنا رياحا أو رزاما

قوله تعالى : قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ﴾ أى اكتبنا ، ﴿ وَلَا نُسْأَلُ ﴾ نحن أيضا ﴿ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى إنما أقصد بما أدعوك إليه الخير لكم ، لا أنه ينالني ضرر كنركم ، وهذا كما قال : « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ »^(٢) والله مجازى الجميع . فهذه آية مهادنة ومشاركة ، وهى منسوخة بالسيف . وقيل : نزل هذا قبل آية السيف .

قوله تعالى : قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ

الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٣٠﴾

(١) رواية الديوان وكتاب صيبويه : « والخشبا » .

(٢) راجع ج ٢٠ ص ٢٢٩ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْعَلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يريد يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أى يقضى فيشيب المهتدى ويعاقب الضال ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ أى القاضى بالحق ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال الخلق . وهذا كله منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ يكون «أَرُونِي» هنا من رؤية القلب ، فيكون «شُرَكَاء» المفعول الثالث ، أى عرفوني الأصنام والأوثان التى جعلتموها شركاء لله عز وجل ، وهل شاركت فى خلق شيء ، فبينوا ما هو ؟ وإلا فلم تعبدونها . ويجوز أن تكون من رؤية البصر ، فيكون «شُرَكَاء» حالا . ﴿كَلَّا﴾ أى ليس الأمر كما زعمتم . وقيل : إن «كَلَّا» ردّ لجوابهم المحذوف ، كأنه قال : أروني الذين ألحقتهم به شركاء . قالوا : هى الأصنام . فقال كلاً ، أى ليس له شركاء ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِدُّونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أى وما أرسلناك إلا للناس كافة أى عامة ، ففى الكلام تقديم وتأخير . وقال الزجاج : أى وما أرسلناك إلا جامعاً للناس بالإنذار والإبلاغ . والكافة بمعنى الجامع . وقيل : معناه كافاً للناس ، تكفهم عما هم فيه من الكفر وتدعوهم إلى الإسلام . والهاء للبالغة . وقيل : أى إلا إذا كافة ، فحذف المضاف ، أى إذا منع للناس من أن يشدوا عن تبليغك ، أو إذا منع لهم من الكفر ، ومنه :

كف الثوب ، لأنه ضم طرفيه . (بَشِيرًا) أى بالجنة لمن أطاع . (وَنَذِيرًا) من النار لمن كفر . (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ما عند الله وهم المشركون ؛ وكانوا في ذلك الوقت أكثر من المؤمنين عددا . (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) يعنى موعدكم لنا بقيام الساعة . (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فقال الله تعالى : (قُلْ) لهم يا محمد : (لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ) فلا يغرنكم تأخير . والميعاد الميقات ، ويعنى بهذا الميعاد وقت البعث وقبل وقت حضور الموت ؛ أى لكم قبل يوم القيامة وقت معين تموتون فيه فتعلمون حقيقة قولى . وقيل : أراد بهذا اليوم يوم بدر ؛ لأن ذلك اليوم كان ميعاد عذابهم في الدنيا في حكم الله تعالى . وأجاز النحويون « ميعاد يوم » على أن يكون « ميعاد » ابتداء « يوم » بدل منه ، والخبر « لكم » . وأجازوا « ميعاد يومًا » يكون ظرفا ، وتكون الهاء في « عنه » ترجع إلى « يوم » ولا يصح « ميعاد يوم لا تستأخرون » بغير تنوين ، وإضافة « يوم » إلى ما بعده إذا قدرت الهاء عائدة على اليوم ، لأن ذلك يكون من إضافة الشيء إلى نفسه من أجل الهاء التي في الجملة . ويجوز ذلك على أن تكون الهاء للميعاد لا لليوم .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا ائْتِنَا صِدْقَكُمْ عَنِ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ ثَجْرَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يريد كفار قريش . ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قال سعيد عن قتادة : « وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » من الكتب والأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقيل من الآخرة . وقال ابن جريج : قائل ذلك أبو جهل بن هشام . وقيل : إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة محمد في كتابنا فسلوه ، فلما سألوه فوافق ما قال أهل الكتاب قال المشركون : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي أنزل قبله من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع ؛ وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولهم ، فظهر بهذا تناقضهم وقلة علمهم . ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن حالهم فيما لهم فقال ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ يا محمد ﴿ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي محبوسون في موقف الحساب ، يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا في الدنيا أخلاء متناصرين . وجواب « لو » محذوف ؛ أي لرأيت أمرا هائلا فظيما . ثم ذكر أي شيء يرجع من القول بينهم فقال : ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا ﴾ في الدنيا من الكافرين ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم القادة والرؤساء ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي أغويتمونا وأضللتمونا . واللغة الفصيحة « لَوْلَا أَنْتُمْ » ومن العرب من يقول « لولاكم » حكاه سيبويه ؛ تكون « لَوْلَا » تخفض المضمر ويرتفع المظهر بعدها بالابتداء ويحذف خبره . ومحمد بن يزيد يقول : لا يجوز « لولاكم » لأن المضمر عقيب المظهر ، فلما كان المظهر مرفوعا بالإجماع وجب أن يكون المضمر أيضا مرفوعا . ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْتُمْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى ﴾ هو استفهام بمعنى الإنكار ، أي ما رددناكم نحن عن الهدى ، ولا أكرهناكم . ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ أي مشركين مصرين على الكفر . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ المكر أصله في كلام العرب الاحتيال والخديعة ، وقد مكر به يَمَكُرُ فهو مَكْرٌ ومَكَارٌ . قال الأخفش : هو على تقدير : هذا مكر الليل والنهار . قال النحاس : والمعنى — والله أعلم — بل مكركم في الليل والنهار ، أي مساترتكم إيانا ودعائكم لنا إلى الكفر حملنا على هذا . وقال سفيان الثوري : بل عملكم في الليل والنهار . قتادة : بل مكركم بالليل والنهار صدنا ؛ فأضيف المكر إليهما لوقوعه فيهما ،

وهو كقوله تعالى : « إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ^(١) » فأضاف الأجل إلى نفسه ، ثم قال : « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ^(٢) » إذ كان الأجل لهم . وهذا من قبيل قولك : ليله قائم ونهاره صائم . قال المبرد : أى بل مكرّم الليل والنهار ، كما تقول العرب : نهاره صائم وليله قائم . وأنشد لجرير :

لقد لُمْتَنِيَا أُمَّ غَيْلَانَ فِي السَّرَى * وَنَمَتِ وَمَا لَيْسَ الْمِطَى بِنَائِمِ

وأنشد سيديويه : * فنام ليلى وتجلّى همى *

أى نمت فيه . ونظيره : « وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ^(٣) » . وقرأ قتادة : « بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » بتنوين « مكر » ونصب « الليل والنهار » ، والتقدير : بل مكر كائن في الليل والنهار ، لحذف . وقرأ سعيد بن جبير « بَلْ مَكْرٌ » بفتح الكاف وشدّ الراء بمعنى الكور ، وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف . ويجوز أن يرتفع بفعل مضمر دلّ عليه « أَنْخُنْ صَدَدْنَاكُمْ » كأنهم لما قالوا لهم أنحن صددناكم عن الهدى قالوا بل صدنا مكر الليل والنهار . وروى عن سعيد بن جبير « بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » قال : مرّ الليل والنهار عليهم فغفلوا . وقيل : طول السلامة فيهما كقوله « فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ^(٤) » . وقرأ راشد « بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » بالنصب ، كما تقول : رأيته مقدّم الحاج ، وإنما يجوز هذا فيما يعرف ، لو قلت : رأيته مقدّم زيد ، لم يجز ، ذكره النحاس . « إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا » أى أشباها وأمثالا ونظراء . قال محمد بن يزيد : فلان نذ فلان ، أى مثله . ويقال نديد ، وأنشد :

أينما تجعلون إلى نذنا * وما أتم لذي حسب نديد

وقد مضى هذا في البقرة ^(٥) . « وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ » أى أظهروها ، وهو من الأضداد يكون بمعنى الإخفاء والإبداء . قال امرؤ القيس :

تجاوزت أحراسا وأهوال معشير * على حراسا لو يشرون مقتلى ^(٦)

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٩٩ فابعد . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٠١ فابعد .

(٣) راجع ج ٨ ص ٣٦٠ . (٤) راجع ج ١٧ ص ٢٤٨ فابعد .

(٥) راجع ج ١ ص ٢٣٠ . (٦) هذه رواية البيت كما في نسخ الأصل والديوان وروايته

كما في المعلقات : تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا * على حراسا لو يشرون مقتلى

« يشرون » بالشين المعجمة : يظهرون .

وروى « يُشرون » . وقيل : « وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ » أى تبينت الندامة فى أسرار وجوههم .
 قيل : الندامة لا تظهر، وإنما تكون فى القلب، وإنما يظهر ما يتولد عنها ، حسبما تقدم
 بيانه فى سورة « يونس » ، وآل عمران » . وقيل : إظهارهم الندامة قولهم : « فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً^(١)
 فَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . وقيل : أسروا الندامة فيما بينهم ولم يجهروا القول بها ، كما قال : « وَأَسْرُوا^(٢)
 النَّجْوَى » . (وَجَعَلْنَا الْأَفْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا) الأفلال جمع غُل ، يقال : فى رقبته^(٣)
 غُل من حديد . ومنه قيل للراءة السيئة الخلق : غُل قِل ، وأصله أن الغُل كان يكون من
 قَدٍ وعليه شعر فيقمل . وغُلَّتْ يده إلى عنقه ؛ وقد غُلَّ فهو مغلول ، يقال : ماله أُلَّ وغُلَّ .
 والغُلُّ أيضا والغُلَّة : حرارة العطش ، وكذلك الغليل ، يقال منه : غُلَّ الرجل يُغَلُّ غَلًّا فهو
 مغلول ، على ما لم يسم فاعله ؛ عن الجوهرى . أى جعلت الجوامع فى أعناق السابعين
 والمتبوعين . قيل من غير هؤلاء الفريقين . وقيل يرجع « الَّذِينَ كَفَرُوا » إليهم . وقيل :
 تم الكلال عند قوله : « لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ » ثم ابتداء فقال : « وَجَعَلْنَا الْأَفْلالَ » بعد ذلك فى أعناق
 سائر الكفار . (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فى الدنيا .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا
 بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ
 بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلَتِي
 تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ
 الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ
 فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾

(١) راجع ج ٨ ص ٢٥٢ (٢) راجع ج ١٣ ص ١١٧ (٣) راجع ج ١١ ص ٢١٥

(٤) أُل : دفع فى فقاء . وغُل : جن ؛ فوضع فى عنقه الغل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرَفُّوهَا ﴾ قال قتادة : أى أغنياؤها ورؤسائها وجبايرتها وقادة الشر للرسول : ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ أى فضلنا عليكم بالأموال والأولاد ، ولولم يكن ربكم راضيا بما نحن عليه من الدين والفضل لم يخولنا ذلك . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ لأن من أحسن إليه فلا يعذبه ، فرد الله عليهم قولهم وما احتجوا به من الغنى فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أى يوسعه ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أى يقرر ، أى إن الله هو الذى يفاضل بين عباده فى الأرزاق امتحانا لهم ، فلا يدل شيء من ذلك على ما فى العواقب ، فسعة الرزق فى الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة ، فلا تظنوا أموالكم وأولادكم تغنى عنكم غدا شيئا . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ هذا لأنهم لا يتأملون . ثم قال تاكيدا : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ﴾ قال مجاهد : أى قُرْبَى . والزلفة القربة . وقال الأخفش : أى إزلافا ، وهوامم المصدر ، فيكون موضع « قُرْبَى » نصبا ، كأنه قال بالتي تقربكم عندنا تقريبا . وزعم الفراء أن « التى » تكون للأموال والأولاد جميعا . وله قول آخر وهو مذهب أبى إسحاق الزجاج ، يكون المعنى : وما أموالكم بالتي تقربكم عندنا ، ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ، ثم حذف خبر الأول لدلالة الثانى عليه . وأنشد الفراء :

نحن بما عندنا وأنت بما * عندك راضٍ والرأى مختلف

ويحوز فى غير القرآن : بالتين وباللاتى وباللواتى وباللذين وباللذين ، وللأولاد خاصة ، أى لا تزيدكم الأموال عندنا رفعة ودرجة ، ولا تقربكم تقريبا . ﴿ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ قال سعيد بن جبير : المعنى إلا من آمن وعمل صالحا فلن يضره ماله وولده فى الدنيا . وروى ليث عن طاوس أنه كان يقول : اللهم ارزقنى الإيمان والعمل ، وجنبنى المال والولد ، فإنى سمعت فيها أوحيت « وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا » . قلت : قول طاوس فيه نظر ، والمعنى والله أعلم : جنبنى المال والولد المطيعين أو اللذين لاخير فيهما ، فأما المال الصالح والولد الصالح للرجل الصالح فنعيم هذا ! وقد مضى هذا فى « آل عمران »

(١) وصرم، والفرقان . و « مَنْ » في موضع نصب على الاستثناء المنقطع ، أى لكن من آمن وعمل صالحاً فإيمانه وعمله يقربانه منى . وزعم الزجاج أنه في موضع نصب بالاستثناء على البدل من الكاف والميم التى فى « تقربكم » . النحاس : وهذا القول غلط ؛ لأن الكاف والميم لا مخاطب فلا يجوز البدل ، ولو جاز هذا لحاز : رأيتك زيدا . وقول أبى إسحاق هذا هو قول الفراء ، إلا أن الفراء لا يقول بدل لأنه ليس من لفظ الكوفيين ، ولكن قوله يؤول إلى ذلك ، وزعم أن مثله « إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » يكون منصوباً عنده بـ « ينفع » . وأجاز الفراء أن يكون « مَنْ » فى موضع رفع بمعنى : ما هو إلا من آمن ، كذا قال ، ولست أحصل معناه . (فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا) يعنى قوله : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا » (٢) فالضعف الزيادة ، أى لهم جزاء التضعيف ، وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول . وقيل : لهم جزاء الأضعاف ، فالضعف فى معنى الجمع ، وإضافة الضعف إلى الجزاء كإضافة الشيء إلى نفسه ، نحو : حق اليقين ، وصلاة الأولى . أى لهم الجزاء المضعف ، للواحد عشرة إلى ما يريد الله من الزيادة .

وبهذه الآية استدلل من فضل الغنى على الفقر . وقال محمد بن كعب : إن المؤمن إذا كان غنياً تقياً آتاه الله أجره مرتين بهذه الآية . (وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ) قراءة العامة « جَزَاءُ الضَّعِيفِ » بالإضافة . وقرأ الزهري ويعقوب ونصر بن عاصم « جزاء » متوناً منصوباً « الضعيف » رفعا ؛ أى فأولئك لهم الضعيف جزاء ، على التقديم والتأخير . « وَجَزَاءُ الضَّعِيفِ » على أن يجازوا الضعيف . و « جزاء الضعيف » مرفوعان ، الضعيف بدل من جزاء . وقرأ الجمهور أيضاً « فِي الْغُرُفَاتِ » على الجمع ، وهو اختيار أبى عبيد ؛ لقوله : « لَنَبْهُوتَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا » . (١) الزمخشري : وقرئ « فِي الْغُرُفَاتِ » بضم الراء وفتحها وسكونها . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحزمة وخلف « فى الغرفة » على التوحيد ؛ لقوله تعالى : « أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ » . (٢) والغرفة قد يراد بها أسم الجمع وأسم الجنس . قال ابن عباس : هى غرف

(١) راجع ج ٤ ص ٧٢ وج ١١ ص ٨٠ وج ١٣ ص ٨٢ وص ١١٤ و ٣٥٩ .

(٢) راجع ٧ ص ١٥٠ .

من ياقوت وزبرجد ودُرّ . وقد مضى بيان ذلك ^(١) . ﴿ آمِنُونَ ﴾ أى من العذاب والموت والأسقام والأحزان . ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا ﴾ فى إبطال أدلتنا وحجتنا وكذابنا . ﴿ مُعَاجِرِينَ ﴾ معاندين ، يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم . ﴿ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أى فى جهنم تحضرهم الزبانية فيها .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٢٩﴾
قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ كرر تأكيداً . ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المغترين بالأموال والأولاد إن الله يوسع على من يشاء ويضيّق على من يشاء ، فلا تغتروا بالأموال والأولاد بل أنفقوها فى طاعة الله ، فإن ما أنفقتم فى طاعة الله فهو يخلفه . وفيه إضمار ، أى فهو يخلفه عليكم ، يقال : أخلف له وأخلف عليه ، أى يعطيكم خلفه وبذله ، وذلك البذل إما فى الدنيا وإما فى الآخرة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً “ . وفيه أيضاً عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، ” إن الله قال لى أنفق أنفق عليك ... “ الحديث . وهذه إشارة إلى الخلف فى الدنيا بمثل المنفق فيها إذا كانت النفقة فى طاعة الله . وقد لا يكون الخلف فى الدنيا فيكون كالدعاء — كما تقدّم ^(٢) — سواء فى الإجابة أو التكفير أو الإلادخار ؛ والأدخارها هنا مثله فى الأجر .

مسألة — روى الدارقطني وأبو أحمد بن هدى عن عبد الحميد الهلالى عن محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” كل معروف صدقة وما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وقى به الرجل عرضه فهو صدقة وما أنفق الرجل

(١) راجع ج ٨ ص ٢٠٤ وج ١٣ ص ٨٢ و ٣٠٩ (٢) راجع ج ٣ ص ٣٠٨ فابعد .

من نفقة فعلى الله خائفها إلا ما كان من نفقة في بئان أو معصية“ . قال عبد الحميد : قلت لابن المنكدر : « ما وقى الرجل عرضه » ؟ قال : يعطى الشاعر وذا اللسان . عبد الحميد وثقه ابن معين .

قلت : أما ما أتفق في معصية فلا خلاف أنه غير مثاب عليه ولا مخلوف له . وأما البئان فما كان منه ضرورياً يكتفى الإنسان ويحفظه فذلك مخلوف عليه وما جور ببئانه . وكذلك كحفظ بنيته وستر عورته ، قال صلى الله عليه وسلم : “ ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال ، بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وحلف الخبز والماء “ . وقد مضى هذا المعنى في « الأعراف »^(١) مستوفى .

قوله تعالى : (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) لما كان يقال في الإنسان : إنه يرزق عياله ، والأمير جنده ؛ قال : « وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » والرازق من الخلق يرزق ، لكن ذلك من مال يملك عليهم ثم ينقطع ، والله تعالى يرزق من خزائن لا تنفد ولا تنتهى . ومن أخرج من عدم إلى الوجود فهو الرازق على الحقيقة ، كما قال : « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ »^(٢) .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً) هذا متصل بقوله : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ »^(٤) . أى لو تراهم في هذه الحالة لرأيت أمراً فظيماً . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد هو وأمته . ثم قال : ولو تراهم أيضاً « يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً » العابدين والمعبودين ، أى نجتمعهم للحساب (ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ)^(٣) . قال سعيد عن قتادة : هذا

(٢) راجع ج ١٧ ص ٥٥

(١) راجع ج ٧ ص ٢٣٩

(٤) راجع ص ٣٠٢ من هذا الجزء .

(٣) قوله « نَحْشُرُهُمْ » نقول « بالنون قراءة نافع .

آستفهام ؛ كقوله عز وجل لعيسى : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ » .
 قال النحاس : فالمعنى أن الملائكة صلوات الله عليهم إذا كذبتهم كان في ذلك تبيكيت لهم ؛
 فهو آستفهام توبيخ للعابدين . (قَالُوا سُبْحَانَكَ) أى تنزيها لك . (أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ)
 أى أنت ربنا الذى نتولاه ونطيعه ونعبده ونخلص فى العباداة له . (بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ)
 أى يطيعون إبليس وأعوانه . وفى التفاسير : أن حياً يقال لهم بنو مَلِيح من خزاعة كانوا يعبدون
 الجن ، ويزعمون أن الجن تترامى لهم ، وأنهم ملائكة ، وأنهم بنات الله ؛ وهو قوله : « وَجَعَلُوا
 بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا » .

قوله تعالى : فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا
 وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : (فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا) أى شفاعاة ونجاة . (وَلَا ضَرًّا)
 أى عذاباً وهلاكاً . وقيل : أى لا تملك الملائكة دفع ضرر عن عابديهم ؛ لحذف المضاف .
 (وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) يجوز أن يقول الله لهم
 أو الملائكة : ذوقوا .

قوله تعالى : وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا
 إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا
 إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا
 إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ) يعنى القرآن . (قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ)
 يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم . (يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ) أى أسلافكم من

الآلهة التي كانوا يعبدونها . ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ يعنون القرآن ؛ أى ما هو إلا كذب مختلق . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فتارة قالوا سحر ، وتارة قالوا إفك . ويحتمل أن يكون منهم من قال سحر ومنهم من قال إفك .

قوله تعالى : وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ أى لم يقرءوا فى كتاب أو توة بطلان ما جئت به ، ولا سمعوه من رسول بُعث إليهم ، كما قال : « أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مُستمسكون » ^(١) فليس لتكذيبهم وجه يشبّه به ولا شبهة متعلّق كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين : نحن أهل كتاب وشرائع ومستندون إلى رسل من رسل الله ، ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله الحق : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى كذب قبلهم أقوام كانوا أشدّ من هؤلاء بطشاً وأكثر أموالاً وأولاداً وأوسع عيشاً ، فاهلكتهم كشمود وعاد . ﴿ وَمَا بَلَّغُوا ﴾ أى ما بلغ أهل مكة ﴿ مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ تلك الأمم . والمعشار والعشر سواء ، لغتان . وقيل : المعشار عشر العشر . الجوهرى : ومعشار الشيء عشره ، ولا يقوون هذا فى شيء سوى العشر . وقيل : ما بلغ الذين من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم ؛ حكاه النقاش . وقيل : ما أعطى الله تعالى من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان . قال ابن عباس : فليس أمة أعلم من أمته ، ولا كتاب أئين من كتابه . وقيل : المعشار هو عشر العشر ، والعشير هو عشر العشر فيكون جزءاً من ألف جزء . الماوردى : وهو الأظهر ، لأن المراد به المبالغة فى التقليل . ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى عقابى فى الأمم ، وفيه محذوف وتقديره : فاهلكناهم فكيف كان نكيرى .

قوله تعالى : **قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ ثَمَرٍ مُطْرَقٍ** وَفَرَادَى
ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ
عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : **(قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بِوَاحِدَةٍ)** تتم الحجة على المشركين ؛ أى قل لهم يا محمد :
(إِنَّمَا أَعْظُمُ) أى اذكركم واحذرهم سوء عاقبة ما أنتم فيه . **(بِوَاحِدَةٍ)** أى بكلمة واحدة
مشمولة على جميع الكلام ، تقتضى نفى الشرك وإثبات الإله . قال مجاهد : هى لا إله إلا الله ؛
وهذا قول ابن عباس والسدى . وعن مجاهد أيضا : بطاعة الله . وقيل : بالقرآن ؛ لأنه
يجمع كل المواعظ . وقيل : تقديره بخصلة واحدة ، ثم بينها بقوله : **(أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ ثَمَرٍ مُطْرَقٍ)**
فتكون « أَنْ » فى موضع خفض على البدل من « وَاحِدَةٍ » ، أو فى موضع رفع على إضمار مبتدأ ،
أى هى أن تقوموا . ومذهب الزجاج أنها فى موضع نصب بمعنى لأن تقوموا . وهذا القيام
معناه القيام إلى طلب الحق لا القيام الذى هو ضد القعود ، وهو كما يقال : قام فلان بأمر
كذا ؛ أى لوجه الله والتقرب إليه . وكما قال تعالى : **« وَأَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ نَحْمًا بِالْقِسْطِ »** .
(مِثْلَ ثَمَرٍ مُطْرَقٍ) أى وحداًنا ومجتمعين ؛ قاله السدى . وقيل : منفرداً برأيه ومشاوراً لغيره ،
وهذا قول مائور . وقال القتيبي : مناظراً مع غيره ومفكراً فى نفسه ، وكله متقارب . ويحتمل
رابعا أن المثنى عمل النهار والفرادى عمل الليل ، لأنه فى النهار معانٍ وفى الليل وحيد ، قاله
المسوردي . وقيل : إنما قال : **« مِثْلَ ثَمَرٍ مُطْرَقٍ »** لأن الذهن حجة الله على العباد وهو العقل ،
فأوفرهم عقلاً وأوفرهم حظاً من الله ، فإذا كانوا فرادى كانت فكرة واحدة ، وإذا كانوا مثنى
تقابل الذهنان فتراءى من العلم لهما ما أضعف على الانفراد ؛ والله أعلم . **(ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ**
مِنْ جِنَّةٍ) الوقف عند أبي حاتم وابن الأنبارى على « ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا » . وقيل : ليس هو بوقف ،
لأن المعنى : ثم لتفكروا هل جربتم على صاحبكم كذبا ، أو رأيتم فيه جنة ، أو فى أحواله من

فساد ، أو اختلف إلى أحد ممن يدعى العلم بالسحر ، أو تعلم الأفاصيص وقرأ الكتب ، أو عرفتموه بالطمع في أموالكم ، أو تقدرون على معارضته في سورة واحدة ؛ فإذا عرفتم بهذا الفكر صدقه فما بال هذه المعاندة . (**إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**) وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية « **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** » ورهطك منهم المخلصين » خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف : يا صباحاه ؟ فقالوا : من هذا الذي يهتف ! ؟ قالوا عهد ؛ فاجتمعوا إليه فقال : « يا بنى فلان يا بنى فلان يا بنى عبد مناف يا بنى عبد المطلب — فاجتمعوا إليه فقال — أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي » ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : « فلانى نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . قال فقال أبو لهب : تبأ لك ! أما جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قال فنزلت هذه السورة : « **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** » كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة .

قوله تعالى : **قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ** ^ط **إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** (٤٧)

قوله تعالى : (**قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ**) أى جعل على تبليغ الرسالة (**فَهُوَ لَكُمْ**) أى ذلك الجعل لكم إن كنت سألتموه (**إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) أى رقيب وعالم وحاضر لأعمالى وأعمالكم ، لا يخفى عليه شيء فهو يجازى الجميع .

قوله تعالى : **قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَ لُغُوبٍ** (٤٨)

قوله تعالى : (**قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ**) أى يبين الحجة ويظهرها . قال قتادة : بالحق بالوحي ، وعنه : الحق القرآن . وقال ابن عباس : أى يقذف الباطل بالحق علام الغيوب .

(١) قال القسطلانى فى قوله « ورهطك منهم المخلصين » : هو من عطف الخاص على العام ، وكان قرأنا فنسخت تلاوته . (٢) قوله : « يا صباحاه » بسكون الهاء ، وهى كلمة يقولها المستغيث إذا صاحوا للغارة لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ، ويسمون الغارة يوم الصباح . (٣) راجع ج ٢٠ ص ٢٢٤ .

وقرأ عيسى بن عمر « عَلَامُ الْغُيُوبِ » على أنه بدل، أى قل إن ربى علام الغيوب يقذف بالحق . قال الزجاج . والرفع من وجهين على الموضع ، لأن الموضع موضع رفع ، أو على البدل مما فى يقذف . النحاس : وفى الرفع وجهان آخران : يكون خبرا بعد خبر ، ويكون على إضمار مبتدأ . وزعم الفراء أن الرفع فى مثل هذا أكثر فى كلام العرب إذا أتى بعد خبر « إِنَّ » ومثله « إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ »^(١) وقرئ : « الْغُيُوبُ » بالحركات الثلاث ، فالغُيُوب كالليوت ، والغُيُوب كالصبور ، وهو الأمر الذى غاب وخفى جدا .

قوله تعالى : قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ) قال سميع عن قتادة : يريد القرآن . النحاس : والتقدير جاء صاحب الحق ؛ أى الكتاب الذى فيه البراهين والحجج . (وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ) قال قتادة : الشيطان ؛ أى ما يخلق الشيطان أحدا . (وَمَا يُعِيدُ) فـ « ما » تفى . ويمحوز أن يكون استفهاما بمعنى أى شىء ؛ أى جاء الحق فأى شىء بقى للباطل حتى يعيده ويبدئه ؛ أى فلم يبق منه شىء ، كقوله : « فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ »^(٢) أى لا ترى .

قوله تعالى : قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي) وذلك أن الكفار قالوا تركت دين آبائك فضلت . فقال له : قل يا محمد إن ضللت كما تزعمون فإنما أضل على نفسي . وقراءة العامة « ضَلَلْتُ » بفتح اللام . وقرأ يحيى بن وثاب وغيره : « قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ » بكسر اللام وفتح الضاد من « أَضَلُّ » ، والضلال والضلالة ضد الرشاد . وقد ضَلَلْتُ (بفتح اللام) أضل

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٢٥ . (٢) عبارة روح المعاني : « ... الغيوب (بالكسر) كالليوت » .
وعبارة البحر : « ... أما الضم فجمع غيب ، وأما الكسر فكذلك استقلوا ضمتين والواو فكسروا لتناسب الكسر مع الياء والضممة التى على الياء مع الواو ، وأما الفتح ففعول للبالغة كالصبور » .

(٣) راجع ج ١٨ ص ٢١٦ .

(بكر الضاد)، قال الله تعالى : « قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي » فهذه لغة نجد وهي الفصيحة . وأهل العالية يقولون « ضَلَلْتُ » بالكسر « أَضِلُّ » ، أى إثم ضلالتى على نفسى . ﴿ وَإِنْ أَهْتَدَيْتُمْ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ من الحكمة والبيان ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أى سميع ممن دعاه قريب الإجابة . وقيل وجه النظم : قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ وَيَبَيِّنُ الْحُجَّةَ ، وضلال من ضل لا يبطل الحجة ، ولو ضللت لأضررت بنفسى ، لا أنه يبطل حجة الله ، وإذا اهتديت فذلك فضل الله إذ ثبتنى على الحجة إنه سميع قريب .

قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأَخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ

قَرِيبٍ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ ﴾ ذكر أحوال الكفار في وقت ما يضطرون فيه إلى معرفة الحق . والمعنى : لو ترى إذا فرغوا في الدنيا عند نزول الموت أو غيره من بأس الله تعالى بهم ، روى معناه عن ابن عباس . الحسن : هو فرغهم في القبور من الصيحة . وعنه أن ذلك الفرع إنما هو إذا خرجوا من قبورهم ، وقاله قتادة . وقال ابن مغلل : إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة . السدى : هو فرغهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيف الملائكة فلم يستطيعوا فرارا ولا رجوعا إلى التوبة . سعيد بن جبير : هو الجيش الذى يخسف بهم في البيداء فيبقى منهم رجل فيخبر الناس بما لقي أصحابه فيفرعون ، فهذا هو فرغهم . ﴿ فَلَا قُوَّةَ ﴾ فلا نجاة ، قاله ابن عباس . مجاهد : فلا مهرب . ﴿ وَأَخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أى من القبور . وقيل : من حيث كانوا ، فهم من الله قريب لا يعزبون عنه ولا يفوتونه . وقال ابن عباس : نزلت في ثمانين ألفا يغزون في آخر الزمان الكعبة ليخربوها ، وكلما يدخلون البيداء يخسف بهم ، فهو الأخذ من مكان قريب .

قلت : وفى هذا المعنى خبر مرفوع عن حذيفة وقد ذكرناه في كتاب التذكرة ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب — : ” فيبيناهم

(١) فى مختار الصحاح : « بالكسر فيهما » والذى فى اللسان : « ضللت بالكسر أضل » .

كذلك إذ خرج عليهم السفينان من الوادي اليابس في فورة ذلك حتى ينزل دمشق فيبعث جيشين ، جيشا إلى المشرق ، وجيشا إلى المدينة ، فيسير الجيش نحو المشرق حتى ينزلوا بأرض بابل في المدينة الملعونة والبقعة الخبيثة — يعني مدينة بغداد ، قال — فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ويقتضون أكثر من مائة امرأة ويقتلون بها ثلاثمائة كبش^(١) من ولد العباس ، ثم يخرجون متوجهين إلى الشام فتخرج راية هدى من الكوفة فتلحق ذلك الجيش منها على ليتين فيقتلونهم لا يفلت منهم مخبر ويستنقذون ما في أيديهم من السبي والغنائم ويحلّ جيشه الثاني بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيام ولياليها ثم يخرجون متوجهين إلى مكة حتى إذا كانوا بالبيداء بعث الله جبريل عليه السلام فيقول يا جبريل أذهب فأبدهم فيضربها برجله ضربة ينحسف الله بهم ، وذلك قوله تعالى : «وَلَوْ تَرَى إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ» فلا يبقى منهم إلا رجلان أحدهما بشير والآخر نذير وهما من جهينة ، ولذلك جاء القول : وعند جهينة الخبر اليقين . وقيل : «أَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ» أي قبضت أرواحهم في أماكنها فلم يمكنهم الفرار من الموت ، وهذا على قول من يقول : هذا الفرع عند النزع . ويحتمل أن يكون هذا من الفرع الذي هو بمعنى الإجابة ، يقال : فزع الرجل أي أجاب الصارخ الذي يستغيث به إذا نزل به خوف . ومنه الخبر إذا قال للأنصار : «إِنَّكُمْ لَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ وَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ» . ومن قال : أراد الخسف أو القتل في الدنيا كيوم بدر قال : أخذوا في الدنيا قبل أن يؤخذوا في الآخرة . ومن قال : هو فزع يوم القيامة قال : أخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها . وقيل : «أَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ» من جهنم فالقوا فيها . قوله تعالى : وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ قوله تعالى : (وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ) أي بالقرآن . وقال مجاهد : بالله عز وجل . الحسن : بالبعث . قتادة : بالرسول صلى الله عليه وسلم . (وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) قال

(١) كبش القوم : رئيسهم ، وسبدهم ، وحاميتهم ، والمنظور إليه فيهم . (٢) في كتاب التذكرة «على ميان» .

ابن عباس والضحاك : التناوش الرجعة ؛ أى يطلبون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا ، وهيهات من ذلك ! ومنه قول الشاعر :

تمنى أن تنوب إلى مَيَّ * وليس إلى تناوشها سبيل

وقال السدي : هى التوبة ؛ أى طلبوها وقد بعدت ، لأنه إنما تقبل التوبة فى الدنيا . وقيل : التناوش التناول ؛ قال ابن السكيت : يقال للرجل إذا تناول رجلا ليأخذ برأسه ولحيته : ناشه ينوشه نَوْشًا . وأنشد :

(١)

فهى تنوش الحوض نَوْشًا من علّا * نَوْشًا به تقطع أجواز الفلا

أى لتناول ماء الحوض من فوق وتشرب شربا كثيرا ، وتقطع بذلك الشرب فلوات فلا تحتاج إلى ماء آخر . قال : ومنه المناوشة فى القتال ؛ وذلك إذا تدانى الفريقان . ورجل نَوْش أى ذو بطش . والتناوش . التناول : والانتياش مثله . قال الراجز :

* كانت تنوش العنق انتياشا *

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يقول : أنى لهم تناول الإيمان فى الآخرة وقد كفروا فى الدنيا . وقرأ أبو عمرو والكسائى والأعمش وحزة : « وأنى لهم التناوش » بالهمز . النحاس : وأبو عبيدة يستبعد هذه القراءة ؛ لأن « التناوش » بالهمز البعد ، فكيف يكون : وأنى لهم البعد من مكان بعيد . قال أبو جعفر : والقراءة جائزة حسنة ، ولها وجهان فى كلام العرب ، ولا يتأول بها هذا المتأول البعيد . فأحد الوجهين أن يكون الأصل غير مهموز ، ثم همزت الواو لأن الحركة فيها خفية ، وذلك كثير فى كلام العرب . وفى المصحف الذى نقلته الجماعة عن الجماعة « وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتُ^(٢) » والأصل « وَقَتَّت » لأنه مشتق من الوقت . ويقال فى جمع دار : أدؤر . والوجه الآخر ذكره أبو إسحاق قال : يكون مشتقا من النبش وهو الحركة فى إبطاء ؛ أى من أين لهم الحركة فيما قد بعد ، يقال : ناشت الشيء أخذته

(١) البيت لغيلان بن حريث : والضمير فى قوله « فهى » للإبل . وتنوش الحوض : تناول ملاه . وقوله :

« من علا » أن من فوق . يريد أنها عالية الأجسام طوال الأعناق ؛ وذلك النوش الذى تناه هو الذى يعينها على

قطع الفلوات . والأجواز : جمع جوز وهو الوسط . (٢) راجع ج ١٩ ص ١٥٥ .

من بُعد والنش : الشيء البطيء . قال الجوهري : التناؤش (بالهمز) التأخر والتباعد .
وقد نأشت الأمر أناشيه نأشا أخرته ؛ فانتأش . ويقال : فعله نئيشا أى أخيرا .
قال الشاعر :

تمنى نئيشا أن يكون أطاعنى * وقد حدثت بعد الأمور أمور^(١)

وقال آخر :

قعدت زمانا عن طلابك للعلا * وجدت نئيشا بعد ما فاتك الخبير^(٢)

وقال الفراء : الهمز وترك الهمز في التناؤش متقارب ؛ مثل : ذممت الرجل وذأنته أى عينه .
(مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) أى من الآخرة . وروى أبو إسحاق عن التميمي عن ابن عباس قال :
« وأنى لهم » قال : الرد ، سألوه وليس بحين رد .

قوله تعالى : وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ

بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : (وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ) أى بالله عز وجل . وقيل : بمحمد (مِنْ قَبْلُ)
يعنى في الدنيا . (وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ) العرب تقول لكل من تكلم بما لا يحقه : هو يقذف
ويرجم بالغيب . (مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ) على جهة التمثيل لمن يرحم ولا يصيب ، أى يرمون بالظن
فيقولون : لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ، رجما منهم بالظن ؛ قاله قتادة . وقيل :
« يقذفون » أى يرمون في القرآن فيقولون : سحر وشعر وأساطير الأولين . وقيل : في عهد ؛
فيقولون ساحر شاعر كاهن مجنون . (مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ) أى إن الله بعد لهم أن يعلموا
صدق محمد . وقيل : أراد البعد عن القلب ، أى من مكان بعيد عن قلوبهم . وقرا مجاهد
« وَيُقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ » غير مسمى الفاعل ، أى يُرَوْن به . وقيل : يقذف به إليهم من
ينفويهم ويضلهم .

(١) في اللسان مادة نأش : « ويحدث من بعد ... » . (٢) في ش ، ك : « الخير » بالياء المتناة .

(٣) في اللسان : ذامه يذمه ذمما وذا ما عابه ، وذمته أذيمه وأذمته وذمته ، كله بمعنى .

(٤) حق الأمر بحقه وأحقه : كان منه على يقين .

قوله تعالى : وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ
مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مَُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ) قيل : حيل بينهم وبين النجاة من
العذاب . وقيل : حيل بينهم وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهلهم . ومذهب قتادة
أن المعنى أنهم كانوا يشتهون لما رأوا العذاب أن يقبل منهم أن يطيعوا الله جل وعز وينتصروا
إلى ما يأمرهم به الله فحيل بينهم وبين ذلك ؛ لأن ذلك إنما كان في الدنيا وقد زالت في ذلك
الوقت . والأصل « حُول » فقلبت حركة الواو على الحاء فانقلبت ياء ثم حذفت حركتها
لثقلها . (كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ) الأشياء جمع شَيْع ، وشَيْع جمع شَيْعة . (مِّن قَبْلُ) أى بمن
مضى من القرون السالفة الكافرة . (إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ) أى من أمر الرسل والبعث والجنة
والنار . وقيل : في الدين والتوحيد ، والمعنى واحد . (مَُّرِيبٌ) أى يستراب به ، يقال :
أراب الرجل أى صار ذا ريبة ، فهو مريب . ومن قال هو من الريب الذى هو الشك
والنهمة قال : يقال شكٌ مريب ؛ كما يقال : عجبٌ عجيب وشعر شاعر ؛ في التأكيد .

ختمت السورة ، والحمد لله رب العالمين .

سورة فاطر

مكية في قول الجميع ، وهى خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا أُولَى
أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثُلُثَ وُربَعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يجوز في « فاطر » ثلاثة أوجه :
 الخفض على النعت ، والرفع على إضمار مبتدأ ، والنصب على المدح . وحكى سيبويه : الحمد لله
 أهل الحمد [مثله ^(١)] وكذا « جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ » . والفاطر : الخالق . وقد مضى في « يوسف »
 وغيرها . والفطر . الشق عن الشيء ؛ يقال : فطرته فأفطر . ومنه : فطر ناب البعير طلع ،
 فهو بعير فاطر . وتفطر الشيء تشقق . وسيف فطار ، أى فيه تشقق . قال عنترة :
 وسيفي كالعقيقة فهو كمنى * سلاحي لا أفل ولا فطاراً ^(٢)

والفطر : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : كنت لا أدري ما « فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »
 حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى أنا ابتدأتها . والفطر .
 حلب الناقة بالسبابة والإبهام . والمراد بذكر السموات والأرض العالم كله ، ونبه بهذا على أن
 من قدر على الابتداء قادر على الإعادة . ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ ﴾ لا يجوز فيه التنوين ، لأنه لما
 مضى . ﴿ رُسُلًا ﴾ مفعول ثان ، ويقال على إضمار فعل ؛ لأن « فاعلا » إذا كان لما مضى
 لم يعمل فيه شيئا ، وإعماله على أنه مستقبل حذف التنوين منه تخفيفا . وقرأ الضحاك
 « الحمد لله فطر السموات والأرض » على الفعل الماضي . « جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا » الرسل
 منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، صلى الله عليهم أجمعين . وقرأ الحسن :
 « جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ » بالرفع . وقرأ خُليد بن نسيط « جعل الملائكة » وكله ظاهر . ﴿ أُولَى
 أَجْنِحَةٍ ﴾ نعت ، أى أصحاب أجنحة . ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾^(٣) أى اثنين اثنين ، وثلاثة
 ثلاثة ، وأربعة أربعة . قال قتادة : بعضهم له جناحان ، وبعضهم ثلاثة ، وبعضهم أربعة ؛
 ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون من الأرض إلى السماء ، وهى مسيرة كذا فى وقت
 واحد ، أى جعلهم رسلا . قال يحيى بن سلام : إلى الأنبياء . وقال السدى : إلى العباد
 برحمة أو تقمة . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه

(١) زيادة عن كتاب النحاس يقتضيا السياق . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٧٩ ، ج ٦ ص ٣٩٧

(٣) عقيقة البرق : شماعه . والكعج (بكسر فسكون) والكعج : الضجيج . (٤) فى كتاب البحر : « وفيل

أول أجنحة » معترض ، و« مثنى » حال ، والعامل فعل محذوف يدل عليه « رسلا » ؛ أى يرسلون مثنى وثلاث ورباع .

السلام له ستمائة جناح . وعن الزهري أن جبريل عليه السلام قال له : ” يا محمد ، لو رأيت إسرافيل إن له لاثنى عشر ألف جناح منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب وإن العرش لعل كاهله وإنه في الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوضع — والوضع عصفور صغير — حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته “ . و « أُولُو » اسم جمع لذو ، كما أن هؤلاء اسم جمع لذا ، ونظيرهما في المتمكنة : المحاض والخليفة . وقد مضى الكلام في « مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » في « النساء » وأنه غير منصرف . (١) « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ » أي في خلق الملائكة ، في قول أكثر المفسرين ؛ ذكره المهدوي . وقال الحسن : « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ » أي في أجنحة الملائكة ما يشاء . وقال الزهري وابن جريج : يعني حسن الصوت . وقد مضى القول فيه في مقدمة الكتاب . (٢) وقال الهيثم الفارسي : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في منامي ، فقال : ” أنت الهيثم الذي تُزَيِّنُ القرآن بصوتك جزاك الله خيرا “ . وقال قتادة : « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ » الملاحاة في العينين والحسن في الأنف والحلاوة في الفم . وقيل : الخط الحسن . وقال مهاجر الكلاعي قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” الخط الحسن يزيد الكلام وضوحا “ . وقيل : الوجه الحسن . وقيل في الخبر في هذه الآية : هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن ؛ ذكره القشيري . النقاش : هو الشعر الجعد . (٣) وقيل : العقل والتمييز . وقيل : العلوم والصنائع . (٤) « إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » من النقصان والزيادة . الزمخشري : والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق ؛ من طول قامته ، واعتدال صورته ، وتمام في الأعضاء ، وقوة في البطش ، وحصافة في العقل ، وجرأة في الرأي ، وجرأة في القلب ، وسماحة في النفس ، وذلافة في اللسان ، ولباقة في التكلم ، وحسن تأت في مزاولة الأمور ؛ وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف .

(١) المحاض : الحوامل من النوق ، واحدتها خلفة على غير قياس ولا واحد لها من لفظها ؛ كما قالوا واحدة النساء : امرأة ، ولو واحدة الإبل : ناقة أو بعير . (٢) راجع ج ٥ ص ١٥ فابعد . (٣) راجع (باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى) . (٤) ما فيه التواء وتقبض . أو القصير منه . (٥) تأتي فلان لحاجته : إذا تفرق لها رأياها من وجهها .

قوله تعالى : مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا^ط
وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ . وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ وأجاز النحويون في غير القرآن « فلا ممسك له » على لفظ « ما » و « لها » على المعنى . وأجازوا « وما يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهَا » . وأجازوا « ما يفتح الله للناس من رحمة » (بالرفع) تكون « ما » بمعنى الذي . أى إن الرسل بعثوا رحمة للناس فلا يقدر على إرسالهم غير الله . وقيل : ما يأتيهم به الله من مطر أو رزق فلا يقدر أحد أن يمسكه ، وما يمسك من ذلك فلا يقدر أحد على أن يرسله . وقيل : هو الدعاء ؛ قاله الضحاك . ابن عباس : من توبة . وقيل : من توفيق وهداية . قلت : ولفظ الرحمة يجمع ذلك ؛ إذ هي منكرة للإشاعة والإبهام ، فهي متناولة لكل رحمة على البذل ، فهو عام في جميع ما ذكر . وفي موطأ مالك : أنه بلغه أن أبا هريرة كان يقول إذا أصبح وقد مطر الناس : مطرنا بنوء الفتح ، ثم يتلو هذه الآية « مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا » . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : يَأَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآئِنِ تَوَفَّكُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ معنى هذا الذكر الشكر . ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ يجوز في « غير » الرفع والنصب والحفض ، فالرفع من وجهين : أحدهما — بمعنى هل من خالق إلا الله ؛ بمعنى ما خالق إلا الله . والوجه الثانى — أن يكون نعناً على الموضع ؛ لأن المعنى : هل خالق غير الله ، و « من » زائدة . والنصب على الاستثناء .

(١) راجع ج ٢ ص ١٣١ .

(٢) في ش ، وك . « يجوز في القرآن الرفع ... » الخ وفي ح : « في غير القرآن » .

والخلفى على اللفظ . قال حميد الطويل : قلت للحسن : من خلق الشر ؟ فقال سبحانه الله ! هل من خالق غير الله جل وعز ، خلق الخير والشر . وقرا حمزة والكسائي : « هَلْ مِنْ خَالِقِ غَيْرِ اللَّهِ » بالخلفى . الباقر بالرفع . « يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ » أى المطر . « وَالْأَرْضِ » أى النبات . « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنِّي تُؤْفِكُونَ » من الأفك (بالفتح) وهو الصرف ؛ يقال : ما أفكك عن كذا ، أى ما صرفك عنه . وقيل : من الإفك (بالكسر) وهو الكذب ، ويرجع هذا أيضا إلى ما تقدم ؛ لأنه قول معروف عن الصدق والصواب ، أى من أين يقع لكم التكذيب بتوحيد الله . والآية حجة على القدريّة لأنه نفى خالقا غير الله وهم يشبّهون معه خالقين ، على ما تقدم فى غير موضع .

قوله تعالى : وَإِن يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : « وَإِن يَكْذِبُوكَ » يعنى كفار قريش . « فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ » يعزى نبيه ويسلمه صلى الله عليه وسلم ؛ وليتأسّى بمن قبله فى الصبر . « وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » قرا الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حيوة وابن محيىن وحيد والأعمش وحمزة ويحيى والكسائي وخلف (بفتح التاء) على أنه مسمى الفاعل . وأختره أبو عبيد لقوله تعالى : « أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » الباقر « تُرْجَعُ » على الفعل المجهول .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » هذا وعظ للمكذّبين للرسول بعد إيضاح الدليل على صحّة قوله : إن البعث والثواب والعقاب حق . « فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » قال سعيد بن جبير : غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة ،

حتى يقول : يا ليتني قدمت لحياتي . (وَلَا يَغُرَّنْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ) قال ابن السكيت وأبو حاتم : « الغرور » الشيطان . وغرور جمع غرّة ، وغرّ مصدر . ويكون « الغرور » مصدرا وهو بعيد عند غير أبي إسحاق ؛ لأن « غرّته » متعدّ ، والمصدر المتعدّي إنّما هو على فعل ؛ نحو : ضربته ضربا ، إلا في أشياء يسيرة لا يقاس عليها ، قالوا : لزمته لزوما ، ونهكه المرض نهوكا . فأما معنى الحرف فأحسن ما قيل فيه ما قاله سعيد بن جبير ، قال : الغرور بالله أن يكون الإنسان يعمل بالمعاصي ثم يتمنى على الله المغفرة . وقراءة العامة « الغرور » (بفتح الغين) وهو الشيطان ؛ أي لا يغترنكم بوساوسه في أنه يتجاوز عنكم لفضلكم . وقرأ أبو حيوة وأبو السّمال العدويّ ومحمد بن السّمّيع « الغرور » (برفع الغين) وهو الباطل ؛ أي لا يغترنكم الباطل . وقال ابن السكيت : والغرور (بالضم) ما اغترّ به من متاع الدنيا . قال الزجاج : ويجوز أن يكون الغرور جمع غار ؛ مثل قاعد وقعود . النحاس : أو جمع غرّ ، أو يُشبهه بقولهم : نهكه المرض نهوكا ولزمه لزوما . الزمخشريّ : أو مصدر « غره » كاللزم والنهوك .

قوله تعالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) أي فعادوه ولا تطيعوه . ويدلّكم على عداوته إخراجهم أباكم من الجنة ، وضمانه إضلالكم في قوله : « وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ » الآية . وقوله : « لَا فَعْدَنَ لَهُمْ صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَا تَيْبَسُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ » الآية . فأخبرنا جل وعز أن الشيطان لنا عدو مبین ، واقتص علينا قصته ، وما فعل بأبينا آدم صلى الله عليه وسلم ، وكيف آتدب لعداوتنا وغرورنا من قبل وجودنا وبعده ، ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا . وكان الفضيل بن عياض يقول : يا كذاب

(١) راجع ج ٥ ص ٣٨٨ فابعد .

(٢) راجع ج ٧ ص ١٧٤ .

يَا مُفْتِرٍ ، أَتَى اللَّهَ وَلَا تُسَبِّ الشَّيْطَانُ فِي الْعِلَانِيَةِ وَأَنْتَ صَدِيقُهُ فِي السِّرِّ . وَقَالَ ابْنُ السَّمَاكِ :
يَا عَجَبًا لِمَنْ عَصَى الْمُحْسَنَ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِإِحْسَانِهِ ! وَأَطَاعَ اللَّعِينَ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِعِدَاوَتِهِ ! وَقَدْ مَضَى
هَذَا الْمَعْنَى فِي « الْبَقَرَةِ » ^(١) مَجُودًا . وَ « عَدُوٌّ » فِي قَوْلِهِ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ » يَجُوزُ أَنْ
يَكُونَ بِمَعْنَى مُعَادٍ ، فَيَنْتَبِهُ وَيُؤْنِثُ . وَيَكُونُ بِمَعْنَى النِّسْبِ فَيَكُونُ مُوَحَّدًا بِكُلِّ حَالٍ ؛
كَمَا قَالَ جَل وَعَزْ : « فَلَا تُهْمُ عَدُوٌّ لِي » ^(٢) . وَفِي الْمَوْثُوثِ عَلَى هَذَا أَيْضًا عَدُوٌّ . النَّحَاسُ : فَأَمَّا
قَوْلُ بَعْضِ النُّحَوِيِّينَ إِنَّ الْوَاوَ خَفِيَّةٌ بِفَاءٍ وَأَوَّاهُ نَفْطًا ، بَلِ الْوَاوُ حَرْفٌ جَلْدٌ . (إِنَّمَا يَدْعُو
حِزْبَهُ) كَقَوْلِهِ « مَا » « إِنَّ » عَنْ الْعَمَلِ فَوْقَ بَعْدِهَا الْفِعْلُ . (حِزْبُهُ) أَيْ أَشْيَاعُهُ .
(لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) فَهَذِهِ عِدَاوَتُهُ . (الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) يَكُونُ
« الَّذِينَ » بَدَلًا « مِنْ أَصْحَابِ » فَيَكُونُ فِي مَوْضِعِ خَفْضٍ ، أَوْ يَكُونُ بَدَلًا مِنْ « حِزْبِهِ »
فَيَكُونُ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ ، أَوْ يَكُونُ بَدَلًا مِنْ الْوَاوِ فَيَكُونُ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ . وَقَوْلُ رَابِعٍ وَهُوَ
أَحْسَنُهَا — يَكُونُ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بِالْإِبْتِدَاءِ وَيَكُونُ خَبَرُهُ « لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » ؛ وَكَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ
بَيْنَ حَالِ مُوَافَقَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ ، وَيَكُونُ الْكَلَامُ قَدْ تَمَّ فِي قَوْلِهِ : « مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » ثُمَّ ابْتَدَأَ
فَقَالَ : « الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » . (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فِي مَوْضِعِ
رَفْعٍ بِالْإِبْتِدَاءِ أَيْضًا ، وَخَبَرُهُ (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) أَيْ لَذُنُوبِهِمْ . (وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) وَهُوَ الْجَنَّةُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ) « مَنْ » فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بِالْإِبْتِدَاءِ ، وَخَبَرُهُ
مَحْذُوفٌ . قَالَ الْكِسَائِيُّ : وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ »
فَالْمَعْنَى : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ذَهَبَتْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ . قَالَ : وَهَذَا كَلَامُ

عربي طريف لا يعرفه إلا قليل . وذكره الزمخشري عن الزجاج . قال النحاس : والذي قاله الكسائي أحسن ما قيل في الآية ، لما ذكره من الدلالة على المحذوف ، والمعنى أن الله جل وعز نهى نبيه عن شدة الاغتمام بهم والحزن عليهم ، كما قال جل وعز : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ ^(١) نَفْسَكَ » قال أهل التفسير : قاتل . قال نصر بن علي : سألت الأصمعي عن قول النبي صلى الله عليه وسلم في أهل اليمن : « هم أرقُّ قلوباً وأنجع طاعةً » ما معنى أنجع ؟ فقال : أنصح . فقلت له : إن أهل التفسير مجاهدوا وغيره يقولون في قول الله عز وجل : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ ^(٢) نَفْسَكَ » : معناه قاتل نفسك . فقال : هو من ذاك بعينه ، كأنه من شدة النصيحة لهم قاتل نفسه . وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير ، مجازه : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء . وقيل : الجواب محذوف ، المعنى أفمن زين له سوء عمله كمن هدى ، ويكون يدل على هذا المحذوف « فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » . وقرأ يزيد بن القعقاع : « فَلَا تُذْهِبْ نَفْسَكَ » وفي « أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ » أربعة أقوال ، أحدها — أنهم اليهود والنصارى والمجوس ؛ قاله أبو قلابة . ويكون « سُوءُ عَمَلِهِ » معاندة الرسول عليه الصلاة والسلام . الثاني — أنهم الخوارج ؛ رواه عمر بن القاسم . فيكون « سُوءُ عَمَلِهِ » تحريف التأويل . الثالث — الشيطان ؛ قاله الحسن . ويكون « سُوءُ عَمَلِهِ » الإغواء . الرابع — كفار قريش ؛ قاله الكلبي . ويكون « سُوءُ عَمَلِهِ » الشرك . وقال : إنها نزلت في العاص بن وائل السهمي والأسود بن المطلب . وقال غيره : نزلت في أبي جهل بن هشام . (فرآه حسناً) أى صواباً ؛ قاله الكلبي . وقيل : جميلاً .

قلت : والقول بأن المراد كفار قريش أظهر الأقوال ؛ لقوله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ » ^(٣) ، وقوله : « وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » ^(٤) ، وقوله : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » ^(٥) ، وقوله : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » ^(٦) .

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٥٣ . (٢) راجع ج ٣ ص ٣٢٧ . (٣) راجع ج ٤ ص ٢٨٤ .

(٤) راجع ج ١٣ ص ٨٧ فـ١ بعد .

وقوله في هذه الآية : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ » . وهذا ظاهر بين ، أى لا ينفع تأسفك على مقامهم على كفرهم ، فإن الله أضلهم . وهذه الآية ترد على القدرية قولهم على ما تقدم ؛ أى أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا تريد أن تهديه ، وإنما ذلك إلى الله لا إليك ، والذى إليك هو التبليغ . وقرأ أبو جعفر وشيبة وابن محيصن : « فَلَا تُذْهِبْ » بضم التاء وكسر الهاء « نَفْسُكَ » نصبا على المفعول ، والمعنيان متقاربان . « حَسْرَاتٍ » منصوب مفعول من أجله ؛ أى فلا تذهب نفسك للحسرات . و « عَلَيْهِمْ » صلة « تذهب » ، كما تقول : هلك عليه حبا ومات عليه حزنا . وهو بيان للتحسر عليه . ولا يجوز أن يتعلق بالحسرات ؛ لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته . ويجوز أن يكون حالا كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر ؛ كما قال جرير .

مَشَقَّ الْهَوَاجِرُ لِحَمَهِنَّ مَعَ الشَّرَى * حَتَّى ذَهَبَ كَلَّا كَلَّا وَصُدُّورًا

يريد : رجعن كَلَّا كَلَّا وصدورا ؛ أى لم يبق إلا كَلَّا كلها وصدورها . ومنه قول الآخر :

فَعَلَى إِثْرِهِمْ تَسَافُطَ نَقِيصَى * حَسْرَاتٍ وَذَكَرَهُمْ لِي سِقَامٍ

أو مصدرا . (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) .

قوله تعالى : وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَاهُ إِلَى بَلَدٍ

مَيِّتٍ فَأُحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ) مَيِّتٌ وَمَيِّتٌ

واحد ، وكذا مَيِّتٌ وَمَيِّتَةٌ ؛ هذا قول الخُذَّاق من النحويين . وقال محمد بن يزيد : هذا قول

البصريين ، ولم يستثن أحدا ، واستدل على ذلك بدلائل قاطعة . وأنشد :

ليس من مات فاستراح مَيِّتٌ * إنما المَيِّتُ مَيِّتُ الأحياء

إنما المَيِّتُ من يعيش كميَّا * كاسِفًا بالله قليل الرجاء

قال : فهل ترى بين مَيِّت ومَيِّت فرقا ، وأنشد :

هَيْنُون لَيْنُون أَيْسَارُ بَنُو يَسَر * سُؤاس مَكْرُمةُ أُنْباءِ أَيْسَار

قال : فقد أجمعوا على أن هَيْنُون وَلَيْنُون واحد ، وكذا مَيِّت ومَيِّت ، وَسَيْد وسَيْد . قال :

« فَسُقْنَاهُ » بعد أن قال : « وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ » وهو من باب تلوين الخطاب .

وقال أبو عبيدة : سبيله « فَتُسَوِّقُهُ » ، لأنه قال : « فَتُشِيرُ سَحَابًا » . الزمخشري : فإن قلت :

لم جاء « فتشير » على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟ قلت : لتعكي الحال التي تقع فيها إثارة

الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون

بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تُستغرب ، أو تهتم المخاطب أو غير ذلك ، كما قال تأبط شراً

بأنى قد لقيت الغول تهوى * بسهب كالصحيفة صحصحان^(١)

فأضربها بلا دَهِش فخرت * صريعا للبيدين وللجمران^(٢)

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم إياها ،

ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول ، وثباته عند كل شدة . وكذلك

سوق السحاب إلى البلد الميت ، لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : « فسقنا »

و « أحيينا » معدولا بهما عن لفظة الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه .

وقراءة العامة « الرياح » . وقرأ ابن محيصة وابن كثير والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي

« الريح » توحيدا . وقد مضى بيان هذه الآية والكلام فيها مستوفى . (كَذَلِكَ النُّشُورُ)^(٣)

أى كذلك تُحْيَوْنَ بعد ما تم ، من نشر الإنسان نشورا . فالكاف في محل الرفع ؛ أى مثل

إحياء الموت نشر الأموات . وعن أبي رزين العقيلي قال : قالت يا رسول الله ، كيف يحيي

الله الموتى ، وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : « أما مررت بوادى أهلك مُمَجَّلاً ثم مررت به

يهتَرُ خَضِرًا » قلت : نعم يا رسول الله . قال « فكذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه »

وقد ذكرنا هذا الخبر في « الأعراف »^(٤) وغيرها .

(١) السهب (بالفتح) : الفضاء المستوفى البعيد الأطراف . والصحيفة : الكتاب . والصحصحان (بالفتح) :

المستوى من الأرض . (٢) الجمران (بالكسر) : مقدم العنق من مذبح البعير إلى منجره .

(٣) راجع ج ٢ ص ١٩٨ . (٤) راجع ج ٧ ص ٢٣٠ .

قوله تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ
الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) التقدير عند الفراء : من كان يريد علم العزة . وكذا قال غيره من أهل العلم . أى من كان يريد علم العزة التى لا ذلة معها ؛ لأن العزة إذا كانت تؤدى إلى ذلة فإنما هى تعرض للذلة ، والعزة التى لا ذل معها لله عز وجل . (جَمِيعًا) منصوب على الحال . وقدر الزجاج معناه : من كان يريد بعبادته الله عز وجل العزة — والعزة له سبحانه — فإن الله عز وجل يُعزّه فى الآخرة والدنيا .

قلت : وهذا أحسن ، وروى مرفوعا على ما يأتى . (فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) ظاهر هذا إثبات السامعين من عزته ، وتعريفهم أن ما وجب له من ذلك لا مطمع فيه لغيره ؛ فتكون الألف واللام للعهد عند العالمين به — سبحانه — وبما وجب له من ذلك ، وهو المفهوم من قوله الحق فى سورة يونس : « وَلَا يَحْزِنَكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ ^(١) » . ويحتمل أن يريد سبحانه أن ينبّه ذوى الأقدار والهمم من أين تنال العزة ومن أين تُستحق ؛ فتكون الألف واللام للاستغراق ، وهو المفهوم من آيات هذه السورة . فمن طلب العزة من الله وصدقته فى طلبها بآفتقار وذل ، وسكون وخضوع ، وجدها عنده — إن شاء الله — غير ممنوعة ولا محجوبة عنه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « من تواضع لله رفعه الله » . ومن طلبها من غيره وكله إلى من طلبها عنده . وقد ذكر قوما طلبوا العزة عند من سواه فقال : « الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْدِيُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ ^(٢) جَمِيعًا » . فأنباك صريحا لا إشكال فيه أن العزة له يُعزّها من يشاء ويذل من يشاء . وقال صلى الله عليه وسلم مفسرا لقوله « مَنْ كَانَ يُرِيدُ

(١) راجع ج ٨ ص ٣٥٩ .

(٢) راجع ج ٥ ص ٤١٦ فابعد .

الْعِزَّةُ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا : « من أراد عز الدارين فليطع العزيز » . وهذا معنى قول الزجاج .
ولقد أحسن من قال :

وإذا تذلت الرقاب تواضعا * منا إليك فعزها في ذلها

فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر، ويدخل دار العزة — والله العزة — فليقصد بالعزة الله سبحانه والاعتزاز به؛ فإنه من اعتز بالعبد أذله الله، ومن اعتز بالله أعزه الله .

قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فيه مسألان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وتم الكلام . ثم تبدى ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ على معنى : يرفعه الله ، أو يرفع صاحبه . ويجوز أن يكون المعنى : والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب ؛ فيكون الكلام متصلا على ما يأتي بيانه . والصعود هو الحركة إلى فوق ، وهو العروج أيضا . ولا يتصور ذلك في الكلام لأنه عرض ، لكن ضرب صعوده مثلا لقبوله ؛ لأن موضع الثواب فوق ، وموضع العذاب أسفل . وقال الزجاج : يقال ارتفع الأمر إلى القاضى أى علمه ؛ فهو بمعنى العلم . وخص الكلام والطيب بالذكر لبيان الثواب عليه . وقوله : « إِلَيْهِ » أى إلى الله يصعد . وقيل : يصعد إلى سمائه والمحل الذى لا يجرى فيه لأحد غيره حكم . وقيل : أى يحمل الكتاب الذى كتب فيه طاعات العبد إلى السماء . و « الْكَلِمُ الطَّيِّبُ » هو التوحيد الصادر عن عقيدة طيبة . وقيل : هو التحميد والتعجب ، وذكر الله ونحوه . وأنشدوا :

لا ترض من رجل حلاوة قوله * حتى يُزَيِّنَ ما يقول فَعَالُ

فإذا وزنت فَعَاله بمقاله * فتَوَازَنَا فإِخاء ذاك جَمَالُ

وقال ابن المقفع : قول بلا عمل ، كثير يد بلا دسم ، وسحاب بلا مطر ، وقوس بلا وتر .
وفيه قيل :

لا يكون المقال إلا بفعلٍ * كلُّ قولٍ بلا فعَالٍ هَبَاءُ

إن قولًا بلا فعَالٍ جميل * ونِكَاحًا بلا وَلِيٍّ سواء

وقرأ الضحاك « يُصعد » بضم الياء . وقرأ جمهور الناس « الكَلِم » جمع كلمة . وقرأ أبو عبد الرحمن « الكلام » .

قلت : فالكلام على هذا قد يطلق بمعنى الكلم وبالعكس ؛ وعليه يخرج قول أبي القاسم : أقسام الكلام ثلاثة ؛ فوضع الكلام موضع الكلم ، والله أعلم . (وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : المعنى والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب . وفي الحديث : « لا يقبل الله قولا إلا بعمل ، ولا يقبل قولا وعملا إلا بنية » . قال ابن عباس : فإذا ذكر العبد الله وقال كلاما طيبا وأدى فرائضه ، ارتفع قوله مع عمله ، وإذا قال ولم يؤد فرائضه ردّ قوله على عمله . قال ابن عطية : وهذا قول يرده معتقد أهل السنة ولا يصح عن ابن عباس . والحق أن العاصي التارك للفرائض إذا ذكر الله وقال كلاما طيبا فإنه مكتوب له متقبل منه ، وله حسناته وعليه سيئاته ، والله تعالى يتقبل من كل من أتى الشرك . وأيضا فإن الكلام الطيب عمل صالح ، وإنما يستقيم قول من يقول : إن العمل هو الرفع للكلم ، بأن يتأول أنه يزيد في رفعه وحسن موقعه إذا تعاضد معه . كما أن صاحب الأعمال من صلاة وصيام وغير ذلك ، إذا تخلل أعماله كَلِمٌ طَيِّبٌ وذكر الله تعالى كانت الأعمال أشرف ؛ فيكون قوله : « وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » موعظة وتذكيرة وحضاً على الأعمال . وأما الأقوال التي هي أعمال في نفوسها ؛ كالتوحيد والتسبيح فقبولة . قال ابن العربي : « إن كلام المرء بذكر الله إن لم يقترن به عمل صالح لم ينفع ؛ لأن من خالف قوله فعله فهو وبال عليه . وتحقيق هذا : أن العمل إذا وقع شرطا في قبول القول أو مرتبطا ، فإنه لا قبول له إلا به ، وإن لم يكن شرطا فيه فإن كلمه الطيب يكتب له ، وعمله السيئ يكتب عليه ، وتقع الموازنة بينهما ، ثم يحكم الله بالفوز والرجح والخسران » .

قلت : ما قاله ابن العربي تحقيق . والظاهر أن العمل الصالح شرط في قبول القول الطيب . وقد جاء في الآثار « أن العبد إذا قال : لا إله إلا الله بنية صادقة نظرت الملائكة

(١) في روح المعاني : « وقال ابن عطية : وقرأ الضحاك « يصعد » بضم الياء ولم يذكر مبنيا للفاعل ولا مبنيا للفعول ، ولا إعراب ما بعده » .

إلى عمله ، فإن كان العمل موافقا لقوله صعدا جميعا ، وإن كان عمله مخالفا وقف قوله حتى يتوب من عمله . فعلى هذا العمل الصالح يرفع الكلم الطيب إلى الله . والكفاية في « يرفعه » ترجع إلى الكلم الطيب . وهذا قول ابن عباس وشهر بن حوشب وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وأبي العالية والضحاك . وعلى أن « الكلم الطيب » هو التوحيد ، فهو الرفع للعمل الصالح ؛ لأنه لا يقبل العمل الصالح إلا مع الإيمان والتوحيد . أى والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب ؛ فالكفاية تعود على العمل الصالح . وروى هذا القول عن شهر بن حوشب قال : « الكلم الطيب » القرآن « والعمل الصالح يرفعه » القرآن . وقيل : تعود على الله جل وعز ؛ أى أن العمل الصالح يرفعه الله على الكلم الطيب ؛ لأن العمل بتحقيق الكلم ، والعامل أكثر تعباً من القائل ، وهذا هو حقيقة الكلام ؛ لأن الله هو الرفع الخافض . والثاني والأول مجاز ، ولكنه سائغ جائز . قال النحاس : القول الأول أولها وأصحها لعزو من قال به ، وأنه في العربية أولى ؛ لأن القراء على رفع العمل . ولو كان المعنى : والعمل الصالح يرفعه الله ، أو العمل الصالح يرفعه الكلم الطيب ، لكان الاختيار نصف العمل . ولا نعم أحدا قرأه منصوبا إلا شيئا روى عن عيسى بن عمر أنه قال : قرأه أناس « والعمل الصالح يرفعه الله » . وقيل : والعمل الصالح يرفع صاحبه ، وهو الذي أراد العزة وعلم أنها تُطلب من الله تعالى ؛ ذكره القشيري .

الثانية — ذكروا عند ابن عباس أن الكلب يقطع الصلاة ، فقرأ هذه الآية : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » . وهذا استدلال بعموم على مذهب السلف في القول بالعموم ، وقد دخل في الصلاة بشروطها ، فلا يقطعها عليه شيء إلا بثبوت ما يوجب ذلك ؛ من مثل ما انعقدت به من قرآن أو سنة أو إجماع . وقد تعلق من رأى ذلك بقوله عليه السلام : « يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود » فقلت : ما بال الكلب الأسود من الكلب الأبيض من الكلب الأحمر ؟ فقال : « إن الأسود شيطان » خرجه مسلم . وقد

(٢) أورد المؤلف هذا الحديث بمعناه لا باللفظ .

(١) في الأصول : « يرفعه » .

جاء ما يعارض هذا ، وهو ما أخرجه البخارى عن ابن أنس بن شهاب أنه سأل عمه عن الصلاة يقطعها شيء ؟ فقال : لا يقطعها شيء ، أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم فيصلى من الليل ، وإنى لمعتضة بينه وبين القبلة على فراش أهله .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ذكر الطبرى فى (كتاب آداب النفوس) : حدثني يونس بن عبد الأهلى قال حدثنا سفيان عن ليث بن أبي سليم عن شهر بن حوشب الأشعرى فى قوله عز وجل : « وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ » قال : هم أصحاب الرياء ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة . وقال أبو العالية : هم الذين مكروا بالنبي صلى الله عليه وسلم لما اجتمعوا فى دار الندوة . وقال الكلبي : يعنى الذين يعملون السيئات فى الدنيا . مقاتل : يعنى الشرك ، فتكون « السيئات » مفعولة . ويقال : بار يبور إذا هلك وبطل . وبارت السوق أى كسدت ، ومنه : نعوذ بالله من بوار الأيام ^(١) . وقوله : « وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » ^(٢) أى هلكى . والمكر : ما عمل على سبيل احتيال وخديعة . وقد مضى فى « سبأ » ^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ قال سعيد عن قتادة قال : يعنى آدم عليه السلام ، والتقدير على هذا : خلق أصلكم من تراب . ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ قال : أى التى أخرجها من ظهور آبائكم . ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ قال : أى زوج بعضكم بعضا ، فالذكر زوج الأنثى ليم البقاء فى الدنيا إلى انقضاء مدتها . ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ ﴾

(١) الأيم : التى لا زوج لها -

(٢) راجع ج ١٦ ص ٢٦٩ فما بعد .

(٣) راجع ص ٣٠٢ من هذا الجزء .

إِلَّا يَعْلَمَهُ) أى جعلكم أزواجا فيترّوج الذكر بالأنثى فيتناسلان بعلم الله ، فلا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به ، فلا يخرج شيء عن تديره . (وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ) سماه معمرًا بما هو صائر إليه . قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : « وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ » إلا كتب عمره ، كم هو سنة كم هو شهرا كم هو يوما كم هو ساعة ؛ ثم يكتب في كتاب آخر : نقص من عمره يوم ، نقص شهر ، نقص سنة ، حتى يستوفي أجله . وقاله سعيد بن جبير أيضا ، قال : فما مضى من أجله فهو النقصان ، وما يستقبل فهو الذى يعمره ؛ فالهاء على هذا للعمر . وعن سعيد أيضا : يكتب عمره كذا وكذا سنة ، ثم يكتب فى أسفل ذلك : ذهب يوم ، ذهب يومان ، حتى يأتى على آخره . وعن قتادة : المعمر من بلغ ستين سنة ، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة . ومذهب الفقهاء فى معنى « وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ » أى ما يكون من عمره « وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ » بمعنى معمر آخر ، أى ولا ينقص الآخر من عمره إلا فى كتاب . فالكفاية فى « عمره » ترجع إلى آخر غير الأول . وكفى عنه بالهاء كأنه الأول ، ومثله قولك : عندى درهم ونصفه ، أى نصف آخر . وقيل : إن الله كتب عمر الإنسان مائة سنة إن أطاع ، وتسعين إن عصى ، فأيهما بلغ فهو فى كتاب . وهذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « من أحب أن يسط له فى زرقه ويُنْسَأَ له فى أثره ^(١) فليصل رحمه » أى أنه يكتب فى اللوح المحفوظ : عمر فلان كذا سنة ، فإن وصل رحمه زيد فى عمره كذا سنة . فبين ذلك فى موضع آخر من اللوح المحفوظ ، إنه سيصل رحمه فن أطلع على الأول دون الثانى ظن أنه زيادة أو نقصان . وقد مضى هذا المعنى عند قوله تعالى : « يَحْجُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ^(٢) » والكفاية على هذا ترجع إلى العمر . وقيل : المعنى وما يعمر من معمر أى هرم ، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا فى كتاب ؛ أى بقضاء من الله جل وعز . روى معناه عن الضحاك واختاره النحاس ، قال : وهو أشبهها بظاهر التنزيل . وروى نحوه عن ابن عباس . فالهاء على هذا يجوز أن تكون للعمر ، ويجوز أن تكون لغير

(١) ينسأ : يؤخر . والأثر : الأجل ؛ لأنه تابع للحياة فى أثرها . (٢) راجع ج ٩ ص ٣٢٩ .

المعمر . ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى كتابة الأعمال والآجال غير متعذر عليه . وقراءة العامة « يُنْقَصُ » بضم الياء وفتح القاف . وقرأت فرقة منهم يعقوب « يَنْقُصُ » بفتح الياء وضم القاف ، أى لا ينقص من عمره شيء . يقال ، نقص الشيء بنفسه ونقصه غيره ، وزاد بنفسه وزاده غيره ، متعذ ولازم . وقرأ الأعرج والزهرى « مِنْ عُمره » بتخفيف الميم . وضمها الباقون . وهما لغتان مثل السُّحْق والسُّحُق . و« يَسِيرٌ » أى إحصاء طويل الأعمار وقصيرها لا يتعذر عليه شيء منها ولا يعزب . والفعل منه : يَسِر . ولو سميت به إنسانا انصرف ؛ لأنه فاعل .

قوله تعالى : وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِيَتَبَتَّغُوا مِنْ فَضْلِهِ ؕ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قال ابن عباس : « فُرَاتٌ » حلوة ، و« أُجَاجٌ » مرّة . وقرأ طلحة : « هذا مِلْحٌ أُجَاجٌ » بفتح الميم وكسر اللام بغير ألف . وأما المالح فهو الذى يجعل فيه الملح . وقرأ عيسى وابن أبى إسحاق « سَائِغٌ شَرَابُهُ » مثل سيد وميت . ﴿ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ لا اختلاف فى أنه منهما جميعا . وقد مضى فى « النحل » الكلام فيه ^(١) .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ مذهب أبى إسحاق أن الحلية إنما تستخرج من الملح ، فقليل منهما لأنهما مختلطان . وقال غيره : إنما تستخرج الأصداف التى فيها الحلية من الدرّ وغيره من المواضع التى فيها العذب والملح نحو العيون ، فهو مأخوذ منهما ؛ لأن فى البحر عيوناً عذبة ، وبينهما يخرج اللؤلؤ عند التمازج . وقيل :

من مطر السماء . وقال محمد بن يزيد قولاً رابعاً ، قال : إنما تستخرج الحلية من الملح خاصة .
النحاس : وهذا أحسنها وليس هذا عنده ، لأنهما مختلطان ، ولكن جمعاً ثم أخبر عن أحدهما
كما قال جل وعز : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ^(١) » .
وكما تقول : لو رأيت الحسن والحجاج لرأيت خيراً وشرّاً . وكما تقول : لو رأيت الأصمعي وسيدويه
لملأت يدك لغة ونحواً . فقد عرف معنى هذا ، وهو كلام فصيح كثير ، فكذا : « وَمِنْ كُلِّ
تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا » فاجتمع في الأول وانفرد الملح بالثاني .
الثالثة — وفي قوله : « تَلْبَسُونَهَا » دليل على أن لباس كل شيء بحسبه ، فالخاتم
يحمل في الإصبع ، والسوار في الذراع ، والقلادة في العنق ، والخلخال في الرجل . وفي البخاري
والنسائي عن ابن سيرين قال قلت لعبيدة : افتراش الحرير كلبسه ؟ قال نعم . وفي الصحاح
عن أنس " فقمتم على حصير لنا قد اسود من طول ما لبس " . الحديث .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرُ ﴾ قال النحاس : أى ماء الملح
خاصة ، ولولا ذلك لقال فيهما . وقد تحورت السفينة تمخر إذا شقت الماء . وقد مضى هذا
في « النحل » ^(٢) . ﴿ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ قال مجاهد : التجارة في الفلك إلى البلدان البعيدة
في مدة قريبة ، كما تقدم في « البقرة » ^(٣) . وقيل : ما يستخرج من حليته ويصاد من حيتانه .
﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ على ما آتاكم من فضله . وقيل : على ما أنجاكم من هوله .

قوله تعالى : يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ تقدم في « آل عمران » ^(٤)
وغيرها . ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ تقدم في « لقمان » ^(٥) بيانه .

(١) راجع ج ١٣ ص ٣٠٨ فابعد . (٢) راجع ج ١٠ ص ٨٩ . (٣) راجع ج ٢ ص ١٩٤ فابعد .

(٤) راجع ج ٤ ص ٥٦ . (٥) راجع ص ٧٨ من هذا الجزء .

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أى هذا الذى من صنعه ما تقرّر هو الخالق المدبر ، والقادر المقتدر ، فهو الذى يعبد . ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعنى الأصنام . ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ أى لا يقدرون عليه ولا على خلقه . والقطمير : القشرة الرقيقة البيضاء التى بين التمرة والنواة ، قاله أكثر المفسرين . وقال ابن عباس : هو شق النواة ، وهو اختيار المبرد ، وقاله قتادة . وعن قتادة أيضا : القطمير القمّع الذى على رأس النواة . الجوهري : ويقال هى النكتة البيضاء التى فى ظهر النواة ، تنبت منها النخلة .

قوله تعالى : **إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ أى إن تستغيثوا بهم فى النوائب لا يسمعوا دعاءكم ، لأنها جمادات لا تبصر ولا تسمع . ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ ما ليس كل سامع ناطقا . وقال قتادة : المعنى لو سمعوا لم ينفعوكم . وقيل : أى لو جعلنا لهم عقولا وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم ، ولما استجابوا لكم على الكفر . ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُمْ﴾ أى يحدون أنكم عبدتموهم ، ويتبرءون منكم . ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين مما يعقل ، كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين ، أى يحدون أن يكون ما فعلتموه حقا ، وأنهم أسروكم بعبادتهم ، كما أخبر عن عيسى بقوله : « مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ » . ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضا ، أى يحببها الله حتى تخبر أنها ليست أهلا للعبادة . ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ هو الله جل وعز ، أى لا أحد أخبر بخلق الله من الله ، فلا ينبئك مثله فى عمله .

قوله تعالى : **يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ) أى المحتاجون إليه فى بقائكم وكل أحوالكم . الزحشرى : « فإن قلت لم عرف الفقراء ؟ قلت : قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم ؛ لأن الفقر مما يتبع الضعف ، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر ؛ وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف فى قوله : « وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا »^(١) ، وقال : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِيفٍ »^(٢) ولو فكر لكان المعنى : أتم بعض الفقراء . فإن قلت : قد قبل « الفقراء » بـ « الغنى » فما فائدة « الحميد » ؟ قلت : لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم ، وليس كل غنى نافعاً بغناه إلا إذا كان الغنى جواداً منعماً ، وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد — ذكر « الحميد » ليدل به على أنه الغنى النافع بغناه خلقه ، الجواد المنعم عليهم ، المستحق بإنعامه عليهم أن يحمده . وتخفيف الهمزة الثانية أجود الوجوه عند التحليل ، ويجوز تخفيف الأولى وحدها وتخفيفهما وتحقيقهما جميعاً . (وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) تكون « هو » زائدة ، فلا يكون لها موضع من الإعراب ، وتكون مبتدأة فيكون موضعها رفعاً .

قوله تعالى : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ) فيه حذف ؛ المعنى إن يشأ [أن] يذهبكم يذهبكم ، أى يفتيككم . (وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) أى أطوع منكم وأزكى . (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) أى ممتنع عسير متعذر . وقد مضى هذا فى « إبراهيم »^(٤) .

قوله تعالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِثْلِهَا لَا يُمْحِلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يُحْشُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

(٢) راجع ج ٤٦ من هذا الجزء .

(٤) راجع ج ٩ ص ٣٥٤

(١) راجع ج ٥ ص ١٦٨

(٣) زيادة عن النحاس .

(١) تقدم الكلام فيه ، وهو مقطوع مما قبله . والأصل « تَوَزَّر » حذف الواو اتباعاً ليزر . (وَاِزْرَةً) نعمت لمحذوف ، أى نفس وازرة . وكذا (وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَا) قال الفراء : أى نفس مثقلة أودابة . قال : وهذا يقع للذكر والمؤنث . قال الأخفش : أى وإن تدع مثقلة إنساناً إلى جملها وهو ذنوبها . والحمل ما كان على الظهر ، والحمل حمل المرأة وحمل النخلة ؛ حكاهما الكسائي بالفتح لا غير . وحكى ابن السكيت أن حمل النخلة يفتح ويكسر . (لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ) التقدير على قول الأخفش : ولو كان الإنسان المدعو ذا قرى . وأجاز الفراء ولو كان ذو قرى . وهذا جائز عند سيبويه ، ومثله « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ^(٢) فَنَكُونُ » فتكون « كان » بمعنى وقع ، أو يكون الخبر محذوفاً ؛ أى وإن كان فيمن تطالبون ذو عسرة . وحكى سيبويه : الناس مجزيون بأعمالهم إن خير نفيهم ؛ على هذا . وخيراً نفيهم ؛ على الأول . وروى عن عكرمة أنه قال : بلغني أن اليهودى والنصراني يرى الرجل المسلم يوم القيامة فيقول له : ألم أكن قد أسديت إليك يداً ، ألم أكن قد أحسنت إليك ؟ فيقول بلى . فيقول : آتفنى ؛ فلا يزال المسلم يسأل الله تعالى حتى ينقص من عذابه . وأن الرجل ليأتى إلى أبيه يوم القيامة فيقول : ألم أكن بك باراً ، وعليك مشفقاً ، وإليك محسناً ، وأنت ترى ما أنا فيه ، فهب لى حسنة من حسناتك ، أو احمل عني سيئة ؛ فيقول : إن الذى سألتنى يسير ؛ ولكنى أخاف مثل ما تخاف . وأن الأب ليقول لابنه مثل ذلك فيرد عليه نحوه من هذا . وأن الرجل ليقول لزوجته : ألم أكن أحسن العشرة لك ، فأحمل عني خطيئة لعل أنجو ؛ فنقول : إن ذلك ليسير ولكنى أخاف مما تخاف منه . ثم تلا عكرمة : « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ » . وقال الفُضَيْل بن عياض : هى المرأة تلقى ولدها فتقول : يا ولدى ، ألم يكن بطنى لك وعاء ، ألم يكن نديى لك سقاء ، ألم يكن حجرى لك وطاء ؛ فيقول : بلى يا أماء ؛ فتقول : يا بنى ، قد أثقلتى ذنوبى فأحمل عني منها ذنباً واحداً ؛ فيقول : إليك عني يا أماء ، فلانى بذنبى عنك مشغول .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ أى إنما يقبل إنذارك من يخشى عقاب الله تعالى ، وهو كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ^(١) 》 .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ﴾ أى من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه .
وقرى : « وَمَنِ آزَكَّى فَإِنَّمَا يَزَكَّى لِنَفْسِهِ » . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى إليه مرجع جميع الخلق .

قوله تعالى : وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿ ١٩ ﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿ ٢٠ ﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿ ٢١ ﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿ ٢٢ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ أى الكافر والمؤمن والجاهل والعالم .
مثل : « قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ^(٢) » . ﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴾ قال الأخفش سعيد : « لا » زائدة ؛ والمعنى ولا الظلمات والنور ، ولا الظل والحرور . قال الأخفش : والحرور لا يكون إلا مع شمس النهار ، والسموم يكون بالليل ، وقيل بالعكس . وقال رُوبة ابن العجاج : الحرور تكون بالنهار خاصة ، والسموم يكون بالليل خاصة ، حكاه المهدوى . وقال الفراء : السموم لا يكون إلا بالنهار ، والحرور يكون فيهما . النحاس : وهذا أصح ؛ لأن الحرور فعول من الحز ، وفيه معنى التكثير ، أى الحز المؤذى .

قلت : وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قالت النار ربِّ أكل بعضى بعضها فأذِنَ لى أنفَس فَاذِنَ لها بَنَفَسِينَ نَفَسَ فى الشِّتَاءِ ونَفَسَ فى الصَّيْفِ فما وجدتم من برد أوزمهرير فنَفَسَ جهنم وما وجدتم من حر أوحورور فنَفَسَ جهنم » . وروى من حديث الزهرى عن سعيد عن أبى هريرة : « فما تجدون من الحز فن

(١) راجع ص ٩ من هذا الجزء فابعد آية ١١ سورة يس . (٢) راجع ج ٦ ص ٣٢٧ .

سمومها وشدة ما تجدون من البرد فن زمهريرها " وهذا يجمع تلك الأقوال ، وأن السموم والحرور يكون بالليل والنهار ؛ فتأمله . وقيل : المراد بالظل والحرور الجنة والنار ؛ فالجنة ذات ظل دائم ، كما قال تعالى : « أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا^(١) » والنار ذات حرور ، وقال معناه السدي . وقال ابن عباس : أى ظل الليل ، وحر السموم بالنهار . قُطِرَب : الحرور الحر ، والظل البرد . (وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ) قال ابن قتيبة : الأحياء العقلاء ، والأموات الجاهل . قال قتادة : هذه كلها أمثال ؛ أى كما لا تستوى هذه الأشياء كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن . (إِنْ اللَّهُ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ) أى يُسْمِعُ أولياءه الذين خلقهم لجنته . (وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ) أى الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم ؛ أى كما لا تُسمع من مات ، كذلك لا تُسمع من مات قلبه . وقرأ الحسن وعيسى الثقفى وعمرو ابن ميمون : « بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ » بحذف التنوين تخفيفاً ؛ أى هم بمنزلة [أهل] القبور فى أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه .

قوله تعالى : إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾

أى رسول منذر ؛ فليس عليك إلا التبليغ ، ليس لك من الهدى شىء إنما الهدى بيد الله تبارك وتعالى .

قوله تعالى : إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) أى بشيرا بالجنة أهل طاعته ، ونذيرا بالنار أهل معصيته . (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) أى سلف فيها نبي . قال ابن جريج : إلا العرب .

قوله تعالى : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ
كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ) يعنى كفار قريش . (فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)
أنبياءهم ، يسلى رسوله صلى الله عليه وسلم . (جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) أى بالمعجزات
الظاهرات والشرائع الواضحات . (وَبِالزُّبُرِ) أى الكتب المكتوبة . (وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)
أى الواضح . وكرر الزبر والكتاب وهما واحد لاختلاف اللفظين . وقيل : يرجع البيّنات
والزبر والكتاب إلى معنى واحد ، وهو ما أنزل على الأنبياء من الكتب . (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ
كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) أى كيف كانت عقوبتى لهم . وأثبت ورش عن نافع وشيبة الباء
في « نكبرى » حيث وقعت في الوصل دون الوقف . وأثبتها يعقوب في الحالين ، وحذفها
الباقون في الحالين . وقد مضى هذا كله ، والحمد لله .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ
ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا
وَعَرَابٍ بَيْضٌ سَوْدٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ
كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) هذه الرؤية رؤية القلب والعلم ؛
أى ألم ينته علمك ورأيت بقلبك أن الله أنزل ؛ فـ « بأن » واسمها وخبرها سدت مسد مفعولى
الرؤية . (فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ) هو من باب تلوين الخطاب . (مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا) نصبت
« مُخْتَلِفًا » نعمتا لـ « ثَمَرَاتٍ » . (أَلْوَانُهَا) رفع بمختلف ، وصاح أن يكون نعمتا لـ « ثَمَرَاتٍ »
لما عاد عليه من ذكره . ويجوز في غير القرآن رفعه ؛ ومثله رأيت رجلا خارجا أبوه .

(يَه) أى بالماء وهو واحد، والثمرات مختلفة . (وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا) الجدد جمع جُدة ، وهى الطرائق المختلفة الألوان ، وإن كان الجميع حجرا أو ترابا . قال الأخفش : واو كان جمع جديد لقال : جُدُد (بضم الجيم والذال) نحو سرير وسرر . وقال زهير :

كَأَنَّهُ أَصْفَعُ الْخَدَيْنِ ذُو جُدُدٍ * طَاوٍ وَيَرْتَعُ بَعْدَ الصَّيْفِ عُمُرَانَا

وقيل : إن الجدد القِطْع ، مأخوذ من جددت الشيء إذا قطعتة ؛ حكاه ابن بحر . قال الجوهري : والجُدَّة الخُطَّة التى فى ظهر الحمار تخالف لونه . والجُدَّة الطريقة ، والجمع جدد ؛ قال تعالى : « وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا » أى طرائق تخالف لون الجبل . ومنه قولهم : ركب فلان جُدَّة من الأمر ؛ إذا رأى فيه رأيا . وكساء مجدّد : فيه خطوط مختلفة . الرغشرى : وقرأ الزهرى « جدد » بالضم جمع جديدة ، وهى الجُدَّة ؛ يقال : جديدة وجُدُد وجدائد ؛ كسفينة وسفن وسفائن . وقد فسرها قول أبى ذؤيب :

* جَوْنُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعٌ ^(١) *

وروى عنه « جَدَد » بفتحين ، وهو الطريق الواضح المسفر ، وضعه موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض . (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ) وقرئ : « والدواب » مخففا . ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ : « وَلَا الضَّالِّينَ » لأن كل واحد منهما فز من التقاء الساكنين ، فحذف ذلك أولهما ، وحذف هذا آخرهما ؛ قاله الرغشرى . (وَالْأَنْعَامُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) أى فيهم الأحمر والأبيض والأسود وغير ذلك ، وكل ذلك دليل على صانع مختار . وقال : « مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ » فذكر الضمير مراعاة « من » ؛ قاله الماورج . وقال أبو بكر بن عياش : إنما ذكر الكناية لأجل أنها مردودة إلى « ما » مضمرة ؛ مجازه : ومن الناس ومن الدواب ومن الأنعام ما هو مختلف ألوانه ، أى أبيض وأحمر وأسود . (وَعَرَّابِدٌ سُوْدٌ) قال أبو عبيدة : العررب الشديد السواد ؛ ففى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : ومن الجبال

سود غرايب . والعرب تقول للشديد السواد الذي لونه كلون الغراب : أسود غرايب . قال الجوهري : وتقول هذا أسود غرايب ؛ أى شديد السواد . وإذا قلت : غرايب سود ، تجعل السود بدلا من غرايب لأن توكيد الألوان لا يتقدم . وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله يهض الشيخ الغرايب " يعنى الذى يخضب بالسواد . قال امرؤ القيس :

(١)
العين طامحة واليد ساجحة * والرجل لافحة والوجه غرايب
وقال آخر يصف كرمًا :

(٢)
ومن تعاجيب خلق الله غاطية * يُعَصَّرُ منها مُلاحٍ وغرايب
(كَذَلِكَ) هنا تمام الكلام ؛ أى كذلك تختلف أحوال العباد فى الخشية ، ثم استأنف فقال :
(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) يعنى بالعلماء الذين يخافون قدرته ؛ فمن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية ، كما روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » قال : الذين علموا أن الله على كل شىء قدير . وقال الربيع بن أنس : من لم يخش الله تعالى فليس بعالم . وقال مجاهد : إنما العالم من خشى الله عز وجل . وعن ابن مسعود : كفى بخشية الله تعالى علما وبالاغترار جهلا . وقيل لسعد ابن إبراهيم : من أفقه أهل المدينة ؟ قال أتقاهم لربه عز وجل . وعن مجاهد قال : إنما الفقيه من يخاف الله عز وجل . وعن على رضى الله عنه قال : إن الفقيه حق الفقيه من لم يُقنط

(١) هذه رواية الأصول . والبيت كما ورد فى ديوانه طبع مطبعة الاستقامة :

واليد ساجحة والرجل ضارحة * والعين قاذحة والمئن ساجوب

والماء منبر والشد منهدر * والقصب مضطمر واللون غرايب

قوله « ساجحة » يعنى إذا جرى فرسه مد يديه فكأنه ساجح فى الماء . وضرحت الدابة برجلها : رجحت . وقدحت العين : غارت . والمئن : الظهر . وقوله « ساجوب » بالسين ، وفسر بأنه أماس قليل اللحم . وهذا التفسير لم نجده لهذه الكلمة فى المظان التى بين أيدينا . والرواية فيه « ملحوب » بالميم . ولحب من الفرس وعجزه : أملاس فى حدور . ومن لحوب . و « الشد » العدو . و « القصب » بالضم : الحصر . و « مضطمر » ضامر .

(٢) الغاطية : الشجرة التى طال أغصانها وانبتت على الأرض . و « ملاحى » : أبيض .

الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم في معاصي الله تعالى ، ولم يؤمنهم من عذاب الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره ؛ إنه لا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا علم لا فقه فيه ، ولا قراءة لا تدبر فيها . وأسند الدارمي أبو محمد عن مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فضل العالم على العابد كفضل علي أدناكم — ثم تلا هذه الآية — إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ . إن الله وملائكته وأهل سمواته وأهل أرضيه والنون في البحر يصلون على الذين يعلمون الناس الخير " الخبر مرسل . قال الدارمي : وحدثني أبو النعمان حدثنا حماد ابن زيد عن يزيد بن حازم قال حدثني عمي جرير بن زيد أنه سمع^(١) ثُبَيْعًا يحدث عن كعب قال : إني لأجد نعت قوم يتعلمون لغير العمل ، ويتفقهون لغير العبادة ، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، ويلبسون جلود الضأن ، قلوبهم أضر من الصبر ؛ فبي يغترون ، وإياي يخادعون ، فبي حلفت لا أتبعن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران . خرجه الترمذي مرفوعا من حديث أبي الدرداء وقد كتبه في مقدمة الكتاب . الزخشي : فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ » بالرفع « مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » بالنصب ، وهو عمر بن عبد العزيز ، وتُحكي عن أبي حنيفة . قلت : الخشية في هذه القراءة استعارة ، والمعنى : إنما يحلهم ويعظمهم كما يحل المهيب المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده . (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) تعليل لوجوب الخشية ، لدلالته على عفو العصاة وقهرهم ، وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم . والمعاقب والمثيب حقه أن يخشى .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

(١) في الأصول : « جرير بن يزيد » وهو تحريف راجع تهذيب التهذيب وسنن الدارمي .

(٢) راجع ج ١ ص ١٩ فابعد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ۖ هَذِهِ آيَةُ الْفَرَاءِ الْعَامِلِينَ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ الْفَرَضَ وَالنَّفْلَ ، وَكَذَا فِي الْإِنْفَاقِ . وَقَدْ مَضَى فِي مَقْدَمَةِ الْكِتَابِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَخَلَّقَ بِهِ قَارِئُ الْقُرْآنِ . ۞ ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ۖ ﴾ قال أحمد بن يحيى : خبر « إن » « يرجون » . ۞ ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۖ ﴾ قيل : الزيادة الشفاعة في الآخرة . وهذا مثل الآية الأخرى : « رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ — إِلَى قَوْلِهِ — وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۖ » ، وقوله في آخر النساء : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۖ » وهناك بيناه . ۞ ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ۖ لِلذُّنُوبِ ۖ ﴾ ﴿ شَكُورٌ ۖ ﴾ يقبل القليل من العمل الخالص ، ويشيب عليه الجزيل من الثواب .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يعني القرآن . ﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى من الكتب . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝٣٢ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥

(١) راجع ج ١ ص ٢٦ فابعد . (٢) راجع ج ١٢ ص ٢٧٩ .

(٣) راجع ج ٦ ص ٢٦

فيه أربع مسائل :

الأولى — هذه الآية مشكلة ؛ لأنه قال جل وعز : (اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) ثم قال : (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) وقد تكلم العلماء فيها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . قال النحاس : فمن أصح ما روى في ذلك ما روى عن ابن عباس « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ » قال : الكافر ؛ رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس أيضا . وعن ابن عباس أيضا « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ » قال : نجت فرقتان ، ويكون التقدير في العربية : فمنهم من عبادنا ظالم لنفسه ؛ أى كافر . وقال الحسن : أى فاسق . ويكون الضمير الذى فى « يَدْخُلُونَهَا » يعود على المقتصد والسابق لا على الظالم . وعن عكرمة وقتادة والضحاك والفراء أن المقتصد المؤمن العاصى ، والسابق التقي على الإطلاق . قالوا : وهذه الآية نظير قوله تعالى فى سورة الواقعة : « وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً » الآية . قالوا وبعيد أن يكون ممن يصطفى ظالم . ورواه مجاهد عن ابن عباس . قال مجاهد : « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ » أصحاب المشأمة ، « وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ » أصحاب الميمنة ، « وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ » السابقون من الناس كلهم . وقيل : الضمير فى « يَدْخُلُونَهَا » يعود على الثلاثة الأصناف ، على ألا يكون الظالم هاهنا كافرا ولا فاسقا . ومن روى عنه هذا القول عمرو وعثمان وأبو الدرداء ، وابن مسعود وعقبة بن عمرو وعائشة ، والتقدير على هذا القول : أن يكون الظالم لنفسه الذى عمل الصغائر . و (المقتصد) قال محمد بن يزيد : هو الذى يعطى الدنيا حقها والآخرة حقها ؛ فيكون « جَنَّتْ عَذْنٌ يَدْخُلُونَهَا » عائدا على الجميع على هذا الشرح والتبيين ؛ وروى عن أبى سعيد الخدرى . وقال كعب الأحبار : استوت منا كبهم — ورب الكعبة — وتفاضلوا بأعمالهم . وقال أبو إسحاق السبىعى : أما الذى سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج . وروى أسامة بن زيد أن النبى - صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال : « كلهم فى الجنة » . وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سَابِقُنَا سَابِقٌ وَمُقْتَصِدُنَا نَاجٍ وَظَالِمُنَا مَغْفُورٌ لَهُ » . فعلى هذا القول يقدر مفعول الاصطفاء من قوله : « أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ

أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا « مضافاً حذف كما حذف المضاف في « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ ^(١) » أى اصطفتينا دينهم، فبقى اصطفتيناهم؛ لحذف العائد إلى الموصول كما حذف في قوله : « وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ ^(٢) » أى تزدريهم، فالاصطفاء إذاً موجه إلى دينهم، كما قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ^(٣) » . قال النحاس : وقول ثالث — يكون الظالم صاحب الكبائر، والمقتصد الذى لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته؛ فيكون : « جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا » للذين سبقوا بالخيرات لا غير . وهذا قول جماعة من أهل النظر ؛ لأن الضمير في حقيقة النظر لما يليه أولى .

قلت : القول الوسط أولاها وأصحها إن شاء الله ؛ لأن الكافر والمنافق لم يصطفوا بحمد الله، ولا اصطفى دينهم . وهذا قول ستة من الصحابة، وحسبك . وستريده بيانا وإيضاحا في باقى الآية .

الثانية — قوله تعالى : « أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ » أى أعطينا . والميراث عطاء حقيقة أو مجازا ؛ فإنه يقال فيما صار للإنسان بعد موت آخر . و « الْكِتَابَ » هاهنا يريد به معانى الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده، وكان الله تعالى لما أعطى أمة محمد صلى الله عليه وسلم القرآن، وهو قد تضمن معانى الكتب المنزلة، فكانه ورث أمة محمد عليه السلام الكتاب الذى كان فى الأمم قبلنا . « أَصْطَفَيْنَا » أى اخترنا . واشتقاقه من الصفو، وهو الخلو من شوائب الكدر . وأصله اصتفونا، فأبدلت التاء طاء والواو ياء . « مِنْ عِبَادِنَا » قيل المراد أمة محمد صلى الله عليه وسلم، قاله ابن عباس وغيره . وكان اللفظ يحتمل جميع المؤمنين من كل أمة، إلا أن عبارة توريث الكتاب لم تكن إلا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، والأول لم يرثوه . وقيل : المصطفون الأنبياء، توارثوا الكتاب بمعنى أنه انتقل عن بعضهم إلى آخر، قال الله تعالى : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ^(٤) »، وقال : « يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ^(٥) » فإذا جاز أن تكون النبوة موروثة فكذلك الكتاب . « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ^(٦) » من وقع فى صغيرة . قال ابن عطية : وهذا

(٢) راجع ج ٢ ص ١٣٤ فـأ بعد .

(١) راجع ج ٩ ص ٢٤٥ و ص ٢٧ .

(٤) راجع ج ١١ ص ٧٣ فـأ بعد .

(٣) راجع ج ١٣ ص ١٦٣ فـأ بعد .

قول مردود من غير ما وجه . قال الضحاك : معنى « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ » أى من ذرّيتهم ظالم لنفسه وهو المشرك . الحسن : من أمهم ، على ما تقدّم ذكره من الخلاف فى الظالم . والآية فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقد اختلفت عبارات أرباب القلوب فى الظالم والمقتصد والسابق ، فقال سهل بن عبد الله : السابق العالم ، والمقتصد المتعلم ، والظالم الجاهل . وقال ذو النون المصرى : الظالم الذاكر الله بأسانه فقط ، والمقتصد الذاكر بقلبه ، والسابق الذى لا ينسأ . وقال الأنطاكى : الظالم صاحب الأقوال ، والمقتصد صاحب الأفعال ، والسابق صاحب الأحوال . وقال ابن عطاء : الظالم الذى يحب الله من أجل الدنيا ، والمقتصد الذى يحبه من أجل العقبى ، والسابق الذى أسقط مراده بمراد الحق . وقيل : الظالم الذى يعبد الله خوفا من النار ، والمقتصد الذى يعبد الله طمعا فى الجنة ، والسابق الذى يعبد الله لوجهه لا لسبب . وقيل : الظالم الزاهد فى الدنيا ، لأنه ظلم نفسه فترك لها حظا وهى المعرفة والمحبة ، والمقتصد العارف ، والسابق المحب . وقيل : الظالم الذى يجزع عند البلاء ، والمقتصد الصابر على البلاء ، والسابق المتلذذ بالبلاء . وقيل : الظالم الذى يعبد الله على الغفلة والعادة ، والمقتصد الذى يعبد على الرغبة والرغبة ، والسابق الذى يعبد على الهيبة . وقيل : الظالم الذى أُعْطِيَ فَنَعَ ، والمقتصد الذى أُعْطِيَ فَبَدَلَ ، والسابق الذى مُنِعَ فشكر وآثر . يروى أن عابدين التقيا فقال : كيف حال إخوانكم بالبصرة ؟ قال : بخير ، إن أعطوا شكروا وإن مُنِعُوا صبروا . فقال : هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ ! عُبَادَنَا إِن مُنِعُوا شكروا وإن أُعْطُوا آثروا . وقيل : الظالم من آستغنى بماله ، والمقتصد من آستغنى بدينه ، والسابق من آستغنى بربه . وقيل : الظالم التالى للقرآن ولا يعمل به ، والمقتصد التالى للقرآن ويعمل به ، والسابق الفارئ للقرآن العامل به والعالم به . وقيل : السابق الذى يدخل المسجد قبل تأذين المؤذن ، والمقتصد الذى يدخل المسجد وقد أذن ، والظالم الذى يدخل المسجد وقد أقيمت الصلاة ؛ لأنه ظلم نفسه الأجر فلم يحصل لها ما حصله غيره . وقال بعض أهل العلم فى هذا : بل السابق الذى يدرك الوقت والجماعة فيدرك الفضيلتين ، والمقتصد الذى إن فائته الجماعة لم يفطر

في الوقت، والظالم الغافل عن الصلاة حتى يفوت الوقت والجماعة، فهو أولى بالظلم . وقيل :
الظالم الذي يحب نفسه ، والمقتصد الذي يحب دينه ، والسابق الذي يحب ربه . وقيل :
الظالم الذي ينتصف ولا يُنصف ، والمقتصد الذي ينتصف ويُنصف ، والسابق الذي يُنصف
ولا ينتصف . وقالت عائشة رضي الله عنها : السابق الذي أسلم قبل الهجرة ، والمقتصد من
أسلم بعد الهجرة ، والظالم من لم يسلم إلا بالسيف ؛ وهم كلهم مغفور لهم .

قلت : ذكر هذه الأقوال وزيادة عليها التعليل في تفسيره . وبالجملة فهم طرفان
وواسطة ، وهو المقتصد الملازم للقصد وهو ترك الميل ؛ ومنه قول جابر بن حنبل التعليل :
نعاطي الملوك السلم ما قصدوا لنا * وليس علينا قتلهم بحرم

أى نعاطيهم الصلح ماركبوا بنا القصد ، أى ما لم يجوروا ، وليس قتلهم بحرم علينا إن جاروا ؛
فلذلك كان المقتصد منزلة بين المنزلتين ، فهو فوق الظالم لنفسه ودون السابق بالخيرات .
(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) يعنى إتياننا الكتاب لهم . وقيل : ذلك الاصطفاء مع علمنا
بعبودهم هو الفضل الكبير . وقيل : وعد الجنة لهؤلاء الثلاثة فضل كبير .

الثالثة - وتكلم الناس في تقديم الظالم على المقتصد والسابق فقيل : التقديم
في الذكر لا يقتضى تشريفاً ، كقوله تعالى : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ » .
وقيل : قدم الظالم لكثرة الفاسقين منهم وغلبتهم ، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم ،
والسابقين أقل من القليل ؛ ذكره الزمخشري ولم يذكره غيره . وقيل : قدم الظالم لتأكيد
الرجاء في حقه ، إذ ليس له شيء يتكل عليه إلا رحمة ربه . واتكل المقتصد على حسن ظنه ،
والسابق على طاعته . وقيل : قدم الظالم لثلاث يبتس من رحمة الله ، وأثر السابق لثلاث يعجب
بعماله . وقال جعفر بن محمد بن علي الصادق رضي الله عنه : قدم الظالم ليخبر أنه لا يتقرب
إليه إلا بصرف رحمته وكرمه ، وأن الظالم لا يؤثر في الاصطفائية إذا كانت ثم عناية ، ثم ثنى
بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء ، ثم ختم بالسابقين لثلاث يأمن أحد مكر الله ، وكلهم في الجنة

بجرمة كلمة الإخلاص : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وقال محمد بن علي الترمذى :
 جمعهم فى الاصطفاء إزالة للعلل عن العطاء ؛ لأن الاصطفاء يوجب الإرث ، لا الإرث يوجب
 الاصطفاء ، ولذلك قيل فى الحكمة : صحح النسبة ثم ادع فى الميراث . وقيل : آخر السابق
 ليكون أقرب إلى الجنات والثواب ، كما قدم الصوامع والبيع فى « سورة الحج ^(١) » على المساجد ،
 لتكون الصوامع أقرب إلى الهدم والخراب ، وتكون المساجد أقرب إلى ذكر الله . وقيل :
 إن الملوك إذا أرادوا الجمع بين الأشياء بالذكر قدموا الأدنى ؛ كقوله تعالى : « لَسَرِيعُ الْعِقَابِ
 وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ^(٢) » ، وقوله : « يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا نَا وَ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورُ ^(٣) » ، وقوله :
 « لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ » .

قلت : ولقد أحسن من قال :

وغاية هذا الجود أنت وإنا * يوافى إلى الغايات فى آخر الأمر

الرابعة — قوله : (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا) جمعهم فى الدخول لأنه ميراث ، والعاق
 والبار فى الميراث سواء إذا كانوا معترفين بالنسب ؛ فالعاصى والمطيع مقزون بالرب . وقرئ :
 « جَنَّةُ عَدْنٍ » على الأفراد ، كأنها جنة مختصة بالسابقين لقتلهم ؛ على ما تقدم . و « جَنَّاتِ
 عَدْنٍ » بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر ؛ أى يدخلون جنات عدن يدخلونها . وهذا
 للجمع ، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى . وقرأ أبو عمرو « يُدْخِلُونَهَا » بضم الياء وفتح الخاء .
 قال : لقوله « يُحَلَّلُونَ » . وقد مضى فى « الحج » الكلام فى قوله تعالى : « يُحَلَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
 مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ^(٤) » .

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ) قال أبو ثابت : دخل رجل المسجد فقال
 اللهم ارحم غُربتى وآنس وحدتى ويسر لى جليسا صالحا . فقال أبو الدرداء : لئن كنت
 صادقا فلا أنا أسعد بذلك منك ، سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ

(٢) راجع ج ٧ ص ٣٠٩ .

(١) راجع ج ١٢ ص ٦٨ .

(٤) راجع ج ١٢ ص ٢٨ .

(٣) راجع ج ١٦ ص ٤٨ .

الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ « - قال -
 فيجىء هذا السابق فيدخل الجنة بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا ، وأما الظالم
 لنفسه فيحبس في المقام ويونج ويقزع ثم يدخل الجنة فهم الذين قالوا : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ
 عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ » . وفي لفظ آخر « وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك
 يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين يتلقاهم الله برحمته فهم الذين يقولون « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
 أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ » - إلى قوله - « وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ » . وقيل :
 هو الذي يؤخذ منه في مقامه ؛ يعنى يكفر عنه بما يصيبه من الهم والحزن ، ومنه قوله تعالى :
 « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ ^(١) » يعنى في الدنيا . قال الشعبي : وهذا التأويل أشبه بالظاهر ؛
 لأنه قال : « جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا » ، ولقوله : « الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا » والكافر
 والمنافق لم يصطفوا .

قلت : وهذا هو الصحيح ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ومثل المنافق الذي يقرأ
 القرآن مثل الريحانة ، ريحها طيب وطعمها مر » . فأخبر أن المنافق يقرؤه ، وأخبر الحق
 سبحانه وتعالى أن المنافق في الدرك الأسفل من النار ، وكثير من الكفار واليهود والنصارى
 يقرءونه في زماننا هذا . وقال مالك : قد يقرأ القرآن من لا خير فيه . والنَّصَب : التعب .
 واللُّغُوب : الإعياء .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ
 فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٢٤﴾
 وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
 أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَ كُرُّ النَّذِيرِ فَذُوقُوا فَسَاءَ
 لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ لما ذكر أهل الجنة وأحوالهم ومقاتلتهم ، ذكر أهل النار وأحوالهم ومقاتلتهم . ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ مثل : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا » ^(١) . ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ مثل : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » ^(٢) . ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴾ أى كافر بالله ورسوله . وقرأ الحسن « فَيَمُوتُونَ » بالنون ، ولا يكون للنفي حينئذ جواب ، ويكون « فَيَمُوتُونَ » عطفا على « يُقْضَىٰ » تقديره لا يقضى عليهم ولا يموتون ؛ كقوله تعالى : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » ^(٣) . قال الكسائي : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » بالنون في المصحف لأنه رأس آية و « لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا » لأنه ليس رأس آية . ويجوز فى كل واحد منهما ما جاز فى صاحبه . ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أى يستغيثون فى النار بالصوت العالى . والصراخ الصوت العالى ، والصارخ المستغيث ، والمصرخ المغيث . قال :

كأ إذا ما أنا صارخ فـزِعْ * كان الصراخ له قرع الطنابيب ^(٤)

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا ﴾ أى يقولون ربنا أخرجنا من جهنم وردنا إلى الدنيا . ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ قال ابن عباس : نقل : لا إله إلا الله . وهو معنى قولهم : ﴿ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أى من الشرك ؛ أى تؤمن بدل الكفر ، ونطيع بدل المعصية ، ونمتثل أمر الرسل . ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ هذا جواب دعائهم ؛ أى يقال لهم ، فالقول مضمّر . وترجم البخارى : (باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه فى العمر لقوله عز وجل « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ » يعنى الشيب) حدثنا عبد السلام بن مطهر قال حدثنا عمر بن على قال حدثنا معن بن محمد الغفارى عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أعذر الله إلى أمرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة » . قال الخطابى : « أعذر إليه » أى بلغ به أفهى العذر ، ومنه قولهم : قد

(١) راجع ج ١١ ص ٢٢٧ (٢) راجع ج ٥ ص ٢٥٣ (٣) راجع ج ١٩ ص ١٦٤

(٤) البيت لسلامة بن جندل . والطنابيب (جمع الطنوب) وهو مسار يكون فى جبة السنان .

أعذر من أنذر؛ أى أقام عذر نفسه في تقديم نذارته . والمعنى : أن من عمره الله ستين سنة لم يبق له عذر ؛ لأن الستين قريب من معتك المنايا ، وهو سنُّ الإنابة والخشوع وترقُّب المنية ولقاء الله تعالى ؛ ففيه إعدار بعد إعدار ، الأول بالنبي صلى الله عليه وسلم ، والموتان^(١) في الأربعين والستين . قال عليّ وابن عباس وأبو هريرة في تأويل قوله تعالى « أَوَلَمْ نَعْمَرَكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ » : إنه ستون سنة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في موعظته : « ولقد أبلغ في الإعدار من تقدم في الإنذار وإنه لينادى منادٍ من قبل الله تعالى أبناء الستين » أَوَلَمْ نَعْمَرَكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ وجاءكم النذير^(٢) . وذكر الترمذي الحكيم من حديث عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة نودى أبناء الستين وهو العمر الذي قال الله « أَوَلَمْ نَعْمَرَكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ » . وعن ابن عباس أيضا أنه أربعون سنة . وعن الحسن البصري ومسروق مثله . ولهذا القول أيضا وجه ، وهو صحيح ؛ والحجة له قوله تعالى : « حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة^(٣) » الآية . ففي الأربعين تنهى العقل ، وما قبل ذلك وما بعده منتقص عنه^(٤) ، والله أعلم . وقال مالك : أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلم ويحاطون الناس ، حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة ، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس واشتغلوا بالقيامه حتى يأتيهم الموت . وقد مضى هذا المعنى في سورة « الأعراف » . وخرج ابن ماجه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من تجاوز ذلك » .

قوله تعالى : (وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ) وقرئ « وجاءكم النذر » واختلف فيه ؛ ف قيل القرآن . وقيل الرسول ؛ قاله زيد بن علي وابن زيد . وقال ابن عباس وسفيان ووكيع والحسين ابن الفضل والفراء والطبري : هو الشيب . وقيل : النذير الحمى . وقيل : موت الأهل والأقارب . وقيل : كمال العقل . والنذير بمعنى الإنذار .

(٢) راجع ج ١٦ ص ١٩٤

(١) الموتان (بضم الميم وفتحها وسكون الواو) : الموت .

(٤) راجع ج ٧ ص ٢٧٩

(٣) كيف هذا وقد عاش صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين سنة ؟

قلت : فالشيب والحمى وموتُ الأهل كُلُّهُ إنذار بالموت ؛ قال صلى الله عليه وسلم :
 « الحمى رائدُ الموت » . قال الأزهري : معناه أن الحمى رسول الموت ، أى كأنها تُشعر
 بقدومه وتُنذِرُ بجهنمه . والشيب نذيرٌ أيضاً ؛ لأنه يأتى فى سنِّ الاكتهال ، وهو علامة لمفارقة
 سنِّ الصِّبَا الذى هو سنُّ اللهُو واللعب . قال :

رأيت الشيب من نُذُرِ المنايا * لصاحبه وحسبك من نذير

وقال آخر :

فقلت لها المشيبُ نذيرُ عمرى * ولست مسوداً وجه النذير

وأما موت الأهل والأقارب والأصحاب والإخوان فإنذار بالرحيل فى كل وقت وأوان ،
 وحين وزمان . قال :

وأراك تحملهم ولست تردهم * فكأننى بك قد حُمِلت فلم تُردَّ

وقال آخر :

الموت فى كل حين ينشر الكفنا * ونحن فى غفلة عما يُرادُ بنا

وأما كمال العقل فيه تُعرف حقائق الأمور ويفصل بين الحسنات والسيئات ؛ فالعاقِلُ يعمل
 لآخِرتِهِ ويرغب فيما عند ربه ؛ فهو نذير . وأما مجد صلى الله عليه وسلم فبعثه الله بشيراً ونذيراً
 إلى عباده قطعاً لحججهم ؛ قال الله تعالى : « لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل ^(١) » ،
 وقال : « وما كنا مُعَذِّبين حتى نُبعثَ رسولاً ^(٢) » .

قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا ﴾ يريد عذاب جهنم ؛ لأنكم ما اعتبرتم ولا آتَعتُم . ﴿ فَا لِلظَّالِمِينَ
 مِنْ نَصِيرٍ ﴾ أى مانع من عذاب الله .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ

بذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

تقدم معناه في غير موضع . والمعنى : علم أنه لو ردكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً ، كما قال : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » ^(١) . و « عالم » إذا كان بغير تنوين صلح أن يكون للماضي والمستقبل ، وإذا كان متوناً لم يحز أن يكون للماضي .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ » قال قتادة : خلفاً بعد خلف ، قرناً بعد قرن . والخلف هو التالي للتقدم ، ولذلك قيل لأبي بكر : يا خليفة الله ، فقال : لست بخليفة الله ، ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا راض بذلك . « فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ » أى جزاء كفره وهو العقاب والعذاب . « وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا » أى بغضاً وغيظاً . « وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا » أى هلاكاً وضللاً .

قوله تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمُ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ » « شركاءكم » منصوب بالرؤية ، ولا يجوز رفعه ، وقد يجوز الرفع عند سيبويه في قولهم : قد علمت زيدا أبو من هو ؟ لأن زيدا في المعنى مستفهم عنه . ولو قلت : أرايت زيدا أبو من هو ؟ لم يحز الرفع . والفرق بينهما أن معنى هذا أخبرني عنه ، وكذا معنى هذا أخبروني عن شركائكم الذين تدعون من

دون الله ، أعبدتموهم لأن لهم شركة في خلق السموات ، أم خلقوا من الأرض شيئاً !
 ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ أى أم عندهم كتاب أنزلناه إليهم بالشركة . وكان في هذا ردٌّ على من عبد
 غير الله عز وجل ؛ لأنهم لا يجدون في كتاب من الكتب أن الله عز وجل أمر أن يُعبد غيره .
 ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم « على بَيِّنَةٍ »
 بالتوحيد ، وجمع الباقون . والمعنيان متقاربان إلا أن قراءة الجمع أولى ؛ لأنه لا يخلو من
 قرأه « على بَيِّنَةٍ » من أن يكون خالف السواد الأعظم ، أو يكون جاء به على لغيره من قال :
 جاءنى طاحت ، فوقف بالتاء ، وهذه لغة شاذة قليلة ؛ قاله النحاس . وقال أبو حاتم
 وأبو عبيد : الجمع أولى لموافقته الخط ، لأنها في مصحف عثمان « بينات » بالالف والتاء .
 ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أى أباطيل تفتر ، وهو قول السادة للسفلة :
 إن هذه الآلهة تنفعكم وتقربكم . وقيل : إن الشيطان يعد المشركين ذلك . وقيل : وعدهم
 بأنهم ينصرون عليهم .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ لما بين أن آلهتهم
 لا تقدر على خلق شيء من السموات والأرض بين أن خالقهما وممسكهما هو الله ، فلا يوجد
 حادث إلا بإيجاده ، ولا يبقى إلا ببقائه . و « أن » في موضع نصب بمعنى كراهة أن تزولا ،
 أو لنلا تزولا ، أو يحمل على المعنى ؛ لأن المعنى أن الله يمنع السموات والأرض أن تزولا ،
 فلا حاجة على هذا إلى إضمار ، وهذا قول الزجاج . ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ
 بَعْدِهِ﴾ قال الفراء : أى ولو زالتا ما أمسكهما من أحد . و « إن » بمعنى ما . قال : وهو
 مثل قوله : « وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ »^(١) . وقيل : المراد زوالهما

(١) راجع ص ٤٠ من هذا الجزء .

يوم القيامة . وعن إبراهيم قال : دخل رجل من أصحاب ابن مسعود إلى كعب الأحبار يتعلم منه العلم ، فلما رجع قال له ابن مسعود : ما الذي أصبت من كعب ؟ قال سمعت كعباً يقول : إن السماء تدور على قُطْبٍ مثل قطب الرّحى ، في عمود على منكب مَلَك ؛ فقال له عبد الله : وددتُ أنك انقلبت براحتك ورحلها ، كذب كعب ، ما ترك يهوديته ! إن الله تعالى يقول : « إن الله يُمسك السموات والأرض أن تزولا » إن السموات لا تدور ، ولو كانت تدور لكانت قد زالت . وعن ابن عباس نحوه ، وأنه قال لرجل مقبل من الشام : من لقيت به ؟ قال كعباً . قال : وما سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : إن السموات على منكب مَلَك . قال : كذب كعب ، أما ترك يهوديته بعد ! إن الله تعالى يقول : « إن الله يُمسك السموات والأرض أن تزولا » والسموات سبع والأرضون سبع ، ولكن لما ذكرهما أجمعهما مجرى شيئين ، فعادت الحكاية إليهما ، وهو كقوله تعالى : « أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففَتَقْنَاهُمَا^(١) » ثم ختم الآية بقوله : « إنه كان حليماً غفوراً » لأن المعنى فيما ذكره بعض أهل التأويل : أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا من كفر الكافرين ، وقولهم اتخذ الله ولداً . قال الكلبي : لما قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، كادت السموات والأرض أن تزولا عن أمكنتهما ، فسمعهما الله ، وأنزل هذه الآية فيه ؛ وهو كقوله تعالى : « لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِذَا . تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ^(٢) » الآية .

قوله تعالى : وَأَقْسُمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً ﴿٤٢﴾

أَسْتَجَابَرَا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، فلعنوا من كذب نبيهم منهم ، وأقسموا بالله جل اسمه ﴿ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ أى نبي ﴿ لَيَكُونَنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ يعنى ممن كذب الرسل من أهل الكتاب . وكانت العرب تمنى أن يكون منهم رسول كما كانت الرسل من بنى إسرائيل ، فلما جاءهم ما تمنّوه وهو النذير من أنفسهم ، نفروا عنه ولم يؤمنوا به . ﴿ اسْتَكْبَرُوا ﴾ أى عتّوا عن الإيمان ﴿ وَمَكَرَ السَّيِّئُ ﴾ أى مكر العمل السيئ وهو الكفر وخدع الضعفاء ، وصدهم عن الإيمان ليكثر أتباعهم . وأنت « من إحدى الأمم » لتأنيث أمة ؛ قاله الأخفش . وقرأ حمزة والأخفش « ومكر السيئ ولا يحيق المسكر السيئ » لحذف الإعراب من الأول وأثبتته فى الثانى . قال الزجاج : وهو لحن ؛ وإنما صار لحنًا لأنه حذف الإعراب منه . وزعم المبرد أنه لا يجوز فى كلام ولا فى شعر ؛ لأن حركات الإعراب لا يجوز حذفها ، لأنها دخلت للفرق بين المعانى . وقد أعظم بعض النحويين أن يكون الأعمش على جلالته ومحله يقرأ بهذا ، قال : إنما كان يقف عليه ، فغاط من أدنى عنه ، قال : والدليل على هذا أنه تمام الكلام ، وأن الثانى لما لم يكن تمام الكلام أعرب باتفاق ، والحركة فى الثانى أثقل منها فى الأول لأنها ضمة بين كمرتين . وقد احتج بعض النحويين لحمزة فى هذا بقول سيبويه ، وأنه أنشد هو وغيره :

* إذا أعوججن قلتُ صاحبُ قومٍ^(١) *

وقال الآخر :

فاليوم أشرب غير مُستَحِقِّ * إيمانٍ من الله ولا واهلٍ^(٢)

(١) تسماه : * بالدر أمثال السفين العوم *

الدر : الصحراء . وأمثال السفين : راحل محملة تقطع الصحراء . قطع السفين البحر .

(٢) البيت لامرئ القيس . والمستحقب : المكتسب للإثم الحامل له . والراغل : الداخل على القوم يشربون

ولم يدع . قال هذا حين قتل أبوه ونذر ألا يشرب الخمر حتى يثأر به ، فلما أخذ ثأره حلت له بزعمه فلا يأثم فى شربها إذ قد وفى بنذره فيها .

وهذا لا حجة فيه؛ لأن سيبويه لم يحزه، وإنما حكاه عن بعض النحويين، والحديث إذا قيل فيه عن بعض العلماء لم يكن فيه حجة، فكيف وإنما جاء به على وجه الشذوذ ولضرورة الشعر وقد خولف فيه . وزعم الزجاج أن أبا العباس أنشده :

* إذا أعوججن قلت صاح قوم *

وأنه أنشد :

* فالיום أشرب غير مستحقب *

بوصل الألف على الأمر؛ ذكر جميعه النحاس . الزمخشري : وقرا حمزة « ومكر السيئ » بسكون الهمزة، وذلك لاستثقاله الحركات، ولعله اختلس فظن سكونا، أو وقف وقفـة خفيفة ثم ابتدا « ولا يحيق » . وقرا ابن مسعود « ومكرا سيئا » . وقال المهدوي : ومن سكن الهمزة من قوله : « ومكر السيئ » فهو على تقدير الوقف عليه، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف، أو على أنه أسكن الهمزة لتوالي الكسرات والياءات، كما قال :

* فاليوم أشرب غير مستحقب *

قال القشيري : وقرا حمزة « ومكر السيئ » بسكون الهمزة، وخطاه أقوام . وقال قوم : لعله وقف عليه لأنه تمام الكلام، فغلط الراوي وروى ذلك عنه في الإدراج، وقد سبق الكلام في أمثال هذا، وقلنا : ما ثبت بالا ستفاضة أو التواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأه فلا بد من جوازه ، ولا يجوز أن يقال : إنه لحن ، ولعل مراد من صار إلى التخطئة أن غيره أفصح منه ، وإن كان هو فصيحاً . (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) أي لا ينزل عاقبة الشرك إلا بمن أشرك . وقيل : هذا إشارة إلى قتلهم ببدر . وقال الشاعر :

وقد دفعوا المنية فاستغاثت * ذراعاً بعد ما كانت تحيق

أي تنزل ، وهذا قول قُطْرُب . وقال الكلبي : « يَحِيقُ » بمعنى يُحِيط . والحق الإحاطة، يقال : حاق به كذا أي أحاط به . وعن ابن عباس أن كعباً قال له : إني أجد في التوراة « من حفر لأخيه حُفْرَةً وقع فيها » ؟ فقال ابن عباس : فلاني أوجدك في القرآن ذلك . قال : وأين ؟ قال : فاقرا « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » . وفي أمثال العرب « من حفر لأخيه

جُبًّا وَقَعَ فِيهِ مُنَجَّبًا» وروى الزهري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تَمَسُّكَ وَلَا تُعِنِّ مَا كَرَّ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرَ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » ، وَلَا تَبْغِ وَلَا تُعِنِّ بَاغِيًّا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : « فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ » وَقَالَ تَعَالَى : « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » » وقال بعض الحكماء :

يَا أَيُّهَا الظَّالِمُ فِي فِعْلِهِ * وَالظُّلْمُ مُرْدُودٌ عَلَى مَنْ ظَلَمَ
إِلَى مَتَى أَنْتَ وَحَتَّى مَتَى * تُحْصِي الْمَصَائِبَ وَتَنْسَى النِّعَمَ

وفي الحديث « المكرو والخديعة في النار » . فقلوه : « في النار » يعني في الآخرة تدخل أصحابها في النار ؛ لأنها من أخلاق الكفار لا من أخلاق المؤمنين الأخيار ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في سياق هذا الحديث : « وليس من أخلاق المؤمن المكرو والخديعة والخيانة » . وفي هذا أبلغ تحذير عن التخلق بهذه الأخلاق الذميمة ، والحزج عن أخلاق الإيمان الكريمة .

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي إنما ينتظرون العذاب الذي نزل بالكفار الأولين . ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أي أجرى الله العذاب على الكفار ، ويجعل ذلك سنة فيهم ، فهو يعذب بمناله من استحققه ، لا يقدر أحد أن يبدل ذلك ، ولا أن يحول العذاب عن نفسه إلى غيره . والسنة الطريقة ، والجمع سنن . وقد مضى في « آل عمران » وأضافها إلى الله عز وجل . وقال في موضع آخر : ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ ^(٢) فأضاف إلى القوم لتعلق الأمر بالجانبيين ، وهو كالأجل ، تارة يضاف إلى الله ، وتارة إلى القوم ؛ قال الله تعالى : « فإن أجل الله لآت » ^(٣) وقال : « فإذا جاء أجلهم » .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

(١) راجع ج ٤ ص ٢١٦ . (٢) راجع ج ١٠ ص ٣٠٢ . (٣) راجع ج ١٣ ص ٢٢٦ .

بين السنة التي ذكرها ؛ أى أو لم يروا ما أنزلنا بعد ونمود ، وبمدين وأمثالهم لما كذبوا الرسل ، فتدبروا ذلك بنظرهم إلى مساكنهم ودورهم ، وبما سمعوا على التواتر بما حل بهم ، أفليس فيه عبرة وبيان لهم ؛ ليسوا خيراً من أولئك ولا أقوى ، بل كان أولئك أقوى ؛ دليله قوله : ﴿ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى إذا أراد أنزال عذاب بقوم لم يعجزه ذلك . ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا ﴾ .

قوله تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا ﴾ يعنى من الذنوب . ﴿ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ قال ابن مسعود : يريد جميع الحيوان مما دب ودرج . قال قتادة : وقد فعل ذلك زمن نوح عليه السلام . وقال الكلبي : ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ يريد الجن والإنس دون غيرها ؛ لأنها مَكَلَّمَانِ بالعقل . وقال ابن جرير والأخفش والحسين بن الفضل : أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم .

قلت : والأول أظهر ؛ لأنه عن صحابي كبير . قال ابن مسعود : كاد الجمل أن يُعذب في بحره بذنوب ابن آدم . وقال يحيى بن أبي كثير : أمر رجل بالمعرف ونهى عن المنكر ، فقال له رجل : عليك بنفسك ؛ فإن الظالم لا يضر إلا نفسه . فقال أبو هريرة : كذبت ؟ والله الذى لا إله إلا هو — ثم قال — والذى نفسى بيده إن الحُبَارَى لَتَمُوتُ هُزْلًا فى وَكْرَهَا بظلم الظالم . وقال الثمالى ويحيى بن سلام فى هذه الآية : يحبس الله المطر فى ملك كل شىء . وقد مضى فى « البقرة » نحو هذا عن عكرمة ومجاهد فى تفسير « وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ » ^(١) هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجُذْب بذنوب علماء السوء الكاتمين فى لعنوتهم . وقد كرنا هناك حديث البراء

ابن هازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « وَيَا مَعْشَرَ الْإِنسَانِ » قال :
 « دَوَابُّ الْأَرْضِ » . (وَلَكِنْ يُؤْتَرَهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) قال مقاتل : الأجل المسمى هو
 ما وعدهم في اللوح المحفوظ . وقال يحيى : هو يوم القيامة . (فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ) أى بمن
 يستحق العقاب منهم (بَصِيرًا) . ولا يجوز أن يكون العامل فى « إذا » « بَصِيرًا » كما
 لا يجوز : اليوم إن زيدا خارج . ولكن العامل فيها « جاء » لشبهها بحروف المجازاة ، والأسماء
 التى يجازى بها يعمل فيها ما بعدها . وسبويه لا يرى المجازاة بـ « إذا » إلا فى الشعر ، كما قال :
 إِذَا قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وَصْلُهَا * خُطَانَا إِلَى أَمْدَانِنَا فَنَضَارِبُ^(١)

ختمت سورة « فاطر » والحمد لله

(١) البيت لقيس بن الخطيم الأنصارى راجع ج ١ ص ٢٠١ طبعة ثانية أو ثالثة .



تم بعون الله تعالى الجزء الرابع عشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الخامس عشر، وأوله :

« سورة يس »



من الأصول التى راجعنا عليها هذا الجزء والذى قبله نسخة خطية فى مكتبة حضرة

الأستاذ أحمد خيرى نجل المرحوم خيرى باشا ، تفضل حضرته فأعارنا إياها .

وقد كان لهذه النسخة فضل كبير فى تيسير السبيل أمامنا ، فجزاه الله خير الجزاء ما

حققه

أحمد عبد العليم

البردوني

جهدى الأول سنة ١٣٨٤ هـ

سبتمبر سنة ١٩٦٤ م

استدراك

تقدم في الجزء الثالث ص ٩٣ عند الكلام على قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم » :

إنما الأرحام أرضون لنا محترثات * فعلينا الزرع فيها وعلى الله النبات

وصواب إنشاده :

إنما الأرحام أر * ضون لنا محترثات

فعلينا الزرع فيها * وعلى الله النبات

محققة

أحمد عبد العليم البردوني



بمؤن الله وجميل توفيقه ، قد تم طبع الجزء الرابع عشر من " تفسير القرطبي "

بمطبعة دار الكتب في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٨٤ هـ (أغسطس سنة ١٩٦٤ م) ما

إحسان عثمان

مدير إدارة المطبعة والتصوير

محمد حمدي جنيدى

رئيس المطبعة

صفحة

- لرسول الله صلى الله عليه وسلم . الكلام على جواز إمامة المولى والمفضول على
غيرهما ما عدا الإمامة الكبرى . مكانة أسامة رضى الله عنه من الرسول صلى الله
عليه وسلم . بيان أذية المؤمنين والمؤمنات هى بالأفعال والأقوال القبيحة ... ٢٣٧
- تفسير قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ... » الآية . بيان زوجات
النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده . أمر الحرائر بالتستر وإرخاء الجلابيب عليهن
حتى لا يختلطن بالإماء . صورة إرخاء الجلابيب عليهن ... ٢٤١
- تفسير قوله تعالى : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ... » الآيات .
تهديد المنافقين والمرجفين على نشر أخبار السوء . بيان أن سنة الله فيمن
أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويقتل ... ٢٤٥
- تفسير قوله تعالى ~~لعن الله الكافرين~~ ... « الآيات ... » ٢٤٨
- تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى ... » الآيات .
تحذير المؤمنين من التعرض للإيذاء، ونهيهم عن التشبه ببنى إسرائيل من أذيتهم
نبيهم . بيان المجازاة عن القول السداد ... ٢٥٠
- تفسير قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض ... » الآية . أقوال
العلماء فى معنى الأمانة ... ٢٥٣

سورة سبأ

- تفسير قوله تعالى : « الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ... » الآيات ٢٥٩
- تفسير قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ... » الآيات . الرد على
منكرى الساعة . وعيد الذين سعوا فى إبطال النبوة . إنكار المشركين للبعث ... ٢٦٠
- تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا داود منا فضلا ... » الآية . اختلاف العلماء
فى الفضل الذى أعطاه الله لداود . فى الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع ... ٢٦٤

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « ولسليمان الريح غدوها شهر ... » الآيات . بيان ما أوتيته سليمان
من تسخير الريح والجن وإذابة النحاس له . أقوال العلماء فى التصوير . الكلام
على موت سليمان وما صنعه من إخفاء موته عن الجن ٢٦٨
- تفسير قوله تعالى : « لقد كان لسبا فى مسكنهم آية ... » الآيات . بيان نسب سبا
والآية التى كانت فى مساكنهم . الكلام على سدهم والسييل الذى أرسل عليهم ... ٢٨٢
- تفسير قوله تعالى : « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » الآية . بيان ما يحدث
فى الملا الأعلى إذا أراد الله أن يوحى بالأمر ٢٩٥
- تفسير قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السموات والأرض ... » الآيات ... ٢٩٨
- تفسير قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لن تؤمن بهذا القرآن ... » الآيات . القول
فى كفر المشركين بالقرآن وبالكتب والأنبياء ٣٠١
- تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا فى قرية من نذير ... » الآيات . بيان أن سعة الرزق
فى الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة . فضل النفقة فى طاعة الله تعالى ... ٣٠٤
- تفسير قوله تعالى : « ولو ترى إذ فرعوا فلا فوت ... » الآيات . ذكر أحوال
الكفار ونحروج السفينى بجيشه آخر الزمان وخسف الأرض بهم ٣١٤

سورة فاطر

- تفسير قوله تعالى : « الحمد لله فاطر السموات والأرض ... » الآيات . الكلام
على قوله « يزيد فى الخلق » ٣١٨
- تفسير قوله تعالى : « يا أيها الناس إن وعد الله حق ... » الآيات . بيان معنى
الفرور . القول فى عداوة الشيطان ابنى آدم ٣٢٢
- تفسير قوله تعالى : « من كان يريد العزة ... » الآية . بيان أن العزة لا تكون
إلا فى طاعة الله تعالى . القول فى الكلم الطيب والعمل الصالح ... ٣٢٨
- تفسير قوله تعالى : « والله خلقكم من تراب ... » الآية . بيان معنى الزيادة فى العمر
والنقصان منه وكيفية كتابته فى اللوح المحفوظ ٣٣٢

(ك)

من تفسير القرطبي

صفحة

- ٣٣٤ تفسير قوله تعالى : « وما يستوى البحران ... » الآيات . بيان معنى « القَطْمِير »
- تفسير قوله تعالى : « وما يستوى الأعْمى والبصير ... » الآيات . بيان أن هذا ضرب مثل للمؤمن والكافر، والعالم والجاهل . معنى قوله « ومن الجبال جدد » .
- ٣٣٩ بيان أن مخافة الله لا تكون إلا من العلماء العاملين
- تفسير قوله تعالى : إن الذين يتلون كتاب الله... » الآيات . القول في أن هذا خاص بالقراء العاملين العالمين... ..
- ٣٤٤ تفسير قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا ... » الآيات . الكلام على الظالم والمقتصد والسابق بالخيرات . بيان أن التقديم في الذكر لا يقتضي تشريفا
- ٣٤٥ تفسير قوله تعالى : « والذين كفروا لهم نار جهنم ... » الآيات . بيان أحوال أهل النار ومقاتلهم والرد عليهم
- ٣٥١ تفسير قوله تعالى : « وأمسحوا بالله جهد أيمانهم ... » الآيات . بيان ما كانت قريش تقول قبل بعث الرسول عليه السلام
- ٣٥٧ تفسير قوله تعالى : « واو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ... » الآية
- ٣٦١